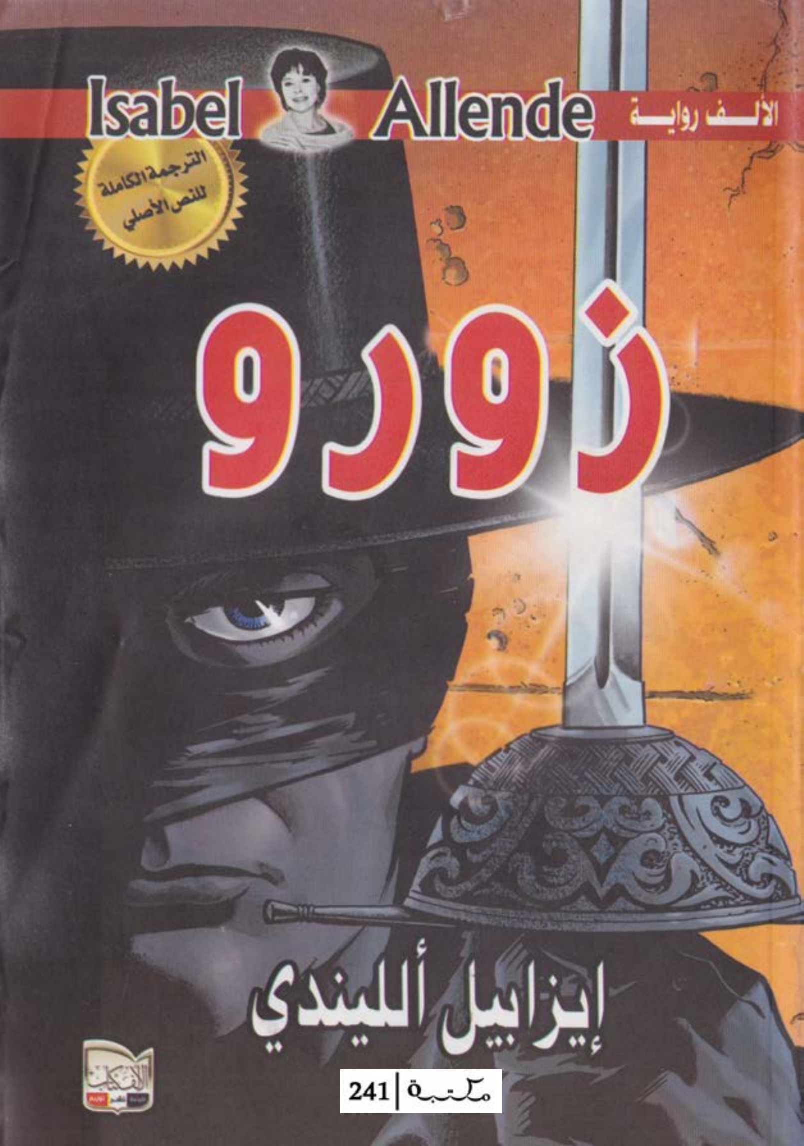
الألف رواية
Isabel Allende
الترجمة الكاملة للنص الأصلي
زورو
إيزابيل الليندي

مكتبة | 241

زورو

إيزابيل ألليندي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

The Book Zorro	الكتاب زورو
Author Isabel Allende	المؤلف إيزابيل ألليندي
General Manager Hesham Abdullah	المدير العام هشام عبد الله
General Supervision Ahmed Bahig	الإشراف العام أحمد بهيج

كنوز العالم لا تساوي كتاب.. ونحن الأكثر..

First Edition 2016 | الطبعة الأولى ٢٠١٦

إيزابيل الليندي

زورو

telegram @ktabpdf

للمزيد والجديد من الكتب والروايات
تابعوا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد

الألف كتاب
طباعة نشر توزيع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

القسم الأوّل

كاليفورنيا 1790 ـ 1810

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هذه هي قصّة دييغو دِ لابغا وكيف تحوّل إلى الثعلب (زورو) الأسطوري. أخيراً أستطيع أن أكشف عن هويّته، التي أبقينا عليها في السرّ سنوات كثيرة، وأقوم بهذا بشيء من التردّد، ذلك لأنّ صفحة بيضاء تخيفني مثلما تخيفني سيوفُ رجال مونكادا المجرّدة من أغمادها. بهذه الصفحات أحاول أن أستبق أولئك الذين يُصرّون على تشويه سمعة زورو. إنّ عدد منافسينا كبير، كما يحدث عادةً لمن يدافعون عن الضعفاء، ينقذون الدواحسَ ويهينون الأقوياء. طبعاً، كلّ مثاليّ يؤلّب عليه الأعداء، لكنّنا نُفضّل أن ننصف أصدقاءنا، الذين هم أكثر بكثير. عليّ أن أروي هذه المغامرات، لأنّه لا يفيد كثيراً أنْ يُغامر دييغو بحياته من أجل العدالة إن لم يسمع به أحد. البطولة عمل يُساء جزاؤه وكثيراً ما يقود إلى نهاية مبكّرة، لذلك يشدّ إليه شخصيات متعصّبة أو مفتونة بالموت. قليلون هم الأبطالُ، أصحاب القلوب الرومانسية والدم الخفيف، لنقل دون لفٍّ ولا دوران: إنّه لا يوجد أحد مثل الثعلب (زورو).

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لنبدأ من البداية، من حدث لولاه ما كان وُلِد دييغو دِ لابِغا. حدث في كاليفورنيا العليا، في بعثة سان غابرييل، عامَ 1790 من عهدنا، عهد الربّ. كان يدير البعثة في تلك الأيام الأب مِندوثا، وهو فرانسيسكاني، له ظهر حطّاب، مظهره أكثر شباباً من سنواته الأربعين التي عاشها جيداً، قويّ ومتسلط. كان أسهل شيءٍ في مهمته أن يُقلّد تواضعَ ودماثةَ سان فرانسيسكو دِ أزيز. في كاليفورنيا كان هناك عدد آخر من رجال الدين في ثلاث وعشرين بعثة، مكلَّفين بنشر عقيدة المسيح بين عدّة آلاف من وَثَنِيِّي قبيلَتَي شوماش وشوشون وغيرهما، الذين لم يكونوا يقبلون بها عن طيبِ خاطر. كان سكّانُ ساحل كاليفورنيا الأصليين يملكون شبكةَ للمقايضة والتجارة قامت بوظيفتها على امتداد آلاف السنين. كانت بيئتهم غنيّةً جداً بالموارد الطبيعية والقبائل تُمارِسُ مختلفَ الاختصاصات. دُهِش الإسبان من الاقتصاد الشوماشي، المُعقَّد إلى حدّ أنّهم كانوا يقارنونه باقتصاد الصين. كان الهنود الحمر يستعملون الأصداف عملةً وينظمون المعارض بانتظام، حيث كانوا يتفقون على الزيجات إضافة إلى تبادل السلع.

كان الرجلُ المُعذّب على الصليب، الذي يعبده البيضُ، يُحيِّرُ الهنودَ ولا يفهمون ميِّزة أن يتعذّب الإنسانُ في هذا العالم كي يتمتع برغدٍ افتراضيّ في عالم آخر. ففي الفردوس المسيحي يستطيعون أن يقيموا على سحابة ليعزفوا على الجُنْك مع الملائكة، لكنّ معظمهم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يُفَضّل في الحقيقة بعد الموت أن يصطاد الدببةَ مع أسلافه في أراضي الروحِ الأعظم. كما لم يكونوا يفهمون لماذا كان الأجانب يغرزون عَلَماً في الأرض ويرسمون خطوطاً متخيَّلةً ويعلنونها ملكية لهم وينزعجون إذا ما دخلها أحدٌ يُلاحِقُ وعلاً. كانت فكرة امتلاك الأرض تبدو لهم بعيدة عن التصديق مثل تقاسم البحر. عندما تلقّى القسُّ مِندوثا خبراً مفاده أنّ عدداً من القبائل قد ثار يقوده محارب له رأس ذئب، صلى لأجل الضحايا، لكنّه لم ينشغل أكثر من اللازم، لأنّه كان واثقاً من أنّ سان غابرييل في مأمن. فالانتماء إلى بعثته كان امتيازاً، هكذا كانت تبرهن العائلات المحلية التي كانت تُهرع لتطلب حمايته مقابل التعميد وتبقى طوعاً تحت سقفه. يبدو أنّه لم يستخدم العسكر قط كي يجمع معتَنِقين جدداً. وعزا التمرّدَ حديثاً، الأوّل الذي يحدث في كاليفورنيا العليا، إلى تمادي الجنود الإسبان وصرامة أخوته المبشرين. القبائل الموزّعة على مجموعات صغيرة كانت لها عادات مختلفة وتتواصل فيما بينها بواسطة نظام إشارات: لم تتفق قط على شيء، إلا على التجارة، وبالتأكيد لم تتفق قط على الحرب. وكان هؤلاء الناس المساكين حسب قوله خراف الرب البريئة، يأثمون عن جهلٍ وليس عن فساد. لا بدّ من وجود أسباب قاطعة حتى ينتفضوا ضدّ المستعمِرين.

كان المبشّر يعملُ بلا كللٍ، جنباً إلى جَنْب مع الهنود في الحقول ودبغ الجلود وطحن الذرة. وفي المساء حين يخلدُ البقية إلى الراحة، كان هو يشفي جراح الحوادث البسيطة أو يقلع ضرساً منخوراً. كما كان يعطي دروساً في أصول الدين والحساب، كي يستطيع حديثو الإيمان كما كانوا يُسمون المعتنقين الجدد، إحصاءَ الجلود والشموع والأبقار لكن ليس قراءةً وكتابةً، فهذه المعرفة لم تُطبّق عملياً في ذلك المكان. في أثناء الليل كان يصنع خمراً، يُسوّي حسابات، يكتب في دفاتره ويُصلّي. وعند الفجر يقرع ناقوس الكنيسة داعياً للمجيء إلى قدّاسه وبعد القيام بهذه المهمة يتفقّد طعام الإفطار بعينين يقظتين كيلا يبقى أحد دون طعام. ولكلّ

ماسبقَ، وليس لفرط في الثقة بنفسه أو لنزوةٍ، كان مقتنعاً بأن القبائل التي كانت على حافة الحرب لن تُهاجم بعثته. لكن بما أنَّ الأخبار السيّئة تابعت تدفقها أسبوعاً بعد آخر انتهى به الأمر إلى الاهتمام بها. أرسل رجلين من الثقاة تماماً للتحقّق مما كان يحدث في بقيّة المنطقة، ولم يتأخّر هذان في تحديد موقع الهنود المحاربين والحصول على التفاصيل، لأنَّ العناصر نفسها التي ذهبا للتجسّس عليها استقبلتهما كصديقين. عادا ليحكيا للمبشِّر أنَّ بطلاً ممسوساً بروح ذئب طلع من عمق الغابة وتمكّن من جمع عدّة قبائل لطرد الإسبان من أرض أجدادهم، التي طالما اصطادوا فيها دون إذن من أحد. لم يكن الهنود يملكون استراتيجيةً واضحة، ويقتصرون على الهجوم على البعثات والقرى بدافعِ اللحظة، يُضرمون النار في كلّ ما يجدونه في طريقهم وينسحبون فوراً بالسرعة التي وصلوا بها. يجمعون حديثي الإيمان الذين لم يُلينهم بعد بفعل ذلّ خدمةِ البيض الطويل. وهكذا راحت تزداد صفوفهم. وأضاف رجُلا الأب مِندوثا أن الزعيمَ، الذئبَ الرماديَّ، وضع نصب عينيه سان غابرييل، ليس لضغينة على المُبشِّر، لا أحد يمكن أن يلصقها به، بل لأنّها جاءت في طريقه. ونظراً لذلك اضطرّ القسُّ لاتخاذ بعض الإجراءات. لم يكن مستعدّاً لأن يخسر ثمارَ جهدِ سنوات فكيف أن يسحبوا منه هنوده، الذين إذا ما أصبحوا بعيدين عن وصايته سيسقطون في الخطيئة وسيعودون ليعيشوا وحوشاً. كتب رسالةً إلى النقيب ألِخاندرو دِ لابِغا يطلب منه فيها نجدة سريعة. قال إنّه يخاف الأسوأ، لأنَّ المتمرّدين كانوا على مقربة كبيرة ومستعدين للهجوم في أيّة لحظة، وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، دون دعم عسكريٍّ مناسب. أرسل رسالتين مماثلتين إلى حصن سان دييغو بوساطة فاريسين متمرّسَيْن، استخدما طريقين مختلفين حتى إذا وقع واحد منهما تمكّن الآخر من الوصول إلى غايته.

بعد أيّام وصل النقيب ألِخاندرو إلى البعثة خبباً. نزل بقفزة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

واحدة في الفناء، خلعَ سترته العسكرية الثقيلة والمنديل والقبّعة وغطّسَ رأسه في الحوض الذي كانت تشطفُ فيه النساء الملابس. كان الحصان يسبح في عرق مُرغٍ، لأنّه حمل الفارس مع عدَّته من سلاح فرسان الجيش الإسباني عدَّةَ فراسِخ: رمح، وسيف ودرع من جلد مزدوج وبارودة، إضافة إلى السرج. جاء دِ لابِغا يُرافقه رجلان وعدد من الأحصنة تنقل المؤن. خرج القسُّ مِندوثا لاستقباله بذراعين مفتوحين، لكنّه لم يستطع أن يُخفي خيبته، حين رأى أنّه لايُرافقه غير جنديين رثّي الثياب ومنهكين مثل الجياد.

- آسف، أيّها القسُّ، فليس لديّ غير هذين الرجلين الشجاعين. بقيّة الفصيلة بقيت في قرية. لا رُيْنا دِ لوس أنجلوس، المُهدَّدة بدورها بالتمرّد - احتجّ النقيب وهو يجفّف وجهه بكمِّ قميصه.

- أعاننا الله، ما دامت إسبانيا لا تفعل ذلك - ردّ الراهب متمتماً.

- هل تعرف عدد الهنود الذين سيُهاجِمون؟

- قليلون جدّاً هم الذين يعرفون العدَّ بدقّةٍ هنا، أيّها النقيب، لكن حسبما ما تأكّد منه رجالي يمكن أن يصل إلى خمسمئة.

- هذا يعني أنّهم لن يتجاوزوا المئة والخمسين، أيّها الأبُ. نستطيع أن نحمي أنفسنا. على من نعتمد؟ - استفسر ألِخاندرو دِ لابِغا.

- عليّ، فقد كنتُ جنديّاً قبل أن أصبح راهباً، وعلى مبشِّرَيْنِ آخرَيْن، شابّين وشجاعين. عندنا ثلاثة جنود معيّنين للبعثة، يعيشون هنا. أيضاً عندنا عدد من البنادق والقربينات، وذخيرة وحسامَين والبارود الذي نستخدمه في مقلع الحجارة.

- وكم من المعتنقين الجدد؟

- لنكن، يا بُنَي، واقعيين: في غالبيتهم لن يقاتلوا ناساً من قومهم - وضّح المُبشِّر - عندي كحد أقصى ستّة شبّان تربوا هنا وبضع نساءٍ يستطعن أن يُساعدننا في دكّ الأسلحة. لا أستطيع أن

أُغامِر بحياة معتنقيَّ الجدد، إنّهم كالأطفال، أيّها النقيب. أرعاهم كما لو كانوا أولادي.

ـ حسناً، أيّها القسّ، إلى العمل، باسم الرّب. كما أرى، الكنيسةُ هي البناء الأكثر قوّة في البعثة. فيها سوف ندافع عن أنفسنا ـ قال النقيب.

في الأيّام التالية لم يرتح أحد في سان غابرييل، حتى أصغر الأطفال سنّاً شُغِلوا. لم يكن باستطاعةِ القسّ مِندوثا، العارف الجيّد بالنفس البشرية، أن يثقَ بأولئك المعتنقين الجدد إذا ما رأوا أنفسهم محاصرين بهنود أحرار. لاحظ مذعوراً بريقاً في عيون بعضهم وفتوراً في تنفيذ أوامره، يتركون الحجارة تسقط، وأكياس الرمل تنفزر ويحتبلون بالأمراس والدلاء تنقلب. اخترق، مدفوعاً بالظروف، قوانين الرأفة التي وضعها بنفسه، وحكم دون أن تأخذه رحمة على زوجٍ من الهنود بالقيد بالأصفاد، وعلى ثالث بعشر سياط ليكونوا عبرة لغيرهم. ثمّ أمر أن يُعزّزوا بألواح الخشب السميك باب غرفة نوم النساء العازبات، المبنية كسجن كيلا تخرج أكثرهنّ فطنة للتجوال في ضوء القمر مع عشّاقِهنّ. كان بناء مستديراً من اللبن السميك، بلا نوافذ مع ميّزة إضافية هي أنّه يمكن أن يوصَد من الخارج بعارضة حديديّةٍ وقفلٍ. هناك حبسوا غالبية المعتنقين الجدد من الذكور، مقيّدين من أرساغهم منعاً لتعاونهم مع العدوّ حين تحين ساعة المعركة.

ـ الهنود يخافوننا، أيّها القسّ مِندوثا، لأنّهم يعتقدون أنّنا نملك سحراً جبّاراً ـ قال النقيب دِ لابِغا رابتاً بكفه على أخمص قربينته.

ـ يعرف هؤلاء الناس الأسلحة النارية أكثر من اللازم، حتى ولو لم يكتشفوا بعد عملها. ما يخافه الهنود حقيقةً هو صليب المسيح ـ ردّ المُبشّر مشيراً إلى المذبح.

ـ إذن هيّا بنا نبرهن لهم عن قوّة الصليب والبارود ـ ابتسم النقيب وشرع يشرح خطّتَهُ.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانوا في الكنيسة، حيث أقاموا في الداخلِ أمامَ الباب حواجزَ من أكياس الرمل، وجهَّزوا في أماكن استراتيجية نقاطاً للأسلحة النارية. وما داموا، حسب رأيِ النقيب دِ لابِغا، يستطيعون الإبقاء على المهاجمين على مسافة تسمحُ لهم بأن يُعبِّئوا بنادقهم وقربيناتهم، فإنّ كفّة الميزان ستميل لصالحهم، لكن الضررَ سيكون كبيراً إذا ما التحموا، لأن الهنود يفوقونهم عدداً وضراوة.

أُعجب الأبُ مِندوثا بنباهة الرجل. كان دِ لابِغا يقارب الثلاثين من عمره وكان جنديّاً محنكاً، صقلته حروب إيطاليا، التي عاد منها موشوماً بندب يفتخر بها. كان الابن الثالث لعائلة نبيلة يمكن أن يمتدّ نسبه حتى إلى السيد القبيطور. قاتل أسلافُهُ المسلمينَ تحت رايات إيزابيل وفِرناندو الكاثوليكية، لكن لم تبق لهم من كلّ تلك الشجاعة المتغنى بها والدم المراق من أجل إسبانيا من ثروة غير الشرف. وعند موت الأب ورث الابنُ البكر بيتَ العائلة، وهو بيت مئوي مقحم في قطعة أرضٍ قاحلة من قشتالة. الابن الثاني طالبت به الكنيسة وكان من نصيبه هو أن يصبح جندياً. لم يكن هناك من مستقبل آخر لفتى من دمه. تلقى ثمناً لشجاعته التي برهن عنها في إيطاليا، كيساً صغيراً من الدوبلونات الذهبية وترخيصاً بالذهاب إلى العالم الجديد، ليحسُن مستقبله. وهكذا انتهى به الأمر إلى كاليفورنيا العليا التي وصلها مرافقاً لدونيا إيولاليا دِ كالّيس، زوجة الحاكم بِدرو فاخِس، المُلقّب بالدب نظراً لسوء مزاجه وعدد الدببة التي صادها بيده.

كان الأب مِندوثا قد استمع إلى الإشاعات عن الرحلة الملحمية لإيولاليا، السيّدة التي كانت مثلَ زوجها ناريّةَ المزاجِ. تأخّرت قافلتها ستّة أشهر في قطع المسافة بين مدينة المكسيك، حيث كانت تعيش مثل أميرة، ومونترِّي، الحصن العسكريّ الموحِش، حيث كان ينتظرها زوجها. كانت تتقدّمُ بخطوات سلحفاة، تجرجر قطاراً من عربات الثيران وصفّاً من البغال لا ينتهي يحمل الأمتعة، ثمّ إنّها

كانت تُنظّم في كلّ مكان تُخيّم فيه حفلَ أنسٍ يدوم عادةً عدّةَ أيّام. كانوا يقولون إنّها غريبة الأطوار، تغسل جسدها بحليب الحمير وتصبغ شعرها الذي كان يصل إلى كعبيها بأصبغة نبيلات البندقية الحمراء الضاربة للحمرة، وأنّها كانت تتخلّص من ملابسها الحريرية والبروكار لتستر الهنود العراة الذين تجدهم في طريقها إسرافاً وليس ورعاً مسيحيّاً، ويُضيفون إنّها وللطامّة الكبرى تعلّقت بالنقيب الوسيم ألخِاندرو دِ لابِغا. في جميع الأحوال من أنا، الفرانسيسكاني المسكين، كي أحكمَ على هذه السيّدة. ختم القسُّ مِندوثا، وهو يراقب شزراً دِ لابِغا ويتساءل بفضول، رغماً عنه، على كم من الصحّة كانت تنطوي الشائعات.

كان المُبشِّرون يشتكون في رسائلهم إلى مدير البعثات التبشيرية في المكسيك، من أنّ الهنودَ كانوا يُفضّلون أن يعيشوا عراة وفي أكواخ القشّ مسلحين بالقوس والسهم بلا تربية ولا حكومة ولا دين ولا خوف من السلطات غارقين تماماً في إشباع شهواتهم المخجلة، كما لو أنّ ماء التعميد العجيب لم يغسل خطاياهم قط. لا شكّ أنّ حرص الهنود على التمسّك بعاداتهم عملٌ من عمل الشيطان، لم يكن هناك تفسير آخر؛ ولذلك كانوا يخرجون لصيد المارقين بالأربطة ويجلدونهم على الفور كي يُعلّموهم عقيدة حبِّهم ومغفرتهم. ومع ذلك فقد مرّ القسُّ مِندوثا بمرحلة شباب خليعة قبل أن يصبح راهباً، ولم تكن غريبةً عليه فكرةُ إشباع الشهوات المخجلة، فهو للسبب ذاته كان يتعاطف مع السكان الأصليين. ثمّ إنّه كان يشعر بإعجابٍ خفيّ بأفكار منافسيه التقدميّين، اليسوعيين. لم يكن مثل رجال دين آخرين، ولا حتى مثل غالبية أخوانه الفرانسيسكانيين، الذين كانوا يعملون من الجهل فضيلةً. قبل سنوات حين كان يُحضّر نفسه لتولّي بعثة سان غابرييل، قرأ باهتمام بالغ تقريرَ المدعو جان ـ فرانسوا دو لا بّروس، الرحالة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الذي اكتشف المعتنقين الجدد في كاليفورنيا، ككائنات حزينة، بلا شخصية ولا روح، الذين كانوا يُذكّرونه بالمعذبين العبيدِ الزنوج في مزارع الكاريبي. وكانت السلطات الإسبانية تعزو أراءَ لا بّروس إلى الحالة المؤسفة وهي أنّ الرجل كان فرنسياً، لكنّها أثّرت في القسّ مِندوثاً عميقاً. فهو في أعماق نفسه يكاد يثقُ بالعلم ثقته بالله، ولذلك قرَّر أن يحوّل البعثة إلى نموذج للازدهار والعدالة. كما قرّر أن يكسب المريدين بالإقناع بدل السوط وأن يحتجزهم بالأعمال الحسنة بدل السياط. ونجح في ذلك بطريقة مدهشة. وفي ظلّ إدارته تحسّنت حياةُ الهنود إلى حدّ أنّه لو مرّ لا بّروس من هناك لدُهِش. كان باستطاعة القسّ مِندوثا أن يتباهى - وإن لم يفعل ذلك قط - بأنّ عدد المُعمَّدين في سان غابرييل قد تضاعف ثلاث مرّات، وما من أحد منهم هرب لزمن طويل، فالهاربون القليلون كانوا يعودون دائماً تائبين. كانوا يعودون، رغم العمل القاسي والتشدد الجنسي، لأنّه كان يُعاملهم برحمة، ولأنّهم لم يتمتّعوا قبلها قط بثلاث وجبات يومية وسقف قوي يأوون إليه في أثناءِ العواصف.

كانت البعثة تشدّ إليها الرحالةَ من أمريكا وإسبانيا، يأتون إلى تلك البلاد البعيدة كي يتعلّموا سرَّ نجاح القسِّ مِندوثا. فيُعجبون تماماً بحقول الحبوب والخضار والكروم التي تُنتِج النبيذ، وبنظام الريّ المستلهَم من الأقنية الرومانية، والإسطبلات والحظائر والقطعان التي ترعى في تلالٍ على مدّ البصر، والأقبية المليئة حتى السقف بالجلود المدبوغة وقراب الدهن. أعجبوا بجوّ السلام الذي سادَ تلك الأيام وبوداعة المعتنقين الجدد، الذين راحوا يكسبون بسلالهم الناعمة ومنتجاتهم الجلدية شهرةً فيما وراء الحدود. «بطن ملآن، قلب هانئ» ذلك كان شعار القسّ مِندوثا، الذي كان يعيش مهووساً بالتغذية منذ أن سمع بأنّ البحّارة يموتون أحياناً بداء الحفر، بينما باستطاعةِ ليمونةٍ واحدة أن تقي من هذا المرض. شفاء

الروح أسهلُ حين يكون الجسم سليماً، هكذا كان يُفكِّر، لذلك فإنّ أوّل ما فعله حين وصل إلى البعثة كان أن استبدل طبيخَ الذرة(*)، أساس الوجبات عندهم، بيخنةِ اللحم وبالخضار والزبدة للمجّة. وكان يمدّ الأطفالَ بالحليب، الذي لا يحصل عليه إلا بجهد جهيد، لأنّ الحصول على كلّ دلوٍ من هذا السائل الزَبِدْ كان يحتاج إلى معركةٍ مع البقرات الشرسة. وكلّ بقرة تحتاج إلى ثلاثة رجال أشدّاءَ لحلبها، وكثيراً ما كانت البقرة هي التي تنتصر. كان مِندوثا يحارب تقزّز الأطفال من الحليب بالطريقة ذاتها التي يصارع فيها مرّة في الشهر لتخليصهم من الديدان المعوية: يربطهم، يشدّ على أنوفهم ويدخل قمعاً في أفواههم. وكان لا بدّ لهذه العزيمة أن تعطي نتائجها. وبفضل القمع راح الأطفال ينمون أقوياءَ، مُعتدلي المزاج. كان سكان سان غابرييل خالين من الديدان، والوحيدة الخالية من أوبئة الإنتانات، التي كانت تحصد بقيّة المستعمرات، على الرغم من أنّ زكاماً أو إسهالاً عاديّاً كان يرسل المعتنقين الجدد إلى العالم الآخر مباشرة.

مكتبة الرمحي أحمد

هاجم الهنود ظهرَ يوم الأربعاء. اقتربوا بحذر، لكنّ الانطباع الأوّل الذي خرج به المحاربون المتحمّسون عندما غزوا أراضي البعثة وكانوا بانتظارهم هو أنّ المكانَ مقفر؛ لم يستقبلهم إلا كلبان هزيلان ودجاجة شاردة في الفناء. لم يجدوا نفساً واحدة في أيّ مكان، لم يسمعوا أصواتاً، ولم يروا دخاناً في مواقد الأكواخ. كان بعض الهنود يرتدون الجلودَ ويمتطون الجياد، لكنّهم كانوا في غالبيتهم مشاة وعراة مسلحين بالأقواس والسهام والهراوات والرماح. يخبّ أمامهم الزعيم الغامض المطلي بالخطوط الحمراء والسوداء والمرتدي دثاراً قصيراً من جلد الذئب ومزداناً برأس

(*) Mazamorra: تُطلق على عدّة أنواع من الطعام، حسب كلّ منطقة في أمريكا. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كامل للحيوان ذاته على شكل قبّعة. لا يكاد يُرى وجهُهُ الذي يُطلّ من بين فكّي الذئب والملفوف بشعر طويل داكن.

طاف المهاجمون في البعثة خلال دقائق قليلة، أشعلوا النيران في أكواخ القشّ وكسّروا خوابي الطين، والبراميل والأدوات والمناسِج وكلّ ما وقع في أيديهم دون أن يلاقوا أدنى مقاوَمة. منعتهم صيحات حربهم الحامية وسرعتهم الرهيبة من سماع نداءات المعتنقين الجدد، المحبوسين تحت القفل والمفتاح في عنبر النساء. توجّهوا متشجّعين إلى الكنيسة وأمطروها بوابل من السهام، لكنّها تحطّمت عبثاً على جدران اللبن. وبناء على أمر من الزعيم الذئب(*) الرمادي انقضوا بلا نظام ولا اتساق على الأبواب الخشبية، التي ارتجّت تحت الضربة لكنّها لم تسقط. راح صياح وصخب المجموعة يزداد مع كلّ محاولة منها للإطاحة بالباب، بينما بعض المحاربين الأكثر رياضية وفطنة راحوا يبحثون عن طريقة لتسلّق الكوّات والبرج.

صار التوتّر داخل الكنيسة أكبر مع كلّ دفعة يتلقاها البابُ. كان المدافعون ـ أربعة مبشّرين وخمسة جنود وثمانية معتنقين جدد ـ متوضّعين على جوانب صحن الكنيسة، تحميهم أكياس الرمل وخلفهم فتيات مكلفات بتلقيم الأسلحة، درّبهنَّ دِ لابِفا على ذلك بأفضل ما استطاع، لكنه لم يكن بالمستطاع انتظار أشياء كثيرة من فتاة مذعورة لم تر قط بندقية. كانت المهمّة تكمن في سلسلة من الحركات يقوم بها أيّ جنديّ دون أن يُفكّر، لكن النقيب قضى ساعات في شرحها لهن. ما إن يُصبح السلاحُ جاهزاً حتى تُسلِّمه الفتاةُ إلى الرجلِ المُكلَّف بإطلاق النار، وتبدأ من جديد بتحضير سلاحٍ آخرَ. عند تفعيل الزناد كانت الشرارة تشعل بارود المخزن الذي ينفجر في السبطانة. كان البارود الرطب، وحجر القدح المتآكل

(*) آثرنا ترجمة الاسم كما هو الحال في اسم زورو «الثعلب»، نظراً لما للاسم (اللقب) من دلالة مهمّة في النص لا يمكن التقاطها دون معرفة معنى الاسم. م.

والنيران المحاصرة يُسبب عدداً من الأخطاء في الرماية كما كان من المعتاد نسيان سحب مدكّ السبطانة قبل الرماية.

«لا تخوروا، هكذا هي الحرب دائماً، محض دويّ واضطراب. وإذا ما استعصى سلاح على السلاح الثاني أن يكون جاهزاً ليتابع القتل»، تلك كانت تعليمات ألخِاندرو دِ لابِغا.

في غرفةٍ خلف المذبح كانت بقية نساء البعثة وجميع أطفالها، الذين أقسم الأبُ مِندوثا بأن يحميهم بحياته. كان المدافعون عن المكان وأصابعهم على الزناد ونصف وجوههم محميّ بمنديل مُبَلّل بالماء والخلّ، ينتظرون صامتين أوامرَ النقيب الوحيد الذي لم يكن يهتزّ أمام صياح الهنود ودويّ أجسادهم على الباب. كان دِ لابِغا يحسبُ مدى مقاومة الخشب بدمٍ بارد. كان نجاحُ خطّته يتعلّق بحسن التصرّف في اللحظةِ المناسبة وبالتنسيق التام. لم يملك فرصة القتال منذ حملة إيطاليا، قبل سنوات عديدة، لكنّه كان متألِقاً وهادئاً، وعلامة التوجُسِ الوحيدة البادية عليه هي الحكّة التي كان يشعر بها دائماً في يديه عند إطلاق النار.

بعد برهة أُنْهِك الهنودُ من دفع الباب وتراجعوا ليستعيدوا قواهم ويتلقوا التعليمات من زعيمهم. صمتٌ متوعِّد حلّ محلّ الهرج والمرج السابقين. تلك هي اللحظة التي اختارها دِ لابِغا كي يُعطي الإشارة. راح ناقوس الكنيسة يدقّ بضراوة بينما أربعة معتنِقين جدد يُشعِلون خرقاً مُبَلَّلةً بالقطران، محدثة دخاناً كثيفاً وخانقاً. اثنان آخران رفعا درباس الباب الثقيل. أعاد قرعُ الناقوس للهنودِ قوّتهم فتجمّعوا للهجوم من جديد. انفتح الباب هذه المرّة من أول لمسة وسقطوا فوق بعضهم بعضاً في أكبر ارتباك، مرتطمين بحاجز من أكياس الرمل والحجارة. دخلوا معميين بنور الخارج، واجدين أنفسهم في عتمة ودخان الداخل. عشر بنادق أطلقت النار من الجوانب في آنٍ واحدٍ، جارحةً عدداً من الهنود الذين سقطوا صائحين. أشعل النقيبُ الفتيل وعلى الفور وصلت النار إلى أكياس

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

البارود المختلط بالشحم والقذائف التي وضعوها أمام الحاجز. هزّ الانفجار أسس الكنيسة وتناثرت شظايا المعدن والحجر على الهنود واقتُلعَ الصليبَ الخشبيّ الذي كان فوق المذبح. شعر المدافعون بالضربة الساخنة، التي قذفت بهم إلى الخلف، وبالدوي الهائل الذي أصمّهم، لكنّهم تمكّنوا من رؤية أجساد الهنود مقذوفة مثل دمى في سحابة حمراء. وتمكّنوا محميين خلف المتاريس من استعادة وعيهم وتلقيم أسلحتهم وإطلاق النار للمرّة الثانية قبل أن تطير السهام الأولى في الهواء. جثم عدد من الهنود على الأرض بينما راح من مايزال منتصباً على قدميه يسعل وعيناه تدمعان بفعل الدخان. لم يكن باستطاعتهم أن يصوّبوا بأقواسهم، لكنهم بالمقابل صاروا هدفاً سهلاً للرصاص.

استطاعوا ثلاثَ مرَّاتٍ تلقيم البنادق قبل أن يتمكّن الزعيمُ الذئبُ الرماديُّ يتبعه محاربوه البواسل من تسلّق المتاريس وغزو صحن الكنيسة، حيث استقبله الإسبان. ولم يرفع النقيب دِ لابِغا نظره قطّ عن الزعيم الهنديّ في معمعة المعركة وما إن تخلّص من الأعداء المحيطين به، حتى قفز فوقه وواجهه بزمجرة حيوان ضارٍ وسيفه في يده. وانقضّ به عليه بكلّ قوّته لكنّه جاء في الفراغ لأنّ غريزة الزعيم الذئب الرماديّ حدّثته بالخطر قبل ثانيةٍ فتمكّن من أن يتنحّى بجسده ويرتمي جانباً. أفقدت الاندفاعة القويّة المستخدمة في الطعنة النقيبَ توازنه فاندفع إلى الأمام وتعثّر وسقط على ركبتيه، وارتطم السيف بالأرض وانكسر نصفين. فرفع الهنديّ رمحه صارخاً صرخة انتصار كي يخترق الإسباني من طرف إلى طرف، لكنّه لم يتمكّن من إكمال حركته لأن ضربة بعقب البندقية على نقرته هوت به على وجهه وتركته بلا حراك.

ـ غفر الله لي ـ صاح القسُّ مِندوثا وهو يلوح ببندقية قديمة من سبطانتها ويوزّع الضربات يمنة ويسرة بمتعة وحشية.

وسرعان ما انتشرت حول الزعيمِ بركة داكنة، وصار رأس

الذئب الشموخ أحمرَ أمام دهشة النقيب دِ لابِغا، الذي كان قد عدّ نفسه ميتاً. توّج القسُّ مِندوثا بهجته غير اللائقة برفسٍ قوي على جسدِ المرميِّ الهامِد. فقد كفاه شمّ رائحة البارود حتى عاد ليصبحَ الجنديّ الدمويّ الذي كان في شبابه.

دبّ الصوت خلال دقائق بين الهنود بأنّ زعيمهم قد سقط فشرعوا يتراجعون متردّدين في البداية ثم راكضين ضائعين في البعيد. انتظر المنتصرون وهم يتصبّبون عرقاً ويكادون يختنقون حتى يترسّب الغبار الناتج عن انسحاب العدوّ كي يخرجوا ليستنشقوا الهواء النقيّ. وانضمّ إلى قرع جرس الكنيسة المجنون رشقة رصاص في الهواء وهتافات التحية التي لا تنتهي لمن أنقذوا حياتهم تغطّي على أنين الجرحى وبكاء النساء والأطفال الهستيري، الذين كانوا ما يزالون محبوسين خلف المذبح غارقين في الدخان.

شمّر القسُّ مِندوثا دثاره المبلّل بالدم وراح يعيد لبعثته طبيعتها، دون أن ينتبه إلى أنّه فقد إحدى أُذنيه وإلى أنّ الدم لم يكن دم خصومه، بل دمه. أحصى خسائره الدنيا ورفع إلى السماء صلاةً مضاعفةً ليشكر الله على النصر ويطلب الغفران لأنّه غفل عن الرحمة المسيحية في وطيس المعركة. اثنان من جنوده أُصيبا بجراحٍ خفيفة، واخترق أحد أبناء بعثته سهم. الميتة الوحيدة التي كان عليه أن يحزن لها هي ميتة إحدى الفتيات اللواتي كنّ يُلقّمن الأسلحة، هنديّة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، بقيت مرميّة على ظهرها وقد سحقت ضربةُ هراوة رأسَها وعلا عينيها الواسعتين الداكنتين الذهول. وبينما كان القسُّ مِندوثا ينظّم أتباعه كي يُطفئوا النيران ويعتنوا بالجرحى ويواروا القتلى التراب، كان النقيب دِ لابِغا وسيف غريب في يده يجوب صحن الكنيسة يبحث عن جثّةِ الزعيم الهنديّ وهو يُفكّر بأن يشكّ رأسه في رمحٍ وينصبه في مدخل البعثة كي يُثبط عزيمة كلّ من تُراوِده فكرة أن يتبع مَثَلَه. عثر عليه حيث

سقط لا يكاد يكون أكثر من كومة محزنة غارقة في دمها. بشدّةٍ من يده نزع قناع رأس الذئب عنه ودحرج الجسد برفسةٍ من قدمه، كان أصغر بكثير مما بدا له حين كان يرفع رمحه. النقيب الذي كان مايزال يشتاط غضباً ويلهث من جهده في المعركة، أخذ الزعيم من شعره الطويل ورفع سيفه كي يقطع رأسه بضربةٍ واحدة، لكنّه وقبل أن يهوي بذراعه عليه فتح الساقط عينيه ونظر إليه نظرة فضول غير متوقّعة.

ـ يا قدّيسة يا مريم العذراء، إنّه حي! ـ صاح دِ لابِغا متراجِعاً خطوةً إلى الوراء.

لم يُدهِشه أنّ عدوّه كان ما يزال يتنفّس بقدر ما أدهشه جمال عينيه المتطاولتين العسليتين، كثيفتي الأهداب، عيني الغزال الصافيتين في الوجه المغطّى بالدم وطلاء الحرب. ترك دِ لابِغا السيف، نزل على ركبتيه ومرّر يده تحت نقرته ناهضاً به بحذر. عينا الغزال أُغمِضتا وأفلتت من فمه أنّة طويلة. ألقى النقيب حوله نظرة وأدرك أنّهما وحيدين في تلك الزاوية من الكنيسة، القريبة جدّاً من المذبح. مستجيباً لدافع عنده رفع الجريحَ بنيّة أن يضعه على ظهره، لكنّه كان أخفّ مما هو متوقّع بكثير. حمله بذراعه كما لو كان طفلاً. راح يتفادى أكياس الرمل والحجارة وجثث القتلى، التي لم يكن قد سحبها المُبَشِّرون بعد وخرج إلى نور ذلك اليوم الخريفيّ، الذي سيتذكّره بقيّةَ حياته.

ـ إنَّه حيّ، يا أبانا ـ أعلن وهو يضع الجريح على الأرض.

ـ ساعة شؤم، يا نقيب، فالأمر سيّان، علينا أن نعدمه ـ أجاب القسُ مِندوثا، الذي وضع حول رأسه قميصاً مخطّطاً مثل عمامة، كي يوقِف نزيف دم أذنه المقطوعة.

لم يستطع ألخِاندرو دِ لابِغا أن يُفسّر قط لماذا ذهب بحثاً عن ماء وخرقٍ ليغسل عدوّه بدل أن يستغل اللحظةَ ليقطع رأسه. فصل

الشعر الأسودَ تُساعده إحدى المعتنقات الجديدات وشطف الجرح الطويل، الذي عاد عند ملامسته للماء لينزف بعمق. تحسّس الجمجمة بأصابعه متحقّقاً من وجود جرح مُلتَهِب، لكنّ العظم كان على حاله سليماً، في الحرب شاهد أشياء أسوأ. أخذ إحدى المسلات المعقوفة المستخدمة في خياطة الفرش وأعراف الخيل، التي راح القسُّ مِندوثا يُبلّلها بالتكيلا ليخيط جراح المصابين، وخاط الجلد المُشعر، بعدها غسل وجهَ الزعيم متبيّناً بياض البشرة والتقاسيم الناعمة. مزّق بِخِنجره دثار جلدِ الذئب المبلل بالدم كي يرى ما إذا كانت هناك جراح أخرى وعندئذٍ أفلتت من صدره صيحة.

- إنّها امرأة! - هتف مذعوراً.

هرع الأب مِندوثا والبقيّةُ بسرعة وراحوا يتأملون مذهولين ثديي المحارِب العذريّين.

- صار قتله الآن أصعب بكثير... - تنهّد أخيراً الأبُ مِندوثا.

كان اسمها توييورنيا وعمرها لا يكاد يتجاوز العشرين عاماً. كانت قد تمكّنت من جعل عدّة قبائل تتبعها لأنّ أسطورة خرافية سبقتها. كانت أمّها بومة بيضاء، شامان وطبيبة شعبية في قبيلة هنود غابرييلية، وأبوها بحّار هارب في سفينة إسبانية، إلى أن جرفه التهاب رئويّ حين بلغت ابنته سنّ البلوغ. تعلّمت توييورنيا من أبيها أسسَ اللغة القشتالية ومن أمّها استخدامَ النباتات الطبيّة وتقاليد شعبها. تجلّى قدرها الرائع بعد أشهر قليلة من ولادتها، في المساء الذي تركتها فيه أمّها تنام تحت شجرة، بينما هي تسبح في النهر واقترب ذئب من الصرّة الملفوفة بالجلود وحملها بين فكّيه يجرجرها نحو الغابة. تبعت البومة البيضاء يائسة أثر الحيوان أيّاماً عدّة، دون أن تعثر على ابنتها. خلال بقية ذلك الصيف ابيضّ شعرُ الأمِّ والقبيلةُ بحثت عن الطفلة بلا كللٍ إلى أن تلاشى آخر أملٍ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالعثور عليها، وعندئذٍ أقاموا الطقوس كي يهدوا روحَها إلى السهوب الفسيحة للروح العظيمة. رفضت البومة البيضاء المشاركة في الجنازة وبقيت تترصّد الأفقَ لأنّها كانت تشعر في عظامها أنّ ابنتها حيّة. وذات فجر، مع بداية الشتاء شاهدوا مخلوقاً ينبثق من الضبابِ هزيلاً، قذراً وعارياً يتقدّم حابياً وأنفه ملتصق بالأرض. تلك كانت الطفلة الضائعة، التي جاءت مزمجرةً مثل كلبٍ تفوح منها رائحة حيوان ضارٍ. سمّوها تويبورنيا، الذي كان يعني في لغة قبيلتها ابنة الذئب وربّوها كما يربون الذكور على القوس والرمح، لأنّها عادت من الغابةِ بقلب جموح.

علم ألِخاندرو بكلّ هذا في الأيام التالية من فم الهنود السجناء، الذين كانوا يندبون جراحهم وذلّهم محبوسين في عنابر البعثة. كان القسُّ مِندوثا قد قرّر إطلاق سراحهم مع استعادتهم لعافيتهم، ذلك لأنّه لم يكن باستطاعته إعالتهم كأسرى زمناً غير محدّد، وكانوا دون زعيمهم كأنّهم عادوا إلى اللامبالاة والوداعة السابقتين. لم يبغِ جلدَهم، كما كان واثقاً من أنّهم يستحقّون ذلك، لأنّ العقوبة لا تأتي إلا بالضغينة، كما لم يُحاول تحويلهم إلى معتقدِه، لأنّه رأى أنه ما من أحدٍ منهم له معدن مسيحيّ، وسيصبحون مثل تفاحات فاسدة تصيب بعدواها نقاء قطيعه. لم يفت المبشّر أنّ للفتاة تويبورنيا سحراً خاصّاً على النقيب دِ لابِغا، الذي كان يبحث عن ذرائع كي يذهب في كلّ لحظةٍ إلى الكهف تحت الأرض، الذي يُعتّق فيه النبيذُ ووضعوا فيه الأسيرة. سببان جعلا المُبشّر يختار الديماس زنزانة: يمكن أن يبقى مغلقاً بالقفل والمفتاح، والظلمة التي قد تمنح تويبورنيا فرصة للتفكير باعمالها. وبما أنّ الهنود كانوا يؤكّدون أن زعيمتهم كانت تتحوّل إلى ذئبٍ ويمكن أن تهرب من أيِّ مكان فقد اتخذ الحذر الإضافيّ بتثبيتها بالسيور الجلديّة فوق الألواح الخشنة التي تستخدمها سريراً. صارعت عدّةَ أيّام بين اللاوعي والكوابيس، مبلّلةٍ بعرقِ حُمّاها، غذاؤها ملاعق الحليب والنبيذ والعسل من يدِ النقيب دِ لابِغا. وكانت تعود إلى وعيها في الظلمات المطلقة فتخاف

أن تكون قد أُصيبت بالعمى، لكنّها كانت تفتح عينيها أحياناً على نور القنديل المرتعش وترى وجهَ مجهولٍ يناديها باسمها.

بعد أسبوعٍ راحت تويبورنيا تخطو خطواتها الأولى السرّية مستندةً إلى النقيب الرشيق، الذي قرّر تجاهل أوامر الأب مِندوثا بالإبقاء عليها مربوطة وفي الظلمة. كان أصبح باستطاعة الشابين وقتذاك أن يتواصلا، لأنّها كانت تتذكّر القشتالية المتقطّعة التي علمّها إياها أبوها، ولأنّه جهد في تعلّم بعض الكلمات من لغتها. عندما باغتهما القسُّ مِندوثا ممسكاً الواحِدُ منهما بيد الآخر، قرّر أنّه آنَ الأوان كي تُعتبر السجينةُ معافاة وتُحاكَم. لم يكن هناك ما هو أبعد عن نيّته من أن يعدمٍ أحداً، كما أنّه لم يكن يعرف حتى كيف يفعل ذلك، لكنّه كان مسؤولاً عن أمن البعثة والمعتنِقات الجديدات؛ وهذه المرأةُ في جميع الأحوال تسبّبت بمقتل عدد من الأشخاص. ذكّر النقيبَ بحزن أن جرائم تمرّدٍ مثل تمرّد تويبورنيا يعاقب عليه بالموت البطيء بآلة الشنق الوحشية حيث يفقدُ المُعذّبُ نَفَسَه مع ازدياد ضغط الآلة الحديدية على عنقه.

ـ لسنا في إسبانيا ـ ردَّ النقيبُ مرتعشاً.

ـ أعتقد أنك تتفق معي، أيُها النقيب، أنّنا سنبقى جميعاً في خطرٍ ما دامت حيّةً، لأنّها ستعودُ لتأليبِ القبائل. لا للإعدام بالغاروت(*)، فهي وحشية أكثر من اللازم، لكن علينا، رغم أنّ هذا يؤلمني في روحي، أن نشنقها، لا خيار أمامنا.

ـ هذه المرأة خلاسية، يا أبانا، تحمل دماً إسبانياً. وعلى عاتقكَ أنتَ تقع المسؤولية القضائية تجاه الهنود، لكن ليس تجاهها. وحده حاكم كاليفورنيا العليا يستطيع أن يحكم عليها ـ ردّ النقيب.

القسُّ مِندوثا، الذي كانت فكرة أن يحمل على كاهله قتل كائن

(*) Garrote: جهاز تعذيب كان يُستخدَم في إسبانيا للإعدام، وهو عبارة عن حلقة توضع حول عنق المحكوم وتُشدّ بلولب حتى يموت المحكوم عليه. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بشريٍّ آخر بمثابة حمل ثقيل أكثر من اللازم، تمسّك على الفور بهذه الحجّة. عرض عليه دِ لابِغا أن يذهب بنفسه إلى مونتِرّي، كي يقرّر بِدرو فاخِس مصير تويبورنيا وقبل المُبشِّرُ الفكرة بأن تنفّس الصعداء عميقاً.

وصل ألِخاندرو دِ لابِغا إلى مونتِرّي في وقت أقصر مما يحتاجه فارِس في ظروفٍ عادية لقطع تلك المسافة، لأنّه ذهب مستعجلاً لتنفيذ مُهمّته، ولأنّه أراد أن يتفادى الهنود المتمرّدين. سافر وحيداً، متوقّفاً في البعثات المنتشرة على طول الطريق كي يبدّل الجواد وينام بضع ساعاتٍ. كان قد قطع هذا الطريق مرّاتٍ أخرى ويعرفه جيّداً، لكنّه كان دائماً يُعجب بتلك الطبيعة الخلاّبة من الغابات اللامتناهية، وآلاف الأنواع من الحيوانات والطيور، والجداول والمسايل العذبة ورمال شواطئ المحيط الهادي البيضاء. لم تقم مواجهات بينه وبين الهنود، لأنّ هؤلاء كانوا يهيمون في التلال بلا زعيم ولا وجهة محدّدة، منهاري المعنويات. إذا صدقت تنبّؤات القسّ مِندوثا فإنّ حماسهم قد اختفى تماماً ويحتاجون لسنواتٍ كي يعيدوا تنظيمَ أنفسِهم.

سجن مونتِرّي، المشادُ على لسان جبلي بحريٍّ معزولٍ على بعد سبعمئة فرسخٍ من مدينة المكسيك، يفصله نصف العالم عن مدريد. كان مبنى جنائزيّاً، مثل مطمورة، فظاعة من الحجارة والملاط، حيث تقيم فرقةٌ صغيرة من الجنود، سَرِيّة الحاكم وعائلته الوحيدة. كان يوم ضباب رطب يُضخِّمُ دويَّ الأمواج المرتطمة بالصخور وزعيقَ النوارس.

استقبل بِدرو فاخِس النقيبَ في قاعة تكاد تكون عارية، نوافذها لا تكاد تسمح بمرور النور، لكنّها تمرّر ريح البحر الصرصر. على الجدران رؤوس دببة محنّطة، سيوف محدّبة، مسدّسات وشعار سلاح دونيا إيولاليا دِ كاليّس، مطرّز بالذهب، لكنّه

تالف وحائل اللون. وعلى شكل أثاث كان هناك دزينة من الأرائك الخشبيّة غير المُنجّدة وخزانة هائلة ومنضدة عسكرية. كانت السقوفُ التي سوَّدتها الرطوبة وأرضيةُ التراب المرصوص من أكثر خصائص الثكنات خشونة. كان الحاكم، الشيخُ، بجسمه الضخم، وصوته الجبّار، يتمتَّع بفضيلة المناعة ضدّ التملّق والفساد، النادرة. كان يُمارس الحكم بيقين خفيّ بأن قدره اللعين هو أن يُخرِج كاليفورنيا العليا من البربرية بأيّ ثمن كان. كان يُقارن نفسَه بالفاتحين الإسبان الأوائل، بناس من أمثال هِرنان كورتِس، الذين فتحوا عوالم كثيرة لصالح الإمبراطورية. كان يقوم بواجبه بإحساس تاريخي، وإن كان في الحقيقة يُفضّل أن يتمتع بثروة زوجته في برشلونة، كما كانت تطلب منه بلا كللٍ. قدّمت لهما خادمة نبيذاً أحمرَ في كأسين من كؤوس زجاجِ بوهيميا، التي جاؤوا بها من بعيد في صناديقِ إيولاليا دِ كالّيس، وكانت تتناقض مع أثاث الثكنة الخشن. شرب الرجلان نخب الوطن البعيد والصداقة وتناولا بالتعليق الثورة الفرنسية، التي أثارت ثورة الشعب المسلّحة. وكان الحدث قد وقع قبل أكثر من سنة، لكنّ خبره وصل توّاً إلى مونتِرّي. كانا متفقين على أنّه ما من داعٍ للقلق، إذ لا شكّ أن النظام لا بدّ عاد ليستتب في ذلك البلد ولا بدّ أن الملك لويس السادس عشر قد عاد من جديد إلى عرشه، على الرغم من أنّهما كانا يعتبرانه رجلاً صغير النفس، غير جدير بالشفقة. في أعماقهما كانا سعيدين لأنّ الفرنسيين يقتل بعضهم بعضاً، لكنّ اللباقة تمنعهما من الجهر بذلك. من بعيد كانت تصل أصواتٌ وصيحات راح يزداد حجمها حتى أصبح من المحال تجاهلها.

- اعذرني، أيّها النقيب، إنّها مسالة نساء - قال بِدرو فاخِس بإيماءة قلق.

- هل هي بخير، صاحبة السعادة دونيا إيولاليا؟ - استفسر ألِخاندرو دِ لابِغا، وقد احمرّ حتى شعره.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

طعنه بِدرو فاخِس بنظرته الفولاذية، مُحاوِلاً أن يتكهَّن بنواياه. كان على اطلاع بشائعات الناس حول هذا النقيب الرشيق ونسائه، لم يكن أطرش. لم يفهم أحد وأقلّهم هو أنّ دونيا إيولاليا استغرقت في وصولها إلى مونتِرّي ستة أشهر، بينما يمكن قطع المسافة بأقلّ من ذلك بكثير؛ قالوا إنّ الرحلة طالت قصداً لأنّهما لم يبغيا أن ينفصلا. وأُضيف إلى هذه التخرّصات رواية هجوم قطاع الطرق المبالغ به والذي افترض فيه أنّ دِ لابِغا جازف بحياته كي يُنقِذ حياتَها. الحقيقة كانت شيئاً آخر، لكنَّ بِدرو فاخِس لم يعرفها قط. كان المهاجِمون ستّة من الهنود الهائجين بفعل الكحول وهربوا ما إن سمعوا الطلقات الأولى، أمّا بالنسبة للجرح الذي أُصيب به دِ لابِغا في ساقه فلم يكن دفاعاً عن دونيا إيولاليا دِ كالّيس، كما كان يُقال، بل بسبب نطحة بقرة. كان بِدرو فاخِس يعتبر نفسه حَكَماً جيّداً على الأشخاص، فليس عبثاً أنّه أمضى كلّ تلك السنوات في السلطة، فقرَّر، بعد أن تفحص ألِخاندرو دِ لابِغا، أنّه ليس هناك ما يستحق أن يستنفد نفسه بالشكّ فيه، فقد كان واثقاً من أنّه سلّمه زوجته بوفاء تام. كان يعرف زوجته بعمق، ولو أنّ هذين الاثنين تولّها الواحد بالآخر، لما كان هناك من قوّة بشرية ولا إلهية تُقنِع إيولاليا بترك عشيقها لتعود إلى زوجها. ربّما قامت بينهما ألفة أفلاطونيّة، لكن لا شيء مما يحرمني من النوم، خلص الحاكم. كان رجلاً شريفاً ويشعر بأنّه مدين لهذا الضابط، الذي كان أمامه ستّة أشهر كي يغوي إيولاليا ولم يفعل. كان يعزو إليه الفضيلة كاملةً، لأنّه كان يعتبر أنّه إذا كان المرء يستطيع فعلاً أن يثقَ بإخلاص الرجل، إلا أنّ عليه ألا يثقَ بإخلاص النساء، هذه الكائنات المتقلّبة بطبيعتها، وغير المؤهلة للإخلاص أبداً.

في هذه الأثناء كانت تحرّكاتُ الخادمات اللواتي يجرين في الممرات، وصفقُ الأبواب والصيحات المخنوقة مستمرة. كان ألِخاندرو دِ لابِغا يعرف، مثل الجميع، شجارات هذين الزوجين الملحمية، مثلها مثل مصالحاتهما. كان قد سمع أن الزوجين فاخِس

في مشاجراتهما يتقاذفان بالصحون على رأسيهما وأنّ السيّد بِدرو شهر سيفه عليها في أكثر من مناسبة، لكنّهما لا يلبثان أن يغلقا الباب على نفسيهما عدّة أيّام كي يمارسا الحبّ. ضرب الحاكم القوّي بقبضته على الطاولة جاعلاً الكؤوس تتراقص واعترف لضيفه بأنّ إيولاليا أغلقت، منذ خمسة أيّامٍ، غرفها على نفسها في نوبة غضب مريعة.

- تشتاق للرفاه الذي اعتادته - قال، في الوقت الذي هزّ عواء جنوني الجدران.

- ربّما هي تشعر بالوحدة، يا صاحب السعادة - دمدم دِ لابِغا، لمجرّد الكلام.

- وعدتها أنّنا سنعود خلال ثلاث سنوات إلى مكسيكو أو إسبانيا، لكنّها لا تريد أن تسمع حججاً. نفد صبري معها، أيُّها النقيب دِ لابِغا. سأرسلها إلى أقرب بعثة تبشيريّة، كي يُشغّلها المُبَشِّرون مع الهنديات، لأرى ما إذا كانت تتعلّم كيف تحترمني! - زمجر فاخِسْ.

- هل تسمح لي بأن أتكلّم بعض الكلمات مع السيّدة، يا صاحب السعادة؟ - طلب النقيب.

خلال هذه الأيّام الخمسة من الارتعاص رفضت زوجة الحاكم حتى أن تستقبل ابنها ابن السنوات الثلاث. كان الطفل التافه يقبع على الأرض باكياً ويبول رعباً حين يُهاجم أبوه الباب بضربات عصاه غير المجدية. لم يكن يعبر العتبة غير هندية تحمل لها الطعام وتخرج المبولة، لكن ما إن علمت إيولاليا بأنّ ألخِاندرو دِ لابِغا قد جاء زائراً ويريد رؤيتها حتى انقطعت نوبة الهستيريا خلال دقيقة. غسلت وجهها، سوّت جديلتها الحمراء وارتدت الحرير خبّازيّ اللون وتزينت بكلّ لآلئها. رآها بِدرو فاخِس تدخل في غاية الأبّهة كما في أحسن أيّامها فاستبشرَ بحنين بدفءِ مصالحة محتملة، على الرغم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من أنّه لم يكن مستعداً لأن يتسرّع أكثر من اللازم ويغفر لها، فالمرأة تستحق بعض العقاب. في تلك الليلة أثناء العشاء المكفهر في غرفة طعام كئيبة مثل قاعة السلاح رمى كلّ من إيولاليا دِ كالّيس وبِدرو فاخِس الواحد منهما الآخر في وجه الآخر بالتهم التي كانت تُسَمِّم روحيهما، متخذين الضيف شاهداً. لاذ ألِخاندرو دِ لابِغا في صمت مزعج حتى لحظة تناول التحلية، حين تكهّن بأن النبيذ قد أخذ مفعوله وغضب الزوجين بدأ يلين فطرح دافع زيارته. وضّح مسألة أنّ تويبورنيا تحمل دماً إسبانياً، وصف شجاعتها وذكاءها، غاضّاً الطرف عن جمالها ورجا الحاكم أن يكون رحيماً معها، وأن يقضي بعدل وحسب سمعته بالرأفة وباسم الصداقة المشتركة. لم يتركه بِدرو فاخِس يتوسّله لأنّ الاحمرار في نحر إيولاليا استطاع أن يُلهيه وقَبِل بتغيير الحكم بالموت إلى السجن عشرين سنة.

ـ في السجن ستتحوّلُ هذه المرأة إلى شهيدة في عيون الهنود. يكفي استحضار اسمها كي تقف القبائل من جديد على أهبة الحرب ـ قاطعته إيولاليا ـ يخطر لي حلٌ أفضل. يجب قبل كلّ شيء أن تُعَمَّد كما يأمر الله، بعدها تأتيني بها إلى هنا وأنا آخذ المشكلة على عاتقي. أراهن على أنّني سأكون قد حوّلت هذه التويبورنيا، ابنة الذئب، الهندية الباسلة، إلى سيّدة مسيحية وإسبانية. وهكذا سنقضي إلى الأبد على تأثيرها على الهنود.

ـ وبالمناسبة سيكون عندك ما تتسلين به ومن يرافقك ـ أضاف زوجها، عن رضا.

هكذا حدث. وفي الوقت ذاته كان من نصيب ألِخاندرو دِ لابِغا أن يذهب إلى سان غابرييل في طلب السجينة ويأتي بها إلى مونتِرِّي برضا القسّ مِندوثا، الذي كان يستعجلُ التخلّص منها. فقد كانت الشابّة بركاناً جاهزاً للانفجار في البعثة، حيث لم يكن المعتنقون الجدد قد خرجوا بعد من لغط الحرب. تلقّت تويبورنيا في العماد اسم رِخينا ماريّا دِ لاإنماكولادا كونثِبثيون، لكنّها نسيت على الفور

القسم الأعظمَ منه وأبقت على رِخينا فقط. ألبسها الأب مِندوثا لباس المعتنقين الجددِ، الصوفيّ الخشنَ، وعلّق في عنقها قلادة للعذراء وساعدها على امتطاء الجواد، لأنّها ذهبت مقيَّدة اليدين، وباركها. لم تكد تصبح بيوت البعثة الفطساء خلفهما حتى فكَّ دِ لابِغا يديّ الأسيرة ودعاها مبيّناً لها بحركة منه أن الأفق واسع كي تهرب. فكّرت رِخينا بالأمرِ دقائقَ، ولا بدّ أنّها خلصت إلى أنّهم إذا قبضوا عليها من جديد فلن تنال أيّ غفران، لأنّها رفضت برأسها. أو ربّما لم يكن الخوف وحده، بل الشعور المتأجّج ذاته الذي كان يخنق عقلَ الإسبانيّ. في جميع الأحوال تبعته دون أيّ علامة تمرّد خلال العبور الذي أخّره قدر استطاعته، لأنّه كان يُفكّر أنهما لن يلتقيا بعد ذلك. تمتّع ألخِاندرو دِ لابِغا بكلّ خطوةٍ من الطريق الملكيّ معها، وبكلّ ليلة ناما فيها في العراء تحت النجوم دون أن يتلامسا، وبكلّ مناسبة تبلّلا فيها معاً في البحر، بينما هو يخوض صراعاً ضارياً مع رغبته وخياله. كان يعرف أنّ نبيلاً من آل دِ لابِغا، رجلَ شرف ونسب لا يستطيع ولا يحلم بالارتباط بخلاسية. إذا كان يتوقّع أن تبرّد تلك الأيام مع رِخينا على الجواد حبّه، فقد خاب أمله، لأنهما حين وصلا إلى سجن مونتِرّي كان قد تحوّل إلى عاشقٍ شبيه بمراهق. اضطرّ لأن يستنجد بانضباطه، انضباط الجنديّ الطويل، كي يودّع المرأة ويُقسم من أعماقه أنّه لن يُحاوِل أن يتصل بها أبداً.

نفّذ بِدرو فاخِس وعده لزوجته بعد ثلاث سنوات وتخلّى عن منصبه حاكماً لكاليفورنيا العليا بهدف العودة إلى الحضارة. كان في أعماقه سعيداً بهذا الحلّ، لأنّ ممارسة السلطة بدت له دائماً كنودة. حمّل الزوجان صناديقهما على البغال والعربات التي تجرّها الثيران، وجمع رجال بلاطه الصغير وشرع بالمسير باتجاه المكسيك، حيث فرشت إيولاليا دِ كالّيس قصراً باروكياً بالأبّهة التي تليق بمكانتها. وكانا يتوقّفان لتلبية حاجاتهما في كلّ قرية

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وبعثة على الطريق كي يستعيدا قواهما ويسمحا للمستوطنين أن يحتفوا بهما. وعلى الرغم من مزاجهما السيّء كانا محبوبين، هو لأنّه حكم بعدل وهي لسمعتها بأنّها كريمة مجنونة. حشد أهل لا رِّيْنا دِ لوس أنجلوس(*) إمكانياتهم مع إمكانيات بعثة سان غابرييل القريبة، والأكثر ازدهاراً في المقاطعة، على مسافة أربعة فراسخ، كي يستقبلوا المسافرين استقبالاً لائقاً. القرية المؤسّسة على طراز المدن الاستعمارية الإسبانية، كانت مربّعاً فيه ساحة مركزية، أُحسِن تخطيطها من أجل التوسّع والازدهار، على الرغم من أنّه لم يكن فيها وقتذاك غير أربعة شوارع رئيسيّة وما يقارب المئة بيت من القصب. كما كان فيها حانة، كانت الدكان الخلفية فيها تستخدم مخزناً، وكنيسة وسجناً وستّة بيوت من الآجرّ والحجر والقرميد، تسكنها السلطات. وعلى الرغم من ندرة السكّان والفقر المُعمَّم، فقد كان المستوطِنون مشهورين بحسن ضيافتهم وبحفلاتهم الليلية التي تُقيمها العائلات طوال العام. كانت الليالي تُحيا بالقيثارات والأبواق والكمانات والبيانوات، ويرقصون الفاندانغو أيام السبت والأحد. شكّل وصول الحاكم وزوجته أفضل ذريعة للبلدة للاحتفال منذ تأسيسها. نصبوا أقواساً، ورفعوا رايات وأزهاراً ورقية حول الساحة، وضعوا طاولات طويلة عليها أغطية بيضاء وجُنِّدَ كلّ من كان قادراً على عزف آلة موسيقية للحفلة الراقصة بمن فيهم سجينان حرّروهم من قيودهما حين عرفوا أنّهما يستطيعان أن يعزفا على القيثار. استغرقت الإعدادات عدّة أشهرٍ ولم يتكلّموا خلالها عن شيءٍ آخر. فصّلت النساء فساتين سهرة والرجال لمّعوا أزرارهم وأبازيمهم الفضّية، وتدرّب الموسيقيون على رقصات وصلت من المكسيك وانهمكت النسوة في إعداد أكثر الولائم التي عرفتها المنطقة أبّهةً. وحضر القسّ مِندوثا مع المعتنقين الجدد مزوّداً بعدّة

(*) هكذا كان يُلفظ اسم لوس أنجلوس قبل أن يحتلها الأمريكان، وما زال يُلفظ كذلك بالنسبة للناطقين باللغة الإسبانية. م.

براميل من أفضل أنواع النبيذ وبقرتين وعدد من الخنازير والدجاج والبطّ الّتي نُبحت للمناسبة.

وكان من نصيب النقيب ألِخاندرو دِ لابِغا أن تكفّل بالنظام خلال وجود الحاكم وزوجته في القرية. ومنذ اللحظة التي علم فيها بمجيئهما عذّبته صورةُ رِخينا باستمرار. كان يتساءل ماذا حلّ بها خلال تلك القرون الثلاثة التي فصلت بينهما، كيف تخطّت سجن مونتِرّي المظلم، تراها تتذكره. كانت شكوكه قد شغلته ليلة الاحتفال، حين رأى على ضوء المشاعلِ ووقع الفرقة الموسيقية فتاة مذهِلة تصل بثياب وتسريحة الموضة الأوروبية وسرعان ما عرف تلكما العينين الملوّنتين بلون السكر المحروق. هي بدورها ميّزته من بين الحشود وتقدّمت منه دون تردّدٍ، وانتصبت أمامه بأكثر التعابير جدّيةً في العالم. أرادَ النقيب، وروحه توشك أن تتشظّى، أن يمدّ يدَه كي يدعوها للرقص، لكنّه وبدل ذلك سألها وهو يفور، عما إذا كانت تريد الزواج منه. لم يكن اندفاعاً جامحاً، فقد فكّر بالأمر على امتداد ثلاثِ سنوات، ووصل إلى نتيجة مفادها أنّه خير له أن يُلطّخ نسبه النقيّ من أن يعيش من دونها. كان يعي أنّه لن يستطيع أبداً أن يُقدّمها لأسرته أو إلى المجتمع في إسبانيا، لكن هذا لم يكن يهمّه، فهو لأجلها قادر على أن يغرس جذوره في كاليفورنيا وألاّ يتحرّك بعيداً أكثر من العالم الجديد. قبلته رِخينا لأنّها كانت قد أحبّته سرّاً منذ ذلك الزمن الذي أعادها فيه إلى الحياة، حين كانت تُحتَضَر في ديماس نبيذ القسّ مِندوثا.

وهكذا كان أن تُوّجَت زيارةُ الحاكم وزوجته في لا رِّيْنا دِ لوس أنجلوس بحفل زواج النقيب من السيّدة الغامِضة رفيقة إيولاليا دِ كاليّس. القسّ مِندوثا، الذي أطال شعره حتى كتفيه كي يُخفي نَدْبَةِ الأذن المقطوعة الرهيبة، ترأس الاحتفال على الرغم من أنّه حاول حتى اللحظة الأخيرة أن يُثني النقيب عن الزواج. لم يكن ما يزعجه أنّ الخطيبة خلاسية، فكثير من الإسبان كانوا يتزوّجون من هندياتٍ،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بل إنّ تحتَ مظهرِ الآنسة رِخينا الأوروبية تكمن تويبّورنيا، ابنة الذئب دون مسّ. بِدرو فاخِس نفسه سلّم الخطيبة في المذبح، لأنّه كان مقتنعاً بأنّها أنقذت زواجهما، ذلك لأنّ مزاج إيولاليا تشذّب في انهماكها بتربيتها، وكفّت عن تعذيبه بنوبات غضبها. وبما أنّه كان مديناً بحياة زوجته إلى ألخِاندرو دِ لابِغا، كما كانت تؤكّد التقوّلات، فقد رأى أنّ تلك مناسبةٌ جيّدة كي يبرهن عن سماحته. وبجرّة ريشة خصّص للزوجين الباهرين سندات ملكية قطعة من الأرض وعدّة آلاف من رؤوس الماشية، ذلك أنّه كان من صلاحياته توزيع الأراضي بين المستوطِنين. خطّ المحيط على خريطة متبعاً نبض القلم، وبعدها حين تحقّقوا من الحدود الواقعية لقطعة الأرض، تبيّنوا أنّها تضمّ فراسخ كثيرة من المراعي والتلال والغابات والأنهار والشواطئ. كان قطع العقار على جواد يحتاج إلى عدّة أيّام: كانت الأكبر والأفضل موقعاً في المنطقة. رأى ألخِاندرو دِ لابِغا نفسه دون أن يطلب ذلك وقد صار رجلاً ثريّاً. بعد أسابيع، حين بدأ الناسُ ينادونه بالسيّد ألخِاندرو، تخلّى عن جيش الملك ليتفرّغ بالكامل ليزدهر في تلك الأرض الجديدة. انتُخِبَ بعد عام عمدةً للا رّيْنا دِ لوس أنجلوس.

بنى دِ لابِغا مسكناً واسعاً وقوياً دون فخفخة، من الطوب وبسقوف من الآجر وأرضية من بلاط السجيل الخشن. زيّن داره بأثاث ثقيل، صنعه له في القرية نجّار جليقي، دون أيّ اعتبار للجمالية، بل للديمومة. كان الموقع ممتازاً قريباً من الشاطئ، على بعد أميال قليلة من لا رّيْنا دِ لوس أنجلوس، بعثة سان غابرييل. بيت الطوب الكبير على طريقة البيوت الريفية المكسيكية كان يقع فوق لسان جبلي وكان اتجاهه يطل على مشهد بانورامي للشاطئ والبحر. على مسافة صغيرة كانت مخازن القطران الطبيعية المشؤومة، التي لا أحد يقترب منها برضاه، فهناك كانت تتعذّب أرواح الموتى

العالقين في القطران. كان يوجد بين الشاطئ والمزرعة متاهة من الكهوف، هي المكان المقدّس بالنسبة للهنود وكانوا يخافونها خوفهم من برك القطران. ولم يكن الهنود يذهبون إلى هناك احتراماً لأسلافهم وكذلك الإسبان بسبب الانهيارات وسهولة الضياع في داخلها.

أنزل دِ لابِغا عدداً من العائلات الهندية ورعاة البقر الخلاسيين في أملاكه، وعلّم قطيعه وقرّر أن يُربّي الخيول الأصيلة من خلال نماذج جاء بها من المكسيك. وفي الوقت الفائض عنه أنشأ معملاً صغيراً للصابون وراح يقوم بالتجارب في المطبخ للعثور على الصيغة التامّة لتدخين اللحم المتبّل بالفلفل الحارّ. كان يتطلّع للحصول على لحم مُجفَّف، لكنه لذيذ، يدوم أشهراً دون أن يتفسّخ. كانت هذه التجاربُ تستهلك ساعاته وتملأ السماء بالدخان البركاني الذي كانت الريحُ تجرفه عدّة فراسخ داخل البحر، فتحدث تغييراً في سلوك الحيتان. وكان يعتبر أنّه إذا ما حصل على الموازنة بين الطعم والديمومة سيتمكّن من بيع منتَجِه للجيش والبواخِر. كان يرى أنّ نزع الجلود والشحوم من الحيوان تبديد كبير وإضاعة لجبال من اللحم الجيّد. وبينما كان زوجها يُضاعِفُ عدد أبقارٍ ومواشي وخيول المزرعة وإدارة سياسة القرية ويُتاجر مع البواخِر التجاريّة، كانت رِخينا تنهمك بالعناية بحاجات هنود المزرعة. لم تكن تهتمّ بالحياة الاجتماعية للمستوطنة وكانت تردّ بلامبالاة قياسية على التعليقات التي تدور حولها. كانوا ينمُّون عن مزاجها الفظّ والمزدري وأصولها المشكوك بها أكثر من اللازم، ومروقاتها على الجواد واستحماماتها عارية في البحر. وبما أنّها وصلت مع عائلة فاخِسْ فقد استعدّ مُجتمع القرية الصغير، التي اختُصِرَ اسمها الآن وأصبح قرية لوس أنجلوس، لاحتضانها دون أسئلة، لكنّها أقصت نفسها بنفسها. وسرعان ما انتهت ملابسها التي ازدانت بها تحت تأثير إيولاليا دِ كاليس، بأن التهمها العثّ في الخزائن. فقد كانت تشعر أنّها ترتاحُ أكثر دون حذاء وفي لباس المعتنقين الجدد

الخشن. هكذا كانت تقضي النهار، تغتسل حين تُقدّر أنّ ألِخاندرو على وشك العودة إلى المنزل وتُثبّت شعرها في كعكة مرتجلة وترتدي فستاناً بسيطاً يُضفي عليها مظهرَ البريئة لمُستجِدّة. زوجها، المجنون حبّاً بها والمشغول في تجاراته كان يُكذّب العلامات الواشية بحالة رِخينا المعنوية؛ كان يرغب بأن يراها سعيدةً ولم يسألها قط عمّا إذا كانت كذلك، خشية أن تُجيبَه بالحقيقة. وكان يعزو غرائبها إلى انعدام خبرة الزوجة الحديثة ومزاجها المُتكتِّم. كان يُفضِّل ألا يُفكِّرَ أنّ السيّدة حسنة الآداب التي تجلس معه إلى المائدة هي نفسها المحارب المزوّق بالألوان، الذي هاجم بعثة سان غابرييل قبل سنوات قليلة. اعتقد أنّ الأمومة سوف تُعافي زوجته من آخرِ عادات الماضي السيّئة، لكن وعلى الرغم من المداعبات الطويلة والمتكرّرة في سرير القوائم الأربعة الذي كانا يتقاسمانه، فإنّ الولد المنشود لم يأتِ حتى عام 1795.

أصبحت رِخينا خلال أشهر حملها أكثر صمتاً ووحشيّة. وبذريعة أن تكون مرتاحة ما عادت ترتدي أو تنتعل على الطريقة الأوروبية. صارت تستحمّ في البحر مع الدلافين، التي راحت تفد بالمئات على مقربة من الشاطئ، وكانت ترافقها معتنقةٌ جديدة ناعمة، اسمها آنا، أرسلها إليها القسُّ مِندوثا من البعثة. كانت الشابّة حاملاً بدورها، لكنها لا تملك زوجاً ورفضت بعناد أن تعترف بهويّة الرجل الذي أغواها. لم يكن المُبشِّر يريدُ هذا المثل السيِّئ بين الهنود، لكن وبما أنّه لم تُسعفه الصرامةُ بطردها من البعثة، انتهى به الأمر بأن سلّمها خادِمةً إلى العائلة دِ لابِغا. كانت فكرة حسنة لأنّه سرعان ما نشأ تواطؤٌ أخرس ملائم للاثنتين، فقد حصلت الأولى على رفقة والثانية على حماية. بادرت آنا إلى السباحة مع الدلافين، تلك الكائنات المقدّسة التي كانت تسبحُ في دوائر كي تحافظ على العالم آمناً ومنظّماً. كانت الحيوانات النبيلة تعرف أنّ المرأتين حاملتان وتمر بهما تلامسهما بأجسادها الضخمة المخملية كي تمنحهما القوّة والتشجيع لحظة الولادة.

في أيّار من ذلك العام ولدت آنا ورِخينا في الأسبوع ذاته الذي صادف أسبوع الحرائق الشهير ذاته، المدوّن في وقائع لوس أنجلوس على أنّه الأكثر كارثية منذ تأسيسها. وكان يجب في كلّ عامٍ الإذعان لرؤية بعض الغابات تحترق لأنّ شرارة أصابت المراعي الجافّة. لم يكن أمراً خطيراً، فبهذا الشكل كانت تزال أشواك أحراج وتُحدَث فضاءات للنتوشات البضّة في الربيع التالي، لكنّ الحرائق حدثت في ذلك العام مبكّرة في الفصل وكانت حسب القسّ مِندوثا عقاباً من الله لكثرة الآثام غير المتوب عنها في المستوطَنة. فقد أتت النيران على عدد من المزارع، مدمّرة في طريقها المنشآت الإنسانية وأحرقت القطيع، الذي لم يعثر على مكان يهرب إليه. تبدّلت الرياح يوم الأحد وتوقّفت النيران على بعد ربع فرسخ من أملاك دِ لابِغا، وهو ما فسّره الهنودُ على أنّه حسن طالعٍ للطفلين المولودين في المنزل.

ساعدت روح الدلافين في ولادةِ آنا، لكنّ ليس في ولادة رِخينا. فبينما أنجبت الأولى ولداً في أربع ساعاتٍ وهي مقرفصة على بطانية على الأرض ومعها هندية مراهقة في المطبخ شكّلت كامل المساعدة، قضت رِخينا خمسين ساعة في ولادة ابنها، العذاب الذي تحمّلته بصبرٍ، تكزّ على قطعةِ خشبٍ بين أسنانها. ألخاندرو دِ لابِغا، استدعى يائساً القابلة الوحيدة في لوس أنجلوس، لكنّ هذه استسلمت معلنة هزيمتها حين أدركت أن الطفل في بطن رِخينا كان بالعرض وما عادت تملك قوّة لمواصلة صراعها. عندئذٍ لجأ ألخاندرو إلى القسّ مِندوثا، وهو أكثر من كان في محيط المنطقة شبهاً بالطبيب. جعل المُبشّر الخدَمَ يُصلون ورشّ رِخينا بالماء المبارك واستعدّ على الفور لإخراج الطفل بيديه. وبمحض التصميم استطاع أن يصطاده من غير هدى من قدميه وراح يشدّه إلى النور دون الكثير من الاعتبارات، لكنّ الزمن كان ضاغطاً. خرج الطفل أزرق وحبل السرّة ملفوف على عنقه، لكن بالصلوات والصفعات تمكّن القسّ مِندوثا من إجباره على التنفُّس.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ـ ما الاسم الذي سنسميه به؟ ـ سأل حين وضعه بين يدي والده.

ـ ألِخاندرو، مثلي ومثل أبي وجدّي ـ أشار هذا.

ـ سيُدعى دييغو ـ قاطعته رِخينا، التي أضنتها الحمّى وخيط الدم المتواصل الذي كان يبلل الملاحف.

ـ ولماذا دييغو؟ ما من أحد يحمل هذا الاسم في عائلة دِ لابِغا.

ـ لأنّ هذا هو اسمه ـ ردّت.

كان ألِخاندرو قد تعذّب معها عذاباً طويلاً وكان أكثر ما يخافه في العالم هو فقدانها. رأى أنّها تنزف ونقصته الهمّة كي يُكذّبها. وخلص إلى إنّه إذا كانت قد اختارت في فراش احتضارها هذا الاسم لابنها البكر، فلا بدّ أنّ لها دوافعها الحسنة، وبذلك فوَّض القسّ مِندوثا بتعميد الطفل على وجه السرعة، لأنّه بدا واهناً مثل أمّه وخاف أن يقع في خطر أن يكون مصيره الجحيم إذا ما تُوفِّيَ قبل أن يلقى السرَّ المقدَّس.

تأخّرت رِخينا عدّة أسابيع حتى تعافت من صفعة الولادة، ولم تنجُ إلا بفضل أمّها، البومة البيضاء، التي وصلت سيراً على الأقدام، حافية، تحمل على كتفها كيساً من الأعشاب الطبّية، في الوقت الذي كانوا يُعدّون فيه الشموع للجنازة. لم تكن الطبيبة الشعبية الهنديّة قد رأت ابنتها منذ سبع سنوات، أي منذ أن ذهبت هذه إلى الغابة لتحريض محاربي القبائل الأخرى، وقد عزا ألِخاندرو ظهور حماته إلى نظام السكان الأصليين البريدي، السرّ الذي لم ينجح البيضُ في اكتشافه. رسالة مُرسلة من سجن مونتِرّي كانت تتأخّر أسبوعين على ظهر الجواد للوصول إلى كاليفورنيا السفلى، لكن حين كان يصل الخبر يكون قد أصبح قديماً بالنسبة إلى الهنود، الذين تلقوه قبل عشرة أيّام بعمل سحريّ. لم يكن هناك تفسير آخر لانبثاق تلك المرأة من العدم دون أن تُستَدعى، تماماً في الوقت الذي هم بأمسِّ

الحاجة فيه إليها. فرضت البومة البيضاء نفسها دون أن تنبس بكلمة واحدة. كان عمرها أكثر من أربعين بقليل، وكانت طويلة، قويّة، ووسيمة، دبغت الشمس والعملُ جلدها. وجهها اليافع، بعينيه العسليّتين، مثل عيني ابنتها، كان مؤطّراً بحراج من الشعر الدخاني اللون والجَموح، الذي تدين باسمها إليه. دخلت دون استئذان، دفعت ألخِاندرو دِ لابِغا حين حاول أن يتحقّق من هويّتها، وجابت دون تردّد جغرافية المنزل المعقّدة وانتصبت أمام فراش ابنتها. نادتها باسمها الحقيقيّ، تويبورنيا، وكلّمتها بلغة أسلافها، إلى أن فتحت المُحتَضَرة عينيها. أخرجت على الفور من كيسها الأعشابَ الطبّيةَ لإنقاذها، غلتها في قدرٍ على موقد وأعطته لها لتشربه. فعَبَقَت في المنزل رائحة المريمية.

وخلال ذلك كانت آنا قد وضعت، بتلقائيتها المعهودة ابنَ رِخينا، الذي كان يبكي جوعاً، على ثدييها؛ وهكذا بدأ دييغو وبرناردو الحياة بالحليب ذاته والذراعين نفسيهما؛ وهو ما جعلهما أخوين في الروح بقيّة حياتهما.

وما إن تأكّدت البومةُ البيضاء من أنّ ابنتها تستطيع أن تنهض على قدميها وتأكل دون اشمئزاز حتى وضعت نباتاتها وعدّتها في الكيس، وألقت نظرةً على دييغو وبِرناردو اللذين كانا ينامان جنباً إلى جنب في المهد ذاته، دون أن تبدي أيّ اهتمام بالتأكّد ممن منهما هو حفيدها ومضت دون وداع. رآها ألخِاندرو دِ لابِغا تمضي بارتياح كبير. شكرها لأنّها أنقذت رِخينا من موتٍ مؤكّدٍ، لكنّه كان يُفضّل أن تبقى تلك المرأة بعيدةً، لأنّه كان يشعر بالانزعاج تحت تأثيرها، ثمّ إنّ هنود المزرعة صاروا يتصرّفون بوقاحة. ففي الصباحات يظهرون للعمل مزوّقي الوجوه، وفي الليل يرقصون كأنّهم متروبصون على وقع آلة الأوكارينا المحزن، ثمّ إنّهم بشكل عام راحوا يتجاهلون أوامره، كما لو أنّهم نسوا اللغة القشتالية.

راحت الحياة الطبيعية تعود إلى المزرعة مع استعادة رِخينا لعافيتها. في الربيع التالي نسي الجميع، باستثناء ألخِاندرو، أنّها كانت على حافّة القبر. لم يكن هناك حاجة لمعرفة الطب كي يتنبّأ المرء بأنّها لا تستطيع أن تُنجب مزيداً من الأولاد. ودون أن ينتبه ألخِاندرو نفسه لذلك، راح هذا الظرف يُبعده عن زوجته. كان يحلم بأسرة كبيرة، مثل بقيّة سادة المنطقة. فقد أنجب أحد أصدقائه ستة وثلاثين ولداً شرعياً، إضافة إلى غير الشرعيين، الذين لم يكونوا يدخلون في حساباته. كان عنده عشرون من زواجه الأوّل في المكسيك وستة عشر من الثاني، والخمسة الأخيرون ولدوا في كاليفورنيا العليا، في كلّ سنة ولد. وكان الخوفُ من حدوثٍ مكروه، كالذي يحدث للكثير من الأطفال الذين يموتون قبل أن يتعلّموا المشيَ، لهذا الولد الذي لن يُعوَّض، يقضُّ مضجعَ ألخِاندرو في الليالي. أخذته عادة الصلاة بصوت عالٍ، راكعاً عند قدم مهد ابنه، متضرّعاً الحماية له من السماء. كانت رِخينا تراقبُ زوجَها الذليلَ من عتبة الباب رابطةَ الجأشِ متكتِّفةً. في تلك اللحظات كانت تعتقد أنّها تكرهه، لكنّهما كانا يلتقيان بعدها بين الملاحف فيُصلحُ الدفء ورائحةُ الحب بينهما لبعض الساعات. كان ألخِاندرو يرتدي ملابسه عند الفجر وينزل إلى مكتبه، حيث تُقدِّم إليه هندية الشوكولا الكثيفةَ والمرّةَ كما كان يُحبّها؛ يبدأ يومه بلقاء رئيس خدمه ليعطيه أوامره المتعلّقة بالمزرعة، يقومُ بعدها بمختلف أعماله المتعلقة بالعمدة. كان الزوجان يقضيان النهار منفصلين، كلّ مشغول بمشاغله حتى يُحدِّد مغيبُ الشمس ساعة لقائهما من جديد. في الصيف كانا يتناولان العشاء في شرفة البنفسج يُرافقهما دائماً بعض الموسيقيين الذين يعزفون أغانيهم المفضّلة وفي الشتاء في قاعة الخياطة، التي لم يخط فيها أحد زرّاً قط، فالاسم يعود للوحة تمثّل امرأةً هولندية تُطرّز على ضوء قنديل. كثيراً ما كان ألخِاندرو يبقى ليقضي الليلَ في لوس أنجلوس، لأنّه تأخّر في احتفالٍ أو لعبِ ورقٍ مع سادة آخرين. وكانت جولات الرقص والسهرات الموسيقيّة وسهرات السمر

تشغل كلّ يومٍ من أيّام السنة، إذ لم يكن هناك شيء آخر يفعلونه، إضافة إلى الألعاب الرياضية في الهواء الطلق، التي كان يمارسها الرجال والنساء على حدٍّ سواء. لم تكن رِخينا تُشارِكُ في أيٍّ منها، فقد كانت روحاً انعزاليّة، ولا تثق مبدئيّاً بأيّ إسبانيّ غير زوجها والقسّ مِندوثا. كما لم تُبدِ اهتماماً بمرافقة ألِخاندرو في أسفاره أو في زياراته لبواخر التهريب الأمريكية، لم تصعد قط أيّاً منها للتفاوض مع البحّارة. وألِخاندرو كان يذهبُ مرّةً في السنةِ على الأقل إلى المكسيك، الغياب الذي كان يدوم عادةً شهرين يعود بعدها مُحمَّلاً بالهدايا والأفكار الجديدة التي لم تكن تتمكّن من إثارة زوجته كثيراً.

عادت رِخينا إلى مشاويرها الطويلة على الحصان، تحمل الآن معها ابنها في سلّة مربوطة إلى ظهرها وفقدت كلّ ميل للمسائل المنزلية التي أُنيطت بآنا. استعادت عادتها القديمة بزيارة الهنود، بمن فيهم من لم يكونوا ينتمون إلى مزرعتها، بهدف الوقوف على فاقتهم والتخفيف عنهم قدر استطاعتها. وعند توزيع الأراضي وإخضاع قبائل المنطقة وضع البيضُ نظامَ خدمة إجبارياً، يختلف عن العبوديّة في أنّ الهنود كانوا أيضاً من رعايا ملك إسبانيا ويتمتعون نظريّاً ببعض الحقوق. كانوا عمليّاً فقراء مشهورين، يعملون مقابل طعامهم وكحولهم وتبغهم والسماح لهم بتربية بعض الحيوانات. كان أصحاب المزارع عامّةً أرباب عمل لطيفين، منهمكين في ملذاتهم وأهوائهم أكثر مما بالأرض والعمّال، لكن يظهر أحياناً واحد سيّئ المزاج وعندئذٍ تُعاني موجة الهنود كما كانوا يُسمّونهم الجوع أو الجَلْدَ. وكان المعتنِقون الجدد في المنزل فقراء أيضاً، يعيشون مع أسرهم في أكواخٍ من العيدان والقَشّ ويعملون من شروق الشمس وحتى غروبها، ويتبعون كلّياً للرهبان في معاشهم. كان ألِخاندرو يُحاول أن يكون ربّ عملٍ طيّباً، لكن كان يُعذّبُه أنّ رِخينا كانت تطلب دائماً المزيد للهنود. وقد وضّح لها ألف مرّةٍ أنّه لا يمكن أن يكون هناك اختلاف في المعاملة التي يتلقاها

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هنوده وهنود المزارع الأخرى، لأنّ هذا يُسبِّب مشاكل في المستوطنة.

وانتهى القسُّ مِندوثا ورِخينا، المتحدين في انهماكهما بحماية الهنود، بأن أصبحا صديقَيْن؛ فقد غفر هو لها مهاجمتها البعثة، وهي امتنّت له أنّه جاءها بِديِيغو إلى العالم. كان أرباب العمل يمقتونهما، لأنّ المُبشِّرَ يملكُ سلطة أخلاقيّة وهي لأنّها كانت زوجة العمدة. في المناسبات التي شرعت بها رِخينا حملات عدلها، كانت تلبس على الطريقة الإسبانية وتسرح شعرها في كعكة صارمة، تُعلّق صليباً من الياقوت الجمري على صدرها وتستعمل في تنزّهها عربةً أنيقة، هي هديّة زوجها، بدل الفرس الحَسَنة، التي كانت تمتطيها عادةً دون سرج. كانوا يستقبلونها بجفاف، لأنّها لم تكن واحدة منهم. ما من مزارع كان يقبل أن يكون له أسلاف من السكان الأصليين. كانوا يعتقدون أنّهم من سلالة إسبانية خالصة، ناس بيض نقيو الدم. لم يغفروا لرِخينا حتى مسألة أنّها كانت تُحاول أن تُموّه على أصلها، على الرغم من أنّ هذا كان أكثر ما يُعجِب القسّ مِندوثا. عندما تمّ التأكّد من أنّها من أمٍّ هنديّة، أدارت الجالية الإسبانية لها ظهرها، لكن ما من أحدٍ تجرّأ على أن يزعجها في وجهها، احتراماً لمكانة وثروة زوجها. استمرّوا في دعوتها إلى مسامراتهم ورقصاتهم واثقين من أنّهم لن يروها، فزوجها كان يذهب وحيداً.

لم يكن دِ لابِغا يملك الكثير من الوقت لأسرته، فقد كان مشغولاً بتسيير أمور القرية وأملاكه وتجاراته والفصل في النزاعات، التي كانت تقوم دائماً بين المستوطنين. وكان يذهبُ كلّ ثلاثاء وخميس بلا انقطاع إلى لوس أنجلوس ليقوم بمهامّه السياسية، المنصب الممتاز الذي ينطوي على واجبات أكثر مما على الرضا، ولا يعدل عنه لأنّه يُحبّ خدمة الناس. لم يكن طمّاعاً ولا متمادياً في سلطته. وكان يتمتع بِمَلَكَة السلطة الطبيعية، لكنّه لم يكن صاحب رؤى كبيرة.

فهو نادراً ما شكّك بأفكاره المتوارثة عن أسلافه وإن كانت لا تُغطّي واقع أمريكا. بالنسبة إليه كان كلّ شيءٍ يقتصر على مسألة الشرف، على كبرياء الشخص الذي كان يُمثّله - نبيلاً كاثوليكيّاً - وعلى أن يمضي مرفوعَ الجبين. كان يُقلقه أنّ دييغو، الملتصق بأمّه وبرناردو والخدم من السكان الأصليين، لا يتخذ الموقف الذي يتطلبه منه نَسبه، لكنّه كان يُقدِّر أنّه ما يزال صغيراً جدّاً، وسيملك من الوقتِ ما يكفي لتقويمه. نوى أن يتوجّه لتنشئته الرجولية بأسرع مايُمكن. لكنّ هذه اللحظة كانت تتأجّل دائماً، فهناك مسائل أخرى أكثر إلحاحاً يجب الاهتمام بها. وكثيراً ما كانت الرغبة بإسعاد ابنه وحمايته تثيره حتى البكاء. كان حبّه لهذا الصغير يُربكه، يؤلمه مثل طعنة. كان يضع مشاريع رفيعة له: سيكون شجاعاً، مسيحيّاً صالحاً ووفيّاً للملك، مثله مثل كلّ نبيل من آل دِ لابِغا، وأغنى من أيٍّ من أقربائه، صاحب أراضٍ شاسِعة وخصبة، بطقسها المعتدِل ومياهها الوفيرة، حيث الطبيعة كريمة والحياة عذبة وليس كما في أراضي أهله الفقراء في إسبانيا. سيملك من قطعان البقر والأغنام والخنازير أكثر مما مَلك الملك سُليمان. سيربّي أفضل ثيران المصارعة وأكثر الخيول العربية أناقة وسيصبح أكثر الرجال تأثيراً في كاليفورنيا العليا، سيصبح حاكماً. لكنّ هذا سيكون لاحقاً، إذ عليه أن يستوي في الجامعة أو المدرسة العسكرية في إسبانيا. كان يأخذ بالحسبان أنّ أوروبا في عهد دييغو ستكون قد نهضت على قدميها. لم يكن من الممكن توقّع السلام فهو لم يوجد قط في القارّة القديمة، لكن من الممكن افتراض أن يكون الناس قد عادوا إلى التعقّل. كانت الأخبار مرعبة. هكذا كان يوضّح لِرِخينا، لكنّها لم تكن تُشاطره تطلّعاته لابنه ولا انشغالاته بمشاكل الطرف الآخر من البحر. لم يكن باستطاعتها أن تتصوّر العالم أبعد من الحدود التي يمكن أن تجوبها على جوادها. وأقل من ذلك أن تتأثّر بالمسائل الفرنسيّة. كان زوجها قد حكى لها أنّه في عام 1793، تماماً في العام الذي تزوّجا فيه، قطعوا رأس الملك لويس السادِس عشر في باريس

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أمام مجموعة من الرعاع النهمين للثأر والدم. كان خوسِهْ ديّاثْ، وهو قبطان باخرة صديق لألِخاندرو، قد أهداه مقصلة مصغّرة، لعبة مريعة يستخدمها في قصّ السيجار وشرح له بالمناسبة كيف كانت تطيرُ رؤوس النبلاء الفرنسيين، مثلٌ مريع يستطيع برأيه أن يُغرق أوروبا في الفوضى المطلقة. بدت الفكرة بالنسبة إلى رِخينا مُغرية، لأنّها افترضت أنّه لو امتلك الهنود آلة مثلها لهابهم البيضُ، لكنّها كانت حسنة الذكاء فلم تشاطر زوجها هذه الأفكار. كانت توجد بينهما دوافع كافية للمرارة ولا يستحق الأمر إضافة مرارةٍ أخرى. هي نفسها كانت تستغرب كم تغيّرتْ، تنظر إلى نفسها في المرآة فلا تتمكّن من العثور على أثرٍ واحدٍ من تويبورنيا، ولا ترى غير امرأة قاسية العينين، مزمومة الشفتين. لقد جعلتها الحاجة للعيش خارج جوّها ولتفادي المشاكل حكيمة ومُدارية ونادراً ما تصطدم مع زوجها وتُفضّل أن تتصرّف من وراء ظهره. لم يكن يخطر ببال ألِخاندرو أنّها تُكلّم ابنها بلغتها، لذلك كانت دهشته مزعجة حين وجد أنّ كلمات دييغو الأولى كانت هنديّة. لو عرف أنّ زوجته كانت تستغلّ كلّ مرّة يغيب فيها لتأخذه إلى قبيلة أمّها لكان منعها.

حين كانت رِخينا تظهر في ضيعة الهنود ومعها دييغو وبرناردو تترك جدّتُه البومةُ البيضاء أعمالها وتتفرّغ للطفلين. كانت القبيلة قد تقلّص عددها بسبب الأمراض القاتلة وتجنيد الإسبان للرجال. فلم يكد يوجد أكثر من عشرين عائلة، هي في كلّ مرّة أكثر فاقة. كانت الهنديّة تملأ رأس الطفلين بخرافات وأساطير شعبها وتُنَظِّف روحهما بدخان عشب المراعي الحلو المُستخدم في شعائرهم، وتأخذهما لجمع النباتات السحرية. وما كادا ينتصبان بثباتٍ على أقدامهما ويلتقطان عوداً، حتى جعلت الرجال يُعلّمونهما القتال. تعلّما صيد الأسماك وشكّها في العيدان المسنونة وصيدَ البرّ. وتلقّيا مقابل ذلك جلد غزال كامل بما في ذلك الرأس والقرنين كي

يغطيا به نفسيهما خلال الصيّد. هكذا كانا يجذبان إليهما الغزلان، ينتظران بلا حراك إلى أن تقترب وعندئذ يُطلقان سهامهما. لقد جعل الغزو الإسبانيُّ الهنود طيّعين، لكنّ حضور توييورنيا ـ رِخينا بينهم كان يجعل دمهم يغلي بذكرى حرب الشرف التي قادتها. والاحترام الذي كانوا يكنونه لها تُرجم إلى ودٍّ تجاه دييغو وبِرناردو. فقد كانوا يعتقدون أنّهما ابناها.

البومة البيضاء هي التي حملت الصغيرين ليجوبا الكهوف القريبة من مزرعة دِ لابِغا وعلّمتهما قراءة الرموز المحفورة منذ آلاف السنين على جدرانها وعلّمتهما طريقة استخدامها كي يهتديا في داخلها. شرحت لهما أنّ الكهوف مقسّمة إلى سبعة اتجاهات مُقدَّسة، وهي الخريطة الأساسية للأسفار الروحية؛ لذلك كان المبتدئون يذهبون في الأزمنة الغابرة إلى هناك بحثاً عن مركز نفوسهم، الذي يجب أن يلتقي بمركز العالم، حيثُ تتولَّد الحياة. أخبرتهم الجدَّةُ أنّه حين يحدث هذا الاقتران، ينبثق نورٌ متوهِّجٌ من أعماق الأرض ويرقص في الهواء برهةً طويلةً، فيغمر المُبتدئَ بنور وحرارة خارقين. نبَّهتهما إلى أنَّ الكهوفَ معابد طبيعيّة وتحميها قوى ساميةٌ؛ ولذلك يجب ألا يدخلها أحد إلا بنيّة نظيفة.

ـ من يدخل بنوايا سيِّئة تبتلعه الكهوف حيّاً ثمّ تلفظ عظامه ـ قالت لهما.

وأضافت أنّه تماماً وكما يأمر الروح الأعظم، إذا ما ساعد أحدٌ الآخرين فإنّ فضاءً ينفتح في جسده لِيتلقّى المباركة، هذه هي الطريقة الوحيدة لتحضير المرء نفسَه لِلأكاهوِ.

ـ كنّا قبل وصول البيضِ نأتي إلى هذه الكهوف بحثاً عن الانسجام والوصول إلى الأُكاهوِ، لكن ما عاد أحدٌ يأتي الآن ـ حكت لهما البومة البيضاء.

ـ وما هو الأُكاهوِ ـ سأل دييغو.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ـ الفضائل الخمس الجوهرية: الشرفُ، والعدالة، والاحترام، والكرامة والشجاعة.

ـ أنا أريدها كلّها، يا جدّتي.

ـ يتطلّب منك هذا أن تمرّ بامتحاناتٍ كثيرة دون أن تبكي ـ ردّت البومة البيضاء بجفاف.

منذ ذلك اليوم راح دييغو وبِرناردو يسبران الكهوفَ وحيدين. وقبلَ أن يتمكّنا من حفظ النقوش الحجرية للاهتداء، كما أشارت الجدّة، راحا يُعلّمان الطريق بالحصى ويخترعان شعائرهما الخاصّة مستلهمين ما سمعاه ورأياه في القبيلة وحكايات البومة البيضاء. وكانا يطلبان من الروح الأعظم ومن إله القسّ مِندوثا أن يسمحا لهما بكسب ودّ الأُكاهوِ، لكنّهما لم يريا قط لهباً يظهر فجأة تلقائياً ويتراقص في الهواء، كما كانا يتوقّعان. بالمقابل قادهما الفضول عبر مشهد طبيعي وجداه مصادفةً حين حرّكا بعض الحجارة ليُعلّما دائرةً سحريّةً، كالتي كانت ترسمها الجدّةُ، في الأرض: ستة وثلاثون حجراً تشكل محيط الدائرة وواحد في المركز الذي تخرج منه أربعة طرق مستقيمة. وحين اقتلعا حجراً دائرياً، فكّرا أن يضعاه في وسط الدولاب، هوى عدد منها مفسحاً المجال لرؤيةِ مدخلٍ صغير. زحفَ دييغو، الأنحل والأرشق إلى الداخل واكتشف نفقاً طويلاً سرعان ما راح يكتسب عرضاً وارتفاعاً بحيث صار يسمح بالانتصاب على القدمين. عادا بشموع ومعاول ورفوش ووسّعاه خلال الأسابيع اللاحقة. وذات يومٍ فتح رأس معول برناردو فتحة صغيرة تسرّب منها شعاع نورٍ، وعندئذٍ أدرك الصغيران، مفتونين، أنّهما صبّا في مدخنة صالون مزرعة آل دِ لابِغا تماماً. دقّاتٌ جنائزية من الساعة الكبيرة رحّبت بهما. بعد سنوات كثيرة علما أنّ رِخينا كانت قد اقترحت نقل المنزل بالضبط لأنّه قريب من الكهوف المُقدّسة.

ابتداءً من هذا الاكتشاف راحا يدعِّمان النفقَ بألواح الخشب والصخور، لأنّ جدران الصلصال عادة ما تتفتّتُ، ثمّ إنّهما فتحا باباً صغيراً مواربأ في آجرّ المدخنة كي يصلا الكهوف بالمنزل. وكان الموقِدُ من العلو والعرض والعمق بحيث يتسع لبقرة واقفة كما يليق بجلالة الصالون، الذي لم يكن يُستخدَمُ قط للاحتفاء بالضيوف، لكنّه كان من حينٍ لآخر يضمّ اجتماعات ألِخاندرو السياسيّة. المفروشات الخشنة وغير المريحة، مثلها مثل بقيّة أشياء المنزل، كانت ترتصف ملتصقة بالجدران، كما لو أنّها معروضة للبيع، تجمع الغبار ورائحة زبدة الأمتعة القديمة الزنخة. أكثر ما كان ظاهراً للعيان لوحة زيتية لسان أنطونيو، وهو في شيخوخته هيكل عظميّ، تُغطّيه البثور والأسمال، يرفض إغواءات الشيطان، وهي واحدة من المشاهد اللامعقولة، التي أوصوا عليها إلى إسبانيا بالقدم المربّع وتلقى تقديراً جدّاً في كاليفورنيا. وعُرِضَت في زاوية بارزة، حيث يمكن أن تُشاهَد، العكّازُ وملابس العمدة، التي كان يرتديها صاحب المنزل في الاجتماعات الرسمية، التي كانت تتطرّق للمسائل الكبرى، مثل رسم الشوارع، والصغرى مثل الترخيص للحفلات الموسيقية الليلية، لأنّه لو تُركت الأمور على هوى أبناء السادة العاشقين لما استطاع أحدٌ النوم بسلام في القرية. كانت تتدلّى فوق طاولة من خشب الإنغا ثريّا من الحديد بحجم شجرة أرز فيها مئة وخمسون شمعة لم تُمسّ، لأنّه ما من أحد كان يملك الهمّة لإنزال تلك الآلة الهائلة وإشعالها، والمرّات القليلة التي كانت تُفتح فيها القاعة كانت تُشعل فيها قناديل الزيت. أيضاً لم تكن تُشعل المدخنة، على الرغم من أنّها كانت دائماً مُجهَّزة بعددٍ من الجذوع الغليظة. اعتاد دييغو وبِرناردو على اختصار الطريق من الشاطئ إلى المنزل عبر الكهوف. كانا يستخدمان النفق السرّيَّ كي يظهرا مثل شبحين في تجويف المدخنة. وكانا قد أقسما بوقار الأطفال المنهمكين في لعبهما أنّهما لن يشاركا الآخرين أبداً هذا السرّ. كما أنّهما تعهّدا للبومة البيضاء ألا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يدخلا الكهوف إلا بمقاصِد طيّبة وليس للهو، لكنّ كلّ ما كانا يقومان به هناك كان بالنسبةِ إليهما جزءاً من التمرّن على بلوغ حلم الأُكافوِ.

في المرحلة ذاتها التي كانت تنهمك فيها البومة البيضاء في تغذية الجذور الأصلية للطفلين بدأ ألخِاندرو يربّي دييغو كنبيل. حدث هذا في العام الذي وصل فيه الصندوقان اللذان أرسلتهما إيولاليا دِ كاليّس هديةً من أوروبا. كان الحاكم القديم، بِدرو فاخِسْ قد تُوفّيَ في المكسيك مصعوقاً بإحدى نوبات غضبه. سقط مثل كيس عند قدمي زوجته وسط مشاجرة فدمّر عملية الهضم عندها للأبد، لأنّها اتهمت نفسها بقتله. وبعد أن قضت إيولاليا حياتها تتشاجر معه، غرقت في أعظم حزن وهي ترى نفسها أرملة، لأنّها انتبهت إلى مدى حاجتها إلى ذلك الزوج الحاسم. كانت تعرف أنّه ما من أحد يمكن أن يحلّ محلّ ذلك الرجل الرائع، صائد الدببة والعسكريّ العظيم، الوحيد القادر على مواجهتها دون أن ينحني. الحنان الذي لم تشعر به تجاهه في حياته هبط عليها مثل وباء حين رأته في التابوت وبقي يُعذّبها للأبد بذكرياتٍ حسّنها الزمن. اتبعت أخيراً، بعد أن تعبت من البكاء، نصيحةَ أصدقائها ومعرّفها وعادت مع ابنها إلى برشلونة، مسقط رأسها، حيث كانت تعتمد على ثروتها وعلى أسرتها القويّة. كانت تتذكّر من حين لآخر رِخينا، التي كانت تعتبرها محميّتها وتكتب لها على ورق مصري عليه شعارها العسكري مطبوعاً بالذهب. علموا في إحدى تلك الرسائل أنّ ابن الزوجين فاخِس قد مات بالوباء تاركاً إيولاليا وقد ازدادت اكتئاباً. وصل الصندوقان مهروسين، لأنّهما خرجا من برشلونة قبل سنةٍ تقريباً وأبحرا في بحار كثيرة قبل أن يصلا إلى لوس أنجلوس. كان واحد منهما مليئاً بالملابس الفاخرة والأحذية ذات الكعب العالي والقبعات المريّشة وترهات نادراً ما ملكت رِخينا الفرصة

لاستخدامها. الآخر المخصّص لألِخاندرو دِ لابِغا، كان يحتوي على طبقة سوداء مبطّنة بالحرير وأزرار طليطلية من الفضّة المشغولة، وبعض زجاجات أفضل نبيذ شيرشي إسباني، زوج من مسدسات المبارزة مطعّمين بالصدف، شيش أيطالي و*رسالة المبارزة بالشيش* و*مُختَصر المبارزة* للمعلّم مانوِل إسكالانتِ. وكان، كما كان يوضّح في الصفحة الأولى، مختصراً «لآخر التعليمات حتى لا يتردّد المرء أبداً حين يكون عليه أن يُبارز بالسيف الإسباني أو بالشيش من أجل مسائل الشرف».

لم يكن باستطاعة إيولاليا أن ترسل هديّة أكثر ملاءمة. فألِخاندرو دِ لابِغا كان قد أمضى سنوات لم يتدرّب فيها على السيف، لكنّه وبفضل الكتاب التعليمي استطاع أن يحدّث معارفه كي يعلّم المبارزة لابنه الذي لم يكن يعرف بعد أن يُنظّف أنفه. أمر بصناعة شيش، وصدّارة محشوة، وقناع صغير لدييغو، واعتاد، منذ تلك اللحظة، أن يتدرّب معه ساعتين يوميّاً. أظهر دييغو في المبارزة الموهبةَ الطبيعية ذاتها التي كانت له في جميع نشاطاته الرياضية، لكنّه لم يأخذها على محمل الجدّ كما كان يريد والده، فهي لم تكن بالنسبة إليه إلا لعبة أخرى من الألعاب الكثيرة التي كان يشارك فيها برناردو. كان هذا التواطؤُ المتبادل بين الطفلين يشغل ألِخاندرو دِ لابِغا، فقد كان يعتبره ضعفاً في طبيعة ابنه، الذي أصبح في عمر يجعله مسؤولاً عن مصيره. كان يشعر بالعطف على بِرناردو ويميّزه من بين هنود خدم المنزل، فهو في جميع الأحوال شهِد ولادته، لكنّه لم يكن ينسى التمايزات التي تفصل بين الأشخاص. فلولا هذه التمايزات التي فرضها الله بهدف واضِح، كان يؤكّدُ، لعمّت الفوضى في هذا العالم. كانت فرنسا هي مثله المفضّل، فقد انقلب فيها كلّ شيء رأساً على عقب بسبب الثورة البغيضة. ففي هذا البلد ما عاد يُعرف أحد من أحد، فالسلطة تمرّ من يدٍ إلى يدٍ مثل العملة. كان ألِخاندرو يدعو الله ألا يحدث شيءٌ مشابه في إسبانيا. وعلى الرغم من تتالي ملوك غير أكفّاء راح يغرق الإمبراطورية حكمٌ موغل في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الخراب، إلا أنّه لم يشكّ قطّ بشرعيّة الملكية الإلهية، تماماً كما لم يكن يشكّ قطّ بالنظام التراتبي الذي تربّى عليه والتفوّق المُطلق لعرقه وأمّته ودينه. كان يرى أنَّ دييغو وبِرناردو وُلِدا مُختَلِفين ولن يتساويا أبداً، وأنّهما كلّما سارعا في إدراك ذلك كلّما كانت مشاكلهما المُستَقبَلِيّة أقلّ، وقد توصّل بِرناردو إلى هذا دون أن ينقب أحدٌ به رأسه، لكنّ هذا موضوعاً كان يُبكي دييغو حين يُذَكِّره به والدُهُ. واستمرّت رخينا، بعيداً عن مساندة زوجَها في أهدافه التربوية، في معاملة بِرناردو كما لو أنه ابنها أيضاً. ففي قبيلتها ما من أحد كان أعلى مقاماً من آخر بالولادة، بل بالشجاعة أو المعرفة، وفي رأيها كان الوقت ما يزال مبكّراً لمعرفة أيّ من الصبيّين هو الأشجع أو الأعرف.

لم يكن دييغو وبِرناردو لينفصلا إلا ساعة النوم، عندما يذهب كلٌّ منهما للنوم مع أُمِّهِ. كلاهما عضّه الكلبُ ذاته، لسعه نحل الخليّة ذاتها وأصابتهما في الوقت ذاته الحصبة ذاتها. وحين كان يقوم أحدهما بشيطنة ما لا يجهد أحد نفسه في معرفة المرتكب، فيجبران على الركوع الواحد بجانب الآخر ويُجلدان الجلدات ذاتها على مؤخرتيهما، فيلقيان العقوبة دون أن ينبسا ببنت شفة لأنّها تبدو لهما عقوبة أوّلية. كان الجميعُ، باستثناء ألِخاندرو دِ لابِغا، يعتبرونهما أخوين، ليس لأنّهما لم يكونا ينفصلان عن بعضهما بعضاً، بل لأنّهما للوهلة الأولى يبدوان متشابهين. فالشمس دبغت جلديهما بلون الخشب ذاته، وآنا تخيط لهما بنطلونات الخام ذاتها، ورخينا تقصّ لهما شعرهما على طريقة الهنود. وكان يجب التمعّن بدقةٍ شديدة كي يرى المرء أنّ لِبرناردو تقاسيم هنديّة نبيلة، بينما كان دييغو طويلاً ونحيلاً، وله لون عيني أمّه العسليّ. تعلّما في السنوات اللاحقة استخدام الشيش بحسب تعاليم المُعلّم إسكالانتِ المفيدة جدّاً، وركوبَ الخيل دون سرج، واستخدامَ السوط والحبل، والتدلّي متعلّقين بأقدامهما من طنف البيت كالخفافيش. وعلّمهما الهنود الغوصَ في البحر لاقتلاع البحريات عن الصخور وملاحقة

الفريسة أيّاماً حتى اصطيادها، وصناعة الأقواس والسهام وتحمُّل الألم والتعب دون شكوى.

كان ألخاندرو يحملهما معه إلى حظيرة الماشية لتعليمهما، كلّ واحد ومعه الرسنُ أو الحبل ذاته ليساعداه في عمله. كان هذا هو العمل اليدويّ الوحيد للنبيل وهو رياضة أكثر منه عمل. كان يجتمع سادةُ المنطقةِ مع أولادهم، ورعاة البقر والهنود يحيطون بالحيوانات، يعزلونها ويضعون لها العلامة، تُسَجّل بعدها في سجلٍ، منعاً للسرقة والخلط. وكان أيضاً موسم الذبح، حيث يجب جمع الجلود وتمليح اللحم وتحضير الدهن. وكان الناحِرون، الفرسان الحقيقيّون القادرون على قتل ثور بوخزة في نقرته وهو في عزّ ركضه، ملوك الحظيرة، ويتمّ التعاقد معهم عادةً لهذه المهّمة قبل سنة من الموسم. كانوا يأتون من المكسيك ومن المروج الأمريكيّة بخيولهم المدرّبة وسيوفهم الطويلة ذات الحدّين. فلا تكاد تقع الحيوانات حتى ينقضّ عليها السالخون ويسلخونها كاملة في دقائق قليلة، والقصّابون المكلّفون بتقطيع اللحم وأخيراً الهنديات، اللواتي كانت مهمّتهنّ المتواضعة جمعَ الشحم وتذويبه في قدور ضخمة ثمّ تخزينه في ظروف مصنوعة من المثانات والأمعاء أو الجلود المخاطة. أيضاً كان من نصيبهنّ دبغ الجلود وكشطها بالحجارة المسنونة بعمل لا ينتهي راكعات على ركبهنّ. كانت رائحة الدم تُثير جنون القطيع ولم يخلُ الأمر قط من جيادٍ تسقطُ أمعاؤها وراعي بقر ديسَ أو مات بنطحة. كم كان مريعاً منظر آلاف الرؤوس تشخر متسابقةً في جحيم من الغبار العالق في الهواء ومنظر رعاة البقر بقبعاتهم البيضاء ملتصقين بخيولهم وهم يلوحون بحبالهم فوق رؤوسها وسكاكينهم اللامعة على خصورهم، كم كان مريعاً سماع خبط القطيع للأرض بأظلافه، صيحاتُ الرجال المنفعلين، صهيل الخيول، نباح الكلاب. كم كان مريعاً شمّ بخار زبد الحيوانات، عرق رعاة البقر، رائحة الهنديات الفاترة والسرّية، التي تُهيجُ الرجال للأبد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وعند الانتهاء من موسم السباق، كانت القرية تحتفل بالعمل الذي أُحسِن إنجازه في جوّ من اللهو يدوم عدّة أيّام، يُشارِك فيها الفقراء والأغنياء، البيضُ والهنود، الشبابُ والقلّة القليلة من الرجال الموجودين في المستوطنة. وكان يفيض الطعام والشراب ويرقص الأزواجُ حتى يسقطوا فاقدين الوعي على إيقاع الموسيقيين القادمين من المكسيك، وكانت تتقاطع المراهنات في مصارعة الرجالِ والفئران والديكة والكلاب والدببة مع الثيران. في ليلة يمكن أن يخسر المرء ما ربحه في السباق وكان الاحتفالُ يُتوَّج في اليوم الثالث بقدّاسٍ للقسّ مِندوثا، الذي كان يسوق السكارى إلى الكنيسة بهراوته ويجبرُ مغويي المعتنقات الهنديات الجديدات على الزواجِ منهنّ والبندقية في يده، لأنّه خلُص إلى أنّه بعد تسعة أشهر من كلّ موسم سباق تحدث فضيحة أبناء بلا آباء معروفين.

خلال سنة من القحط اضطرّوا لأن يذبحوا الخيول البرّيّة توفيراً للمرعى للماشية. رافق دييغو رعاة البقر، لكنّ بِرناردو رفض لأوّل مرّة الذهاب معه، لأنّه كان يعرف بماذا يتعلّق الأمر ولم يكن بمقدوره تحمّله. كانوا يحيطون بقطعان الخيول ويفزعونها بالبارود والكلاب، يلاحقونها بخيولهم ويسوقونها نحو الجرف حيث تهوي في هروب أعمى. كانت تسقط بالمئات، بعضها فوق بعض، فتتحطّم أعناقها أو تتكسّر أرجلها في عمق الهوّة. أحسنها حظّاً كان يموت بالضرب بينما يستمرّ احتضار غيرها أيّاماً تعلوها سحابة من الذباب ونتن اللحم المتفسّخ الذي يجذب الدببة والنسور.

كان دييغو يذهب مرّتين في الأسبوع إلى بعثة سان غابرييل ليتلقى من الأب مِنْدوثا مبادئه المدرسية. وكان بِرناردو يرافِقه دائماً إلى أن انتهى المُبشِّرُ بقبوله في الصفّ، على الرغم من أنّه كان يعتبر أنّ تربية الهنود غير ضرورية، بل إنّ تعليمهم الزائد عن الحدّ أمر خطير، لأنّه يزرع في عقولهم أفكاراً جريئة. لم يكن برناردو يملك

سرعة البديهة التي يملكها دييغو فيبقى متخلِّفاً عنه، لكنّه كان عنيداً فلا يتراجع حتى ولو قضى الليل يحرق أهدابه على ضوء الشموع. كان ذا طبيعة انطوائية وهادئة تتناقض مع مرح دييغو الانفجاري، وكان يُساعد صديقه بإخلاص لا يقبل الجدل في جميع أفعاله السيّئة التي تخطر بباله، وإذا ما وقعت الواقعة ينصاع، دون تهويل، للعقوبة على شيء لم تكن فكرته له بل فكرة دييغو، الذي منذ أن صار باستطاعته أن ينتصب على رجليه أخذ على عاتقه حماية أخيه بالرضاعة، والذي كان يعتبر أنّه مقدَّر له أن يقوم بمآثر عظيمة، مثل أبطال قصص البومة البيضاء الأسطورية.

دييغو، الذي كان يشكّل التزامُ الهدوء والبقاءُ خلف الأبواب عذاباً له، كان يتدبَّرُ أمرَه ليتملّص من وصاية القسّ مِندوثا والخروج إلى الهواء الطلق، فالدروس ما إن تدخل من أذنٍ حتى يتلوها بسرعة عن ظهر قلب قبل أن تخرج من الأذن الأخرى، فاستطاع أن يخدع القسّ مِندوثا بشطارته، لكن كان عليه أن يُعلّمها حرفاً فحرفاً لِبرناردو، وهكذا ومن محض تكرارها كان ينتهي إلى تعلّمها. كان مصراً على اللعب إصرار بِرناردو على الدراسة. وبعد كثير من الأخذ والرد توصّلا إلى اتفاق يقضي بأن يُعلِّم بِرناردو مقابل أن يمارس هذا الأخير رياضةَ الحبل والسوط والسيف معه.

- لا أرى مبرِّراً لأن نجهد أنفسنا في تعلّم أشياء لن تفيدنا في شيء - أعلن دييغو ذات يوم قضيا فيه ساعات في تكرار الدرس نفسه باللاتينية.

- عاجلاً أو آجلاً كلّ شيء يفيد - ردّ بِرناردو - إنّه مثل السيف. لن أصبح قط فارساً في الجيش، لكن ليس من الزائد تعلّم استخدام السيف.

قليلون هم الذين كانوا يعرفون القراءةَ والكتابةَ في كاليفورنيا العليا، ما عدا المُبَشِّرين، فهم على الأقل رغم كونهم أفظاظاً، لأنّ غالبيتهم كانوا ريفيين، يملكون مسحةً ثقافية. لم تكن الكتب

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

متوافرة، وفي المناسبات المعدودة التي كانت تصل فيها رسائل كانت بالتأكيد تحمل أخباراً سيّئة، وبالتالي لم يكن مستلمها يستعجل حملها إلى راهِب كي يفكّ له رموزها. لكنّ ألخِاندرو دِ لابِغا كان يملك حنكة التعليم وناضل سنوات طويلة كي يأتي بمعلّم من المكسيك. كانت لوس أنجلوس آنذاك أكثر بقليلٍ من الشوارع الأربعة التي رآها تولد، فقد تحوّلت إلى ممرّ إجباري للمسافرين وإلى مكان للراحة بالنسبة إلى بحّارة السفن التجارية وإلى مركز تجاري بالنسبة للمقاطعة. فمونتِرِّي بعيدة إلى حدّ أنّ معظم قضايا الحكومة كانت تُحلّ في لوس أنجلوس.

بالإضافة إلى السلطات والضباط العسكريين كان السكان مزيجاً، وكانوا يطالبون بمناداتهم بأهل العقل لتمييزهم عن الهنود الخالصين والخدم. كان الإسبان من أصحاب النسب يُشكّلون طبقة منفردة. وكانت البلدة قد أصبحت تملك ساحة لمصارعة الثيران وماخوراً متألّقاً مؤلّفاً من المولّدات المشكوك بفضيلتهنّ وخلاسية ثرية من بنما سعرها ثابت ومرتفع بما يكفي. وكان هناك بناء خاصّ لاجتماعات العمدة ونواب مجلس البلدة، يلعب دور المحكمة والمسرح، حيث كانت تُقدّم الثرثوِلات والمسرحيات الأخلاقيّة والاحتفالات الوطنية. وأُشيد في ساحة السلاح سقيفة للموسيقيين، الذين كانوا يحيون الأماسي ساعة المشوار، حين كان الشباب العازبين من كلا الجنسين، المراقَبين من آبائهم، يتألقون مجموعاتٍ، الفتيات باتجاه والفتيان باتجاه آخر. بالمقابل لم يكن هناك فندق بعد، في الحقيقة استغرق الفندقُ الأول عشر سنوات حتى شُيّد، وكان المسافرون يبيتون في بيوت الأغنياء، التي لم تكن تخلو من الأطعمة والأسرّة لاستقبال من يطلبون الاستضافة. ونظراً لكلّ ذلك التقدّم، رأى ألخِاندرو دِ لابِغا أن من الضروري وجود مدرسة في البلدة، حتى ولو لم يُشاركه همّه أحد. وتمكّن وحده بهمّته وماله من تأسيس المدرسة الأولى في المقاطعة، التي ستبقى لسنوات طويلة المدرسة الوحيدة.

فتحت المدرسةُ أبوابها تماماً عندما أتمَّ دييغو التاسعة من عمره وأعلن القسُّ مِندوثا أنّه علَّمه كلّ ما كان يعرفه، باستثناء ترتيل الصلاة وطرد الشياطين. كانت عنبراً مظلماً ومغبرّاً مثل السجن الموجود في زاوية من الساحة الرئيسيّة، مزوَّدة بعدد من المقاعد الحديديّة وسوطٍ من سبعة أذيال معلّق بجانب السبّورة. وحدث أنّ المعلّم كان من أولئك الرجال التافهين، الذين يحوّلهم أدنى نوع من السلطة إلى كائنات وحشيّة قاسية. من سوء حظّ دييغو أنّه كان أحد أوائل تلامذته إلى جانب حفنة من الأطفال الذكور، براعم العائلات المحترمة في البلدة. لم يستطِع بِرناردو دخولَ المدرسة، على الرغم من توسّل دييغو لوالده أن يسمح له بالدراسة معه. بدا طموح بِرناردو لألِخاندرو دِ لابِغا يستحقّ الإطراء، لكنّه قرَّر أنّه لايمكن أن يستثني أحداً، لأنّه لو قَبِلَ لوجب عليه قبول آخرين مثله، والمعلّم كان قد أعلن، بوضوح وجِلاء قراره بالرحيل إذا ما أطلّ هنديّ بأنفه على «مركز معرفته المحترَم»، كما كان يُسمّيه. وكانت الحاجة إلى تعليم بِرناردو أكثر من سوط الأذيال السبعة، قد دفعت دييغو إلى إيلاء الدروس انتباهاً أكبر.

كان بين التلاميذ غارثيا، ابن جنديّ إسبانيّ وصاحبة الحانة، وكان طفلاً من دون لمعة، بديناً، مسطّح القدمين وله ابتسامة بلهاء، وكان الضحية المُفضّلة للمعلّم ولبقيّة التلاميذ، الذين كانوا يُعذّبونه بلا هوادة، فتحوّل دييغو إلى حامٍ له برغبةٍ بالعدالة لم يستطع هو نفسه أن يُفسّرها، فنال بذلك إعجابَ البدين.

مرّت السنون على القسّ مِندوثا منشغلاً بزراعة الأرض ورعاية الماشية وتنصير الهنود دون أن يُصلِح سقفَ الكنيسة، الذي تضرَّر خلال هجوم تويبورنيا. في تلك المناسبة قطعوا الطريقَ على الهنود بتفجيره بالبارود الذي هزَّ البناء في الصميم. وحين كان يرفع القربان ليُباركه في القُدّاس، كانت نظرته تستقرّ لا محالةَ على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العضائد المزعزعة فيعاهد نفسه مذعوراً بأصلاحها قبل أن تنهار فوق رؤوس رعاياه القليلين، لكن كان عليه قبل ذلك أن يهتمَّ بأمورٍ أخرى وينسى ما نواه حتى القدّاس التالي. خلال ذلك راح دود الثرميت يلتهم الخشبَ وأخيراً وقع الحادث الذي طالما كان يخشى القسُّ مِندوثا وقوعَهُ. من حسن الحظّ أنّه لم يقع والمكان مليء بالناس، فلو حدث ذلك لكان كارثة، بل وقع في أثناء هزّة من الهزّات الكثيرة التي تضرب المنطقة، فلشيء ما كان يُسمّى النهر باسم يسوع الهزّات. سقط السقفُ على رأس ضحيّة واحدة، القسّ ألبِنار، الرجل القديس الذي جاء من البيرو كي يتعرّف على بعثة سان غابرييل. شدّ دويُّ الانهيار وسحابةُ الغبار المعتنقون الجدد الذين هرعوا راكضين وشرعوا على الفور إلى رفع الأنقاض ليُخرِجوا من تحتها الزائرَ عاثرَ الحظّ. عثروا عليه متقوقعاً مثل صرصور تحت العضادة الكبرى. بكلّ منطق كان يجب أن يكون قد مات، لأنّهم قضوا قسماً جيّداً من الليل في إنقاذه، والرجل ينزفُ بلا توقّف، لكنّ الله جاء بمعجزة، كما وضّح القسُّ مِندوثا، حين أخرجوه أخيراً من بين الأنقاض، فقد كان يتنفّس. كفى القسّ مِندوثا أن يُلقي نظرة واحدة حتى ينتبه إلى أنّ معلوماته الطبيّة القليلة لن تستطيع إنقاذَ الجريح، مهما ساعدته القدرة الإلهية. ومن ثمّ ودون أي تأخير أرسل أحد المعتنقين الجدد مع جوادين لإحضارِ البومة البيضاء. وكان خلال تلك السنوات قد تأكّد من أنّ احترام الهنود لتلك المرأة مبرَّر تماماً.

بالمصادفة وصل دييغو وبرناردو إلى البعثة في اليوم التالي لوقوع الزلزال وهما يقودان بعض الجياد الأصيلة التي أرسلها ألِخاندرو دِ لابِغا هديّة للمُبشِّرين. وبما أنّ أحداً لم يخرج لاستقبالهما ولا لشكرهما لأنّ الجميع كانوا منهمكين في رفع أنقاض الزلزال ومشغولين باحتضار القسّ ألبِنار، فقد ربط الصغيران الأحصنة وراحا يُشاركان في المشهد المُستَجد. وهكذا كان أنّ شهدا وصولَ البومة البيضاء أخيراً خابّةً خلف المعتنِق الجديد الذي ذهب في طلبها. على الرغم من أنّ أخاديدَ جديدةً قد

شقّت وجهها وأنّ شعرها صار أكثر بياضاً، إلا أنّها لم تتغيّر خلال هذه السنوات، فقد كانت المرأة القويّة الشابّة ذاتها التي جاءت قبل عشر سنوات إلى مزرعة دِ لابِغا لتُنقِذ رِخينا من الموت. وهذه المرّة جاءت بمهمّة مُشابِهة وأحضرت في كيسها النباتات الطبّية أيضاً. وبما أنّ الهندية رفضت تعلّم القشتالية وكانت كلمات القسّ مِندوثا في لغتها قليلة جدّاً، عرض دييغو نفسه للقيام بالترجمة. وضعوا المريضَ في غرفة الطعام على طاولة العيدان التي لم تُصقل وتجمّع حوله سكان سان غابرييل. فحصت البومةُ البيضاء بتمعُّن الجراحَ، التي كان القسّ مِندوثا قد ضمّدها، ولم يجرؤْ على خياطتها لأنّ العظام كانت مهروسة تحتها. فحصت الطبيبةُ الشعبية بأصابعها المجرّبة كاملَ الجسد ووضعت قائمةً بالعمليات التي عليهم القيام بها.

- قُل للأبيض أنّ كلّ شيء له حل باستثناء الساق، التي لا علاج لها. سأقطعها أوّلاً وبعدها أشتغل بالباقي - أعلنت لحفيدها.

ترجم دييغو دون أن ينتبه إلى خفض صوته، لأنّ القسّ ألبنّار كان في جميعِ الأحوال شبه ميت، لكنّه لم يكد يُكرّر تشخيصَ جدّته، حتى فتح المحتَضَر عينيه الناريّتين على مصراعيهما.

- اللعنة، أُفضّلُ أن أموت وأرتاح - قال بكلّ يقين.

تجاهلته البومةُ البيضاءُ، بينما راح القسُّ مِندوثا يفتح فم الرجل المسكين بالقوّة، كما كان يفعل مع الأطفال الذين يرفضون تناول الحليب فيُدخل في أفواههم قمعه الشهير. وهناك سكبوا له ملعقتين من شراب كثيف، صدئ اللون أخرجته البومةُ البيضاء من كيسها. وفي الوقت الذي استغرقوه في غسل منشار الخشب بمحلول القِلي وتحضير بعض الخرق للتضميد، غرق القسّ ألبِنّار في نومٍ عميق، استيقظ منه بعد عشر ساعات، رائقاً وهادئاً، بعد برهة منْ توقّفِ جدعةُ ساقه عن النزيف. كانت البومة البيضاء قد رفأت بقيّة جسده بعشرات القطب وكفّنته بنسيج عنكبوت ومراهم غامِضة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وضمادات. من جهته أعدَّ القسُّ مِندوثا المعتنِقات الجديدات كي يتناوبن على الصلاة ليلاً ونهاراً، دون توقُّف كي يتعافى المريض. أعطت الطريقة أُكلها. وبعكس كلّ التوقُّعات تعافى القسُّ ألبثارْ بسرعة كافية حتى أنّه استطاع أن يعودَ إلى البيرو في السفينة محمولاً على سرير يدوي.

لن ينسى بِرناردو أبداً الذعر الذي أصابه به مشهد ساق الأب ألبثار المقطوعة، كما لن ينسى دييغو أبداً القوّة الهائلة لشراب جدّته. تردّد عليها في الأشهر التالية كثيراً في ضيعتها ليتوسّلها أن تكشف له سرَّ ذلك المغليّ، لكنّها رفضت المرّة تلو الأخرى، بذريعة منطقيّة هي أنّ دواءً سحرياً كهذا يجب ألا يقع في يدِ صبيٍّ شقيّ، سيستخدمه بالتأكيد لأغراض شريرة. وباندفاع مثل الكثير منها التي سيدفع ثمنها صفعات، سرق دييغو قرعةً من إكسير النوم، آخذاً على نفسه عهداً ألا يستخدِمه لقطع أعضاء بشرية، بل لهدف نبيل، لكن ما إن أصبح الكنز بين يديه حتى راح يضع صيغاً للاستفادة منه. وجاءته الفرصة ذات ظهيرة حارّة من حزيران كان عائداً فيها من السباحة مع بِرناردو، الرياضة الوحيدة التي كان يتفوّق فيها هذا عليه كثيراً، لأنّه كان أكثرَ مقاومة وهدوءاً وقوّة. وبينما كان نفسُ دييغو ينقطع وهو يخبط بذراعيه ملفوفاً الأمواج، كان بِرناردو يحافظ لساعات على إيقاع نَفَسَه الهادئ وذراعيه، تاركاً تيارات قاع البحر الغامِضة تحمله. وإذا ما وصلت الدلافين سرعان ما تُحيط ببِرناردو، تماماً كما كانت تفعل الخيول، بما فيها غير المروَّضة. حين لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يقترب من مهرٍ شرِسٍ، كان هو يقترب منه بحذرٍ، يلصق وجهه بأذنه ويهمس له بكلماتٍ سحرية، حتى يُليّنه. لم يكن في المنطقة من يروِّضُ مهراً بسرعة ذلك الصبيّ الهنديّ ولا أفضل منه. في ذلك المساء سمعوا من بعيد صرخات غارثيّا المذعورة، يُعذّبه من جديد أشقياءُ المدرسة. كانوا خمسة يقودهم كارلوس ألكاثار، أكبر

الطلاب وأكثرهم رهبةً. كانت قدرته العقلية قدرة قملة، لكنّها كانت تكفيه كي يبتدع طرقاً وحشيّة هي دائماً جديدةً. كانوا قد عرّوا هذه المرّة غارثيّا وربطوه إلى شجرة ودهنوه من أعلاه إلى أدناه بالعسل. كان غارثيّا يصرخ مِلءَ رئتيه، بينما جلاّدوه الخمسة يتأمّلون مفتونين سحابةَ الذباب وصفوفَ النمل التي بدأت تُهاجِمه. قدّر دييغو وبِرناردو الظروفَ بسرعة وأدركا أنّ الميزان دون شكٍّ يميل لصالح الآخرين. لا يستطيعان أن يصارعا كارلوس وأتباعه، كما أنّه لم يكن من الممكن أن يذهبا بحثاً عن مساعدة، لأنّهما سيُعدّان جبانين. اقترب دييغو منهم مبتسماً، بينما بِرناردو خلفه يشدّ على أسنانه وقبضتيه.

ـ ماذا تفعلون؟ ـ سأل كما لو أنّ الأمر لم يكن جليّاً.

ـ لا شيء يعنيك، أيّها الأبله، إلا إذا كنتَ تُريد أن تنتهي نهاية غارثيّا ـ ردّ كارلوس، ترافقه قهقهات عصابته.

ـ لا يهمّني أبداً، لكنّني كنتُ أُفكّر أن أستخدم هذا البدين طعاماً للدببة. سيكون من المؤسف أن يُضيّع هذا الشحم الجيّد على النمل ـ قال دييغو بلا مبالاة.

ـ دبّ؟ ـ دمدم كارلوس.

تبادل الفتية الرأيَ همساً، بينما غارثيّا يتصبّب جليداً وبِرناردو يحكّ رأسه، مُقدّراً أن دييغو لن يسيطر هذه المرّة على يده. فالطريقة المعتادة في صيد الدببة حيّةً هي نفسها المستخدمة في مصارعة الثيران، تتطلّب قوّةً ومهارةً وأحصنةً جيّدة. يدفعُ عدد من الفرسان المُجرّبين بالحيوانِ باتجاه القناصة فيربطونه بالخيول بينما يمضي أمامه ويستفزّه راعي بقرٍ يُستَخدَم طعماً. وهكذا يسوقونه إلى حظيرة، لكنّ التسلية كان ثمنها غالياً، لأنّ باستطاعة الدبُّ أحياناً أن يجري بسرعة أكبرَ من أيّ حصان، ويتمكّن من الإفلات وينقضّ على أقربهم منه.

ـ من سيُساعِدك؟ ـ سأل كارلوس.

ـ بِرنـاردو.

ـ هذا الهنديّ البهيمة؟

ـ ما دام غارثيّا هو الطعم نستطيع أنا وبِرناردو أن نقوم بذلك وحدنا ـ قال دييغو.

أنجِز الاتفاق خلال دقيقتين وذهب عديمو الضمير، بينما راحَ دييغو وبِرناردو يفكّان غارثيّا ويُساعدانه على غسل العسل والمخاط في النهر.

ـ كيف سنصطاد دبّاً حيّاً؟ ـ سأل بِرناردو.

ـ حتى الآن لا أدري، عليّ أن أُفكّر بالأمر ـ ردّ دييغو فلم ينتب أخاه شكّ بأنّه سيجد الحلّ.

انقضت بقيّة الأسبوع في تحضير العناصر الضرورية للعفرته التي سيقومان بها. العثور على الدب كان أقلّ الأمور أهمية، فهي كانت تجتمع بالعشرات في الأماكن التي يذبحون فيها الماشية، مشدودةً برائحة اللحم، لكنّهم لا يستطيعون أن يواجهوا أكثر من واحدٍ، خاصّة إذا كانت أنثى ومعها صغارها. كان عليهم أن يعثروا على دبّ وحيد، وهذا أيضاً لم يكن أمراً صعباً، لأنّها تكثر في الصيف. أعلن غارثيّا أنّه مريض فلم يخرج من بيته لعدّة أيام، لكنّ دييغو وبِرناردو أجبراه على مرافقتهما بالذريعة الدامغة القائلة بأنّه إذا لم يفعل سينتهي من جديد إلى أيدي الكريه كارلوس ألكاثار. كان دييغو يقول له مازحاً إنّه فعلاً سيستخدمه طعماً، لكنّه حين رأى ركبتي غارثيّا تنحلاّن أشفق عليه وجعله شريكاً في الخطّة التي رسمها مع بِرناردو.

أخبر الصبية الثلاثة أمّهاتهم أنّهم سيقضون الليلةَ في البعثة، حيث يحتفل القسُّ مِندوثا، كما في كلّ عام، بعيد سان خوان. ذهبوا باكراً في عربة يجرّها بغلان عجوزان، مزودين برسنيهما. كان

غارثيا يمضي ميتاً من الخوف وبِرناردو مغموماً ودييغو صافراً. وما إن خلّفوا بيت المزرعة وراءهم وخرجوا عن الطريق الرئيسي حتى دخلوا في طريق أستياس، الذي كان يظنّه الهنودُ مسحوراً. عمر البغلين ووعورة الأرض أجبرتهم على التقدّم باعتدال وهذا ما منحهم الوقت كي يهتدوا بالآثار على الأرض وبالخدوش على جذوع الأشجار. وصلوا إلى منشرة ألخاندرو دِ لابِغا التي كانت تمدّ البلدةَ بالخشب لإصلاح البيوت والسفن، حين أنذرهم نهيق البغلين المذعورين بوجود دبّ. كان الحطّابون قد ذهبوا إلى عيد سان خوان ولا تُشاهد نفس واحدة في المنطقة، لا شيء غير المناشير والفؤوس المهجورة، أكداس الجذوع حول بناء خشن من الألواح. فكّوا البغلين وحملوهما جرّاً إلى العنبر لحمايتهما، راح بعدها دييغو وبِرناردو ينصبان أفخاخهما، بينما غارثيّا يراقب على مسافة قصيرة من الملجأ، وكان قد حمل معه عصرونية وفيرة، وبما أنّ أعصابه كانت تُسبّب له الجوعَ فإنّه لم ينقطع عن المضغ منذ خرجوا في الصباح. راقب، متحصّناً في مخبئه، الآخرَين، اللذين مررا حبالاً فوق أغلظ الأغصان لشجرتين، وضعا الحبال كما رأيا رعاة البقر يفعلون ووضعا بأفضل طريقة بعض الأغصان المغطّاة بجلد الوعل، الذي يستخدمانه حين يخرجان للصيد مع الهنود. وضعا تحت الجلدِ لحمَ أرنبٍ طازجاً وكرة مشبعة بالشراب المنوِّم. بعدها جريا باتجاه العنبر ليشاطرا غارثيّا عصرونيّته.

كان الرفاق قد استعدّوا لقضاء يومين هناك، لكنّ الأمر لم يستلزم كلّ هذا الوقت، لأنّه بعد ذلك بقليل ظهر الدبّ، الذي أعلن عنه نهيق البغال. كان ذكراً عجوزاً ضخماً إلى حدّ كافٍ. كان يتقدّم مثل كتلة مرتجّة من الشحم والجلد الداكن، مترنحاً من جانب إلى آخر برشاقة وظرافة غير متوقّعتين. لم يسمح الصبية لمظهر الفضول الوديع عند البهيمة أن يخدعهم، فهم كانوا يعرفون ما هو قادر على فعله، ودعوا الله ألا تحمل النسمة الرائحة الآدمية ورائحة البغال إليه. إذا ما هجم الدبّ على العنبر فالباب لا يُقاوِم. حام الحيوان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عدّة مرات في المنطقة وفجأة رأى ما بدا وعلاً جامِداً. نهض على ساقيه ورفع يديه وعندها استطاع الأطفال أن يروه كاملاً، كان الأمر يتعلّق بدبّ عملاق بطول ثمانية أقدام. أطلق زمجرة حانقة، ضرب بيديه ضربات مُهدّدة وانقضّ على الفور بثقله الهائل على الجلد ساحقاً الفخ الواهن الذي كان يحمله. رأى نفسه مضعضعاً على الأرض لا يعرف ماذا جرى، لكنّه سرعان ما استفاق ونهض. وعاد ليُهاجم الوعل المزيّف بمخالبه ويكتشف اللحم المخبّأ تحته ويلتهمه بكدمتين. مزّق الجلدَ باحثاً عن طعام يقيته أكثر، وحين لم يجده عاد وانتصب على ساقيه الخلفيتين مرتبكاً. تقدّم خطوةً وداس الحبلين من وسطهما ففعّل الفخّ. وفي لحظة انشدّ الحبلان وبقي الدب عالقاً متدلّياً برأسه إلى الأسفل بين الشجرتين. احتفل الصبية بالانتصار القصير صارخين، لأنّ وزن الحيوان الذي ترنّح في الهواء حطّم الأغصان. لاذ دييغو وبِرناردو وغارثيّا مذعورين بالعنبر مع البغال، باحثين عن شيء يدافعون به عن أنفسهم، بينما الدبّ في الخارج مطروحاً على الأرض، يحاول أن يُخلّص ساقه اليمنى من الحبل، الذي ما زال يربطه إلى أحد الغصنين، مجاهداً برهة طويلة وهو في كلّ مرّة أكثر هياجاً وغضباً، وبما أنّه لم يستطع الإفلات تقدّم جارّاً الغصن.

- والآن؟ - سأل بِرناردو بهدوء مزيّف.

- الآن ننتظِر - ردّ دييغو.

حين لاحظ وجود شيء ساخِن بين ساقيه ورأى بقعة تنتشر في بنطلونه فقد غارثيّا عقله وراح يصرخ من أعماق نفسه. انقضّ عليه بِرناردو وأغلق فمه، لكنّ كان قد فات الأوان. لقد سمعهم الدبّ. استدار نحو العنبر وخبط البابَ بيديه عدّة خبطات، هازّاً بهذه الطريقة البناء الهشّ، بحيث تداعت بعض الألواح من السقف. في الداخل كان دييغو ينتظر أمام الباب وسوطه في يده وبِرناردو يهزّ قضيباً حديدياً وجده في العنبر. من حسن حظهم أنّ البهيمة كان

منهكاً من السقطة عن الشجرة ومنزعجاً من الغصن المربوط إلى ساقه. خبط الباب خبطة أخيرة، دون حماس شديد وابتعد متعثّراً باتجاه الغابة، لكنّه لم يصل بعيداً، لأنّ الغصن علق بين جذعين من جذوع المنشرة، فتوقّف متجمداً. لم يكن باستطاعة الصبية رؤيته، لكنّهم سمعوا زمجراته البائسة برهةً طويلة إلى أن راحت تتباعد متحوّلة إلى أنينِ إذعانٍ وتوقّفت نهائيّاً.

- والآن؟ - عاد برناردو ليسأل.

- الآن يجب وضعه في العربة - أعلن دييغو.

- هل أنت مجنون؟ لا نستطيع أن نخرج من هنا! - صاح غارثيّا، وقد تعفّر بنطلونه ونتن.

- لا أدري كم سيبقى نائماً. إنّه ضخم جدّاً وأعتقد أن جرعة منوّم جدّتي معدّة لحجم رجل. علينا أن نفعل ذلك سريعاً، لأنّه لو استيقظ لفرمنا - أمر دييغو.

تبعه برناردو دون أن يطلب مزيداً من التوضيحات، كما كان يفعل دائماً، لكنّ غارثيّا تخلّف منكمشاً في بركة قذاراته ذاتها يئنّ بالقليل مما تبقى لديه من نَفَس. وجدوا الدبّ على ملقى ظهره، تماماً كما سقط بفعل المُخدِّر، على مسافة قصيرة من العنبر. كانت خطّة دييغو تقتضي أن يبقى الدب نائماً معلّقاً بالمصيدة إلى الشجرتين، كي يتمكّنوا من وضع العربة تحته وتركه يسقط فيها. والآن عليهم أن يرفعوا العملاقَ إلى العربة. تحسّسوه بالعصا عن بعد وبما أنّه لم يتحرّك، تجرّؤوا على الاقتراب منه. كان أكبر سنّاً مما توقّعوا: كان ينقص إحدى يديه مخلبان، وعنده عدد من الأسنان المكسورة، كان هناك بقع بلا شعر وندوب قديمة. صفعهم نَفَسَه النتن في وجوههم، لكنّه لم يكن شيئاً يدفعهم للتراجع، شرعوا بربط فرطوسه وسيقانه الأربع بالحبال. ارتجلوا في البداية حِيطات، ما كانت لتقيدهم لو استيقظ الوحش، لكن حين تأكّدوا من أنّه كان كالميت سرّعوا عملهم.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وما أن ثبّتوا الدبّ، حتىٍ ذهبوا في طلب البغال المسكينة، المشلولة ذعراً. استخدم بِرناردو معها الهمس في الأذن كما كان يفعل مع الخيول الهائجة فاستجابت له. اقترب غارثيّا بحذرٍ، بعد أن تأكّد من أن شخير الدبّ كان صحيحاً، لكنّه كان يرتعد ورائحته كريهة إلى حدّ أنّهما أرسلاه كي يغتسل ويغسل البنطلون في الجدول. استخدم برناردو وديیغو الطريقة المعتادة من قبل رعاة البقر لرفع البراميل: ثبّتا حبلين في طرف العربة المائلة ومرّراهما من تحت الحيوان، ثم من فوقه بالاتجاه المعاكس، ثمّ ربطا طرفيهما إلى البغلين وجعلاهما يجرّانه. في المحاولة الثانية تمكّنا من جعله يتدحرج وهكذا رفعوه شيئاً فشيئاً إلى العربة. انقطع نفسهما من الجهد الوحشي، لكنّهما نجحا في مقصدهما. تعانقا قافزين قفزات مجانين، فخورين كما لم يكونا قط. علّقا البغال إلى العربة واستعدا للعودة إلى القرية، لكنّ ديیغو أحضر قبل ذلك مرطباناً من القطران حصل عليه من مستودعات النفط بالقرب من منزله وألصق به قبّعة مكسيكية على رأس الدب. كانا مُنهكين، مبلّلين بالعرق ومشبعين برائحة الوحش الكريهة، بالمقابل تحوّل غارثيّا إلى كتلة من الأعصاب، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه وما زالت تفوح منه رائحة البول وثيابه مبلّلة. كانت المهمّة قد استهلكت منهم قسماً كبيراً من المساء، لكنهم حين ساقوا البغال في طريق لاس أستيّاس كان مايزال أمامهم ساعتين أو أكثر من الضوء. سرّعوا سيرهم وتمكنوا من الوصول إلى الطريق الملكي تماماً قبل أن ينسدل الظلام. ومن هناك تابعت البغال المنهكة طريقها بالغريزة بينما الدبّ يشخر في سجن الحبال. كان قد أفاق من الخبل الذي سببه مخدّر البومة البيضاء، لكنّه بقي مشوّشاً.

حين دخلوا إلى لوس أنجلوس كان الليل مُطبِقاً. وعلى ضوء بعض قناديل الزيت، أفلتوا قائمتي الحيوان الخلفيّتين، وأبقوا على القائمتين الأماميّتين والفرطوس مكبّلة وزحزحوه حتى ارتمى خارج العربة وانتصب على أقدامه، دائخاً، لكنه على حالة من

الهيجان. بدؤوا يصيحون بأعلى أصواتهم وسرعان ما أطلّ بعض الناس من بيوتهم بالقناديل والمشاعل. امتلأ الشارع بالفضوليين يتأمّلون أغرب المشاهد: دييغو دِ لابِغا يتقدّم شاداً بحبل دبّاً هائل الحجم، يترنّح على ساقين وعلى رأسه قبّعة، بينما برناردو وغارثيّا ينخسانه من الخلف. التصفيق والهتافات المحيية ستبقى تدوي أسابيع في مسامع الفتية الثلاثة. بعدها ملكوا الوقت الكافي كي يُقدّروا خطورة تهوّرهم ويتعافوا من العقوبة المستحقة التي أُنزلت بهم. لا شيء استطاع أن يعتّم على النصر المتألّق لتلك المغامرة. لاشيء استطاع أن يُعتّم عليها. لم يزعجهم كارلوس وأتباعه بعدها.

مأثرة الدبّ، المبالَغ بها والمزيّنة حتى حدود المستحيل، مضت من فم إلى فمٍ وعبرت مع الزمن مضيقَ بيرينغ، يحملها تجّارُ جلود القُضاعة ووصلت حتى روسيا. لم ينجُ دييغو وبِرناردو وغارثيّا من الصفعة التي كالها لهم آباؤهم، لكنّ أحداً لم يُجادل في استحقاقهم لقب الأبطال. سكتوا جيّداً، هذا صحيح، عن ذكر مغلي البومة البيضاء المنوِّم. بقي صيدهم في حظيرة معرَّضاً لسخرية وحجارة الفضوليين عدَّةَ أيّام، ريثما يبحثون له عن أفضل ثور كي يُصارِعه، لكنّ دييغو وبِرناردو أشفقا على الدبّ الأسير فأطلقا سراحه في الليلة السابقة على المصارعة.

في تشرين الثاني، والناس ما زالوا لا يتكلّمون عن شيءٍ آخر، هاجمَ القراصنةُ البلدة. باغتوها بخبرةِ سنواتٍ طويلة من الشرّ، مُقتَربين من الشاطئ دون ان يُشاهَدوا، في سفينة شراعية بصاريتين مُجهّزة بأربعة عشر مدفعاً خفيفاً قامت بالرحلة من أمريكا الجنوبية، ضالة عبر هاواي للاستفادة من الريح التي تدفعهم إلى كاليفورنيا العليا. كانوا يترصّدون صيد السفن المحمّلة بكنوز أمريكا، المخصّصة لخزائن إسبانيا الملكية. نادراً ما كانوا يُهاجمون البرّ، لأنّ المدن المهمّة تستطيع أن تُدافِع عن نفسها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والأخرى كانت أفقر من اللازم، لكنّهم أبّدوا في إبحارهم دون أن يُحالفهم الحظّ، والملاحة بحاجة إلى الماء الطازج وحرق بعض الطاقة. قرَّر القبطان زيارة لوس أنجلوس، على الرغم من أنّه لم يكن يأمل بالعثور على شيء مهمّ هناك، غير الغذاء والكحول وبعض اللهو لفتيته. كانوا يعتمدون على أنّه لن تكون هناك مقاومة، لأنّ سمعتهم السيّئة، التي كانوا ينشرونها بأنفسهم، قد سبقتهم، قصص الدم والحرائق المريعة وكيف أنّهم كانوا يفرمون الرجال فرماً وينتزعون أحشاء النساء الحوامل ويشكّون الأطفال بالكلاليب ويُعلِّقونهم إلى الصواري كذكرى لحربهم. كانت سمعة بأنهم برابرة تناسبهم. كان يكفيهم بأن يُعلنوا في هجومهم عن أنفسهم بعدة طلقات مدفعية أو أن يظهروا مطلقين عواءاتهم كي يهرب السكان مثل الطير فيأخذون بهذا الشكل الغنيمة دون الحاجة للقتال. أنزلوا المرساة واستعدوا للهجوم. حدث أنّ طلقات مدافع السفينة لم تُجدِ، لأنّها لم تُدرك لوس أنجلوس. نزلوا في قوارب ومداهم بين أسنانهم وسيوفهم في أيديهم مثل قبيلة من الشياطين. صادفوا في منتصف الطريق مزرعةَ دِ لابِغا. كان منزل القرميد الكبير، بسطوحه الحمراء ونباتاتِ الجهنمية البنفسجية المتسلقة على الجدران، وبستان برتقالِه وجوّ السلام والنعمة اللطيف المخيّم عليه، لا يُقاوم بالنسبة لهواء البحارة الأفظاظ، الذين مضى عليهم زمن طويل يعيشون على الماء الأخضر واللحم المُقدّد المتفسّخ والبسكويت المدوَّد والقاسي مثل حجارة مكلّسة. لم يفِد أنّ القبطان زمجر قائلاً إن هدفه البلدة. فقد انقضَّ الرجال على المزرعة رافسين الكلاب، مُطلقين النارَ بغزارة على الجنائنيين الهنديين اللذين كان من سوء حظّهما أنّهما اعترضاهم.

كان ألِخاندرو دِ لابِغا في تلك اللحظات في مدينة المكسيك، يشتري أثاثاً أكثر نعومة من أثاث بيته الثقيل، القطيفةَ الذهبية لصنع الستائر، أطقمَ الشوك والملاعق والسكاكين الفضية القويّة، الصحون الإنكليزية وكؤوس الزجاج النمساوية. كان يُفكّر أن يُحرك مشاعر

رِخينا بهذه الهدية الفرعونية، ويرى ما إذا كانت ستتخلّى وللأبد عن عاداتها الهندية وتميل إلى الرهافة الأوروبية التي كان يريدها لعائلته. كانت تجارته تسير بشكلٍ جيّد ويستطيع لأوّل مرّة أن يتمتع بالعيش كما يليق برجل له نسبه. لم يكن يخطر بباله أنّه بينما هو عائد سيكون ثمن السجاجيد التركية، كان مهاجمة ستة وثلاثين عديم ضمير لبيته.

استيقظت رِخينا على نباح الكلاب الهائجة. كانت غرفة نومها تقع في بريج صغير، القاعة الوحيدة في بناء المنزل الأفطس والثقيل. كان النور الخجول لتلك الساعة المُبكِّرة يُضيء السماء بتدرجات اللون البرتقالي ويدخل من نافذتها، الخالية من الستائر أو الأباجورات. تلفّعت بشالٍ وخرجت حافية إلى الشرفة لترى ماذا كان يجري للكلاب في اللحظة التي كان يدفع فيها المهاجمون باب الحديقة الخشبيّ. لم يخطر لها أنّهم قراصنة، لأنّها لم ترهم قط، لكنّها لم تتوقّف لتتأكّد من هويتهم. دييغو الذي كان في العاشرة من عمره، وما يزال يشاطر أمّه السرير في غياب والده، رآها تجري مسرعة بقميص النوم. أخذت رِخينا في طريقها سيفاً وخنجراً كانا معلّقين على الجدار، ولم يُستخدما منذ تخلّى زوجها عن وظيفته العسكرية، لكنّهما ما يزالان مسنونين، وهبطت السلّم مناديةً الخدمَ بأعلى صوتها. قفز دييغو من السرير وتبعها. كانت أبواب المنزل من السنديان ويوصدونها في غياب ألِخاندرو من الداخل بعارضة حديديّة ثقيلة. انفجر حنق القراصنة على هذا العائق المنيع وهو ماسمح لِرخينا بأن توزّع الأسلحة النارية المخبّأة في الصناديق والاستعداد للدفاع.

دييغو، الذي لم يصحو تماماً بعد وجد نفسه أمام امرأة مجهولة لا تكاد تملك ملمحاً واحداً مألوفاً. فقد تحوّلت أمّه خلال ثوان قليلة إلى ابنة الذئب. وقف شعرها وبرقت عيناها بريقاً وحشياً منحها مظهر مجنونة وكشرت عن أسنان قاتلة، مطلقة زبداً من فمها،

مثل كلب مسعور بينما هي تعوي بأوامرها على المستخدمين باللغة الأصلية. كانت تهزّ السيف بيد والخنجر بيد أخرى حين انهارت الأباجورات التي كانت تحمي نوافذ الطابق الرئيسي، واندفع أوّل القراصنة إلى داخل المنزل. على الرغم من دويّ الاقتحام استطاع دييغو أن يسمع صيحةً بدت صيحة فرح أكثر مما هي صيحة رعب، خرجت من الأرض، جابت جسدَ أمّه وهزّت الجدران. منظر تلك المرأة التي لا يكاد يُغطيها قميص نوم رقيق، تخرج للقائهم هازّة بسلاحيها الفولاذيّين بقوة محالة على من هو بحجمها باغتت المقتحمين لثوانٍ. وهذا ما منح المستَخدمين، الذين كانوا يجهزون الأسلحة، الفرصة كي يُطلقوا النار، فسقط اثنان من القراصنة على وجهيهما بفعل النيران وترنّح آخر، لكنّهم لم يكادوا يُعبّئون أسلحتهم حتى كان اثنا عشر آخرون يتسلقون النوافذ. أخذ دييغو شمعدانا حديدياً ثقيلاً وخرج للدفاع عن أمّه، بينما هي تتراجع نحو الصالون. كانت قد أضاعت السيف وتمسك بالخنجر بكلتا يديها وتوجّه ضربات عمياء ضدّ اللصوص الذين يُحاصرونها. أدخل دييغو الشمعدان بين ساقي أحدهم بقذفه على الأرض، لكنّه لم يتمكن من ضربه بالعصا لأنّ رفسة وحشية على صدره قذفت به على الجدار. لم يعرف قط كم بقي هناك فاقداً الوعي، لأنّ الروايات التي أعطيت عن الهجوم فيما بعد كانت متناقضة. بعضهم قال ساعات، وآخرون قالوا إنّ القراصنة قَتَلوا خلال دقائق كلّ من صادفوه في طريقهم، وحطّموا ما لم يستطيعوا سرقته وأضرموا النار بالأثاث قبل أن يشرعوا بالزحف على لوس أنجلوس.

حين استعاد دييغو وعيه كان المُجرمون ما يزالون يجوبون المنزل بحثاً عما يحملونه وبدأ دخان الحريق يتوغّل في الشقوق. نهض على قدميه بألم رهيب في صدره فراح يتنفّس كمن يرشف شيئاً، وتقدّم متعثّراً، ساعلاً، منادياً أمّه. وجدها تحت منضدة الصالون الكبيرة بقميصها الشفاف المُبلّل بالدم، لكنّها كانت صاحيةً، مفتوحة العينين. «اختبئ، يا بُنيّ!» أمرته بصوت متماسك

وغابت عن الوعي. أخذها دييغو من ذراعيها وجرّها باتجاه المدخنة بجهد جبّار لأنّ أضلاعه كانت مسحوقة من الرفسة التي تلقاها. استطاع فتح الباب السرّي، الذي وحدهما هو بِرناردو كانا يعرفان بوجوده، وسحبها باتجاه النفق. أغلق البابَ من الجانب الآخر وبقي هناك في الظلمة ورأس أمّه على ركبتيه، يناديها ماما، ماما، ويتوسل الله وأرواح القبيلة ألا تدعها تموت.

بِرناردو كان بدوره في فراشه حين بدأ الهجوم. كان نائماً مع أُمّه في إحدى الغرف المخصّصة للخدم، على الطرف الآخر من المنزل. كانت غرفتهم أكبر من زنزانات بقية الخدم الخالية من النوافذ، لأنّها كانت تُستَخدَم أيضاً لكي الثياب، المهمّة التي لم تكن آنا تُفوّض بها أحداً. كان ألِخاندرو دِ لابِغا يشترط أن تكون طيات القمصان في حالة تامّة، وكانت تُباهي بأنها تكويها بنفسها. إضافة إلى سرير ضيّق فراشه من القشّ وصندوق مضعضع تحفظ فيه ممتلكاتها البائسة، وكان في الغرفة منضدة طويلة للعمل وإناء حديديّ لجمر المكاوي، وسلّتان هائلتان للثياب النظيفة. كانت آنا تُفكِّر بكيّها في اليوم التالي. وكانت الأرضية من التراب وعلى الباب يتدلّى من العتبة لحاف صوفيّ يقوم مقام الباب، وكان النور والهواء يدخلان من النافذتين الصغيرتين.

لم يستيقظ بِرناردو على صيحات القراصنة ولا على صوت الطلقات على الطرف الآخر من المنزل، بل على الى الهزّات التي هزّته بها آنا. ظنّ أن الأرضَ تهتزّ، كما في مرّاتٍ سابقة، لكنّها لم تمنحه الوقت كي يُفكِّر، فأخذته من ذراعه ورفعته بقوّة نابضٍ وبقفزة واحدة قادته إلى الطرف الآخر من الغرفة. وحشرته بدفعة واحدة داخل إحدى السلّتين الكبيرتين. «لا تتحرَّك، مهما حدث؛ هل فهمت؟» كانت نبرتها من الصرامة بحيث بدا لبِرناردو أنّها تُكلِّمه بكراهية

خفيّة، فهو لم يرها مضطربة قط. فأمّه كانت أسطوريةَ العذوبة والوداعة والرضى على الرغم من أنّها لم تكن تفيض عنها أسباب الفرح. كانت تكرّس نفسها لعبادة ابنها وخدمة أسيادها، بما ينسجم مع حياتها المتواضعة وانعدام القلق في نفسها، ومع ذلك في تلك اللحظة الأخيرة لها مع بِرناردو قست قسوة الجليد. أخذت حزمة من الثياب وغطّت بها الطفل، ساحقة إياه نحو قاع السلّة. من هناك سمع بِرناردو تلفّه ظلماتُ الخرقِ البيضاء، وتخنقه رائحةُ النشا والرعبُ، صياحَ وكلامَ وقهقهاتِ الرجال الذين دخلوا الغرفة، حيث كانت تنتظرهم آنا والموت مكتوب على جبينها، مستعدة لإلهائهم الوقت الكافي كيلا يعثروا على ولدها.

كان القراصنةُ مُستعجلين وكفتهم نظرة ليلاحظوا أنه لا يوجد في غرفة الخادمة شيءٌ له قيمة. ربّما أطلوا من العتبة وعادوا أدراجهم لكنّ هناك كانت الشابة ابنة البلد الأصلية تتحدّاهم بذراعين مفتوحتين واستعداد انتحاريّ، ووجه مستدير وغطاء رأس ليلي ووركين نبيلين وثديين مشرئبين. لقد جابوا المُحيطَ خلال سنة وأربعة أشهر دون وجهة محدَّدة، ودون أن يواسوا أنفسهم بالنظر إلى امرأة. في الوهلة الأولى اعتقدوا أنّهم أمام سراب، مثل الكثير الذي كان يُضنيهم في عرض البحر، لكن رائحة آنا السكريّة لفحتهم فنسوا السرعة. وبشدّة يدٍ خلعوا قميص كتانها الخشن الذي كان يُغطّي جسدها وارتموا فوقها. لم تقاوم آنا. تحمّلت بصمت القبرِ كلّ الذي خطر ببالهم أن يفعلوه بها. حين سقطت على الأرض، مملوكة من الرجال، كان رأسها من القرب من سلّة بِرناردو بحيث استطاع أن يحصي أنّات أمّه الواهنة، المكتومة بلهاث مهاجميها الوحشيّ واحداً فواحداً.

لم يتحرَّك الطفل تحت تلّ الخرق الذي يُغطّيه، هناك عاش كلّ عذاب أمّه، التي شلّها الذعر. كان متكوّماً في السلّة، فارغ الرأس،

يتصبّب صفراء، يرتعد غثياناً. وبعد وقت لا نهائي انتبه إلى الصمت المُطلق ورائحة الدخان. ترك لحظة تمر، حتى لم يعد يستطيع المزيد، لأنّه كان يختنق، نادى آنا بهدوء. لا أحد أجابه. عاد وناداها عبثاً مرّتين ثمّ تجرّأ أخيراً وأطلّ برأسه. كانت تدخل من شقّ الباب دفقاتُ الدخان، لكنّ حريق المنزل لم يصل إلى هناك. اضطرّ بِرناردو المتخدّر من التوتّر والركود أن يبذل جهداً كي يخرج من السلّة. رأى أمّه في المكان ذاته التي سحقها فيه الرجالُ، عاريةً وشعرها الأسود الطويل منشوراً مثل مروحة على الأرض ورقبتها مذبوحة من أذنها إلى أذنها الأخرى. جلس الطفلُ إلى جانبها، وضمّ يدها بهدوء وصمت. بقي سنوات طويلة بعدها لاينطق بكلمة واحدة.

هكذا وجدوه، بعد ساعاتٍ، أخرسَ، ملطخاً بدمِ أمّه، بينما القراصنة يُبحرون بعيداً. كان أهل لوس أنجلوس يحصون قتلاهم ويطفئون حرائقهم، لم يخطر لأحد أن يذهب ويرى ماذا جرى في مزرعة دِ لابِغا، إلى أن هرع القسُّ مِندوثا مع ستة من المعتنقين الجدد، ليأخذ المكان على عاتقه، مدفوعاً بحدسٍ كان يعيشه فلم يستطع تجاهله. كانت النيران قد أتت على الأثاث ولامست بعض العضائد، لكن البيت بقي متماسكاً، وحين وصل كانت النيران تنطفئ من تلقاء ذاتها. كان الهجوم قد خلّف عدداً من الجرحى وخمسة قتلى بما فيهم آنا، التي وجدوها كما تركها القتلة.

ـ حمانا الله ـ صاح القسُّ مِندوثا عندما وجد نفسه أمام تلك الفاجعة.

غطّى جسد آنا ببطانية وحمل بِرناردو بين ذراعيه المفتولتين. كان الطفل متحجّراً، جامِد النظرة، وعلا وجهه ذعرٌ شلّ حنكيه.

ـ أين السيّدة رِخينا ودييغو؟ ـ سأل المُبشِّرُ، لكنّ بِرناردو لم يبدِ ما يدل على أنّه سمعه.

تركه بين يدي هنديّة من هنديات الخدمة، التي هودت له في

حضنها مثل رضيع على صوت صلاة حزينة بلغتها، بينما راح هو يطوف في البيت ويصيح باسم المفقودِ منهم.

مرّ الزمن في النفق دون تبدّلات، لأنّ نور النهار لم يكن يصل إلى هناك، وكان من المحال تقدير الساعة في تلك الظلمات الأبديّة. لم يستطِع دييغو أن يتكهّن بما كان يجري في المنزل، إذ أيضاً لم تكن تصل إليه أصوات الخارج ولا دخان الحريق. انتظر دون أن يعرف ما كان ينتظر، بينما رِخينا تخرج وتدخل واهنةً في غيبوبتها. كان الطفلُ ينتظر، بلا حراكٍ، كيلا يُعكّر صفو أمّه، على الرغم من ألم الرفسة، التي كانت تغرز مع كلّ نَفَسٍ خناجرَ في صدره، والتنميل المريع في ساقيه المتخدّرتين. كان الإنهاك يهزمه في بعض اللحظات، لكنّه لا يلبث أن يستيقظ مُحاطاً بالظلمات، دائخاً من المعاناة. شعر أنّه يتجمّد برداً فحاول عدّة مرّات أن يهزّ أعضاءه، لكنّ خمولاً قاهراً يعتريه فيعود ليكبو برأسه، غارقاً في ضباب قطنيّ. في هذا الفتور مرّ قسم كبير من النهار، إلى أن أطلقت رِخينا أخيراً أنّةً وتحرّكت فاستيقظ مذعوراً. حين تحقّق من أنّ أمّه حيّة، استعاد حيويته دفعة واحدة وغمرته سعادة من رأسه وحتى قدميه وهو ينحني ليغطّي وجهها بالقبل الهاذية. أخذ دييغو رأسها، الذي صار من مرمر، بحذرٍ مُطلق، وأراحه على الأرض. استغرق عدّة دقائق حتى استعاد حركة ساقيه وتمكّن من الحبو بحثاً عن شموعٍ كان قد خبّأها مع بِرناردو لاستحضاراهما للأكاهوِ. سأله صوتُ جدّته بلغة الهنود ما هي الفضائل الخمس الأساسية فلم يستطع تذكّر أيّاً منها غير الشجاعة.

فتحت رِخينا عينيها على ضوء الشمعة ووجدت نفسها مقبورة في كهفٍ مع ابنها. لم تُسعفها قواها لتسأله عمّا جرى ولا لتواسيه بكلمات كاذبة، فقط استطاعت أن تُشير إليه أن يمزّق قميص نومها ويُضمّد به جرح صدرها. قام دييغو بذلك بأصابع مرتجفة ورأى أنّ

أمّه مصابة بجرح عميق تحت الكتف. لم يعرف ماذا يفعل غير ذلك وبقي ينتظر.

- روحي تخرج، يا دييغو، عليك أن تذهب في طلب المساعدة - تمتمت رِخينا بعد برهةٍ.

قدّر الطفل أنّ باستطاعته أن يصل عبر الكهوف إلى الشاطئ ويستطيع أن يركض من هناك ليطلب المساعدة دون أن يراه أحد، لكنّ هذا يستغرق منه زمناً. وباندفاع قرّر أنّ الأمر يستحقّ المغامرة بأن يطلّ من باب المدخنة المخادع كي يتحقّق من الوضع في المنزل. كان الباب مموَّهاً جيّداً خلف كومة الجذوع في الموقد ويستطيع أن يُلقي نظرة دون أن يُرى حتى ولو وُجِد ناسٌ في الصالون.

أوّل ما أحسّ به حين فتح الباب كانت رائحة الحريق الزنخة وصفعة الدخان اللتين جعلتاه يتراجع، لكنّه ما لبث أن أدرك أنّ هذا سيسمح له بالتخفّي بشكلٍ أفضل. وبصمت عَبَرَ الباب السرّيَّ مثل قطّ وقرفص خلف الجذوع. كانت الكراسي والسجاجيد ملطخة بالسخام ولوحة سان أنطونيو قد اخترقها الرصاص بالكامل والجدران وعضائد السقف تصدر دخاناً، لكنّ النيران قد أُطفئت. كان يسود المنزل سكون غير طبيعي، افترض أنّه لم يعد في المنزل أحد، وهذا ما شجّعه على التقدّم. انسلّ بحذرٍ على طول الجدران وهو يسعل وعيناه تدمعان، وطاف في غرف الطابق الرئيسي غرفة فغرفة. لم يستطع أن يتخيّل ما حدث، هل ماتوا جميعاً، أم أن أنّهم استطاعوا الهرب. في البهو رأى فوضى غَرَق وبقع دم، لكن لم تكن هناك أجساد الرجال الذين رآهم بأمّ عينه يسقطون في الفجر. تصوّرَ، وهو مشوّش بالشكوك، أنّه غارق في كابوس مرعب، يوقظه منه صوت آنا الحنون تُعلن عن الإفطار. تابع سيرَهُ باتجاه غرف الخدم، يخنقه ضباب الحريق الرماديّ، الذي كان ينبعث مع فتحة باب أو انعطافة على دفقاتٍ. تذكّر أمّه، وهي تموت دون مساعدة، فقرّر أنّه

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

ليس هناك ما يخسره أكثر مما خسره، فنسي الحذرَ وراح يجري في ممرات المزرعة اللانهائية، على غير هدى، إلى أن اصطدم بجسد قاسٍ وذراعين أسراه. صرخ من الخوف وألمِ الأضلاعِ المحطّمة، شعر بالغثيان يعود إليه وبأنّه على وشك أن يُغشى عليه. «دييغو! مُبارَك الربّ!»، سمع صوت القسّ مِندوثا الخشن وشمّ رائحةَ دثاره القديم وشعر بخدّيه سيّئيّ الحلاقة على جبينه وعندها استسلم، طفلاً كما كان، وانفجر باكياً ومتقيّئاً.

كان القسُّ مِندوثا قد أرسل الناجين إلى بعثة سان غابرييل. التفسير الوحيد الذي خطر له لغياب رِخينا وابنها هو أنّ القراصنةَ اختطفوهما، على الرغم من أنّه لم يسمع قط بمثل هذا في المنطقة. كان يعرف أنّهم في بحارٍ أخرى كانوا يأخذون رهائن ليحصلوا على الفدية أو ليبيعوهم عبيداً، لكنّ شيئاً من هذا لم يكن يحدث في ذلك الشاطئ النائي من أمريكا. لم يستطع أن يتخيّل كيف سيُعْلِم ألِخاندرو دِ لابِغا بالخبر المريع. عمل المحال مع الأخوين الفرانسيسكانيين الآخرَين اللذين كانا يعيشان في البعثة كي يُخفّفوا عن الجرحى ويواسوا ضحايا الهجوم الآخرين. كان عليه أن يذهَب في اليوم التالي إلى لوس أنجلوس، حيث كانت تنتظره مهمّة دفن الموتى الثقيلة وجردِ الأضرار. كان منهكاً، لكنّه كان من القلق بحيث لم يستطع أن يذهب مع الآخرين إلى البعثة وفضّل البقاء لتفقّد المنزل مرّة أخرى. وبينما هو في هذه الحال هبط عليه دييغو.

نجت رِخينا بفضل أن القسّ مِندوثا لفّها بالبطانيات وحملها في عربة مهلهلة ومضى بها إلى البعثة. لم يكن هناك وقت لاستدعاء البومة البيضاء، لأنّ الجرح العميق كان ما يزال ينزف ورِخينا تهن على مرأى منهم. أوّل ما قام به المُبشّرون هو إسكارها بالروم، ثم غسلُ الجرح وإخراجُ رأس خنجر القرصان الداخل في عظم الترقوة بكمّاشة ليّ الأسلاك وكيُّ الجرح بحديد محمّى بينما رِخينا تعضُّ على قطعة خشب، كما فعلت عند ولادتها. كان دييغو يسدُّ أُذنَيْه كيلا يسمع

أنينها المخنوق، يُضايقه شعورٌ بالذنب والخزي لإساءته استخدام المغلي المنوّم في لعبة صبيانية، وكان باستطاعته توفيرها لِرخينا في عذابها. كان ألم أمّه عقاباً رهيباً له على سرقته العلاج السحريّ.

عندما نزعوا قميص دييغوا تبيّنوا أن الرفسةَ قد جعلت لون لحمه من الرقبة وحتى الأُربية مزرّقاً. قدّر القسُّ مِندوثا أنّه لا بدّ أنَّ عدداً من أضلاعه قد غارت فصنع له بنفسه مشدًّاً من جلد البقر مقوّى بقضبان من نبات متسّق لتثبيته. لم يكن باستطاعة الطفل أن ينحني أو يَرفع ذراعيه، لكنّه وبفضل المِشَدّ استعاد خلال أسابيع قليلة القدرةَ على استخدام رئتيه تماماً. بالمقابل لم يُشفَ بِرناردو من الضربات لأنّها كانت أخطر من تلك التي تلقاها دييغو. قضى عدّة أيّام في الوضع المتحجّر الذي وجده فيه القسُّ مِندوثا بنظرته الجامدة وأسنانه المشدودة مما اضطرهم إلى اللجوء إلى القمع لتغذيته بعصيدة الذرة. حضر الجنازة الجماعية لضحايا القراصنة، كما حضر دون أيّة دمعة إنزالَ التابوت الذي احتوى على جثمان أمّه في الحفرة. حين انتبه البقيّةُ إلى أنّ بِرناردو لم يتكلّم خلال أسابيع، تبنّى دييغو، الذي رافقه ليلاً ونهاراً دون أن يتركه لحظةً واحدة، الرأيَ القاطعَ بأنّه قد لا يتكلّم بعد الآن أبداً. قال الهنود إنّه بلع لسانه. بدأ القسُّ مِندوثا يُجبره على المضمضة بنبيذ القدّاس وعسل النحل، دهن سقفَ حلقه بعد ذلك بالبَوْرَق، ووضع له لصوقات ساخنة على رقبته، وأطعمه خنافس مسحوقة. وبما أنّه ما من علاج من علاجاته المُرتَجَلة للخرس أعطى نتيجةً فقد اختار الوسيلة القصوى بطرد الشياطين منه بالتعاويذ. لم يحدث أنّه قام بطرد الشياطين قط، فعلى الرغم من معرفته للطريقة، إلا أنّه لم يشعر بالقدرة على مثل تلك المهمة الشاقّة، لكنّه لم يكن في تلك الأنحاء أيّ شخص آخر بمقدوره القيام به. وكان عليه كي يعثر على مُعزِّم مفوّض من التفتيش أن يُسافر إلى المكسيك، بصراحة اعتبر المُبَشِّر أنّ الأمر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لايستحقّ ذلك. درس بعمق النصوصَ ذات الصلة، صامَ يومين كاستعداد، ثم حبس نفسه مع بِرناردو في الكنيسة ليُعارِك الشيطان. لم يلقَ نتيجةً. وخلصَ القسُّ مِندوثا مهزوماً إلى أن الرضّ قد وحَّشَ الطفلَ المسكين ولم يعد يوليه اهتماماً. كَلّفَ بعذاب إطعامه بالقمع معتنقة جديدة والتفت إلى شؤونه. كان منشغلاً بواجباته في البعثة وبمساعدة سكان لوس أنجلوس الروحية بالتغلّب على مآسيهم وبالأمور البيروقراطية التي يُكلّفه بها رؤساؤه في المكسيك التي كانت دائماً أثقل مهامه. كان الناس قد فرغوا من اعتبار بِرناردو أبله عصيّاً على العلاج حين ظهرت البومة البيضاء في البعثة لتأخذه معها إلى قريتها الصغيرة. سلّمه لها المُبشّر، لأنّه لم يكن يعرف ماذا يفعل به، مع أنّه لم يتوقّع أن ينجح سحر الهندية بما فشل هو به بالتعزيم. كان دييغو يموت رغبةً بمرافقة أخيه بالرضاعة، لكنّ قلبه لم يطاوعه أن يترك أمّه، التي لم تُغادر فراش نقاهتها، كما أنّ القسَّ مِندوثا لم يسمح له بركوب الجواد بالمشد. وانفصل الطفلان لأوّل مرّة منذ ولادتهما.

أثبتت البومة البيضاء أنّ بِرناردو لم يبلع لسانَه ـ فقد كان على حاله في فمه ـ وشخّصت أنَّ خرسه نوع من التحدّي، فهو لا يتكلّم لأنّه لا يُريد. وقدّرت أنّ تحت الغضب الذي يلتهم الطفلَ بحرٌ مُحيط من الحزن لا يُسبَر غوره. لم تُحاول مواساته أو مداواته، ففي رأيها أنّ بِرناردو يملك كلّ حقّ العالم بأن يبقى صامتاً، لكنّها علّمتهُ التواصلَ مع روح أُمِّهِ عبر تأمّل النجوم، ومع أمثاله بلغة الإشارات التي كان يستخدمها الهنود من مختلف القبائل للتواصل. ومع الزمن والممارسة سيحصل من هذه الوسيلة البسيطة على أصوات تقارب الصوت البشري. ما كادوا يتركونه بسلام حتى انتعش بِرناردو. العلامة الأولى شراهته، إذ لم يعد يحتاج لأن يُطعموه بأساليب وحشية، والثانية الصداقة الخجولة التي أقامها مع برق الليل(*).

(*) في الأصل برق في الليل. م.

كانت الطفلة تكبره بسنتين وتحمل هذا الاسم لأنّها وُلِدَت في ليلة عاصفة. كانت صغيرة الحجم بالنسبة إلى عمرها ولها ملامح سنجاب لطيفة. استقبلت بِرناردو بشكلٍ طبيعيّ دون أن يعنيها عائق الكلام وتحوّلت إلى رفيقته الدائمة، وحلّت دون أن تدري محلَّ دييغو. لم تكن تنفصل عنه إلا ليلاً، حين كان عليه أن يذهب لينام في كوخ البومة البيضاء، وتذهب هي إلى كوخ عائلتها. كانت برق الليل تحمله إلى النهر، تتعرّى تماماً وتقفز برأسها إلى الماء، بينما هو يبحث عمّا يلهيه كيلا ينظر إليها مباشرة، لأنّه في سنواته العشر كانت قد أثّرت به تعاليم القسّ مِندوثا حول إغواء الجسد. كان بِرناردو يتبعها دون أن يخلع بنطلونه، مستغرباً أنّ لها مقاومته نفسها في السباحة مثل سمكة في الماء المثلج.

كانت برق الليل تعرف عن ظهر قلب تاريخ شعبها وترويه ولاتكلّ من روايته، تماماً كما لم يكلّ من سماعها. كان صوت الطفلة بلسماً لِبِرناردو، يسمعه مبهوراً، لا يدري أنّ الحبَّ بدأ يُذيب جليدَ قلبه. عاد ليتصرَّف كأيِّ طفل في سنِّهِ، وإن لم يكن يتكلّم أو يبكي. معاً كانا يُرافِقان البومةَ البيضاء، يُساعِدانها في أشغال الطبيبةِ والشامان، يجمعان النباتات الطبّيَّةَ ويُحَضّران المغليات الطبية. حين عاد بِرناردو ليبتسم، اعتبرت الجدّةُ أنّه لم يعد بمقدورها أن تفعل أكثر لأجله، وأنّ اللحظة قد حانت لإعادته إلى مزرعة دِ لابِغا. فهي عليها أن تهتمّ بالطقوس والاحتفالات التي تُحددّ أوّل طمث لبرق الليل، التي دخلت فجأة في المراهقة. لم يُبعد هذا الانتقال المفاجئ الطفلةَ عن بِرناردو، بل على العكس بدا أنّه قرَّب بينهما أكثر. وبنوع من الوداع حملته مرّة أخرى إلى النهر ورسمت بدم طمثها على صخرة عصفورين يطيران. «هذان نحن، سنطير دائماً معاً»، قالت له. قبّلها بِرناردو مندفعاً على وجهها وراح يجري مضطرمَ الجسد.

دييغو، الذي كان ينتظر بِرناردو بحزنِ كلبٍ يتيم رآه يأتي من بعيد فجرى ليرحّب به بصيحات فرح، لكنّه حين أصبح أمامه أدرك

أنَّ أخاه في الرضاعة صار شخصاً آخر. جاء، طويلَ الشعر، بوجه هنديّ بالغ ونور حبٍّ سرّيٍّ لا يُخطئ في بؤبؤيه، ممتطياً جواداً مستعاراً. توقّف دييغو مذعوراً، وعندها ترجّل بِرناردو وعانقه ورفعه في الهواء دون جهد عادا ليصبحا التوأمين اللذين لاينفصلان. شعر دييغو أنّه استعاد نصفَ روحه. لم يهمّه مثقال ذرّة أنّ بِرناردو لا يتكلّم، لأنّه ما من أحد منهما احتاج قط للكلمات كي يعرف بماذا يُفكِّرُ الآخر.

فوجئ بِرناردو أنّهم أعادوا بناء البيت المحروق كاملاً. ارتأى ألِخاندرو دِ لابِغا أن يُزيل كلَّ أثرٍ لمرور القراصنة ويستغِلَّ تلك الفاجعة كي يُحسِّن مسكنه. عندما عاد من كاليفورنيا العليا بعد ستّة أسابيع من الهجوم بحمولة فرشه الفاخر لِيُفاجئ زوجتَه وجد أنّه لايوجد كلبٌ واحد ينبح، فالمنزل كان مهجوراً، ومحتواه رماداً وعائلته غائبة. الوحيد الذي خرج للقائه هو القسُّ مِندوثا، الذي وضعه في صورة ما جرى وأخذه إلى البعثة، حيث كانت رِخينا تخطو خطواتها الأولى نحو المعافاة، وهي ما تزال ملفوفة بالضمادات وذراع من ذراعيها مربوطة إلى كتفها. كانت تجربة إطلالتها على الجانب الآخر من الموت قد انتزعت منها حيويتها بضربة مخلب واحدة. كان ألِخاندرو قد ترك زوجةً شابّةً ليأخذها بعد قليل امرأةً ليست إلا في الخامسة والثلاثين من عمرها، لكنّها ناضجة وخصلات رمادية في شعرها. لم تُظهر أدنى اهتمام بالسجاجيد التركية أو أطقم الطعام الفضية المنقوشة التي اشتراها.

كانت الأخبارُ سيّئةً، لكن وكما قال القسُّ مِندوثا، كان من الممكن أن تكونَ أسوأ بكثير. ما دام لا يمكن معاقبة هؤلاء القتلة، الذين لابدّ أنّهم في منتصف الطريق نحو بحر الصين، قرّر دِ لابِغا أن يطوي الصفحة، وانهمك في إصلاح المزرعة. رأى في المكسيك كيف يعيش النبلاء فقرّر محاكاتهم، ليس للفخفخة، بل كي يرث دييغو في المستقبل المنزل ويملأه بالأحفاد، كما كان يقول لتبرير التبذير.

أوصى على مواد بناء وطلب البحث عن مهنيّين من كاليفورنيا السفلى - حدّادين، وفخّارين وحجارين ودهّانين - سرعان ماأضافوا طابقاً آخر، وممرات طويلة ذات أقواس وأرضية من الزُلَيج وشرفة لقاعة الطعام، ورواقاً في الفناء للموسيقيين وبحرات موريسكية صغيرة، وشباك من الحديد المطروق وأبواباً من الخشب المشغول، ونوافذ بزجاج مرسوم. وضع في الحديقة الرئيسية تماثيل، ومقاعد حجرية وأقفاصاً فيها طيور وأصص أزهار وبحرة فيها تمثال الإله نبتون وثلاث حوريات بحر جسّدها النحاتون الهنود عن لوحة إيطالية. عندما وصل بِرناردو كان قرميد السطوح الأحمر قد ركِّب، والوجه الثاني من طلاء الجدران الدراقي اللون قد انتهى، وبدؤوا يفتحون الصناديق التي جاء بها من المكسيك ليزينه بها. وأعلن ألخِاندرو دِ لابِغا أنّه «ما إن تتعافى رِخينا حتى نُدشِّن المنزل بسهرة موسيقية ستتذكَّرُها البلدة بعد مئة سنة»، لكنّ هذا اليوم تأخّر، لأنّه لم تكن تنقص زوجته الحجج المتجدّدة لتأجيل الحفلة.

علّم بِرناردو دييغو لغةَ الإشارات الهندية، التي أثرياها باختراعاتهما، وكانا يستخدمانها حين تخونهما لغة التواصل عن بُعد وموسيقى الناي. وكانا يلجآن حين يتعلق الأمرُ بمسائل أكثر تعقيداً إلى الطباشير والسبورة أحياناً، وكان عليهما أن يفعلا ذلك بحذر كيلا يُعتَبَر غروراً من جانبهما. تمكّن معلِّم المدرسة باستخدام السوط ذي الأذيال السبعة من تعليم الأبجدية لبعض التلاميذ المحظوظين في البلدة، لكن بين هذا والقراءة السهلة كانت توجد هوّة وفي جميع الأحوال لم يكن ليُقبَل أيّ هنديّ في المدرسة. أصبح دييغو بالإكراه تلميذاً نجيباً، وفهم لأوّل مرّة هوس أبيه بالتربية. شرع يقرأ كلّ ما راح يقع في يده. بدت رسالة المبارزة بالشيش ومُختصر المبارزة للمعلّم مانوِل إسكالانتِ كأنّها اختصار لأفكار

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تشبه بشكلٍ ملحوظٍ أكاهوِ الهنود، لأنّه كان يدور أيضاً حول الشرف والعدالة والاحترام والكرامة والشجاعة. في السابق اقتصر على تمثُّل دروس أبيه عن المبارزة وتقليد الحركات المرسومة في صفحات الكتاب، لكنّه حين بدأ يقرؤه عرف أنّ المبارزة ليست مجرّد مهارة في استخدام الشيش والسيف والحُسام بل هي أيضاً فنٌّ روحي. كان القبطان خوسِهْ ديّاث قد أهدى ألِخاندرو دِ لابِغا في تلك الأيام صندوقاً من كتب نسيه أحدُ المسافرين في سفينته بالقرب من الإكوادور. وصل إلى المنزل مغلقاً بقوّة وحين فتحوه تكشف عن محتوى هائلاً من الشعر الملحمي والروايات، مجلدات مصفرّة مرّت على أيدٍ كثيرة وتفوح منها رائحة العسل والشمع. التهمها دييغو بلهفة، على الرغم من أنَّ والده كان يحتقر الروايات كجنس أدبي أدنى، مليء بالأفكار المتقلبة والأخطاء الأساسية والمآسي الشخصية التي ليست من اختصاصه. صارت هذه الكتب إدماناً بالنسبة إلى دييغو وبِرناردو، قرآها مرّات كثيرة حتى انتهيا إلى حفظها عن ظهر قلب. انكمش العالم الذي كانا يعيشان فيه وبدآ يحلمان ببلاد ومغامرات وراء الأفق.

كان دييغو وهو في الثالثة عشر من عمره ما يزال يبدو طفلاً، لكنّ بِرناردو، مثل الكثير من أطفال عرقه، أدرك الحجم النهائي الذي سيكون له في بلوغه. وجهه الجهم النحاسي لم يكن يحلو إلا في لحظات التواطؤ مع دييغو، وحين يداعب الخيول، وفي اللحظات العديدة التي يهرب فيها ليزور برقَ الليل. لم تكبر الفتاة كثيراً في تلك الأيام وكانت قصيرة القامة نحيلة، لها وجه لا يُنسى. وكان مرحها وفرحها وجمالها قد منحاها شهرة حين بلغت الخامسة عشرة فتصارَع عليها أفضل المحاربين من عدّة قبائل. وكان بِرناردو يعيش الخوف الرهيب من أن يزورها ذات يوم فلا يجدها، لأنّها ذهبت مع آخر. كان مظهر الفتى يخدع، فهو لم يكن مفرط الطول ولا

بارز العضلات، لكنّه يملك قوّة غير متوقَّعة ومقاومةَ ثور في العمل العضلي. استحياؤه كان يخدع أيضاً، ليس فقط لأنّ الناس كانوا يظنونه بليداً، بل أيضاً لأنّه كان يبدو حزيناً. في الحقيقة لم يكن كذلك، لأن الأشخاص الذين كان لهم مدخل إلى حياته الحميمة ويعرفونه بعمق سمعوا ضحكته. دائماً كان يرتدي البنطلونَ والقميصَ الكتّانيين اللذين يرتديهما المُعتَنِقون الجدد وإزاراً محاكاً على خصره، ومعطفاً متعدّد الألوان في الشتاء، وربطة على الجبين تردّ شعره الكثيف والمجدول، الذي يصل إلى منتصف ظهره، إلى الخلف. كان فخوراً بعرقه.

كان لِدييغو، بالمقابل، مظهرَ غندور مخادعاً، على الرغم من ملامحه الرياضية وبشرته التي حمّصتها الشمس. ورث عن أمّه عينيها وتمرّدها وعن أبيه عظامه الطويلة وملامحه المنحوتة، أناقته الطبيعية وفضوله للمعرفة. ومن كليهما شجاعة متهوّرة، تلامس أحياناً الجنون، لكنّ من يدري من أين جاء بالظرافة اللعوب، التي لم يظهرها قط أحد من أسلافه، الذين كانوا أقرب إلى الصرامة. لم يكن باستطاعة دييغو أن يمكثَ برهة طويلة ساكناً، فقد كانت تدور في ذهنه أفكار كثيرة في آنٍ معاً لا يكفيه عمر لتنفيذها. في ذلك العمر كان يتفوّق على والده في فنّ المبارزة ولم يكن هناك من يتفوّق عليه في استخدام السوط. وكان بِرناردو قد صنع له واحداً من جلد الثور المجدول يحمله دائماً معلقاً في لفّةٍ متدلياً من زنّاره. لم يكن يضيع فرصةً للتدرّب عليه. كان يستطيع بضربة من رأسه أن يقتلع زهرةً سليمة ويُطفئ شمعةً، كما كان يستطيع أن ينزع سيجارة من فم أبيه دون أن يمسّ وجهه، لكنّ هذه الفكرة الجسورة لم تخطر بباله قط. كانت علاقته بألِخاندرو دِ لابِغا علاقة احترام مرهوب، وكان يناديه بـ حضرتك. ولم يُشكّك قط بسلطته وجهاً لوجه، لكنّه كان يتدبّر أمره ليفعلَ ما يحلو له من وراء ظهره، وكان هذا جرأة أكثر مما هو تمرّد، ذلك أنّه كان معجباً بوالده إعجاباً أعمى وتمثّل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دروسَه الصارمة في الشرف. كان فخوراً بتحدُّرِه من السيد القمبيطور(*)، النبيل ذي السلالة الخالصة، لكنّه لم ينكِر قط جانبه المحلّي، لأنّه أيضاً كان يشعر بالاعتزاز بماضي أمِّه الحربي. وبينما كان ألخِاندرو، الواعي لطبقته الاجتماعية ونقاء دمه، يُحاوِل أن يُخفي هجانة ابنهِ كان هذا يرفع رأسه بها. كانت العلاقة بين دييغو وأمّه حميمة وحنوناً، لكنّه لم يكن يستطيع أن يخدعها، كما كان يفعل من حينٍ إلى آخر مع أبيه. فرِخينا كانت تملك عيناً ثالثة في نقرتها ترى بها ما لا يُرى، وصلابةَ صخر تفرض بها طاعتها.

كان منصب العمدة يُجبِرُ ألخِاندرو دِ لابِغا على السفر كثيراً إلى مقر الحكومة في مونتِرِّيْ. استغلّت رِخينا أحد غياباته لتأخذ دييغو وبِرناردو إلى قرية البومة البيضاء، لأنّها اعتبرت أنَّهما في عمر يُخوّلهما بأن يصبحا رجلين، لكن هذا، مثل أشياء أخرى كثيرة، لم تحكِه لزوجها، تفادياً للمشاكِل، التي ازدادت حدّة في السنوات الأخيرة. وحده الحنين للحبِّ القديم ساعدهما على الاستمرار معاً، على الرغم من أنَّهما كانا يعيشان متباعدَين، ولم يعد هناك الكثير مما يتبادلان حوله الكلام. في السنوات الأولى كان حماس ألخِاندرو الغرامي من الاستعجال بحيث أنّه عاد في أكثر من مرّة من أسفاره وخبّ عدّةَ فراسِخَ فقط كي يكون مع زوجته مدّةَ ساعتين. لم يكن يملّ من تأمُّلِ جمالها الحقيقيّ، الذي كثيراً ما أبهجَ روحَهُ وألهبَ رغبته، بينما يُخجِلُهُ شرطها الخلاسيّ. وكان يتظاهر بكبرياء أنّه يجهل أنَّ المجتمع الاستعماري الشحيح يرفضُها، لكنّه راح مع الزمن يحمّلها مسؤولية هذه المنغّصات؛ وزوجته لم تكن تفعل شيئاً كي يغفر لها

(*) هو رودريغو ديّاث دِ بيبار (1043 - 1099)، فارس قشتاليّ لُقِّب بالقمبيطور أي المنتصر في المعارك، اكتسب شهرة أسطورية في الأدب والتاريخ الإسبانيين. قاتل تحت لواء سانتشو الثاني ملك قشتالة وواجه خليفته ألفونسو السادس، الذي اتُّهم بمقتل سانتشو. كما قاتل تحت لواء ملك إشبيلية، المعتمد بن العبّاد، وملك سرقسطة. احتلّ بلنسية عام 1094 التي حكمها حتى وفاته. كان شخصية متناقضة، لكنّ الحاجة إلى بطل مسيحي حوّلته كما أعتقد إلى بطل أسطوريّ. م.

دمها المختلط، فقد كانت مُشاكِسةً ومتحدِّية. جهدت رِخينا في البداية كي تنسجِم مع عادات زوجها، ولغته ذات الأصوات الخشنة، وأفكاره الثابتة، وديانته الغامِضة وجدران بيته السميكة، وثيابه الضاغطة، وجزمته المصنوعة من جلد الجدي، لكنّ المهمّة كانت هائلة بحيث أنّها انتهت بالاستسلام. حاولت حبّاً به أن تتنازل عن أصلها وتصبحَ إسبانيّةً، لكنّها لم تنجح، لأنّها بقيت تحلم بلغتها. لم تُعلِم رِخينا دييغو وبِرناردو بأسباب الرحلة إلى قرية الهنود، لأنّها لم تبغ أن تُخيفهما مُسبَقاً، لكنّهما تكهّنا بأن الأمر يتعلّق بشيءٍ سرّيٍّ وخاصّ، لا يمكنهما أن يُشارِكا فيها أحداً وخاصّة ألِخاندرو دِ لابِغا.

كانت البومة البيضاء تنتظرهما عند منتصف الطريق. اضطرّت القبيلة أن تذهب بعيداً، مدفوعة من البيضِ إلى الجبال، الذين استمرّوا في احتكار الأرض. كان المستعمِرون في كلّ مرّة أكثر عدداً وأكثر نهماً. بدأت أراضي أعالي كاليفورنيا العذراء تضيقُ بكلّ تلك القطعان وكلّ ذلك الجشع. في السابق كانت التلال مغطاة دائماً بالعشبِ الأخضر، الذي كان بطول الرجل والروافد والأنهار الصغيرة في كلّ مكان، وكانت الأزهار تُغطّي الحقول في الربيع، لكنّ أبقار المستوطنين داست الأرض فيبست التلال. رأت البومةُ البيضاء المستقبلَ في أسفارها الشامانية، وكانت تعرف أنّه ما من وسيلة لوقف الغزاة وأنّ شعبها آيلٌ بسرعة إلى الانقراض. نصحت قبيلتها بالبحث عن مراعٍ أخرى، بعيداً عن البيض، وأشرفت بنفسها على نقل قريتها عدّةَ فراسخ أبعد. كانت الجدّة قد حضّرت لدييغو وبِرناردو أكمل طقس من اختبارات شجاعة المُحارِبين. لم يبدُ لها ضرورياً تعليقهما بكلاّبات مُختَرقين في صدرهما، لأنّهما كانا يافعين أكثر من اللازم على مثل هذا، كما أنّها لم تكن بحاجة لاختبار شجاعتهما. بالمقابل قرّرت أن تضعهما على احتكاك مع الروح العظيمة، كي يكشف لهما عن قدرهما. ودّعت رِخينا الفتيين بكبريائها المعروف مشيرة إلى أنّها ستعود في طلبهما بعد سبعة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عشر يوماً، حين يكونان قد أكملا المراحل الأربعة من معارفهما الأوّلية.

ألقت البومة البيضاء على كتفها بكيس مهنتها، الذي كان يحتوي على آلاتٍ موسيقية وبذوراً ونباتات طبّيةً والتعاويذ السحرية، وراحت تسير باتجاه التلال العذراء بخطوات مشّاءٍ كبيرة. تبعها الفَتَيان، دون أسئلة، يحملان بطانيّتين هما المتاع الوحيد الذي حملاه معهما. سارا في المرحلة الأولى من الرحلة أربعةَ أيّام عبر الأعشاب الكثيفة، لا يقتاتان إلا على جرعات من الماء، إلى أن أحدث الجوعُ والإنهاكُ لديهما حالةً غير طبيعية من اتقادَ البصيرة. فقد تكشّفت لهما الطبيعةُ عن مجدها الغامِض وأحسّا لأوّل مرّة بتَنَوّع الغابة الهائل، وموسيقى النسيم وحضور الحيوانات الوحشية القريب، التي راحت ترافقهما أحياناً مسافات طويلة. في البداية عانيا من خدوش وجراحِ الأغصان وتعب العظام غير الطبيعي، ومن فراغ لا يُدرك غوره في المعدة، لكنّهما راحا في اليوم الرابع يطفوان في الضباب، وعندها قرّرت الجدّة أنّهما أصبحا جاهِزين للمرحلة الثانية من الطقس، فأمرتهما أن يحفرا حفرة يصل عمقها إلى نصف جسمهما وقطرها بطوله، وبينما هي تُحضّر ناراً لتسخين الحجارة قطع الصغيران أغصاناً رقيقة وقشّراها وأشادا فوق الحفرة قبّة غطياها بالبطانيتن. في ذلك المسكن الدائري، رمز الأرض الأمّ عليهما أن يتطهّرا ويقوما برحلتهما بحثاً عن رؤىً مهتديين بالأرواحِ. أشعلت البومةُ البيضاء ناراً مقدّسة محاطةً بالصخور، تمثيلاً لقوّة الحياة الخلاّقة. شرب الثلاثةُ ماءً وأكلا حفنة من الجوز والثمار الجافّة، أمرتهما الجدّةُ بعدها أن يتعرَّيا وعلى قرع طبلتها ومطرقتها جعلتهما يرقصان بجنون ساعاتٍ وساعات حتى سقطا مطروحين أرضاً. قادتهما إلى الملجأ، حيث صفّا الحجارة الملتهبة وأعطتهما شراباً مقززاً من *التولواتشِ* وغاص

الفتَيان في بخار الحجارة الرطبة، دخان البذور ورائحة الأعشاب السحرية والصور التي كانت تحدثها المخدّرات. خلال الأيّام الأربعة التالية كانوا يخرجون من حين لآخر ليتنفّسا هواء رطباً ويجدِّدا النارَ المقدّسة ويحمّيا الحجارة ويتغذيا على بذور بعض الحبوب. يغفيان برهة متعرّقين. كان دييغو يحلم أنّه يسبح مع الدلافين في مياه مثلجة وبِرناردو يحلم بضحكة برق الليل المعدية. قادتهما الجدّة بصلواتها وتراتيلها بينما أرواح كلّ الأزمنة تطوف حول الكوخ في الخارج. في النهار كانت تقترب وعولٌ وأرانب وفهود ودببة وفي الليل تعوي ذئاب وأبناء آوى. نسر راح يحوم في السماء يراقبهما بلا كلل واختفى حين أصبحا جاهزين للمرحلة الثالثة من الطقس.

سلّمت الجدّة كلاً منهما سكيناً وسمحت لهما بأن يحملا بطانيتيهما وأرسلتهما باتجاهين معاكسين، واحداً إلى الشرق وآخر إلى الغرب، بتعليمات أن يتغذيا بما يستطيعان أن يجداه أو يصطاداه، باستثناء الفطر مهما كان نوعه، وأن يعودا خلال أربعة أيّام. وإذا ما شاءت الروح العظيمة، قالت لهما، سيعثران على رؤاهما في هذه المهلة، وإلا فلن يعثرا عليها في هذه الفرصة وسيكون عليهما أن ينظرا أربع سنوات أخرى قبل أن يُحاولا ذلك من جديد. وعند العودة سيكون أمامهما أربعة أيّام كي يرتاحا ويستعيدا حياتهما العاديّة قبل العودة إلى القرية. وقد بلغ الوهن من دييغو وبرناردو في المرحلتين الأوّليتين من الطقس حدّ أنّه لم يعرف أحد منهما الآخر على ضوء الفجر. فقد جفّا وغارت عيونهما في محاجرها واشتعلت نظرتهما بالهذيان وامتطّ جلدهما الرماديّ فوق عظامهما، وعلتهما وحشة بلغت حدّ أنّهما راحا يضحكان، على الرغم من رهبة الوداع. تعانقا متأثّرين وانطلقا كلّ باتجاه.

سارا على غير هدى، لا يعرفان ما يبحثان عنه، جائعين وخائفين، يتغذيان على الجذور الغضّة والبذور إلى أن دفعهما الجوع لصيدِ الفئران والعصافير بالقوس والسهام العظميّة. وكانا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حين الظلام يمنعهما من مواصلة التقدّم يُشعلان ناراً وينامان، مرتعدين برداً، محاطين بالأرواح والحيوانات الوحشية. كانا يستيقظان مخشّبينْ من الصقيع وموجوعين حتى آخر عظم فيهما بتبصّرٍ عادةً ما يأتي في حالات التعب القصوى.

بعد ساعات قليلة من المسير انتبه بِرناردو إلى أنّ هناك من يتبعه، لكنّه حين يلتفت وينظر خلفه لا يرى غير الأشجار، تراقبه مثل عمالقة ساكنة. في الغابة كانت تعانقه سراخسُ براقة الأوراق، وتُحيط به جذوع مفتولة وأشجار تنوّبِ فوّاحة وفضاء أخضر وساكنٌ، تُضيئه بقع ضوء تتسلّل من بين الأوراق. كان مكاناً مُقدّساً. وكان لا بدّ من أن ينقضي جزء كبير من النهار كي يظهر مرافقُه الخجول. كان مهراً أسودَ مثل الليل بلا أمٍّ ومن الحداثة بحيث أنّ أرجله كانت تنطوي. وكان من الممكن، على الرغم من يتمه، التكهّن بالنموذج الرائع الذي سيصير إليه. أدرك بِرناردو أنّه حيوان سحري. فالخيول تسير جماعاتٍ، وفي المراعي، فماذا كان يفعل في الغابة؟ ناداه بأفضل أصوات نايِهِ، لكنّ الحيوان توقّف على مسافة معيّنة، بنظرة متشكّكة ومنخرين مفتوحين وأرجل مرتعدة، ولم يجرؤ على الاقتراب. أخذ الصبيُّ قبضة من العشب الرطبِ، جلس على صخرةٍ، وضعها في فمه وراح يمضغها، قدّمها بعد ذلك للحيوان الصغير في راحة يده، مرت بُرهة طويلة قبل أن يقرّر هذا أن يتقدَّم خطوات قليلة متردّدة. أخيراً مطَّ رقبتهُ واقترب كي يشمّ ذلكَ العشبَ الأخضر، وهو يراقب الصبيَّ بنظرة أوّلية من عينيه الكستنائيَّتين، مقدّراً نواياهُ، وتراجعه في حال كانت الحالة عصيبة. لا بدّ أنّه أحبّ ما رأى، لأنّه سرعان ما لامس بفرطوسه اليدَ الممدودَة كي يُجرب الغذاء الغريب. همس له بِرناردو: «إنّه مختلف عن حليب أمّك، لكنّه أيضاً يُفيد». تلك كانت الكلمات الأولى التي يلفظها منذ ثلاثة أيّام. أحسّ أنّ كلّ واحدة منها كانت تتشكّل في بطنه وتصعدُ مثل كرةٍ قطنية عبر حنجرته وتبقى تدور برهةً في فمه تخرج بعدها ممضوغةً، مثل العشب بالنسبة للمهر، من بين أسنانه. شيء ما تحطّم

في صدره، مثل إناء من صلصال وانسفح كلّ غضبه وشعوره بالذنب وإيمانه بالانتقام المريع في سيلٍ جارف. هوى بركبتيه على الأرض، باكياً، متقيّئاً طيناً أخضر ومرّاً، مرتعشاً من الذكرى المستمرّة لذلك الصباح المشؤوم الذي فقد فيه أمّهُ وفقد معها طفولته أيضاً. قلّبت تلك الهُواعاتُ معدتَه وتركتها فارغةً ونظيفة. تراجع المهرُ خائفاً، لكنّه لم يذهَب، وأخيراً، حين هدأ بِرناردو واستطاعَ أن ينهضَ على قدميه ويبحث عن بركة ماء ليغتسِل، تبعه عن قربٍ. منذُ تلك اللحظة لم ينفصلا خلال الأيّام الثلاثة التالية. علّمه بِرناردو أن ينكش بحافريه الأماميّين بحثاً عن العشب البضّ، وسنده حتى ثبتت أرجله وبدأ يخبُ، ونام معه ليلاً كي يمنحه الدفءَ وسلاّه بنايهِ. «ستُدعى رعداً، إذا أعجبك هذا الاسمُ، كي تجري كالريح» اقترح عليه بنايه، لأنّه عاد ولاذ بعد تلك الجملة بالصمت. فكّر أن يروّضه ليهديه إلى دييغو، لأنّه لم يخطر له حظّاً أفضلَ لهذا المخلوق النبيل، لكنّ المهر كان قد اختفى حين استيقظَ في اليوم الرابع. كان الضباب قد ارتفع والشمسُ راحت تلعق التلالَ بنور فجرها الأبيض. عبثاً بحث بِرناردو عن رعد، منادياً إيّاه بصوت صار أجشّ من قلّة الاستخدام، إلى أن أدرك أنّ المهر لم يأتِ إليه بحثاً عن مالك، بل ليدلّه على الطريق الذي عليه أن يسلكه في حياته. عندها أدرك أن الروحَ الهادية له هي الحصان وأنّ عليه أن يطوّر فضائله: الوفاء، والقوّة والتحمّل. قرّر أن تكون الشمسُ كوكبه والتلالُ عنصره، حيث لا بدّ أنّ رعداً يخبّ في هذه اللحظاتِ كي ينضمَّ إلى قطيعه.

كان دييغو أقلّ إحساساً بالاتجاهات من بِرناردو فضاع سريعاً، كما كان أقلّ مهارة في الصيد فلم يصطد غير فأر صغير، ما إن سلخه حتى صار رزمة عظام محزنة. انتهى به الأمر إلى أن راح يلتهم نملاً وديداناً وضببة. كان منهكاً جوعاً من متطلّبات الأيّام الثمانية السابقة، فلم يعد يملك من القوّة ما يُواجِه به الأخطار التي تترصّد به، لكنّه كان مُصمّماً على ألا يترك العودة تُغويه. كانت

البومةُ البيضاء قد وضَّحت له أنّ الهدف من هذا الاختبار الطويل هو أن يترك خلفه الطفولةَ ويصبحَ رجلاً، ولم يكن باستطاعته أن يُخيّب أملَ جدَّته من منتصف الطريق. ومع ذلك فالرغبةُ بالانفجار بالبكاء راحت ينتصر على تصميمه. لم يكن يعرف الوحشةَ. كان قد ترعرع بجانب بِرناردو، محاطاً بأصدقاء وناس يحتفون به، ولم يكن يشعر بالحاجة أبداً لحضور أمّه غير المشروط. فهو لأوّل مرّة يجد نفسه وحيداً وحدث له هذا في وسط تلك الطبيعة الوحشية تماماً. خافَ ألا يعثر على طريق العودة إلى معسكر البومة البيضاء الصغير. خطر له أن بإمكانه أن يُمضي الأيّام الأربعة التالية جالساً تحت ذات الشجرة، لكنّ اندفاعه الطبيعي دفعه إلى الأمام. وسرعان ما وجد نفسَهُ ضائعاً في رحابة التلال. وقع على رافِدٍ فاستغلّه كي يشرب ويستحمَّ، أكل بعدها الثمار المجهولةَ المقطوفة من الأشجار. ثلاثة غربان، وهي طيور محترمة عند قبيلة أمّه، حامت عدَّة مرَّات على مقربة كبيرة من رأسه، عزاها إلى فألٍ حسنٍ وهذا ما شجَّعه على المتابعة. وعند هبوط الليل وجد فجوةً محميّة بصخرتين، أشعلَ ناراً ولفّ نفسه ببطانيّة ونام على الفور، متوسّلاً اللهَ كيلا يخونه نجمه الحسن، الذي كان بحسبِ بِرناردو ينير له دربه دائماً، لأنّه ليس هناك أدنى فكاهة في أنْ يقطع كلّ تلك المسافة ليموت بين براثن فهدٍ. استيقظ في الليل المطبق على طعم الحموضة التي تسبّبت له بها الفواكه التي تناولها وعواء أبناء آوى قريب. لم يكن قد بقي من النار سوى جمرات خجولة، أمدّها ببعض العيدان، مقدِّراً أنّ تلك النار البائسة المضحكة لا تكفي لإبقاء الضواري على الحدّ. تذكّر أنّه رأى في الأيّام السابقة عدّة أنواع من الحيوانات كانت تحوم حولهم دون أن تمسّهم، ودعا الله ألا تفعل ذلك معه الآن أيضاً وهو وحيد. في تلك اللحظة رأى على ضوء النار عيوناً حمراء تراقبه بثباتٍ شبحيّ. أمسك بسكينه، ظانّاً أنّه ذئبٌ جسور، لكنّه ما إن استوى حتى رآه بشكلٍ أفضل وانتبه إلى أنّ الأمر يتعلّق بثعلب (زورو). استغرب أنّه لا يتحرّك، وبدا له مثل قطّ يتدفّأ على جمر النار. ناداه لكنّ الحيوانَ لم

يقترب، وحين أراد هو أن يقوم بذلك، تراجع بحذرٍ، محافظاً دائماً على المسافة ذاتها بينهما. اعتنى دييغو بالنار برهة، إلى أن أنهكه التعب وعاد فنام، علي الرغم من العواء المتواصل لأبناء آوى البعيدة. كان يستيقظ كلَّ برهة بُغتةً، لا يعرف أين هو، فيجد الثعلب (زورو) الغريبَ في المكان ذاته، مثل روح رقيبة. بدا له الليل أبدياً إلى أن كشفت أنوار الفجر الأولى عن خطّ أفق الجبال. ولم يعد الثعلب موجوداً.

telegram @ktabpdf

لم يحدث في الأيّام التالية أيّ شيءٍ يستطيع دييغو أن يُفسّره على أنّه رؤيا، غير وجود الثعلب، الذي كان يصل مع حلول الليل ويبقى معه حتى الفجر هادئاً ومتيقّظاً دائماً. حاول في اليوم الثالث وهو ضجِر ومنهك من الجوع أن يعثر على طريق العودة، لكنّه لم يكن قادراً على تحديد مكانه. قرّر أنّ من المحال عليه أن يقع على البومة البيضاء، لكنّه إذا هبط التلالَ فسيصل آجلاً أو عاجلاً إلى البحر وهناك سيعثر على الطريق الملكي. شرع بالسير مُفكِّراً بخيبة أمل جدَّته وأمّه حين تعلمان بأنّ جهد تلك الأيّام الهائل لم يمنحه الرؤيا الكاشفة لمصيره، بل محض قلق، وتساءل ما إذا كان بِرناردو أكثر حظّاً منه. لم ينجح في الوصول بعيداً، لأنّه حين مرّ فوق جذع ساقِط وضع ساقه على أفعى. تلقّى لسعة في كعبه وكان لا بدَّ أن تمرّ عدة ثوانٍ قبل أن يسمع خبط الأفعى ذات الأجراس الأكيد وينتبه تماماً لما جرى. لم يَنْتَبْهُ شكّ: فالوغدة كانت رقيقة العنق ومثلثة الرأس ومقطّبة الأهداب. ضربَةُ الذعرُ في معدته ضربةً شبيهة بالرفسة التي رفسه إيّاها القرصان. تراجع عدّة خطوات، مبتعداً عن الأفعى، في الوقت الذي راح يستجمع معلوماته المشوشة عن ذات الأجراس. كان يعلم أنّ السمّ ليس قاتلاً دائماً، فهذا يتعلّق بكمّية السم المحقون، لكنّه كان واهِناً وبعيداً عن أيّ نوعٍ من المساعدة، والموت، إن لم يكن بالسمّ فبالخواء، هو الاحتمالُ الأكبر. كان قد رأى راعي بقرٍ نقلته إلى العالم الآخر زاحفة من هذه الزواحف، استلقى الرجل لينام بعد سكرتَه في متبنٍ ولم يستيقظ بعدها. وكان

قد حمله الربّ، حسب قول القسّ مِندوثا، بخليط من السمّ والكحول إلى حضنه المقدّس، حيث لن يضرب زوجته ثانية. كما تذكّر معالجة الحمار في مثل هذه الحالات: فتح جرحاً عميقاً بالسكين وكواه بفحمة متقدة. رأى أن ساقه تزرقّ، شعر بفمه يمتلئ لعاباً وبوجهه ويديه تُنَمِّل، ويرتعد قشعريرةً. أدرك أنّه بدأ يهذي رعباً وأنّ عليه أن يحسم أمره فوراً، قبل أن يُغيِّم فكره: إذا تحرّك سيجري سمّ الأفعى في جسده بسرعة أكبر، وإذا لم يفعل مات في مكانه. فضّل المتابعة على الرغم من أنّ ركبتيه كانتا تهنان وانتفخت أجفانه بحيث لم يعد يستطيع أن يرى. راح يسرع نازلاً التلّ، منادياً جدّته بصوت هاذٍ بينما راحت قواه تنفد بلا هوادة.

سقط دييغو على وجهه، ونجح بجهد كبير وبطيء في أن ينقلب بوجهه نحو السماء تحت شمس الصباح البرّاقة. كان يلهثُ، يُضنيه ظمأ مفاجئ، ويتصبب كلساً حيّاً، في الوقت الذي كان يرتعد في صقيع قبرٍ. لعن ربّ المسيحيين، لأنّه هجره، ولعن الروح العظيمة، التي سخرت منه بتلك الفعلة الشنيعة، بدل أن تُكافئه وتهديه، كما تعاهدا. فَقَد تواصله مع الواقع وكذلك الخوفَ وراح يطفو في الريح الحارّة، كما لو أنّ تياراتٍ عجيبة راحت تصعدُ به لولبيّاً نحو النور. وفجأة وجد نفسه مشوّشاً أمام احتمال الموت، فاستسلم بطمأنينة هائلة. كان الإعصار الملتهب الذي طفا فيه يدرك السماء، حين هوت الريح وألقت به مثل صخرةٍ في قاع هوّة. رأى، قبل أن يغرق في هذيان مطلق، بومضةٍ من وعيه عَيْنَيّ الثعلبِ الصغيرتين الحمراوين تنظران إليه من الموت.

تخبّط دييغو في الساعات التالية في قطران كوابيسه، وحين نجح أخيراً في التخلص منها والخروج إلى السطح، لم يتذكّر غير الظمأ المطلق وعَيْنَيّ الثعلب الثابتتين. وجد نفسه برفقة البومة البيضاء وبِرناردو، ينيره لهب نار، مُتدثّراً في بطانية. تأخّر برهةً في العودة إلى جسده وجردِ آلامه واستخلاص النتيجة.

ـ قتلتني ذات الأجراس ـ قال ما إن استطاع أن يجرد صوته.

ـ لم تمت، يا بُنيّ، لكنّك أوشكتَ ـ ابتسمت البومة البيضاء.

ـ لم أجتز الامتحان، يا جدّتي ـ قال الصبيُّ.

ـ بل اجتزته، يا دييغو ـ أعلمته هي.

كان بِرناردو قد عثر عليه وحمله إلى هناك. كان الصبيُّ الهنديّ مستعدّاً للعودة إلى حيث البومة البيضاء، حين ظهر له الثعلبُ. لم يشكّ بأنّ المسألة كانت تتعلّق بعلامة، لأنّه بدا له من غير المعهود أن يمرّ ذلك الحيوان ذو العادات الليلية من بين ساقيه في أوج ضوء الشمس. وبدل أن يستجيب لغريزته ويصطاده راح يُراقِبه. لم يهرب الثعلبُ بل استقرّ على مسافة أذرعٍ قليلةٍ ينظر إليه ملتفتاً بأذنين مستنفرتين وفرطوس مرتعش. لو كان الظرف آخر لاقتصر بِرناردو على تسجيل ملاحظاته عن سلوك الحيوان الغريب، لكنّه كان في حالة هذيان وأحاسيسه ملتهبه وقلبه مُشرَّع على التنبؤات. راح يتبعُ الثعلب دون تردّدٍ إلى حيث أراد أن يأخذه، إلى أن وقع بعد فترة على جسد دييغو المتخشّب ورأى ساق أخيه منتفخة بشكلٍ مرعب، فعرف على الفور ما حدث. لم يكن يستطيع أن يضيع لحظةً واحدة، حمله على ظهره مثل كيس وشرع يحثّ الخطى إلى حيث البومة البيضاء، التي وضعت أعشابها الطبية على ساق حفيدها وجعلته يتصبّبُ السمَّ عرقاً حتى فتح عينيه.

ـ لقد أنقذكَ الثعلبُ. إنّه حيوانك الطوطم، دليلك الروحيُّ ـ وضّحت ـ عليك أن تمارس مهاراته، دهاءه، وذكاءه. أمُّك القمر ومسكنك الكهوفُ. سيكون عليك أن تكتشف مثل الثعلب ما تخفيه الظلمةُ، تتظاهر، تختبئ نهاراً وتعمل ليلاً.

ـ لماذا؟ ـ سأل دييغو، مشوّشاً.

ـ ستعرف ذلك ذات يوم، لا يمكن استعجال الروح العظيمة. حضّر نفسك خلال ذلك حتى يأتي هذا اليوم ـ علّمته الجدّةُ.

أبقى الفتيان بحكمةٍ على سرّيةِ الطقس الذي قادته البومة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

البيضاء. كانت الجالية الإسبانية تعتبر تقاليد الهنود أعمال جهل حمقاء، إنْ لم تكن وحشية. لم يكن دييغو يريد أن تصل أية تعليقات إلى أبيه. اعترف لرخينا بالتجربة الغريبة التي عاشها مع الثعلب، دون تفاصيل. لا أحد سأل بِرناردو شيئاً، لأنّ الخرس جعله خفيّاً، وهي حالةٌ لا شك مُفيدة؛ فالناس يتكلّمون ويتصرفون أمامه كما لو أنّه غير موجود، سانحين له الفرصة كي يُراقِب ويتعلّمَ حول ازدواجية الطبيعة البشرية. بدأ يمارس عادة قراءةِ تعابيرِ الجسد فاكتشف أنّ الكلمات لا تتطابق دائماً مع النوايا. خلص إلى أنّ القتلة بشكل عام سهلو اللَيّ، وأنّ العنيفين هم الأقل صراحة وأن العجرفة هي ميّزة الجهلة، وأنَّ المُداهنينِ هم عادة حقراء. تعلّم من خلال المراقبة المنتظمة والموارِبَة فكّ رموز طبيعة الغير وطبّق هذه المعارف في حماية دييغو، الذي كان ذا طبيعة طيِّبة وكان يُكلّفه كثيراً تصوّر مثالبَ في الآخرين غير موجودة فيه. انقطع الصبيّان عن رؤية المهر والثعلب. ظنّ بِرناردو أنّه لمح رعداً عدّة مرّاتٍ يخبُّ وسط قطيع متوحِّش ووجد دييغو في أحد مشاويره كهفاً فيه جراء ثعلب حديثة الولادة، لكنّهما لم يستطيعا أن يربطا أيّاً من هذه الرؤى بالرؤى المعزوّة إلى الروح العظيمة.

في جميع الأحوال لقد طبع طقسُ البومة البيضاء مرحلةً بطابعه. كلاهما تولّد لديه انطباع بأنّه عَبَرَ عتبةً وخلّف وراءه الطفولة. لم يكونا قد شعرا بعد بأنّهما رجلان، لكنّهما كانا يعلمان أنّهما يخطوان الخطوات الأولى في طريق الرجولة الوعر. معاً استيقظا على متطلبات رغبة الجسد المستعجلة، الأقل تحمّلاً من الجاذبية تجاه برق الليل العذبة والمبهمة التي كان يشعر بها بِرناردو منذ العاشرة من عمره. لم يخطر لهما أن يشبعا رغباتهما بين الهنديات الراضيات في قبيلة البومة البيضاء، حيث لا يسود التشديد المفروض من قبل المبشرين على المعتنِقات الجديدات، لأنّ دييغو كان يُكبّله الاحترام المطلق لجدّته بينما كان يكبح بِرناردو حبُّ الجرو لبرقِ الليل. لم يتطلّع بِرناردو لأنّ تبادله حبّه، فهو كان يُدرك أنّها امرأة

كاملة مكتملة، يُغازلها نصف دزينة من الرجال الذين يأتون من بعيد ليحضروا لها الهدايا، بينما كان هو مراهِقاً أخرق، ليس عنده مايُقدّمه لها، وكان فوق ذلك أخرسَ مثل أرنب. كما أنّه ما من أحد منهما لجأ إلى مُوَلِّدات وخلاسيات ماخور روموليبيندا في لوس أنجلوس، لأنّهما كانا يخشيانهنّ أكثر مما يخشيان ثوراً فالتاً، كنّ مخلوقاتٍ من نوعٍ آخر، بأفواه مطليّة باللون القرمزي وبعطر ياسمين يابس نافذٍ. مثل كلّ الصبية في عمرهما ـ باستثناء كارلوس ألكاثار، الذي كان يتبجّح بأنّه مرّ بالتجربة ـ كانا ينظران إلى تلك النسوة عن بعدٍ باحترام ورعب. كان دييغو يخرج مع أبناء نبلاء آخرين إلى ساحة السلاح ساعةَ المشوار. في كلّ دورة حول الساحة يعبرون بفتيات من طبقتهنّ وعمرهنَّ أنفسهنّ، اللواتي لا يكدن يبتسمن، ناظراتٍ شزراً ومخفيات وجوهَهنَّ نصف إخفاء بالمروحة أو بالدثار، بينما هم يتصبّبون في ثياب الأحد عرقاً من حبٍّ مستحيل. لم يكونوا يتبادلون الأحاديث، لكنّ بعضهم، أكثرهم جرأة، كان يطلب إذناً من العمدة ليذهب ويغنّي تحت نوافذ الصغيرات، الفكرة التي هزّت دييغو خجلاً، لأنّ أباه كان، من ناحية من النواحي، العمدة. ومع ذلك سيجد نفسه يلجأ إلى هذه الطريقة في المستقبل، لذلك كان يُمارِس يوميّاً أغانٍ رومانسية على مندولينه.

نظر ألخِاندرو دِ لابِغا برضى كبير إلى ابنه، الذي كان يعتقد أنّه طائشٌ عصيٌّ على الإصلاح، وهو يتحوّل أخيراً إلى الوريث الذي حلم به منذ رآه يولَدُ. جدَّدَ مخطّطات تربيته كفارِسٍ، التي أُجّلت في معمعة إعادة بناء المزرعة. فكّر بإرساله إلى مدرسة دينية في المكسيك، لأنّ الوضع في أوروبا كان ما يزال غير مستقرٍّ الآن بسبب نابليون بونابرت، لكنّ رِخينا ثارت ثائرتها أمام فكرة انفصالها عن دييغو بحيث أنّه لم يتطرّق إلى المسألة إلا بعد سنتين. في هذه الأثناء ضمّ ألخِاندرو ابنَهُ إلى إدارة المزرعة فرأى أنّه أكثر ذكاءً مما تسمح بافتراضه علاماته في المدرسة. فهو لم يفك لغز خربشة الملاحظات والأرقام في دفاتر الحسابات، بل إنّه رفع دخل الأسرة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مكملاً صيغة الصابون ووصفة تدخين اللحم، التي نجح والده في تحقيقها بعد محاولات لا تُحصى من التدخين. ألغى دييغو الصوديوم الاعتباطي في الصابون وأضاف إليه معجون الحليب واقترح تقديمه لسيّدات المستوطَنَة، اللواتي كنّ يحصلن على هذه المواد من البحارة الأمريكيين مخترقاتٍ التشديدات التي تفرضها إسبانيا على تجارة المستعمرات. أن يكون تهريباً ليس همّاً، فالجميع كان يغضُّ الطرف، العائق كان يكمن في أنّ البواخر تجعلهم ينتظرون أكثر من اللازم. لاقى صابون كريم الحليب نجاحاً وكذلك اللحم المُدخَّن، بعد أن تمكّن دييغو من تخفيف رائحة نتن عرق البغل التي كانت تُميّزه. بدأ ألِخاندرو دِ لابِغا يُعامل ابنَه باحترام ويستشيره في بعض المسائل.

حكى بِرناردو لدييغو في تلك الأيّام بلغة العلامات الخاصّة به والملاحظاتِ على اللوح، أنَّ أحد المُلّاك، خوان ألكاثار، والد كارلوس، قد مدّ حدوده خارج الحدود المرسومة على الورق. كان الإسبانيّ قد غزا بقطعانه الجبال، التي لجأت إليها إحدى القبائل الكثيرة التي أبعدها المستوطِنون. رافق دييغو أخاه ووصلا في الوقت المناسب، بينما العرفاء يحرقون الأكواخ يحميهم فصيل من الجنود. لم يبق من القرية إلا الرماد. وعلى الرغم من الرعب الذي سببه لهما المشهد هرع دييغو وبِرناردو راكضين كي يتدخّلا. وقفا دون أن يتفقا وبغريزة واحدة بين المعتدين وأجساد الضحايا. كانت ستدوسهما أرجل الخيول لولا أنّ واحداً عرف ابن السيّد ألِخاندرو دِ لابِغا. في جميع الأحوال أبعداهما ضرباً بالسياط. وعن مسافة معينة رأى الصبيان مذعورين كيف أُخضِع الهنود القليلون الذين تمرَّدوا بالسياط وكيف شُنِق الزعيم، العجوز، إلى شجرة كي يكون عبرةً للآخرين. خطفوا الرجال القادرين على العمل في الحقل أو الجيش وحملوهم مقيَّدين كالحيوانات. وبقي الشيوخ والنساء والأطفال محكومين بالتشرّد في الغابات جائعين قانطين. لا شيء من هذا كان جديداً، فقد كان يحدث باضطراد هو في كلّ مرّة أكبر، دون أن يتجرّأ أحدٌ على التدخُّل، باستثناء القسّ مِندوثا، لكنَّ

احتجاجاته كانت تلاقي آذاناً صمّاء عند بيروقراطية إسبانيا البطيئة والبعيدة. كانت الوثائق تبحر سنواتٍ وتضيع في مكاتب القضاة التي يعلوها الغبار، هؤلاء القضاة الذين لم يطأوا أرضَ أمريكا قط، ويغوصون في مكائد المدَّعين الحقوقيين، وأخيراً إذا قضى القضاة لصالح السكّان الأصليين، لا يكون هناك من يُنفِّذ الحكم على هذا الجانب من المحيط. في مونتِرّي كان الحاكم يتجاهل المطالبَ، لأنّه لا يعتبر الهنود من أولويّاته. وكان الضباط المكلَّفون بالسجون جزء من المشكلة، لأنّهم يضعون جنودَهم في خدمة المستوطنين البيض. لم يكونوا يشكّون بتفوّق الإسبان الأخلاقي، والذين وصلوا مثلهم من مناطق قصيّة بهدف وحيد هو تحضير ومَشيخَة هذه البلاد الوحشية. ذهب دييغو ليُكلِّم والده. وجده، كما هو حاله دائماً في المساء، يدرس معارك قديمة في كتبه عديمة الجدوى، الشاهد الوحيد الذي ما كان ما يزال موجوداً على طموحات شبابه العسكرية. كان ينشر على طاولة طويلة جنوده الرصاصين بحسب إرشادات النصوص، هذا الوله الذي لم ينجح قط في تلقينه لدييغو. تحدّث الفتى بحماس ما عاشه توّاً مع بِرناردو، لكنّ امتعاضه اصطدم بلامبالاة ألِخاندرو دِ لابِغا.

ـ ما الذي تُريدني أن أفعله، يا بُني؟

ـ حضرتك العمدة...

ـ توزيع الأراضي ليس من صلاحية قضائي، يا دييغو، ثمّ إنّه لا سلطة لي على الجنود.

ـ لكنّ السيّد ألكاثار قتل وخطف هنوداً! اعذرني على إلحاحي، كيف يمكنك أن تسمح بمثل هذا التمادي! ـ تلعثم دييغو مختنقاً.

ـ سأتكلّم مع خوان ألكاثار، لكنّني أشكّ بأنّه سيعيرني أذناً صاغية ـ ردّ ألِخاندرو مُحرّكاً صفّاً من جنوده على الطاولة.

وفى ألِخاندرو دِ لابِغا بوعدِه. عَمِل أكثر من الكلام مع المالك،

ذهب إلى الثُكنة، وكتب تقريراً إلى الحاكم وأرسل الشكوى إلى إسبانيا. وبقي يُطلع أبنه على كلّ إجراء، لأنّه لم يكن يفعل ذلك إلا لأجله. كان يعرف نظام الطبقات أكثر من اللازم كيلا يعلّق أملاً على إصلاح الشرّ. حاول بِضغطٍ من دييغو أن يُساعد الضحايا، الذين تحوّلوا إلى مشرّدين بائسين، مقدّماً لهم الحماية في مزرعته ذاتها. ولم تفِد تحرّكاته، كما توقّع، كثيراً أمام السلطات. فقد ضمَّ خوان ألكاثار أراضي الهنود إلى أملاكه واختفت القبيلة دون أن تترك أثراً، ولم يتطرّقوا للموضوع ثانية. لم ينسَ دييغو دِ لابِغا الدرس قط، وبقي طعم الظلم السيئ للأبد في أكثر زوايا ذاكرته اختفاءً، يعود من حين لآخر ليطفو مُحَدِّداً مجرى حياته.

كان الاحتفال بذكرى ميلاد دييغو الخامسة عشرة أوّل حفل يُقام في بيت المزرعة الكبير. رخينا، التي عارضت دائماً فتح أبوابها، رأت أنّها المناسبة التامّة لكمّ أفواه الأوباش الذين سمحوا لأنفسهم باحتقارها سنواتٍ طويلة. ولم تقبل فقط أن يدعو زوجُها من يحلو له، بل واهتمّت بنفسها بتنظيم الحفلة. زارت لأوّل مرّة سفن التهريب لتتزوّد بما هو ضروريّ وشغَلت اثنتي عشر امرأة في الخياطة والتطريز. لم يفت دييغو أنّه كان عيد ميلاد بِرناردو أيضاً، لكنّ ألِخاندرو دِ لابِغا بينّ له أنّه، على الرغم من أنّ الصبيّ كان كفرد من العائلة، لا يمكن إهانة المدعوّين بإجلاسهم إلى المائدة معه. فقرّر أن يأخذ بِرناردو لأوّل مرّة مكانه بين هنود الخدمة. لم يكن هناك حاجة لمزيد من النقاش، لأنّ بِرناردو أسدل الستار على الموضوع كاتباً على لوحه بأنّه يُفكّر بزيارة قرية البومة البيضاء. لم يُحاول دييغو إقناعه بالعدول عن رأيه، لأنّه كان يعلم أنّ أخاه يريد أن يرى برقَ الليل، كما أنّه لم يكن بمقدوره أن يشدّ الحبل أكثر مع والده، الذي قَبِل بأن يُسافر بِرناردو معه إلى إسبانيا.

كانت خطط إرسال دييغو إلى المدرسة في المكسيك قد عُدّلت مع

وصول رسالة من توماس دِ رومِو، أقدم أصدقاء إلِخاندرو دِ لابِغا. معاً خاضا الحرب في إيطاليا وبقيا يتواصلان على امتداد أكثر من عشرين عاماً عبر رسائل متفرّقة. وبينما كان ألِخاندرو دِ لابِغا يقضي حياته في أمريكا تزوَّج توماس من وريثة قطلانية وكرّس نفسه للعيش الرغيد إلى أن تُوفِّيَت في الولادة، وعندها لم يبق أمامه خيار آخر غير أن يستقرّ في المنزل ويكرّس نفسه للاهتمام بتربية ابنتيه وما تبقّى من ثروة زوجته. علّق توماس دِ رومِو في رسالته قائلاً بأنّ برشلونة ما زالت أهمّ مدن إسبانيا، وأنّ ذلك البلد يُقدّم أفضل تربية بالنسبة إلى شاب. كانوا يعيشون أيّاماً مذهلة. فنابليون غزا إسبانيا في العام 1808 بمئة وخمسين ألف رجل وخطف الملك الشرعيَّ وجعله يتنازل عن العرش لأخيه نفسه، جوزيف بونابَرت، وكان ذلك كلّه قد بدا لألِخاندرو دِ لابِغا حيفاً لا يمكن تصوّره، إلى أن تلقّى رسالةَ صديقه. فقد وضّح توماس أنّ وطنيّة الدهماء الجاهلة التي تُحرّضها طبقة الإكليروس الدنيا وبعض المتعصّبين يمكن أن تُعارض أفكار الفرنسيين الليبراليةَ، الذين كانوا يتطلعون إلى القضاء على الإقطاع والقمع الديني. وقال إنّ تأثير الفرنسيين يشبه ريحَ تغيير رطبة ستكنس مؤسسات قروسطية كمحاكم التفتيش وامتيازات النبلاء والعسكر. ويعرض توماس دِ رومِو في رسالته استضافةَ دييغو في بيته، حيث سيعتني به ويُحبه كابن، حتى يتمكّن من إتمام دراسته في مدرسة الدراسات الإنسانية، التي على الرغم من أنّها مدرسة دينية ـ وهو لم يكن صديقاً للرهبان ـ، كانت تتمتّع بسمعةٍ رائعة. وأضاف متوّجاً كلامه بما يشبه الوسام الذهبيّ أنّ باستطاعة الصغير أن يدرس على يد مُعَلّم المبارزة الشهير مانوِل إسكالانتِ، الذي استقرَّ في برشلونة بعد أن جابَ أوروبا معلّماً فنَّهُ. كفى دييغو سماعِ هذا الخبر الأخير كي يتوسّل والدَه بإلحاحٍ ليسمح له بالسفر، فاضطرّ ألِخاندرو تَعَباً أكثر منه قناعةً أن يُذعِن، ذلك أنّه ما من حجّة من صديقه توماس دِ رومِو كان باستطاعتها أن تُخفّف من اشمئزازه من سماع أنّ الأجانب غزوا بلده. حرص الأبُ والابن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كثيراً على ألا يُعلما رِخينا بأنّ إسبانيا تكنسها حرب العصابات، الطريقة القاسية في نضال الشعب ضدّ جيوش نابليون، التي إن لم تكن تفيد في استعادة البلاد، إلا أنّها كانت تلسع العدوّ كالدبابير مستنفدةً مواردَه وصبرَه.

بدأ حفل عيد الميلاد الراقص بقدّاسٍ للقسّ مِندوثا وسباقِ خيلٍ ومصارعة ثيران، قام دييغو نفسه فيها بعدّة استعراضات بالدثار، قبل أن يدخل قاتلُ الثيران «الميتادور» المحترف إلى الحلبة، تبعها مشهد من البهلوانيين المتنقلين تُوِّج بالألعاب النارية والرقص. كان هناك طوال ثلاثة أيّام طعامٌ لخمسمئة شخص، موزّعين حسب الطبقات الاجتماعية: الإسبان من أصحاب النسب على الموائد الرئيسيّة المغطاة بأغطية السفرة المطرّزة في تِنِريف، تحت دالية مليئة بالعنب، وأهل العقل بأفضل ثيابهم الاحتفالية على الموائد الجانبية في الظلّ، والهنود في الفناءات تحت لهب الشمس، حيث كانت تُشوى اللحوم وتُحمّص العجّة وتُغلى قدور الفلفل الحار واللحم. جاء المدعوُّون من الجهات الأربع، وحدث لأوّل مرّة في تاريخ المنطقة ازدحام عربات على الطريق الملكي. لم تغب فتاة واحدة من أسرة محترمة، لأنّ جميع الأمهات وضعن نصب أعينهنّ وريثَ ألِخاندرو دِ لابِغا الوحيدَ، على الرغم مما به من دم هندي. كانت بينَهُنَّ لوليتا بّوليدو، حفيدة دون خوان ألكاثار، ابنةُ الرابعة عشرة، الرقيقة والمغناج، المختلفة تماماً عن ابن خالها كارلوس ألكاثار، الذي كان يعشقها منذ الطفولة. وعلى الرغم من أنَّ ألِخاندرو دِ لابِغا كان يكره خوان ألكاثار منذ حادثة الهنود، إلا أنّه اضطر لأن يدعوه مع كامل أسرته، لأنّه أحد الوجهاء البارزين في القرية. لم يُسلِّم دييغو على المالك ولا على ولده كارلوس، لكنّه اهتمّ بلوليتا لأنّه اعتبر أنّه لا ذنب للطفلة بآثام خالها، ثمّ إنّها منذ عامٍ وهي تُرسل إليه مع قهرمانتها رسائل حبّ، لم يجبها عليها خجلاً ولأنّه كان يُفضِّل أن يبقى قدر المُستطاع بعيداً عن أيّ عضو في عائلة ألكاثار، حتى ولو كانت ابنة أخت. أصيبت أُمّهات البنات

اللواتي كنّ في عمر الزواج بصدمة حين تبينٌ أنّ دييغو لم يكن جاهزاً قيد شعرة للتفكير بالخطيبات، فهو أصغر مما تفترضه سنواته الخمس عشرة. ففي العمر الذي يُربّي فيه أبناء السادة الشوارب ويعزفون الموسيقى تحت الشبابيك لم يكن دييغو قد حلق ذقنه بعد، وكان يضيع صوته أمام أيّة آنسة.

سافر الحاكم من مونتِرّي مصطحباً معه الكونت أورلوف، قريب قيصرة روسيا والمسؤول عن أراضي ألاسكا. كان يبلغُ من الطول ستّة أقدام تقريباً وزرقة عينيه مستحيلة، وحضر مزداناً ببزّة فرسان جيش المجر القرمزية وسترة من الجلد الأبيض مزركشة، نشرها على كتفيه، تقطع صدره شرائط ذهبية وعلى رأسه قبّعة بجناحين مزدانة بالريش. إنّه دون شكّ أجمل رجلٍ شوهِد في تلك النواحي. كان أورلوف قد سمع في موسكو عن زوجين من الدببة البيضاء أمسك بها دييغو دِ لابِغا حيّةً وهو يرتدي ملابس امرأة ولا يكاد يبلغ الثامنة من عمره. لم يبدُ لِدييغو أنّ من المناسب إخراجه من خطئه، لكنّ ألِخاندرو، المهووس بالدقّة سارع ليوضّح أنّهما لم يكونا دبَّيْن، بل دبّاً واحداً وكان داكن اللون، إذ لم يكن في كاليفورنيا دببة أخرى، وأنّ دييغو لم يصطده وحده، بل برفقة صديقين آخرين، وأنّهم ألصقوا به قبّعة بالقطران وأنّ الصبيّ كان في العاشرة من عمره وليس في الثامنة، كما كانت تدعي الأسطورة. كارلوس وعصابته، الذين تحوّلوا وقتها إلى بلطجيين بارزين، لم يكد أحد يلحظ وجودهم في زحمة المدعوّين، ولم يكن حال غارثيّا كذلك، فهو قد شرب عدّة جرعاتٍ زائدة وراح يبكي بكاءً مرّاً نظراً لاقتراب موعد مغادرة دييغو. كان ابن صاحب الحانة قد كَنَزَ شحماً أكثر من جاموس، لكنّه ما يزال الطفل الخائف وينظر إلى دييغو بذهول. أسكت وجودُ النبيل الروسيّ البهيّ والوليمةُ المترفة ألسنة المستوطنين السيّئة مؤقّتاً. تمتّعت رِخينا برؤية الأشخاصِ المُتعجرفين أنفسهم، الذين كانوا يزدرونها في السابق، ينحنون ليقبّلوا يدَها. ألِخاندرو دِ لابِغا البعيد تماماً عن هذه الترهات كان

يتنقّل بين الضيوف فخوراً بموقعه الاجتماعي ومزرعته وابنه وأيضاً ولمرّة واحدة بزوجته، التي حضرت الحفل بثياب دوقة من القطيفة الزرقاء وطرحة مطرّزة من بروكسل.

كان بِرناردو قد خبّ يومين صاعداً الجبل إلى قرية قبيلته كي يودّع برقَ الليل؛ التي كانت بانتظاره، لأنّ بريد الهنود نشر خبر سفره مع دييغو دِ لابِغا. أخذته من يده ومضت به إلى النهر كي تسأله ما الذي يوجد خلف البحر، ومتى يُفكّر بالعودة. رسم لها الفتى بعودٍ رسماً خشناً على الأرض، لكنّه لم يستطع أن يجعلها تُدرك هولَ المسافات التي تفصل قريتها عن إسبانيا الأسطورية، لأنّه هو نفسه لم يستطِع تصوّرها. كان القسُّ مِندوثا قد أراه الكرةَ الأرضية، لكنّها كانت كرة مرسومة لم يكن باستطاعتها أن تُعطيه فكرة عن الواقع. أمّا بالنسبة للعودة، فقد وضّح لها بالإشارات أنّه لا يعرف يقيناً متى يكون ذلك، لكنّها ستكون سنوات كثيرة. قالت له برقُ الليل «في هذه الحالة أريدك أن تحمل معك شيئاً مني للذكرى». ثمّ تعرّت الفتاة بعينين برّاقتين ونظرة حكمةٍ ألفيّة، من أطواقِ بذورها وريشها وحزام خصرها الأحمر وجزمتها المصنوعة من جلد الأرنب، ودثار جلد الجدي وبقيت عارية تحت النور الذهبي الذي راح يتسرّب نقاطاً من بين أوراق الشجر. شعر بِرناردو بدمه يصير دبساً، وبنَفَسه ينقطع ذهولاً وامتناناً، وبروحِهِ تخرج مع زفراته. لم يدرِ ما يفعل أمام تلك المخلوقة الرائعة، المختلفة عنه تماماً، والفائقة الجمال قدّمت نفسها إليه هديّةً رائعةً. أمسكت برقُ الليل بيدٍ من يديه ووضعتها على صدرها، ثمّ بالأخرى ووضعتها على خصرها، رفعت بعدها يديها وفكّت ضفائر شعرها الذي سقط مثل شلاّل من ريشِ غرابٍ على ظهرها. أطلق بِرناردو إجهاشةً ونطق باسمها، برق الليل، الكلمةَ الأولى التي سمعتها منه. استقبلت الفتاةُ صوتَ اسمها بقبلة وبقيت تُقبّل بِرناردو مبلّلةً وجهه بدموع مسبقة، لأنّها راحت تشتاق إليه حتى قبل أن يُغادرها. بعد ساعات حين استيقظ بِرناردو من سعادته المطلقة التي لفّه بها الحبُ واستطاع أن يعود ليُفكّر،

تجرّأ على أن يطرح على برق الليل ما لا يخطر ببال: أن يبقيا معاً للأبد. فردّت عليه بقهقهة سعيدة وأظهرت له أنّه ما يزال صبياً تافهاً، ربّما يساعده السفر على أن يصبح رجلاً.

قضى بِرناردو عدّةَ أسابيع مع قبيلته حدثت خلالها أحداث جوهرية في حياته، لكنّه لم يبغِ أن يحكيها لي. والقليل الذي أعرفه عن هذه المسألة قالته لي برقُ الليل. وعلى الرغمِ من أنّني أتصوّر بقيّة المشكلة، فلن أحكيها احتراماً لجبلّته المتحفّظة. لا أريد أن أسبب له إهانة. عاد إلى المزرعة مبكّراً ليساعد دييغو في حزم أشيائه لنقلها في الصناديق ذاتها التي أرسلتها أيولاليا دِ كاليس قبل سنوات كثيرة. لم يكد بِرناردو يظهر أمام دييغو حتى لاحظ هذا أنّ شيئاً أساسياً قد تغيّر في حياة أخيه بالرضاعة، لكنه حين أراد أن يتحقّق منه وجد نفسَه أمام نظرة حجريّة جمّدته. عندئذ تكهّن أنّ الأمر يتعلّق ببرق الليل، فلم يطرح عليه مزيداً من الأسئلة. ولأوّل مرّة في حياتهما كان هناك شيء لا يستطيعان أن يتشاركا فيه.

كان ألِخاندرو دِ لابِغا قد أوصى على ملابسِ أميرٍ من المكسيك لابنه، أكملها بمسدّسات المبارزة المرصّعة بالصدف والدثار الأسودَ المبطّن بالحرير وأزرار الفضّة الطليْطِليّة التي أهدتها إليه أيولاليا. أضاف دييغو إليها المندولين، الآلة المفيدة جدّاً له إذا ما تجاوز خجله من النساء، والشيش الذي كان لوالده، وسوطه المصنوع من جلد الثور، وكتابَ المعلّم مانوِل إسكالانتِ. على العكس منه كان متاعُ بِرناردو يتألّف من الملابس التي يرتديها، وبديلين من الملابس الداخلية، دثار قشتالي أسود، وجزمة مناسبة لقدميه العريضين، هدية القسّ مِندوثا، الذي اعتبر أنّه يجب عليه ألا يسير حافياً في إسبانيا.

ظهرت البومة البيضاء قبلَ يوم من سفر الشابين، كي تودّعهما. رفضت دخول البيت، لأنّها كانت تعلم أن ألِخاندرو دِ لابِغا يخجل من كونها حماته، وفضّلت ألا تُحرج رِخينا. اجتمعت بالفتيين في فناء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الدار، بعيداً عن مسامع الغرباء وسلّمتهما الهدايا التي أحضرتها لهما. أعطت دييغو قارورةً من الشراب المنوّم مع ملاحظة أنّه لايستطيع استخدامه إلا لإنقاذ حياة بشرية. ومن تعبيرها أدرك دييغو أنّها كانت تعرف أنّه سرق المشروب السحريّ قبل خمس سنوات، فأكّد لها وقد احمرَّ خجلاً أنّ باستطاعتها أن تكون مطمئنّة فهو قد تعلّم الدرس وسيعتني بالشراب مثل كنز، وأنّه لن يسرق مرّة أخرى. جاءت الهندية إلى بِرناردو بكيسٍ جلديٍّ صغير يحتوي على ضفيرة شعرٍ أسود. أرسلته إليه برق الليل مع رسالة: أن يذهب بأمان الله ويصير رجلاً دون استعجال، لأنّه حتى ولو مرّت أقمارٌ كثيرة، فسيجدها عند عودته تنتظره بحبّ باقٍ على حاله. سأل بِرناردو المتأثّر حتى نخاع عظمه الجدَّةَ بإيماءات كيف يمكن لأجمل فتاة في العالم أن تُحبّه هو بالذات، الذي كان قملة؛ فأجابته بأنّها لا تدري، فهكذا هنَّ النساء من الغرابة. وأضافت بعدها مُزمجرة أنّ أيّ امرأة ستسقط أمام رجل لا يتكلّم إلا لأجلها. علّق بِرناردو الكيسَ إلى رقبته تحت القميص قريباً من قلبه.

ذهب الزوجان دِ لابِغا وخدمهما والقسّ مِندوثا والمعتنقون الجدد إلى الشاطئ لوداع الفتيين. أخذهما زورق لينقلهما إلى السفينة *سانتا لوثيّا* ثلاثية الأشرعة، التي يقودها القبطان خوسِهْ ديّاثْ، الذي وعد أن يمضي بهما سالمين غانمين إلى بنما، المرحلة الأولى من رحلتهما الطويلة إلى أوروبا. كان آخر ما رآه دييغو وبِرناردو، قبل أن يصعدا إلى السفينة، هي شخصيّة البومة البيضاء الشامخة بدثارها المصنوع من جلد الأرنب وشعرها الجموح في الريح، تُلَوِّح مودّعةً بيدها من فوق كومة من الصخور، بالقرب من كهوف الهنود المقدّسة.

القسم الثاني

برشلونة 1810 ـ 1812

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بما أنكم قرأتم حتى هنا، أتشجّع كي أستمرَّ بخطوات حثيثة. ما هو قادم أهمّ من السابق. ليس من السهل رواية طفولة شخص، لكن عليّ أن أفعل كي أعطيكم فكرة كاملة عن الثعلب (زورو). الطفولةِ مرحلة بائسة، مليئة بالمخاوف التي لا أساس لها، مثل الخوف من المسوخ المُتَخَيَّلين والمضحكة. من وجهة النظر الأدبية، ليس فيها تشويق، نلك أنّه، وباستثناء بعض الحالات، عادة ما يكون الأطفال سمجين قليلاً، كما أنّه ليس لهم سلطة، فالكبار يُقرِّرون عنهم، وبشكلٍ سيِّئ، يُلقِّنونهم أفكارِهم الخاطئة عن الواقع، وبعدها يُحاول الصغار طوال حياتهم التخلُّصِ منها. ومع ذلك لم يكنِ هذه حال دييغو دِ لابِغا، ثعلبنا (زوروننا)، لأنّه عمل منذ سنّ مُبَكِّر، إلى هذا الحدّ أو ذاك، ما حلا له. حالفه الحظّ بأنّ الناس الذين كانوا يحيطون به انشغلوا بعواطفهم وقضاياهم فأغفلوا مراقبتَهُ، وصل إلى عمر الخامسة عشرة دون رذائل ولا فضائل كبيرة، باستثناء جرعة مفرطة من الانشغال بالعدالة، والتي لا أدري ما إذا كانت من الدرجة الأولى أو الثانية، لكن لنقل إنّها صفة أساسية في طبيعته. باستطاعتي أن أُضيف أن إحدى صفاته الأخرى هي الزهو، لكنّني لو فعلتُ سأكون استبقتُ الأمور كثيراً، لأنّها تطوَّرت عنده لاحقاً، حين انتبه إلى أنّ أعداءه يزدادون، وهذه دائماً علامة حسنة، وكذلك المعجبون به خاصة من الجنس الآخر. الآن هو رجل أنيق ـ على الأقل يبدو لي كذلك ـ لكنّه في الخامسة عشر من عمره، حين وصل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى برشلونة، كان ما يزال صبيّاً بارز الأذنين، لم يتبدّل صوته تماماً بعد. مشكلة الأذنين هي التي دفعته إلى استخدام القناع، الذي قام بوظيفة مزدوجة: إخفاء هويته وهاتين الزائدتين الحيوانيّتين، لو أنّ مونكادا رأى أذني زورو لاستنتجنا على الفور أنّ منافسه الكريه هو دييغو دِ لابِغا.

والآن، إذا سمحتم لي، سأتابع روايتي، التي صارت الآن مهمّة، على الأقل بالنسبة إليّ، لأنّني في هذه المرحلة تعرّفت على بطلي.

السفينة التجارية، *سانتا لوثيّا* ـ التي كان البحارةُ يُسمّونها *أيليتا* تحبّباً ولأنّهم سئموا السفنَ التي تحمل أسماء قديسات ـ قامت بالرحلة بين لوس أنجلوس ومدينة بنما في أسبوع. مضى على خوسِهْ ديّاثْ ثماني سنوات وهو يجوب شاطئ المحيط الهادئ الأمريكي، جمع خلالها ثروة صغيرة، فكّر أن يحصل من خلالها على زوجة تصغره بثلاثين عاماً وينسحب إلى بلدته في مرسية في مدّة قصيرة. ائتمنه ألخِاندرو دِ لابِغا على ابنه بشيء من الخوف لأنّه كان يعتبره مُتهاوناً في أخلاقه، إذ يُقال إنّه حصل على ثروته من التهريب وتجارة النساء ذوات السمعة الجسورة. وصلت البنمية العجيبة، التي أضاءت بمتعها السهلة ليالي فرسان لوس أنجلوس، على متن *سانتا لوثيّا*، لكن ألخِاندرو دِ لابِغا قرّر أنّ هذا لا يجب أن يدفع إلى التخوّف، فخير أن يكون دييغو في أيدٍ معروفة، مهما كانت منحطّة، من أن يبحر وحيداً عبر العالم. لا بدّ أن يكون دييغو وبِرناردو المسافرين الوحيدين على متنها وظنّ أن القبطان سيعتني بهما بغيرة. كان يقود المركب اثنا عشر بحّاراً مُجرّباً، موزّعين على مناوبتين، مسماتين ميسرة ورِكاب للتمييز بينهما، على الرغم من أنّ هذين الإسمين لم يكونا يعنيان في تلك الحالة شيئاً. وبينما كانت تقوم مجموعة بمناوبتها أربعَ ساعات، كانت الأخرى ترتاح وتلعب الورق. ما إن تمكّن دييغو وبِرناردو من السيطرة على الدوار

والتعوّد على ترنّح المركب حتى استطاعا أن ينضما إلى الحياة العادية على متنه. صاروا أصدقاء للبحّارة، الذين راحوا يُعاملونهما بحنان وحمايةٍ، ووزعا وقتهما حسب نشاطات أوْلئك ذاتها. كان القبطان يقضي معظمَ وقته في قمرته، يمرح مع خلاسيَّته فلا ينتبه إلى أنّ الفتيين اللذين أخذهما على عاتقه يقفزان مثل قردين على الصواري مجازفين بتحطّم رأسيهما.

أثبت دييغو مهارة في ممارسة الألعاب البهلوانية على الحبال فيتدلّى من يده أو رجله، وفي لعبِ الورق. كان محظوظاً في سحب الورق ونكيّاً بشكلٍ مدهِشٍ في الاحتيال فقد خَسَّرَ أولئك اللاعبين الخبراء بأكثر الوجوه براءة، بحيث أنّه لو راهن على مالٍ لجعلهم يمورون يأساً، لكنّهم لم يستخدموا غير حبّات الحمّص والصدف. كانت النقود ممنوعة على المتن تفادياً لقتل البحارة بعضهم لبعض بسبب دَيْن اللعب. تكشَّف لِبرناردو في أخيه بالرضاعة جانبٌ كان يجهله حتى ذلك الوقت.

ـ لن نجوع في أوروبّا، يا بِرناردو، لأنّه سيكون هناك دائماً من سنُخسِّره في اللعب وسنراهن على الدوبلونات الذهبية وليس على حبات الحمُّص، ما رأيك؟ بالله عليك،لا تنظر إليَّ هكذا يا رجل، فأيّ إنسان سيقول إنّني مجرم. السيِّئ فيكَ أنك مُنافِق... ألا ترى أنّنا أصبحنا أخيراً حُرَّيْن؟ ما عاد هناك القسّ مِندوثا كي يُرسلنا إلى الجحيم ـ ضحك دييغو، المعتاد على أن يُكلّم بِرناردو ويُجيبَ نفسَهُ بنفسه.

عند أكابولْكو بدأ البحارة يرتابون بأنّ دييغو يسخر منهم، فهدَّدوا برميه في الماء من وراء ظهر القبطان، لكنّ أسماك القرش صرفتهم عن ذلك. وصلت بالعشرات، تلك المخلوقات الجبّارة التي كانت تهمس بالحبّ مجتمعةً وتخبط البحر بذيولها المنفعلة. تظهر فجأة على السطح وتُحيط بـ *سانتا لوثيّا* قريبة منها بحيث يمكن عدُّ القشريات الحجرية، الضاربة للصفرة الملتصقة بظهرها. على جلدِ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلّ واحدة من تلك العماليق السوداء المليء بالقشور، طُبع تاريخها وتاريخ أسلافها منذ قرون وقرون. فجأة ترتفع واحدة منها في الهواء، تدور لولبياً وتسقط بارتياح. كانت صغارها ترشّ السفينة برذاذٍ ناعم ومُنعِش. في معمعة إبعاد أسماك القرش واضطراب ميناء أكابولكو غفر البحارة لدييغو، لكنّهم حذّروه بأن ينتبه، لأنّ القتل بالحيلة أسهل من الموت في الحرب. ثمّ إنّ بِرناردو لم يكن يتركه بشكوكه التخاطرية بسلام فاضطرٌ لأن يعده بألاّ يستخدم تلك المهارة كي يثري على حساب إفلاس الآخرين، كما كان يُخطّط.

أكثر ما في العبور بالسفينة من فائدة، إضافة إلى أنّها أقلّتهما إلى حيث كانا ذاهبين، هي الحرّية التي تمتّع بها الفتيان لممارسة المآثر الرياضية التي وحدهم البحارةُ، الذين دبغت الشمس جلودهم، ومسوخ الاستعراضات يستطيعون القيام بها. كانا في طفولتهما يتدليان بأقدامهما من طنف الباب ورأساهما إلى الأسفل، هذه الرياضة التي حاولت رِخينا وآنا منعهما منها بضربهما بالمكنسة، لكن دون جدوى. لم يكن يوجدُ في السفينة من يمنعهما من المجازفة، فاستغلوها لتطوير مهارتهما الكامنة منذ نعومة أظفارهما، التي كانت ستفيدهما كثيراً في هذا العالم. تعلّما القيام بقفزات العقلة، تسلّق حبال السفينة مثل العناكب والتوازن على ارتفاع ثمانين قدماً والهبوط من رأس الصارية محتضنين الحبال والانزلاق على طول حبل رخو ليصارعا الأشرعة. لا أحد أولاهما اهتماماً، كما لم يكن يهمّ أحداً أن يسقطا ويتحطّم رأساهما. أعطاهما البحارة دروساً أوّلية جدّاً. علموهما صنع أنواع مختلفة من العقد، والغناءَ لمُضاعفة العزم في أيّ عمل وضرب البسكويت لنفض ديدان السوس عنه وعدم الصفير أبداً في عرض البحر، لأنّه يبدل الريحَ، والنومَ برهاتٍ مثل المولودين الجدد، وشرب الروم بالبارود لاختبار الرجولة. ما من واحد منهما نجح في هذا الاختبار الأخير، وكاد الغثيان يقضي على دييغو، بينما راح بِرناردو يبكي طوال الليل، لأنّه رأى أمّه في منامه. الثاني على المتن كان أسكتلندياً

اسمه مكفرين وكان أكثر حنكة من القبطان في أمور الإبحار فأسدى إليهما أهمّ نصيحة: «يد للإبحار وأخرى لك». عليهما في كلّ لحظة، حتى في المياه الساكنة، أن يتشبّثا جيّداً. نسي بِرناردو الأمر ثانية حين أطلّ من مؤخّرة السفينة ليرى ما إذا كانت أسماك القرش تتبعهم. لم تكن تُشاهد في أيّ مكان، لكنّهما كانا يحدسان بأنّها ستظهر ما إن يرمي الطباخُ الفضلاتِ من جانبها. كان ساهياً في هذا ينظر إلى سطح المحيط حين قذف به تمايل في السفينة إلى الماء. كان سبّاحاً جيّداً ومن حسن حظّه أن هناك من رآه وأبلغ عنه وإلا لبقي هناك، لأنّه في هذا الظرف لم يتمكّن حتى من إخراج صوته ليصرخ. وهذا ما تسبّب بحادثٍ مزعِج. فقد رأى القبطان خوسِهْ ديّاث أن الأمرَ لا يستحق التوقف وإرسالَ زورق للبحث عنه، لما يلي ذلك من إزعاجات وإضاعة للوقت، ربّما لو كان ابن ألِخاندرو دِ لابِغا لما تردّدَ كلّ هذا التردّد، لكنّ الأمر كان يتعلّق بمجرّد هنديّ أخْرسَ بل وأبله تماماً. تعلّل بأنه لا بد غبيّ لأنّه سار على حافّة السفينة. وبينما كان القبطان في حالة تردّد وبضغطٍ من مَكْفِرين وبقية البحارة، الذين كانوا يعتبرون أنّ إنقاذ الشقي الذي يسقط في الماء مبدأ من مبادئ الإبحار لا يقبل الجدل، قفز دييغو بعد أخيه. أغمض عينيه وقفز دون مزيد من التفكير، لأنّ المشهد من الأعلى كان هائلاً. كما لم ينسَ أسماك القرش، التي إذا لم تكن في تلك اللحظة هناك، إلا أنّها لا تبتعد أبداً كثيراً. خبله ارتطامه بالماء لثوانٍ، لكنّ بِرناردو أدركه بعدّة حركات من ذراعيه وبقي ممسكاً به من أنفه فوق السطح. أمام مشهد أنّ المسافر الرئيسيَّ عنده كان يتعرض لخطر أن تلتهمه الأسماك إذا لم يتخذ قراره بسرعة، سمح خوسِهْ ديّاث بالإنقاذ. كان الأسكتلندي وثلاثة رجال آخرين قد نزلوا إلى القارب حين ظهرت أسماك القرش الأولى، التي بدأت رقصة فرحٍ حول الغريقين. راح دييغو يصرخ بأعلى صوته ويبلع ماءً، بينما بِرناردو يمسك صديقه بيدٍ هادئاً ويسبحُ باليد الأخرى. رمى مَكْفِرين بطلقة مسدس أقربَ الأقراش إليهما وسرعان ما اصطبغ

الماء بضربات ريشة صدئة اللون. أفاد هذا في إلهاء بقية الحيوانات التي انقضّت على الجريح بنوايا واضحة لأن تصنع منه وجبةَ غداء، وإفساح الوقت لإنقاذ الفتيين. موجة من التصفيق والصفير احتفلت بالعملية.

وبين إنزال الزورق وتحديد مكان الغريقين وضرب أسماك القرش الأكثر جسارة بالمجاذيف والعودة إلى متن السفينة ضاع وقت لابأس به. اعتبر القبطان رمي دييغو بنفسه إلى الماء إهانة شخصية وليَّ ذراع فانتقم منه بمنعه من تسلّق الصواري، لكنّ الأمر جاء متأخِّراً لأنّهم صاروا أمام بنما حيث عليه أن يترك راكبيْهِ. ودّع الشابان بحارةَ *سانتا لوثيّا* حزينين وهبطا إلى اليابسة مع أمتعتهما، مُسلّحين جيّداً بمسدسيّ المبارزة وسيف وسوط دييغو، القاتل مثل مدفع، إضافة إلى سكّين بِرناردو، السلاح المفيد في أعمالٍ كثيرة، بدءاً من تنظيف الأظافر وتقطيع الخبز وحتى الصيد الكبير. كان ألِخاندرو دِ لابِغا قد حذّرهما ألا يثقا بأحد. فأبناء البلد مشهورون باللصوصية، وبالتالي عليهما أن يتناوبا في النوم دون أن يرفعا نظريهما لحظة واحدة عن الصناديق.

بدت مدينة بنما لِدييغو وبرناردو رائعةً، لأنَّ أيَّ شيء بالمقارنة مع بُلَيدة لوس أنجلوس كان بالتأكيد رائعاً. من هناك كانت تمرّ ومنذُ ثلاثة قرون ثروات الأمريكتين في طريقها إلى خزائن إسبانيا الملكية. ومن بنما كانت تُنقل على البغال عبر الجبال وبعدها في الزوارق عبر نهر تشارِس إلى بحر الكاريبي، وكانت أهمية هذا الميناء، إضافة إلى ميناء بورتوبلو على شاطئ المحيط الأطلسي، قد انحسرت مع نقص ذهب وفضّة المستعمرات. كما كان يمكن الوصول من المحيط الهادئ إلى الأطلسي بالالتفاف حول القارّة من أقصى الجنوب، في رأس هورنوس، لكن نظرة إلى الخارطة كانت تكفي كي يُدرك المرء أنّه كان طريقاً أبديّاً. كان رأس هورنوس، كما وضَح

القسّ مِندوثا للفتيين، يقع حيث ينتهي عالم الربّ ويبدأ عالمُ الأشباح. وكانوا بعبور الحزام الضيّق لبرزخ بنما، الرحلة التي لا تتطلّب أكثر من يومين، يوفّرون أشهراً من الإبحار، ولذلك حلم الإمبراطور كارلوس الأوّل منذ العام 1534 بفتح قنال بنما للربط بين المحيطين، لكن هذه الفكرة استُبعِدت مثل الكثير من الأفكار التي خطرت لبعض الملوك. أكبر عائق في المكان كان الأبخرة أو ضوع الغازات الذي كان يصدر عن نباتات الأدغال المتعفّنة وعن وحول الأنهار التي تسمح بأوبئة مريعة. كان يموت عددٌ مرعب من المسافرين مصعوقاً بالحمّى الصفراء والكوليرا والديزنطاريا. كما لم يخل الأمر ممن كان يجنن، حسب ما كانوا يقولون، لكنّني أظنُّ أنّ الأمر كان يتعلّق بأناس واسعي الخيال، ضعيفي الاستعداد للتوغّل في المناطق الاستوائيّة. كان يموت في الأوبئة من الناس مما جعل حفّاري القبور لا يُغطّون الحفر الجماعية التي تُكدّس فيها الجثث، لأنّهم كانوا يعرفون أن أعداداً أخرى ستصل في الساعاتِ التالية. ولكي يحمي القسُّ مِندوثا دييغو وبِرناردو من هذه الأخطار سلّم كلّ واحدٍ منهما قلادة لسان كريستوبال، حامي المسافرين والبحارة. وقد أعطت هاتان التعويذتان نتائج عجائبية ونجا الاثنان. وهذا من حسن حظّنا، فلولا ذلك ما نعمنا بهذه القصّة. كان الحرّ الجهنّمي يعيق تنفّسهما وعليهما أن يقتلا البعوض بالحذاء، فيما عدا ذلك سُرّا جيّداً. فُتِن دييغو بتلك المدينة، حيث لا أحد يُراقِبُه، وفيها الكثير مما يختار من الإغواءات. وحده ورعُ بِرناردو منعه من أن ينتهي به الأمرُ إلى كهف سرّي أو بين ذراعي امرأة طيّبة الإرادة وسيّئة السمعة، حيث كان ولاشكّ سيقضي نحبه بطعنة خنجر أو أمراض غريبة. لم تُغمَض عين لبِرناردو في تلك الليلة ليس لحماية نفسه من اللصوص بقدر ما للعناية بِدييغو.

تناول الأخوان في الرضاعة عشاءهما في مطعمٍ شعبي في الميناء وباتا ليلتهما في غرفة نوم مشتركة في نزل، حيث يتكيّف المسافرون كيفما يستطيعون على نضائد من الخيش على الأرض.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استطاعا بدفع سعر مضاعف أن يحصلا على سريرين مُعلّقين وناموسيّتين قذرتين، وبذلك كانا في منأى عن الفئران والصراصير. وفي اليوم التالي عبرا الجبال ليتوجّها إلى كروثِس في طريق جيد مرصوف بالحجارة، بعرض بغلين، سماه الإسبان نظراً لطبيعتهم غير المبدعة الطريق الملكي. في المرتفعات كان الهواء أقلّ كثافة ورطوبة من الأراضي المنخفِضة والمنظر الممتدّ تحتهما جنّة حقيقيّة. مثل ضربات ريشة فنان عجيبة كانت تتلألأ في أخضرِ الأدغال المُطلق طيورٌ، ريشُها جواهر وفراشات متعدّدة الألوان. وكان السكان الأصليون مهذّبون تماماً فبدل أن يستغِلاّ براءة المسافرين الشابَّيْن، كما هو متوقّع من سمعتهم السيّئة، قدّموا لهما السمك والموز المقلي واستضافوهما في تلك الليلة في كوخٍ تغزوه الحشرات، يحميهما على الأقل من المطر الغزير. نصَحوهما بتفادي الرتيلاء ونوع من الضفادِع الخضراء، التي تبصق في العيون فتعميها، ومن نوعٍ من الجوز الذي يحرق مينا الأسنان ويُحدث مغصاً قاتلاً في المَعدة.

كان نهر تشارِس يبدو في بعض المناطق سداً كثيفاً، وفي بعضها الآخر ماء زلالاً. وكان الناسُ يجوبونه داخل جذوع مجوّفة أو زوارق فطساء تتسع لثمانية أو عشرة مُسافرين مع أمتعتهم. اضطرّ دييغو وبِرناردو أن ينتظرا يوماً كاملاً حتى تجمّع ما يكفي من الأشخاص لملء المركب. أرادا أن يبربطا في النهر كي يتبرّدا ـ كان الحرّ الثقيل يُفقد الأفاعي حسّها ويُخرس القردة ـ لكنّهما ما كادا يضعان أقدامهما في الماء حتى أيقظا التماسيح التي كانت تغفو تحت السطح متماهيةً بالطين. تراجع الصبيّان بسرعة بين قهقهات أبناء المنطقة الأصليين. لم يجرآ على شرب الماء الضارب للخضرة مع الشراغِف التي قدّمها لهما مضيفوهما اللطيفون وتحمّلا العطش إلى أن جاء مسافرون آخرون، تجار أفظاظ ومغامرون شاطروهم قناني نبيذهم وبيرتهم. بلغ تلهّفهما للماء ورغبتهما بشربه حدَّ أنّ أحداً منهما لم يكن قادراً على تذكّر شيءٍ من تلك المرحلة من الرحلة

غير طريقة إبحار أبناء البلد الأصليين الخاصّة، ستّة رجال مزوّدين بستّة عصي تجديف طويلةٍ يقفون فوق سقالتين على جانبي المركب، يطمرون رؤوس مراديهم في قاع النهر بدءاً من كوثل المركب، ويسيرون بأسرع ما يستطيعون نحو قيدومه، دافعين به بكلّ ثقل أجسادهم، هكذا كانوا يتقدّمون حتى بعكس التيار. ونظراً للحر كانوا يمضون عراة. استغرقت الرحلة ثماني عشرة ساعة تقريباً، قطعها دييغو وبِرناردو بما يُشبه الهذيان الأثيليّ، مشدوهَين تحت الظلّة التي تحميهما من شمس الحمم الملتهبة فوق رأسيهما. عندما وصلا إلى وجهتهما أنزلهما المسافرون الآخرون بين دفع وضحكٍ من الزورق. وهكذا أضاعا بين مصبّ النهر ومدينة بورتوبِلو أحد الصناديق وفيه جزء كبير من متاع الأمير الذي اشتراه ألِخاندرو دلابِغا لابنه. وكان في الحقيقة من حسن حظّ دييغو، لأنّ آخر موضة أروربية لم تكن قد وصلت إلى كاليفورنيا بعد. أطقمه كانت بصراحة مثاراً للضحك.

بورتوبِلو، التي تأسّست عام 1500 في خليج دارْيِين، كانت مدينة أساسية، لأنّ الكنوز كانت تُحمّل منها إلى إسبانيا وعبرها تصل البضائع الأوروبية إلى أمريكا. وبرأي القباطنة القدماء لم يكن يوجد في أراضي بلاد الهند (أمريكا) ميناء أوسع ولا أكثر أماناً منه. فقد كان يحتوي على عدّة حصون للدفاع عنه، إضافة إلى أرصفة منيعة. بنى الإسبان الحصون بالمرجان الذي أخرجوه من أعماق البحر، الرخو حين يكون رطباً والمقاوم جدّاً حين يجفّ، بحيث أنّ طلقات المدفعية لم تكد تؤثّر فيه. وكان يُنظّم فيها مرّة واحدة في العام، حين يصل أسطولُ الكنز(*)، معرض يدوم أربعين يوماً فيزداد عددُ السكان بالآلاف من الزوّار. كان دييغو وبِرناردو قد سمعا بأنّ

(*) Flota del Tesoro: أسطول الكنز هو اسم وجدنا أيضاً أنّه لا بدّ من ترجمته، للدلالة التي يحملها وتفيد في فهم الجوّ الذي كان يسود آنذاك. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الذهب يُكدّس في دار خزانة الكنز الملكية كما يُخزّن الحطبُ، لكنّهما أُصيبا بخيبة أمل لأنّ المدينة كانت قد تراجعت في السنوات الأخيرة، جراء تعرّضها لهجمات القراصنة من ناحية ومن ناحية أخرى لأنّ المستوطنات الأمريكية لم تعد مربحة كثيراً، كما في السابق، بالنسبة إلى إسبانيا. المساكن الخشبية والحجرية بهتت بسبب المطر، والأبنيةُ العامّة وعنابر السفن غزتها الأعشابُ، والحصون وهنت في قيلولة أبديّة، ومع ذلك كان هناك عدد من المراكب في الميناء، وخلية من العبيد يحمّلون المعادنَ الثمينة والقطنَ والتبغَ ويُفرّغون الصناديق للمستوطنات. كانت سفينة *لا مادرِ دِ ديوس*(•)، التي سيعبر فيها دييغو وبِرناردو الأطلسيَّ مميزة بين المراكب.

كانت هذه السفينة، التي شيّدت قبل خمسين عاماً، ما تزال في حالة رائعة، بصواريها الثلاث وأشرعتها المربّعة، وكانت أكبر وأبطأ وأثقل من السفينة *سانتا لوثيّا*، وأفضل للأسفار عبر المُحيط. كان يُتوّجُ قيدومها تمثال عروس بحر هائل. فقد كان البحّارة يعتقدون بأنّ الأثداء العارية تهدّئ البحرَ وكان ثديا هذه المنحوتة هائلين. وقد أثبت القبطان سانتياغو دِ ليون أنّه رجل فريد الشخصيّة. كان قصير القامة، ضامراً، ذا ملامح نُحتت في وجهٍ لفحتْهُ بِحارٌ كثيرة. كان يعرج بسبب عملية جراحية أُجرِيَت له في ساقه اليسرى، ولم يستطع الجرّاح انتزاعها، لكنّه تركه في المحاولة مُعاقاً وموجوعاً بقيّة أيّامه، لم يكن رجلاً شكّاءً، وكان يشدُّ على أسنانه ويُعالج نفسه بصبغة الأفيون ويتسلّى بمجموعته من الخرائط العجيبة، التي تظهر فيها أماكن بحث عنها رحّالة مُثابرون قروناً طويلة دون نجاح، مثل إلْ دورادو، مدينة الذهب الخالص، أتلانتيد، القارّة الغارقة، التي كان سكانها من البشر، لكن لهم خياشيم مثل السمك، جزر لوكِبارِاليدو الغامضة في البحر الوحشي، المسكونة بكلاب السجق ذات الأسنان الحادّة والخالية مع ذلك من العظام والتي

(•) La Madre de Dios: أمّ الربّ. م.

تطوف زرافات وتتغذّى على الخردل الذي يسيل في الجداول والذي يستطيع، حسب ما يُعتقَد، أن يشفي أسوأ الجراح. كان القبطان يتسلّى بنسخ الخرائط وإضافة أماكن من اختراعه مع شروح تفصيلية، يبيعها بعد ذلك بسعر الذهب لمحلات بيع التحف في لندن. لم يكن ينوي الخداع، فقد كان يوقّعها دائماً باسمه، ويُضيف جملة محكمة يعرفها أيّ رجل خبير: «عمل مرقّم من موسوعة الرغبات، نسخة كاملة».

كانت الحمولة قد صارت يوم الجمعة على متنِ السفينة لكن *لامادرِ دِ ديوس* لم تُقلع لأن يسوع مات يوم جمعة. وهذا يوم نحس للشروع بالإبحار. ويوم السبت رفض البحارة الأربعون الانطلاق لأنّ شخصاً أحمر الشعر مرّ بهم في الميناء وسقطت بجعة ميتةً على جسر السفينة، وهذا دليل شؤم. أخيراً استطاع سانتياغو دِ ليون يومَ الأحد أن يُقنع رجاله بنشر أشرعتهم. وكان المسافرون الوحيدون هم دييغو وبرِناردو ومستشار قانوني كان عائداً من المكسيك إلى الوطن مع ابنته، ابنة الثلاثين عاماً، القبيحة والبكّاءة. عشقت الآنسةَ البحارةَ الأفظاظ واحداً فواحداً، إلا أنّهم نفروا منها كما ينفرون من الشيطان، لأنّ الجميع كان يعرف أنّ النساء الشريفات على متن السفينة يجلبن الطقسَ السيّئَ ومآسٍ أخرى. خلصوا إلى أنّها شريفة لقلّةِ فرص الخطيئة، أكثر مما هي فضيلة طبيعية. كان المستشار القانوني وابنته يتمتعان بقمرة صغيرة، بينما كان دييغو وبِرنادرو، مثلهما مثل البحارة، ينامان في سريرين معلَّقَينْ على السطح السفلي المُنْتِن، وكانت قمرة القبطان في مقدّمة السفينة ويستخدمها مكتباً ومقراً للقيادة ومطعماً وصالةً لتسلية المستخدمين والمسافرين. كانت أبوابها وأثاثها، مثل معظم الأشياء على متنها، تُطوى حسب الضرورة، وبذلك كان الفضاءُ أكبر ترف. لم يتمتع الفتيان، خلال أسابيع في عرض البحر، قط بلحظة خلوةٍ واحدة، فحتى الحاجات الأساسية قضوها في سطل على مرأى من الآخرين، إذا كانت هناك أمواج وإلاّ فجالسان على لوح فيه فتحة مباشرة على البحر، لا أحد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عرف كيف تدبّرت ابنة المستشار القانوني النظيفة أمرَها لأنّهم لم يروها قط تُفرِغ مبولةً. وكان البحارة يتراهنون على ذلك، ميتين ضحكاً في البداية ثمّ مذعورين لأنّ كبتاً متواصلاً يبدو عملاً سحرياً. كان الضجيج، إضافة إلى الحركة المتواصلة والتزاحم هو الأبرز. فالخشب يصرّ والحبال تئزّ والماء يسوط السفينةَ. لم يكن التكيّف مع حياة البحارة أمراً سهلاً بالنسبة إلى دييغو وبِرناردو المعتادين على العزلة في فضاءِ وصمتِ كاليفورنيا الهائلين.

فكّر دييغو أن يجلس على كتفي تمثال القيدوم، المكان المثالي لمراقبة خطّ الأفق اللانهائي، والتبلّل برذاذ الماء المالح والسلام على الدلافين. كان يعانق رأس الفتاة الخشبية ويسند قدميه إلى حلمتيها. ونظراً لأنّ الفتى كان رياضياً اقتصر القبطان على الطلب منه بأن يربط نفسه بحبل من خصره، لأنّه إذا سقط من هناك ستمرّ السفينة فوقه، لكنّه لم يقل له شيئاً، عندما فاجأه بعدها معتلياً أعلى نقطة في الصارية الكبرى، على ارتفاع أكثر من مئة قدم. وجزم بأنّه مكتوب على الفتى أن يموت قريباً ولا يستطيع منع ذلك. كانت هناك نشاطات دائمة في السفينة، لا تتوقّف لا ليلاً ولا نهاراً، لكنّ غالبيتها تتمّ نهاراً. وكانت المناوبة الأولى تُحدَّد بقرع الناقوس عند الظهيرة، حين تكون الشمس في سمتها، والقبطان يقوم بالعملية الأولى لتحديد موقعه. في هذه الساعة يوزّع الطبّاخ حصّة كلّ رجل من الليمونادة، للوقاية من داء الحفر ويوزّع المستخدم الثاني الرومَ والتبغ، الرذيلتين الوحيدتين المسموحتين على متن السفينة، حيث القمار والشجار والعشق بل والتشاتم ممنوعة. كان القبطان يقوم في غسق الإبحار، ساعة الغروب الغامضة هذه وفي الفجر والنجوم تتلألأ في قبّة السماء، وخطّ الأفق ما يزال مرئيّاً، بإجراءات جديدة بسدسيته ويراجع مقاييسه وكتاب زيج السماء، الذي يُحدّد موقع كلّ نجم في كلّ لحظة. جاءت هذه العملية الهندسية مذهلة بالنسبة لِدييغو، لأنّ النجوم كلّها كانت تبدو له متشابهة فأنّى نظر لا يرى غير بحر الفولاذِ ذاته والسماء البيضاء ذاتها، لكنّه سرعان ما تعلّم

أن يُراقب بعيني البحّار. كذلك القبطان كان يعيش مشدوداً إلى مقياس الضغط الجوّي، لأنّ التغيّرات في الضغط في الهواء تُنذِره بالعواصف وبالأيّام التي تؤلمه فيها ساقه أكثر.

في الأيّام الأولى كان يتوافر الحليب واللحم والخضراوات، لكنّهم اضطرّوا قبل أسبوع من وصولهم أن يقتصروا على البقول والرز والفواكه المجفّفة والبسكويت الأبديّ القاسي كالمرمر، الذي يفور بالسوس. كما كان يوجد لحم مملّح، ينقعه الطبّاخ في الماء والخلّ عدّة أيّام قبل أن يرمي به في القدر، كي يزيل عنه زنخة سرج الحصان. فكّر دييغو أنّ باستطاعة والده أن يقيم تجارة رائعة باللحوم المدخّنة التي يصنعها، لكنّ بِرناردو بيّن له أنّ نقلها بكميات كافية إلى بورتوبِلو حلم. على طاولة القبطان، التي كان يُدعى إليها دييغو من دون بِرناردو، والمستشارُ القانوني وابنتُه دائماً، كانت تُقدَّم إضافة إلى ذلك ألسنةُ بقر مخلّلة وزيتون وجبن مانتشيّ ونبيذ. وضع القبطان تحت تصرّف المسافرين رقعة شطرنجه وورق لعبه، ورزمة كتبه، التي لم تلقَ اهتمام أحد غير دييغو، الذي وجد بينها عدداً من الرسائل حول استقلال المستعمرات. كان دييغو معجَباً بنموذج الأمريكيين الشماليين، الذين تحرّروا من نير الإنكليز، لكن لم يخطر له أنّ تطلّع المستعمرات الإسبانية في أمريكا للحرية جدير أيضاً بالثناء إلى أن قرأ منشورات القبطان.

حدث أنّ سانتياغو دِ ليون كان متحدّثاً مسلّياً إلى حدّ أنّ دييغو ضحّى بساعات ألعابه البهلوانية السعيدة على حبال السفينة ليتحادث معه ويدرس خرائطه المذهلة. اكتشف القبطان، الانعزاليّ، متعةَ مشاركةِ عقل شاب ومتقصٍّ له في معارفه. كان قارئاً نهماً، يحمل معه صناديقَ من الكتب، يبدّلها بأخرى في كلّ ميناء. طاف عدَّةَ مرّاتٍ حول العالم، وصار يعرف بلاداً غريبة غرابةَ البلاد الموصوفة في خرائطه الخرافية وأوشك أن يموتَ عدّة مرّات، مما جعله يفقد الخوفَ من الحياة. أكثر ما كان موحياً لدييغو، المعتاد

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

على الحقائق المُطلَقة، هو أنّ هذا الرجل كان يتمتّعُ بعقلية نهضوية، وشكّكَ بكلّ الأساس الفكري والأخلاقيّ عند ألخِاندرو دِ لابِغا، القسّ مِندوثا ومعلّمه في المدرسة، وكانت تصدر عن دييغو أحياناً أسئلة حول النظم الجاهزة في دماغه منذ ولادته، لكنّه لم يتجرّأ قط على تحدّيها جهراً. عندما كانت القواعد تفرض إزعاجها يُخفّف منها، يقلّل من أهميتها بشكلٍ موارب، ولا يتمرّد عليها بشكلٍ مفتوح. لقد تجرّأ فتطرّق بالكلام مع سانتياغو دِ ليون إلى مواضيع ما كان ليتطرّق إليها أبداً مع أبيه. اكتشف مندهشاً أنّ هناك طرقاً مختلفة لا نهايةَ لها في التفكير. وبينّ له دِ ليون أنّه ليس الإسبان وحدهم من يظنون أنّهم متفوّقون على بقيّة البشرية، فكلّ الشعوب كانت تُعاني من هذا السراب ذاته؛ وأنّ الإسبان كانوا يرتكبون الفظائع نفسها التي يرتكبها الفرنسيون أو أيّ جيش آخر: يغتصبون، يسرقون، يُعذّبون، يقتلون وأن المسيحيين والمسلمين واليهود يؤكّدون أن إلههم هو الوحيد الحقيقيّ، ويزدرون الديانات الأخرى. كان القبطان من أنصار إلغاء الملكية واستقلال المستعمرات، المفهومين الثوريين بالنسبة لدييغو، الذي تربّى على الاعتقاد بأنّ الملك مقدّس وأن الواجب الطبيعي لكلّ إسباني هو احتلال وتنصير البلاد الأخرى. كان سانتياغو دِ ليون يُدافع بحماس عن مبادئ الثورة الفرنسية، المساواة والحرية والمؤاخاة؛ ومع ذلك لا يقبل احتلال الفرنسيين إسبانيا. في هذا الموضوع أظهر وطنية ضارية: قال إنّه يُفضّل أن يرى وطنه غارقاً في ظلمات العصور الوسطى على انتصار الأفكار الحديثة إذا كانت ستُفرَض من قبل الأجانب. لم يغفر لنابليون أنّه أجبر ملك إسبانيا على التنازل عن العرش ووضع محله أخاه، خوسِهْ بونابّرت، الذي أسماه الشعب بَبِ القنينة.

ـ كلّ طغيان مكروه، أيّها الشاب ـ خلص القبطان ـ ونابليون طاغية، بماذا أفادت الثورة إذا كان الملك قد استُبدِل بإمبراطور؟ البلاد يجب أن يحكمها مجلس من الرجال المستنيرين، المسؤولين عن أعمالهم أمام الشعب.

ـ سلطة الملوك مصدرها إلهيّ، أيّها القبطان ـ علّق دييغو بخفوت، مكرّراً كلمات والده، دون أن يفهم ما يقول.

ـ ومن يضمن ذلك؟ ما أعرفه، أيّها الشاب دِ لابِغا، أن الله لم يقل كلمته بهذا الخصوص.

ـ حسب الكتاب المقدّس...

ـ هل قرأته؟ ـ قاطعه، سانتياغو دِ ليون بشدّة ـ فالكتاب المقدّس لا يقول في أي مكان أنّ آل بوربون يجب أن يحكموا إسبانيا أو نابليون فرنسا. ثمّ إنّ الكتب المقدسة ليس فيها أي شيء مُقدّس، فقد كتبها بشر ولم يكتبها الله.

كان الوقت ليلاً وكانا يتنزّهان على الجسر. البحر هادئ، وبين صرير السفينة الأبديّ كان يسمع نايُ بِرناردو مذهلاً يبحث عن برقِ الليل وعن أمّه في النجوم.

ـ هل تعتقد أنَّ الله موجود؟ ـ سأله القبطان.

ـ طبعاً، أيّها القبطان!

أشار سانتياغو دِ ليون بحركة مطولة إلى قبّة السماء المظلمة المرصعة بالمجرات.

ـ إذا كان الله موجوداً، فهو بالتأكيد ليس معنيّاً بتعيين ملوك كلّ كوكب سماوي... ـ قال.

أطلق دييغو دِ لابِغا صيحة رعب. فالشكّ بالله هو آخر ما يمكن أن يمرّ بذهنه، وهو أخطر ألف مرّة من الشكّ بسلطة الملكية المقدّسة. ولأسباب أقل من هذه بكثير أحرقت محاكم التفتيش المخيفة الناسَ في نيران مشينة، وهو ما لا يبدو أنه يشغلُ القبطان إطلاقاً.

رأى دييغو، المتعب من ربح حبّات الحمّص والأصداف في لعب الورق مع البحارة، أن يخيفهم بقصص مرعبة مستلهمة من كتب

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

القبطان وخرائطه المذهلة التي أغناها مستعيناً بخياله الذي لاينضب، حيث كانت تظهر أخطبوطات عملاقة قادرة على أن تدمّر بمجساتها سفينةً بحجم لامادرِ دِ ديوس وسمندرات ملتهمة بحجم سمكة القرش وعرائس بحر تبدو له من بعيد فتيات شبقات، لكنّها في الحقيقة مسوخ لها ألسنة على شكل أفعى. يجب عدم الاقتراب منها أبداً لأنّ أذرعها مُفرِضة، تعانق الغافلين وتقبّلهم وعندئذٍ تدخل ألسنتها القاتلة في حناجر الضحية الشقيّة وتلتهمها من داخلها، فلا تترك منها غير هيكلها العظميّ مُغطّى بالجلد.

ـ هل رأيتم تلك الأنوار التي تلمع أحياناً فوق البحر، تلك النيران التي يسمونها بالمشؤومة؟ طبعاً تعرفون أنّها تُمثّل وجود الموتى الأحياء. إنّهم بحارة مسيحيون قضوا نحبهم في هجمات القراصنة الأتراك. لم يتمكّنوا من الخلاص من آثامهم، وأرواحهم لا تهتدي إلى طريق المطهَر. إنّهم عالقون مع بقايا سفنهم في قاع البحر، دون أن يعرفوا أنّهم موتى. في ليالٍ كهذه تصعد هذه الأرواح المعذّبة إلى السطح. وإذا ما شاء الحظُ السيّء وتواجدت هناك سفينة تسلّق الموتى ـ الأحياء إلى متنها وسرقوا ما يعثرون عليه، المرساة والدفّة وأدوات القبطان والحبال بل وحتى الصواري. ليس هذا هو أسوأ ما في الأمر، يا صديقيّ، فهم يحتاجون إلى بحّارة. ومن يمسكون به يجرّونه إلى أعماق المحيط ليساعدهم على إنقاذ السفن والإبحار إلى الشواطئ المسيحية. آمل ألا يحدث هذا لنا في هذه الرحلة، لكن علينا أن نكون منتبّهين. فإذا ما ظهرت أشباح سوداء حذرة تستطيعون أن تكونوا على يقين من أنّهم الموتى ـ الأحياء. ستعرفونهم من أدثرتهم التي يرتدونها كي يُخفوا عظامهم البائسة المخشخشة.

تأكّد راضياً، من أنّ بلاغته تُحدث خوفاً جماعياً. كان يحكي قصصه ليلاً، بعد العشاء، في الوقت الذي يتلذّذ فيه الناس بحصّتهم من الروم ويمضغون تبغهم، لأنّه كان أسهل عليه أن يجعل شعرهم

ينتصب ذعراً في شبه الظلمة. سارع، بعد أن هيّأ الجوّ بعدّة أيّام من القصص المرعبة، لتوجيه الضربة القاضية. بلباسه الأسود الأبديّ وقفازيه ودثاره ذي الأزرار الطليطلية راح يقوم بظهورات مباغتة وقصيرة جدّاً في أكثر الزوايا ظلمة، وبهذا الزي كان يتحوّل إلى كائن خفيّ ليلاً، باستثناء الوجه، لكن خطر لبِرناردو أن يغطيه أيضاً بمنديل أسود، فتح فيه فتحتين للعينين. رأى عدد من البحارة ميتاً ـ حيّاً واحداً على الأقل. وسرعان ما دبّ الصوتُ بأن السفينة مسحورة واتهموا بذلك ابنةَ المستشار القانوني، التي لا بدّ أنّها مسكونة بالشيطان، لأنّها لم تستخدم المبولة. وحدها من يمكن أن تكون مسؤولة عن جذب الأشباح. وصلت التقوّلات إلى العانس العصبية فتسبّبت لها بشقيقة مريعة، اضطرت القبطان إلى أن يغيّبها يومين عن الوعي بجرعات رائعة من صبغة الأفيون. حين علم سانتياغو دِ ليون بما جرى جمع البحارة في غرفة القيادة وهدّدهم بحرمانهم من الكحول والتبغ جميعاً إذا ما استمرّوا بنشر الترهات. وقال إنّ النيران المشؤومة ظاهرة طبيعية، مصدرها غازات تصدر عن تفسّخ الطحالب، والأشباح التي يعتقدون أنّهم يرونها إنّما هي نتاج التوهّم. لم يصدّقه أحد، لكنّ القبطان فرض النظام وما إن استعيد مظهر الهدوء بين ناسه حتى قاد دييغو من جناحه إلى قمرته وحذّره على انفرادٍ من أنّه إذا ما عاد أيّ ميت ـ حيّ ليطوف في *لا ماسِ دِ سيوس* فلن يتوانى عن جلده.

ـ لي الحق بالموت والحياة في سفينتي، ولديّ مبرّر كبير لأنّ أترك علامات على جلدك للأبد. هل نحن متفاهمان، أيّها الشاب دِ لابِغا؟ ـ قال له مدمدماً ـ ومؤكّداً على كلّ كلمة.

كان واضحاً وضوح الظهيرة، لكنّ دييغو لم يردّ، لأنّه سها متأمّلاً ميدالية ذهبية وفضيّة، متدلية من عنق القبطان، نُقشت عليها رموز غريبة. وحين أحسّ سانتياغو بأنّ دييغو رآها سارع إلى إخفائها وتزرير السترة. كانت حركته من الفظاظة بحيث لم يتجرّأ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفتى على سؤاله ما معنى تلك الجوهرة. وما إنّ فرّج القبطان عن نفسه حتى رقّ.

ـ إذا ما حالفنا الحظُّ بالريح ولم يعترضنا القراصنة فإنّ هذه الرحلة ستدوم ستّةَ أسابيع. وسيكون لديك من الوقت ما يكفي كي تسأم أيّها الشابُّ. وأقترح عليك أن تدرس بدل أن تُخيف أتباعي بمقالبك الصبيانية. فالحياة قصيرة ودائماً ينقصنا الوقت كي نتعلّم.

قدّر دييغو أنّه قرأ كلّ ما هو مهمّ على متن السفينة وصار يتقن السدسيةَ والعقدَ البحرية والأشرعة، لكنّه أومأ بالموافقة دون تردُّدٍ لأنّ علماً آخر كان في دماغه. اتجه إلى قاع السفينة الخانق حيث كان الطبّاخ يعدّ تحلية الآحاد، حلوى الدبس والجوز، التي كان البحارة ينتظرونها الأسبوعَ كلّه بفارغ الصبر. كان جنويّاً انضمّ إلى البحرية الإسبانية التجارية هرباً من السجن، حيث كان عليه أن يكون تنفيذاً للعدالة، لأنّه قتل زوجته بضربة فأس واحدة. وكان له اسم غير مناسب بالنسبة إلى بحار: غاليليو تِمبِستا(*). وقبل أن يعمل طاهياً في *لا مادرِ دِ ديوس* عمل تِمبِستا ساحراً، وكسب عيشه بحيل إيهامه جائباً الأسواق والاستعرضات. كان له وجه مُعبّر وعينان مهيمنتان ويدا بارعٍ أصابعهما كالمجسات، يستطيع أن يخفي قطعة نقدية بمهارة تجعلُ من المحال أن يكتشف أحد عن بعد شبر، بأيّة طريقة فعل ذلك. وكان يستغلّ لحظات فراغه في المطبخ كي يتمرّن، فحين لا يُقَلِّب النقود وأوراق اللعب والسكاكين بين يديه، يخيط مناطق سرّية في القبعات والأحذية وبطانات الملابس وأطراف أكمام السترات، ليخفي فيها المناديل متعددة الألوان والأرانبَ الحيّة.

ـ أرسلني القبطان، يا سيّد تِمبِستا كي تعلّمني كلّ ما تعرفه ـ أعلن له دييغو بسرعة.

ـ ليس كثيراً ما أعرفه عن الطهي، أيّها الفتى.

ـ أقصد السحر أكثر من غيره...

(*) Galileo Tempesta: غاليليو العاصفة. م.

- هذا لا يتمُّ تعلّمه بالكلام، بل بالعمل - ردّ غاليليو تِمْبِستا.

كرّس بقيّة الرحلة لتعليمه حيله، للأسباب ذاتها التي كان يحكي له فيها القبطانُ عن أسفاره ويريه خرائطه، لأنّ هذين الرجلين لم يحظيا قط بمثل الانتباه الذي قدّمه لهما دييغو. عند انتهاء الرحلة بعد واحدٍ وأربعين يوماً أصبح باستطاعة دييغو، بين مآثر أخرى، أن يبلع دوبلوناً ذهبيّاً وأن يخرجه على حاله من إحدى أذنيه البارزتين.

غادرت *لا مادرِ دِ ديوس* ميناء بورتوبِلو واتجهت مستغلة تيارات الخليج إلى الشمال بمحاذاة الشاطئ. عبرت المحيطَ الأطلسيَّ بالقرب من جزر بِرمودا وتوقّفت بعد أسابيع في جزر لاس آزورس للتزوّد بالماء والأغذية الطازجة. كان أرخبيل الجزر البركانية التسع، الذي يعود للبرتغال يعتبر ممرّاً إجباريّاً لصيّادي الحيتان من عدّة جنسيات. عرّجوا على جزيرة فلورِس، وهي اسم على مُسمّى(*)، فقد كانت مغطاة بالقرطاسية والورود، وصادف يوم عيدٍ وطنيّ. بَشِم البحارة من النبيذ والحساء القويّ الذي يشتهر به المكان، وتسلوا بعدها قليلاً بالتشاجر والتلاكم مع صيادي الحيتان الأمريكيين والنرويجيين؛ ولكي يُتوّجوا نهايةَ أسبوعٍ رائع خرجوا جماعيّاً للمشاركة في حفل مصارعة الثيران الشامل. انطلق سكّان الجزيرة الذكور والبحارة الزائرون أمام الثيران في شوارع البلدة المنحدرة يصرخون بالعبارات الفاحشة التي كان يمنعهم عنها القبطانُ سانتياغو دِ ليون على متن السفينة، وكانت نساء المنطقة الجميلات والمتزينات بالأزهار في الشعر وتقويرة الصدر يشجّعنهم من مسافة مدروسة، بينما الراهبُ وزوج من الراهبات يُعِدُّون الضمادات والقربان والسرّ المُقدّس للعناية بالجرحى والمحتَضرين.

(*) Flores: أزهار. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان دييغو يعلم أنّ أيَّ ثورٍ هو أسرع دائماً من أسرع كائن بشريّ، لكن بما أنّه يُهاجم وقد أعماه الغضب كان من الممكن السخرية منه، وكان قد رأى منها في حياته القصيرة ما جعله لا يخافها. وبفضل هذا استطاع أن يُنقِذ خلال ثانية غاليليو تِمبِستا حين استعدّ قرنان لشكّه من الخلف. هرع الفتى وضرب البهيمة بقضيب وأجبره على تغيير مساره، بينما ارتمى الساحرُ على رأسه في دغلة من القرطاسية وسط تصفيق وسخرية الحشود. بعدها جاء دور دييغو ليهرب مثل وعل والثور في أعقابه. على الرغم من أنّ عدداً لا بأس به أصيب بالرضوض والكدمات إلا أنّه ما من أحد مات نطحاً في ذلك العام. وكانت المرّة الأولى في التاريخ التي يحدث فيها هذا فلم يعلم أهل لاس أزورس ما إذا كان فألاً حسناً أم نحساً. لقد تركوا هذا للمستقبل. في جميع الأحوال عملت الثيران من دييغو بطلاً. أهداه غاليليو تِمبِستا شاكراً خنجراً مراكشياً، مزوّداً بنابض مموَّه يسمح بسحب الشفرة إلى المقبض.

تابعت السفينةُ محورها أسابيع أخرى، تدفعها الريح، مرّت بمحاذاة شاطئ إسبانيا مقابل قادش دون أن تتوقّف، واتجهت إلى مضيق جبل طارق، بوّابة الدخول إلى البحر الأبيض المتوسّط الذي يتحكّم به الإنكليز، حلفاء إسبانيا وأعداء نابليون. وتابعت طريقها على طول الساحل دون أن تقع أمور مخيفة أو تتوقّف في مياه أيّ ميناء ورست أخيراً في برشلونة، حيث انتهت رحلة دييغو وبِرناردو. ظهر الميناء الكتالاني القديم أمام أعينهما مثل غابة من الصواري والأشرعة. كان هناك مراكب من مختلف المصادر والأشكال والحجوم. وإذا كانت قرية بنما قد أذهلت الشابين فتصوّروا الانطباع الذي خلّفته عندهما برشلونة. كان مشهد المدينة الجانبيّ الشامخ والمدمج ينقطع بأسواره وأبراجه العالية وأبراجِ نواقيسه على خلفية سماء رصاصية. كانت تبدو من الماء مدينةً بهيّةً، لكنّ السماء أطبقت في تلك الليلة فتبدّل مشهد المدينة. لم يستطيعوا النزول حتى صباح اليوم التالي، حين أنزل سانتياغو دِ ليون

القوارب لتنقل البحارةَ والمسافرينَ الذين عيلَ صبرهم. مئات الزوارق كانت تطوف بين السفن في بحرٍ مزيت وآلاف النوارس تملأُ الجوّ بزقوها.

ودَّع ديبغو وبِرناردو القبطانَ وغاليليو تِمبِستا وبقية الرجال الذين كانوا على متنها، والذين كانوا يتدافعون لشغل الزوارق، مستعجلين، كما هو حالهم، لإنفاق رواتبهم على الكحول والنساء، بينما أسند القاضي بين ذراعيه، ذراعَيّ العجوز، ابنتَهُ الدائخة من رائحة النتن التي تملأ الهواء، وهو أقل ما يتوقّع حدوثه. حين وصلوا البرَّ كان بانتظارهم ميناء جميل وضاجّ بالحياة، لكنّه وبيل، مُغطّى بقمامة، تمرح فيها جرذان بحجم الكلاب بين أرجل حشد مُستعجل. في السواقي المكشوفة تجري مياه مستخدمة، يبربط فيها أطفال حفاة، ومن نوافذ الطوابق العليا يقذفُ الناس بمحتوى مباولِهم قائلين، انتبه ماء! وعلى المارّة أن يبتعدوا كيلا يتبلّلوا بالبول. كانت برشلونة بسكانها المئة والخمسين ألفاً، إحدى أكثر مدن العالم كثافة. منغلقة بين أسوار سميكة، يحرسها حصنها المشؤوم ومحصورة بين البحر والجبال، ليس أمامها مجال للاتساع، إلا طابقيّاً. فتُضاف للبيوت ملاحق، وتُقسم الغرف إلى حجيرات بائسة وضيّقة، بلا تهوية ولا مياه نظيفة، يتكدَّسُ فيها المستأجرون. كان يسير في المرفأ أجانب بأزياء مختلفة، يشتم بعضُهم بعضاً بلغات غير مفهومة، بحارة بقبعاتٍ جمهورية، وعلى أكتافهم ببغاوات وأحزمة روماتيزم نتيجة حمل الأحمال، تجار بدينون يدلّلون على اللحم المقدّد والبسكويت، ومتسوّلون يعجّون بالقمل والبثور، فسّاق بعيون يائسة جاهزون لسحب مِداهم. لم يكن المرفأ ينقصه العاهرات من المستوى المتواضِع، بينما تتنزّه رفيعاتُ الشأن منهنّ في العربات، ينافسن السيّدات الوجيهات في ألقهِنّ. كان الجنود الفرنسيون يسيرون جماعاتٍ، يدفعون المارة بأعقاب بنادقهم، لا هدف لهم غير استفزازهم، بينما النساء من خلفهم يرسمن إشارة اللعنة بأصابعهن ويبصقن على الأرض. ومع

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ذلك لم يكن هناك ما يستطيع أن يعتّم على أناقة المدينة الفائقة، المستحمة بنور البحر الفضيّ. كاد دييغو وبِرناردو عندما وطِئا اليابسة، كما حدث لهما في جزيرة فلورس، أن يسقطا على الأرض، لأنّهما أضاعا عادة السير على اليابسة. واضطرّا أن يسندَ الواحد منهما الآخر كي يتمكّنا من التحكّم بارتجاف الرُكَبِ وتركيز النظر.

ـ والآن ماذا سنفعل، يا بِرناردو؟ أنا معك بأن أوّل ما علينا فعله هو البحث عن عربة أجرة ومحاولة تحديد مكان بيت السيّد توماس دِ رومِو. هل تقول إنّ علينا أن نستعيد أوّلاً ما تبقى من متاعنا؟ صحيح، معك حق.

وهكذا شقّا طريقهما كيفما استطاعا، دييغو يتكلّم وحيداً وبِرناردو مستنفر وراءه بخطوة، لأنّه كان خائفاً من أن ينتزعوا الحقيبة من أخيه الساهي. اجتازا السوق، حيث تعرض بعض النسوة منتجات البحر، بين أحشاء ورؤوس السمك العطِنة على الأرض في سحابة من الذباب. وهنا اعترضهما رجل طويل، له جانب زمّاحٍ ملكي، يرتدي سترة مزأبرة زرقاء، بدا في نظر دييغو أميرالاً بالنظر إلى نياشين سترته الذهبية وقبعته الثلاثية الشكل فوق شعره الأبيض. حيّاه بانحناءة عميقة، كانساً البلاط بقبّعته الكاليفورنية.

ـ السيّد دييغو دِ لابِغا؟ ـ استفسر المجهول، المرتبك بشكل ظاهر.

ـ لخدمتكم، أيّها الفارِس ـ ردّ دييغو.

ـ لستُ فارساً، أنا جوردي، سائق السيّد توماس دِ رومِو. أرسلوني للبحث عنكم. بعدها سأعود في طلب أمتعتكم ـ وضّح الرجلُ بنظرةٍ مُخيفة، لأنّه اعتقد أنّ صبيَّ البلاد الأمريكية كان يسخر منه.

صارت أذنا دييغو بلون الشوندر واستعدّ ليتبعه وهو يعتمر القبّعة بقوة، بينما بِرناردو يختنق من الضحك. قادهما جوردي إلى

عربة مُضعضعة يجرها جوادان، حيث كان ينتظرهما رئيس خدمِ العائلة. جابوا شوارع قاسية ومرصوفة بالحجارة، ابتعدوا عن الميناء وسرعان ما وصلوا إلى حيّ فاخر البيوت. دخلوا فناء مسكن توماس دِ رومِو، وهو منزل كبير بثلاث طوابق ينهض بين كنيستين. علّق رئيس الخدم قائلاً بأنّ قرعَ الأجراس القويّ ما عاد يزعجِ في غير أوقاته، لأنّ الفرنسيين نزعوا ألسنة النواقيس انتقاماً من الرهبان، الذين كانوا يزكون المقاومة. دييغو وبِرناردو اللذان أرهبهما حجم المنزل، لم ينتبها كم صار فقيراً. قاد جوردي بِرناردو إلى قسم الخدم وقاد رئيس الخدم دييغو عبر الدرج الخارجي إلى الطابق الراقي أو الرئيسي. عبرا قاعات عتمتها أبدية وممراتٍ شديدة البرودة، حيث تعلّق سجاجيد منسّلة وأسلحة من عصر الحروب الصليبية. وصلا أخيراً إلى مكتبة يعلوها الغبار، يضيئها بشكل سيّئ عدد من القناديل ونار فقيرة في المدخنة. هناك كان ينتظرُ توماس دِ رومِو دييغو، الذي استقبله بعناقٍ أبوي، كما لو أنّه يعرفه منذ الأبد.

- يشرّفني أن يعهد صديقي ألخِاندرو إلي بولده - هتف - أنتَ منذ هذه اللحظة فرد من الأسرة، يا سيّد دييغو. سأسهر أنا وبناتي على راحتك وسعادتك.

كان رجلاً أكرشَ يطفر الدم من وجهه، يقارب الخمسين من عمره، ذا صوت مدوّ وسوالف وحواجب كثيفة. شفتاه تتقوّسان إلى الأعلى بابتسامة لا إرادية تُحلّي مظهره المتكبّر قليلاً. كان يُدخّن سيجاراً وبيده كأس من نبيذ شيرش. سأله بعض أسئلة المجاملة عن الرحلة والعائلة التي تركها دييغو في كاليفورنيا، وشدّ على الفور حبل حريرٍ ليستدعي بقرع الجرس رئيس الخدم، الذي أمره بالقطلانية أن يقود الضيف إلى غرفته.

- سنتناول العشاء في العاشرة. ليس من الضروري أن ترتدي ملابسك الرسمية، سنكون في جو أسروي - قال.

في تلك الليلة وفي غرفة الطعام، القاعة الهائلة بأثاثها القديم، الذي خدمَ عدّةَ أجيال، تعرّف دييغو على ابنتي توماس دِ رومِو. كفته نظرة واحدة كي يقرّر أنّ خوليانا، الكبرى، أجمل امرأة في العالم. ربّما بالِغ، لكنَّ الشابّة كانت معروفة، في جميع الأحوال بأنّها، كما كانوا يقولون، واحدة من جميلات برشلونة، مثلها مثل مادام رِكاميير الشهيرة في أفضل أيّامها في باريس. كانت بهيئتها الأنيقة، وتقاسيم وجهها الكلاسيكية والتضاد بين شعرها الداكن وبشرتها الحليبية وعينيها اللتين بخضرة اليشم، لا تُنسى. بلغ طالبو ودّها حدَّ أنّ العائلةَ والفضوليين أضاعوا عددهم. كانت ألسنة السوء تقول أنّهم رُفِضوا جميعاً لأنّ أباها كان يطمح إلى أن يرتقي اجتماعيّاً بتزويجها من أمير. كانوا مخطئين. فتوماس دِ رومِو لم يكن قادراً على مثل تلك الحسابات. كانت خوليانا بالإضافة إلى مفاتنها الجسدية مثقّفة، ورعة، وعاطفية، تعزف على الجنك بأصابع جنّيةٍ مرتعشة وتُحسِن للمعوزين. حين ظهرت في غرفة الطعام بلباسها المصنوع من الموسلين الأبيض الرقيق والطراز الإمبراطوري، المجموع تحت النهدين بشريط من القطيفة الحمراء التي تُبرزُ العنق الطويل والذراعين الرخاميين الشفافين الدائريين، وحذائها الزاحف وتاج لؤلئها بين تجاعيد شعرها الأسود، أحسّ دييغو بأنّ ركبتيه تنطويان وبذهنه يخونه. انحنى بحركة من سيقبل يدها فبللّها في ارتباكه، عند لمسها، باللعاب. تمتم مذعوراً ومعتذراً، بينما راحت هي تبتسم مثل ملاك وتُنظف بحشمة قفا يدها بفستانها، فستان الحورية.

بالمقابل كانت إيزابيل من التواضع في هيئتها بحيث بدت وكأنّها من دم غير دم أختها المبهرة. كانت في الحادية عشرة من عمرها، انعكست عليها بشكلٍ سيّئ، فأسنانها لم تأخذ مكانها بعد وعظامها تبرز في عدّة زوايا، وإحدى عينيها تنحرف جانباً بين فينة وأخرى، وهو ما كان يُضفي عليها مظهر السهو والعذوبة الخادعة، لأنّها كانت ذات مزاج أقرب إلى الملاحة. وكان شعرها

الكستنائي دغلة متمرّدة، لا تكاد تُسيطر عليها بستة شرائط، وفستانها الأصفر ضيق، ولكي تُكمل مظهر يتمها كانت تنتعل جزمةً. كانت المسكينة إيزابيل تبدو، كما سيقول دييغو فيما بعد لبِرناردو، هيكلاً عظمياً بأربعة مرافق وشعرٍ يكفي لاثنتين. لم يكد دييغو، المبهور بخوليانا، يلقي عليها نظرة واحدة طوال الليل، لكنّ إيزابيل راقبته دون مواربة، متوقِّفةً عند بدلته التي صار موديلها قديماً، نبرته الغريبة، آدابه التي مضت موضتها، مثلها مثل ثيابه، وبالطبع أذنيه البارزتين. وخلصت إلى أنّ هذا الفتى الأمريكي معتوه إذا كان يُفكّر، كما كان يبدو واضحاً من سلوكه المُضحك، بأنه سيذهل أختها. تنفّست إيزابيل الصعداء مُفكّرة أنّ دييغو مشروع طويل المدى، لا بدّ من تغييره بالكامل تقريباً، لكن من حسن الحظ أنّه كان يملك مادّة أوّلية جيِّدة: ظرافة، جسم متناسق وعينان بلون العنبر.

كان العشاء مكوّناً من حساء الفطر ومار إي مونتانيا(*) لذيذ، ينافس فيه السمك اللحم، وسلطة أجبان وطبق أخير عبارة عن كريم قطلاني وجميعها مضمخة بنبيذ كروم العائلة. قدّر دييغو أنّ توماس دِ رومِو لن يدرك بهذا النوع من الطعام الشيخوخةَ، وأنّ ابنتيه ستصبحان سمينتين مثل أبيهما. كان الشعب يعاني في تلك السنوات من الجوع، بينما موائد الناس القادرين عامرة دائماً. انتقلوا بعد العشاء إلى واحدة من القاعات الموحِشة، حيث أطربتهم خوليانا إلى ما بعد منتصف الليل بالعزف على جنكِها، تُرافقها إيزابيل بشقّ النفس بزحيرٍ تنتزعه من بيانو قديم ناشز. في تلك الساعة، المبكرة بالنسبة إلى برشلونة والمتأخّرة جدّاً بالنسبة إلى دييغو، وصلت نوريا، القهرمانة لتقترح على الصغيرتين أنّ عليهما أن تنسحبا. كانت امرأة في الأربعين من عمرها تقريباً، منتصبة الظهر ونبيلة التقاسيم، تُشوّهها طلعة قاسية وصرامة ثياب رهيبة. كانت ترتدي

(*) mar y muntanya: بحر وجبل، وهو طبق كما يدل اسمه مكوناته الأساسية هو اللحم والسمك. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فستاناً أسودَ ذا قبّة منشّاة، وقبّعة من اللون ذاته مشدودة برباطِ ساتان تحت الذقن. كان احتكاك ثيابها الداخلية ورنين مفاتيحها وطقطقة جزمتها تعلن عن وصولها قبل ظهورها. حيّت دييغو بانحناءة لا تكاد تُلحظ، بعد أن تفحّصته من رأسه إلى قدميه بتعبير استنكاري.

ـ ماذا عليَّ أن أفعل بهذا المسمى بِرناردو، الهندي الأمريكي؟ ـ سألت توماس دِ رومِو.

ـ أودّ إذا كان ممكناً يا سيّدة أن يُشاطرني غرفتي. في الحقيقة نحن مثل أخوين ـ تدخّل دييغو.

ـ طبعاً، أيّها الشاب. أعدي ما هو ضروري، يا نوريا ـ أمر دِ رومِو، مفاجَأً قليلاً.

لم تكد خوليانا تذهب حتى شعر دييغو بالتعبِ المتراكم يسوطه وبثقل العشاء في معدته، لكن كان عليه أن يبقى ساعةً أخرى يستمع فيها إلى أفكار مُضيفه السياسيّة.

ـ خوسِه بُونابرت رجل مستنير وصريح وصادق، يكفي أن أقول لك إنّه يتكلّم القشتالية ويحضر مصارعات الثيران ـ قال دِ رومِو.

ـ لكنّه اغتصب عرشَ ملك إسبانيا الشرعي ـ تعلّل دييغو.

ـ برهن كارلوس الرابع على أنّه سليل رجال بارزين من أمثال أسلافه، وهو غير جدير بهم. الملكة طائشة وولي العهد فِرناندو غير كفوٌ، حتى أبواه لا يثقان به. لا يستحقّ أن يحكم. بينما جاء الفرنسيون بأفكارٍ جديدة. وإذا ما سمحوا لخوسِه الأوّل بأن يحكم، بدل أن يُحارِبوه، سيخرج هذا البلدُ من التخلّف. الجيش الفرنسي لا يُهزَم، بينما جيشنا منهار، لا يوجد خيل، ولا سلاح ولا أحذية، والجنود يقتاتون على الخبز وبالماء...

ـ ومع ذلك، فالشعب الإسباني قاوم الاحتلال عامين ـ قاطعه دييغو.

ـ هناك عصابات مدنية مسلّحة تقود حرب عصابات مجنونة. يشجّعها المتعصّبون والإكليروس الجاهل. الدهماء تقاتل على عماها، ليس لديها أفكار، ولا تملك غير الضغينة.

ـ حدِّثوني عن وحشية الفرنسيين.

ـ الطرفان يرتكبان فظائع، أيّها الشاب دِ لابِغا. فرجال العصابات لا يقتلون الفرنسيين فقط بل ومعهم المدنيين الإسبان الذين يرفضون مساعدتهم أيضاً. أسوأهم هم القطلانيون، لا تستطيع أن تتصوّر الفظائع التي يقدرون على ارتكابها. المعلّم فرانسيسكو دِ غويا رسم هذه الفظائع. هل أعماله معروفة في أمريكا؟

ـ لا أظنّ، يا سيِّد.

ـ عليك أن تشاهد لوحاته، يا سيّد دييغو، كي تُدرِك أنّه لا يوجد طيّبون في هذه الحرب، فقط أشرار ـ تنهَّد دِ رومِو وتابع في موضوعات أخرى إلى أن أُغْمِضَت عينا دييغو.

في الأشهرِ التالية كوّن دييغو فكرة إجمالية عن الحالة المعقّدة والمتقلّبة في إسبانيا وكم كانت أخبارها متخلّفة في بيته. كان والده يقتصر السياسة على الأبيض والأسود، لأنّها كانت كذلك في كاليفورنيا، لكن في فوضى أوروبا يُسيطر اللون الرمادي. حكى دييغو لوالده في رسالته الأولى إليه عن رحلته وانطباعاته عن برشلونة والقطلانيين، الذين وصفهم بأنّهم حذرون من حرّيتهم وانفجاريون في طبيعتهم، وحساسون في موضوع الشرف، ويعملون مثل بغال الحمولة. هم أنفسهم يصنعون شهرة بخلهم، قال له، لكنّهم في الصداقة كرماء. وأضاف إنّهم لا يستاؤون من شيء أكثر من الضرائب، حين يكون عليهم أن يدفعوها إلى الفرنسيين. كما وصف حال أسرة دِ رومِو، متجاوزاً حبّه الأعمى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لخوليانا، الذي يمكن أن يُفسَّر تطاولاً على حسن الضيافة التي يتلقاها. حاول في رسالته الثانية أن يشرح لوالده الأحداث السياسيّة، على الرغم من أنّه كان يعتقد أنها ستكون قد تغيَّرت عند استلام والده لها.

صاحب السعادة

أنا بخير وأتعلّم كثيراً، خاصّة الفلسفة واللغة اللاتينية في مدرسة العلوم الإنسانية. سيسرّ حضرتك أن تعرف أنّ الأستاذ مانوِل إسكالانتِ قد رعاني في أكاديميته، ويُكرّمني بصداقته، وبالمناسبة، هذا شرف لا أستحقُّه. اسمح لي أن أحكي لحضرتك عن الوضع المُعاش هنا. صديقك الصدوق، توماس دِ رومِو، مُتفرنِس. هناك ليبراليون مثله، يشاطرونه الأفكار ذاتها، لكنّهم يكرهون الفرنسيين. يخافون أن يُحوّل نابليون إسبانيا إلى تابعٍ يدور في فلك فرنسا، وهو ما يظهر أنّ توماس دِ رومِو ينظر إليه بعين الرضا.

تماماً، وكما أمرني حضرتِكم، زرتُ سعادة دونيا إيولاليا دِ كالّيس. منها علمت أن النبلاء والكنيسة الكاثوليكية والشعب ينتظرون عودة الملك فِرناندو السابع، الذي يسمونه بالمرغوب. الشعب الذي لا يثق بالفرنسيين ولا بالليبراليين ولا بالنبلاء ولا بأيّ تغيير، على حدّ سواء، قرّر طرد الفرنسيين وهو يقاتل بما يملك: الفؤوس، العصي، السكاكين والمعاول والمعازق.

بدت له هذه الموضوعات مهمّة، فهُمْ، في مدرسة العلوم الإنسانية وبيت توماس دِ رومِو، لم يكونوا يتكلّمون عن شيء آخر. لكنّها لم تكن تقضّ مضجعه. فقد كان مشغولاً بألف مسألة مختلفة، أوّلها تأمّل خوليانا. ففي هذا البيت الكبير، الذي من المحال إنارته أو تدفئته لم تكن العائلة تستخدم إلا بعض القاعات من الطابق

الفاخر وجناحاً من الطابق الثاني. وقد فاجأ بِرنادو دييغو أكثر من مرّة متدلّياً مثل ذبابة من الشرفة يتلصّص على خوليانا وهي تخيط مع نوريا أو تدرس دروسها. كانت الصغيرتان قد تحرّرتا من الدير، حيث كانت تُربى بنات العائلات المترفة وذلك بفضل نفور أبيهما من رجال الدين. كان توماس دِ رومِو يقول إنّ الفتيات المسكينات خلف مشربيات الأديرة كنّ مرعى راهبات حاقدات يملأن رؤوسهن بالشياطين، وبالرهبان الفاسقين يتحسسونهنّ بحجة الاعتراف. عينّ لهما وصياً هو شخص أعجف مجدور الوجه، كان يدوخ في حضرة خوليانا وكانت نوريا تراقبه عن كثب، مثل صقر. كانت إيزابيل تحضر الدروس، على الرغم من أنّ المعلّم كان يتجاهلها إلى حدّ أنّه لم يحفظ قط اسمها.

كانت خوليانا تتواصل مع دييغو، كأخٍ صغير طائش: تناديه باسم التعميد ودون تكلُّفٍ متبعة مَثَل إيزابيل، التي عاملته منذ البداية بودٍّ وحميمية. بعد ذلك بكثير، عندما تعقّدت حياة الجميع ومرّوا جميعاً بالعوز. صارت نوريا تناديه دون تكلّف أيضاً، لأنّها صارت تُحبّه مثل حفيد، لكنها في تلك المرحلة كانت ما تزال تناديه بالسيّد دييغو، ذلك لأنّ المخاطبة العادية لم تكن تُستخدم إلا بين الأقرباء أو عند التوجّه بالحديث إلى من هو أدنى مستوى. أمضت خوليانا أسابيع دون أن تنتبه إلى أنّها مزّقت قلبَ دييغو، تماماً كما لم تنتبه قط إلى أنّها فعلت الشيءَ ذاته مع وصيّها. عندما نبهتها نوريا راحت تضحك منتشيةً، من حسن الحظّ أنّه لم يعرف ذلك إلا بعد سنوات عدّة.

لم يتأخّر دييغو كثيراً حتى أدرك أنّ توماس دِ رومِو لم يكن نبيلاً ولا غنيّاً إلى الحدّ الذي تصوّره في البداية. فالمنزل وأملاكه كانت في الأساس لزوجته، وريثة الأسرة البرجوازية الوحيدة، التي حقّقت ثروتها من صناعة الحرير. عندما تُوفّي حموُه، بقي توماس على رأس التجارة، لكنّه لم يكن رجل مبادرات تجاريّة كبيرة وبدأ يخسر ما ورثه. وكان بعكس سمعة القطلانيين، يعرف كيف ينفق

المال بسهولة، لكنّه لا يعرف كيف يربحه. راحت وارداته تتناقص سنة بعد أخرى وعلى هذا الإيقاع كان سيجد نفسه مجبراً على بيعِ دارهِ وتخفيض مستواه الاجتماعي. كان رافائيل مونكادا، وهو نبيل ذو ثروة معتبرة، من بين الذين طمحوا بخوليانا. وكان التحالف معه سيحلّ مشاكل توماس دِ رومِو، لكن علينا أن نقول على شرفه أنّه لم يضغط قط على ابنته كي تقبل بمونكادا. قدّر دييغو أن أملاك والده في كاليفورنيا أكبر قيمة بعدّة مرات من أملاك توماس دِ رومِو، وتساءل عمّا إذا كانت خوليانا مستعدة للذهاب معه إلى العالم الجديد. طرح الموضوع على بِرناردو فأفهمه هذا بلغته الشخصية أنّه إذا لم يستعجل فمنافس آخر أنضج وأجمل وأهم سينتزع الحسناء منه. لم يُخبَط دييغو المعتاد على سخرية أخيه اللاذعة، لكنّه قرّر أن يُسرّع تعليمه إلى أقصى حدٍّ. لم يتصوّر الساعة التي يكسب فيها شرف النبيل بحقٍّ وحقيقة. تأقلم مع اللغة القطلانية، التي بدت له رخيمة جدّاً. كان يحضر إلى المدرسة ويذهب يومياً إلى دروس المعلّم مانوِل إسكالانتِ في أكاديمية المبارزة للنبلاء والفرسان.

لم تكن الفكرةُ التي كوّنها دييغو عن المعلّم الشهير تتطابقُ أبداً مع الواقع. فهو بعد دراسة الكتاب الذي وضعه إسكالانتِ حتى آخر فاصلة فيه، كان يتصوّره مثل أبّولو مختصر فضائل وجمال الرجل. فوجده بالنتيجة رجلاً مقيتاً، دقيقاً، ونظيفاً، زاهِدَ الوجه ومزدري الشفتين ذا شارب مقسّى، يعتبر المبارزة دينه الوحيد الصالح. كان طلاّبه نبلاء، أنقياء النسب، باستثناء دييغو دِ لابِغا، الذي قَبِله ليس لتوصية توماسِ دِ رومِو به، بقدر ما لأنّه اجتاز امتحان القبول بدرجة شرف.

ـ تأهّب، يا سيّد! ـ أمر المُعلّم.

اتخذ دييغو الوضعية الثانية: القدم اليمنى على مسافة قصيرة من اليسرى، رؤوس أصابع قدميه تشكل زاوية قائمة، وركبتاه

منحنيتان قليلاً، جسمه منتصب عمودياً فوق وركيه، نظرته إلى الأمام وذراعاه مسترخيان.

- بدّل وضعية الاحتراس إلى الأمام! عميقاً! بدّل وضعية الاحتراس إلى الخلف!..... الاحتراس الثالث، مدّ الذراع! كوبّهْ!

سرعان ما تخلّى المعلّمُ عن إسداء التعليمات. انتقلا بسرعة من التكلُّفِ إلى الأحداث، طعنات عميقة، جرح وجه وقفا، مثل رقصة عنيفة وقاتلة. اشتعل دييغو حماساً وبدأ يتبارز كما لو أنّ حياته في خطر، باندفاع وهو أقرب ما يكون إلى الغضب. شعر إسكالانتِ لأوّل مرّة منذ سنوات طويلة أنّ العرق يتصبَّب من جبينه ويبلّل قميصه. سُرَّ وارتسمت على شفتيه الرقيقتين ابتسامة. لم يمدح أحداً قط، لكنّه ذهل من سرعة ودقّة وقوّة الشاب.

- أين تقول إنّك تعلّمت المبارزة؟ - سأل بعد أن بارزه دقائق عدّة.

- مع أبي، في كاليفورنيا، يا معلِّم.

- كاليفورنيا؟ مكتبة الرمحي أحمد

- شمال المكسيك...

- لا ضرورة لكي تشرحها لي، رأيتها على الخريطة - قاطعه مانوِل إسكالانتِ بجفاف.

- عفواً، يا معلّم. درستُ كتابك وتمرّنت سنوات... - دمدم دييغو.

- أرى ذلك. أنت طالب مُجتَهِد كما يبدو. ينقصك أن تتحكّم بقلّة صبرك وتكتسب رشاقة. لك طريقة قرصان، لكن هذا يمكن تفاديه. الدرس الأوّل: هدوء. يجب ألا تُقاتِل بغضب أبداً. ثبات السيف واستقراره رهن برباطة الجأش. لا تنسَ ذلك. سأستقبلك في الثامنة

تماماً، من الاثنين وحتى السبت، إذا ما أخللت مرّةً واحدة فلا حاجة لأن تعود ثانيةً. مساؤك سعيد أيّها الفارس.

بهذا الشكل ودّعه. كان على دييغو أن يتحكّم بنفسه كيلا يزعق فرحاً، لكنّه ما إن أصبح في الشارع حتى راح يقفز حول بِرناردو، الذي كان ينتظره في الباب مع الجوادين.

- سنصبح أفضل لاعبي سيف في العالم، يا بِرناردو. بلى، ياأخي، هل سمعتني جيّداً، ستتعلم ما أتعلّمه تماماً. أنا موافق، المعلّم لن يقبلك، فهو حساس جدّاً، ولو علم أنّ ربع دمي هندي لطردني ضرباً من الأكاديمية. لكن لا تهتمّ، فأنا أفكّر أن أعلّمك كلّ ما أتعلّمه. يقول المعلّم إنّ ما ينقصني هو الطريقة. ما هذا؟

وفّى مانوِل إسكالانتِ بوعده بصقل دييغو؛ ووفى هذا بوعده بنقل معارفه إلى بِرناردو. كانا يتدربان على المبارزة يوميّاً في إحدى القاعات الكبرى الفارغة من منزل توماس دِ رومِو بحضور إيزابيل دائماً تقريباً. كانت هذه الطفلة بحسب نوريا تملك فضولاً شيطانيّاً تجاه أمور الرجال، لكنها كانت تُغطّي على جسارتها لأنّها ربّتها منذ أن فقدت أمّها عند ولادتها. تمكّنت إيزابيل من جعل دييغو وبِرناردو يُعلّمانها المبارزة وركوب الخيل مفرشخة، كما كانت تفعل النساء في كاليفورنيا، وكانت تقضي ساعاتٍ ومعها كتاب تعليم المبارزة، تتدرّب وحيدةً أمام المرآة، أمام نظر أختها ونوريا، اللتين كانتا تطرّزان السجاجيد بغرزات متصالبة. أذعن دييغو لرفقة الصغيرة انطلاقاً من مصلحةٍ، فقد أقنعته أنّ باستطاعتها أن تتدخّل لصالحه أمام خوليانا، الأمر الذي لم تقم به قط. بالمقابل برهن بِرناردو دائماً عن سروره بوجودها.

كان بِرناردو يشغل مكانة غير محدّدة في سلّم المنزل الذي كان يعيش فيه قرابة الثمانين شخصاً، بين خدم ومستخدَمين وأمناء وأتباعٍ، كما كانوا يُسمون الأقرباء الذين كان توماس دِ رومِو يؤويهم تحت سقفه. كان ينام في واحدة من الغرف الثلاث التي

وضعت تحت تصرّف دييغو، لكنّه لم يكن مسموحاً له بالدخول إلى قاعات الأسرة، إلا إذا استُدعِيَ، وكان يأكلُ في المطبخ، لم يكن له عمل محدّد ويملك فائضاً من الوقت كي يجوبَ المدينةَ. تمكّن من معرفة وجوه برشلونة الصاخبة المختلفة، بدءاً من بيوتات نبلاء قطلونيا الفاخرة وحتى غرف الدهماء المتزاحمة التي تعجّ بالجرذان والقمل، بمشاجراتها وأوبئتها الحتمية، بدءاً من حيٍ الكاتدرائية القديم، المُشاد على أنقاضٍ رومانية، بمتاهة أزقّته المُضنية، التي لاتكاد تتسع لمرور حمار، وحتى الأسواق الشعبية، وحوانيت الصناعات اليدوية وخانات الخرداوات التركية وأرصفة الميناء، المزدحمة بالحشود المتنوّعة الأجناس. كان يُمضي يوم الأحدِ بعد الخروج من القدّاس، تائهاً بالقرب من الكنائس، ليتأمل المجموعات التي كانت ترقص الساردانة(*)، التي بدت له انعكاساً تامّاً للتضامن والنظام والتفاخر القطلاني. تعلّم، مثل دييغو، القطلانيةَ كي يعرف مايدور حوله. كانت تُستَخدَم القشتالية والفرنسيّة في الدوائر الحكومية وعند الطبقة العليا، واللاتينية في المسائل الأكاديمية والدينية، بينما تُستخدَم القطلانية في بقيّة الأمور. كان صمته ومظهر الكبرياء الذي يشعّ منه قد أكسبه احترام أهل البيت. الخدم الذين كانوا ينادونه ودّاً بـ الهندي، لم يتحقّقوا مما إذا كان أصمّاً أم لا، فاعتبروه كذلك، وبالتالي راحوا يتكلمون أمامه دون حذر، وهو ما سمح له بالتحقّق من أشياء كثيرة. لم يكترث توماس قط بوجوده، فالخدم بالنسبة إليه لا يُرَوْن. أمّا نوريا فقد أثار كونه هنديّاً فضولها، لأنّه أوّل هنديٍّ تراه وجهاً لوجه. توجّهت إليه في الأيّام الأولى بحركات قرد وإيماءات مسرحية على أساس أنّه لايسمعها، لكنّها ما إن علمت بأنّه لم يكن أصمّاً حتى راحت تُكلّمه. وما إن علمت أنّه معمّد حتى صارت تستلطفه. لم تملك قط مستمعاً بمثل اهتمامه. بدأتْ، واثقةً من أنّ بِرناردو لا يمكن أن يخون مُسَارّتها تحكي له

(*) Sardana: اسم رقصة شعبية قطلانية. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أحلامها، الملاحم الخيالية الرائعة، وتدعوه للاستماع إلى قراءات خوليانا بِصوت عالٍ ساعة تناول الشوكولا. كانت خوليانا من ناحيتها تتوجّه إليه بالرقّة ذاتها التي تتوجّه بها إلى جميع الناس. علمت أنّه لم يكن خادماً لِدييغو، بل هو أخوه في الرضاعة، لكنّها لم تُجهد نفسها بالتواصل معه، لأنّها افترضت أنّ ليس لديه الكثير مما يقوله. بالمقابل أصبح بِرناردو أفضل صديق وحليفٍ لإيزابيل. تعلّمت منه لغةَ إشارات الهنود وتفسيرَ تموجّات صوتِ نايه، لكنّها لم تستطع قط أن تُشارك في التخاطر الذي كان يقيمه عن بعد، ودون جهد مع دييغو. في جميع الأحوال، وبما أنّهما لم يكونا بحاجة إلى الكلمات فقد كانا يتفاهمان تماماً. ووصل ودّهما حدّ أنّها صارت مع مرور السنين تنافس دييغو على المكان الثاني في قلب بِرناردو. فالمكان الأوّل كانت تشغله دائماً برقُ الليل.

في الربيع، حين كان هواء المدينة يعبق برائحة البحر والزهر، وجوقات الطلاب تخرجُ لتُبهجَ الليلَ بموسيقاها والعشاقُ ليقدّموا أغاني ليلهم، يراقبهم الجنودُ الفرنسيين عن بعد، لأنّه حتى هذه التسلية البريئة يمكن أنْ تُخفي غايات مشؤومة لعصابات الحرب، كان دييغو يتمرّن عازفاً أغانٍ على المندولين، لكنّه لو وقف تحت نافذة خوليانا، التي يعيش في بيتها، ليُقدّم لها أغنية ليلية لأصبح مثار سخرية. أراد أن يُرافِقها بمعزوفاتها على الجنك بعد العشاء، لكنّها كانت عازفة حقيقيّة بينما هو ينشز على آلته، كما تنشز إيزابيل على البيانو، فتُخلِّفُ السهراتُ صداعاً في رؤوس المستمعين. كان عليه أن يقتصر على تسليتها بحيلِ سحره التي تعلّمها من غاليليو تِمبِّستا، ووسّعها وأتمّها عبر شهورٍ من التمرُّن. فأُغشي عليها يومَ ابتلع فيه خنجرَ غاليليو تِمبِّستا المراكشي وكادت تسقط أرضاً، بينما كانت إيزابيل تتفحّص السلاح باحثةً عن النابضِ الذي يُخفي الحدَّ في المِقبَض. حذّرته نوريا أنّه إذا عاد وحاول

القيام بمثل هذه الحيل السحرية السوداء بحضور الصغيرتين فهي نفسها سوف تدخل السكين التركية في حلقِه. أعلنت عليه المرأةُ في الأسابيع الأولى حرب أعصابٍ صامتة، لأنّها اكتشفت بطريقة ما أنّه خُلاسيّ. وبدا لها أنّ السيل بلغ الزبى بقبول سيِّدها أُلفة الأسرة لهذا الشاب الذي لم يكن نبيلَ الدم، بالإضافة إلى أنّه يتجرّأ على عشق خوليانا. ومع ذلك ما إن قرّر دييغو عشقها حتى كسب قلب القهرمانة القاسي باهتماماته الصغيرة بها: حلوى البسماط(*)، صورة قديسين، وردة يخرجها بالسحر من قبضته. وعلى الرغم من أنّها بقيت تردّ عليه بالصياح الغاضب والشتائم، إلا أنّها لم تكن تتمالك نفسها عن الضحك خفيةً، حين كان يَتَحَرَّشُ بها بأحد أعماله البهلوانية.

وذات ليلة مرّ دييغو ببرهةٍ مضنية سمع خلالها رافائيل مونكادا يُغنّي سيرينادا في الشارع، يُرافقه عدد من الموسيقيين. فتيقّن مُنزَعِجاً، من أنّ منافسه لا يملك صوتاً صادحاً يُدغدغ المشاعر وحسب بل ويُغنّي بالإيطاليّة أيضاً. حاول أن يسخر منه على مرأى من خوليانا، لكنّ استراتيجيته لم تُثمِر. لأنّها بدت متأثِّرة لأوّل مرّة بتطوّر مونكادا. كان هذا الرجل يُثيرُ عند الشابة مشاعر مختلِطة، خليط من عدم الثقة الغريزية والفضول الخجول. كانت تشعر في حضوره بالوهن والعري، ويشدّها في الوقت ذاته الأمان الذي يشعّ منه. لم تكن تُحبّ إيماءة الازدراء أو القسوة التي كانت تباغتها في وجهه، الإيماءة التي لا تنسجم مع الكرم الذي كان يوزّع به النقود على المتسوّلين الرابضين عند الخروج من الصلاة. في جميع الأحوال كان الشاب في الثالثة والعشرين من عمره، وهو يتودّد إليها منذ أشهر، وعليها أن تعطيه جواباً قريباً. كان مونكادا غنيّاً، وذا نسبٍ صافٍ، ويولِّد انطباعاً جيّداً لدى الجميع، باستثناء أختها

(*) Mazapán: يُعتقد أنّها من العربية بسماط، وهي حلوى أندلسية كانت تُصنع من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض. م.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إيزابيل، التي كانت تمقته دون مواربة ولا توضيح. كانت هناك حجج قوية لصالح هذا المتودّد ولم يكن يكبحها إلا حدس بفاجعة. تابع هو خلال ذلك تضييقه عليها برقّة، خائفاً من أنّ أدنى إزعاج سوف يُجفلها. كانا يتقابلان في الكنيسة، والحفلات الموسيقية والمسرحيات والنزهات والحدائق والشوارع. وكثيراً ما كان يرسِل إليها هدايا ورسائل رقيقة، لا يوجد فيها شيء محرج. لم يتمكّن من أن يجعل توماس دِ رومِو يدعوه إلى بيته ولا أن يجعل عمّته إيولاليا تضمّ توماس دِ رومِو إلى قائمة مسامريها. فقد أظهرت له بصلابتها المعتادة أنّ خوليانا خيار في غاية السوء. وكان قولها الفصلُ: «أبوها خائن، مُتَفَرنِس، وليس لهذه العائلة مكانة ولا ثروة، أو أي شيء تقدّمه». لكنّ مونكادا كان قد وضع خوليانا نصب عينيه منذ زمن، رآها تتألّق فقرّر أنّها المرأة الوحيدة الجديرة به. كان يظنّ أنّ عمته ستُذعِن مع الزمن لفضائل الشابّة، فكلّ شيء رهن بالتعامل مع المسألة بدبلوماسيّة. لم يكن مستعدّاً للتنازل عن خوليانا، ولا عن ثروتها، فهو لم يشكّ قط بأنّه سيحقّق الهدفين.

لم يكن رافائيل مونكادا في عمر يسمح بالسيرينادات، وكان معتدّاً بنفسه أكثر مما يسمح بتلك الاستعراضات، لكنّه وجد الطريقة للقيام بذلك بدعابة. حين أطلّت خوليانا من الشرفة رأته مقنّعاً بثياب أمير فلورنسيّ من البروكار والحرير من رأسه وحتى قدميه وصدارة مزركشة من جلد القندس؛ وريش نعام في القبعة وعود في يده. كان هناك عدد من الفتية يُنيرون له فوانيس بلوريّة أنيقة وبجانبه الموسيقيون مزيّنون مثل وصفاء الأوبريتا، ينتزعون من آلاتهم ألحاناً موقّعة. لا شكّ أنّ صوت مونكادا الرائع كان أفضل ما في الاستعراض. تحمّل دييغو، متخفّياً وراء ستارة، الإهانة، عارفاً بأنّ خوليانا كانت في الشرفة، تقارن بين هذه الألحان التامة الموقّعة ومندولينه المرتبك الذي أرادِ أن يدهشها به. كان يدمدم لاعناً بصوت منخفض حين وصل بِرناردو ليشير إليه أن يتبعه معزّزاً بسيفه. قاده إلى طابق الخدم، الذي لم يكن قد وضع دييغو

قدمه فيه بعد، على الرغم من مرور سنة عليه تقريباً وهو يعيش في هذا المنزل، ومن هناك إلى الشارع من باب الخدمة. وصلا ملاصقين للجدار دون أن يراهما أحد إلى حيث وقف غريمه ليتألّق بأغانيه بالإيطالية. أشار بِرناردو إلى بابٍ خلف مونكادا فشعر دييغو بالغيظ وقد راح يتحوّل إلى سرور شيطاني، لأنّ من كان يُغنّي لم يكن غريمه، بل رجل آخر متخفٍّ في الظلمة.

انتظر دييغو وبِرناردو انتهاء السيرينادا. تفرّقت المجموعة متوزّعة على عربتين، بينما الفتى الأخير يُسلّم الصادِحَ الحقيقيَّ بعض النقود. ما إن تأكّد الفتيان من أنّ المغنّي صار وحيداً حتى اعترضاه بغتةً. أطلق المجهول سأسأة أفعى وأراد أن يمدّ يده إلى مدية معقوفةٍ، جاهزة في زناره، لكنّ دييغو وضع رأس سيفه في عنقه. تراجع الرجل بخفّة مُدهشة، لكنّ بِرناردو عَقَلَه برجله ورماه أرضاً. أفلتت من شفتيه شتيمة حين شعر من جديد برأس سيفِ دييغو يخزه في رقبته. كان النور في تلك الساعة يصدر عن قمر خجول وعن مصابيح المنزل، وهو ما كفاهما كي يريا أنّ الأمر يتعلّق بغجريّ أسمر وقويّ، محض عضلات وألياف وعظام.

ـ أيّة شياطين تريد منّي؟ ـ باغته بوقاحة وضراوةٍ.

ـ اسمك فقط. تستطيع أن تحتفِظ بهذه النقود، التي أسأت كسبها ـ ردّ دييغو.

ـ ولماذا تريد اسمي؟

ـ اسمك! ـ طالبه دييغو، ضاغطاً عليه بسيفه حتى أخرج منه قطرة دم.

ـ بَلايو ـ قال الغجري.

سحب دييغو النصل وتراجع الرجلُ خطوة إلى الوراء، وعلى الفور اختفى بصمتٍ وسرعة نمرٍ في ظلمات الشارع.

ـ لنتذكّر هذا الاسم، يا بِرنابِردو. أعتقد أنّنا سنعود ونقع على

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هذا السافل. لا أستطيع أن أقول شيئاً من هذا لخوليانا، لأنّها ستعتبر أنّني أفعل ذلك بؤساً أو غيرةً. عليَّ أن أعثر على طريقة أخرى كي أكشف لها أنّ هذا الصوت ليس صوت مونكادا. هل يخطر لك شيء؟ حسناً، قله لي حين يخطر لك ـ ختم دييغو.

أحد الزوار المواظبين على منزل توماس دِ رومِو كان المُكلَّف بشؤون نابليون في برشلونة، الفارس رونالد دوشامب، المعروف بـ *الشافالبير*. كان الظلّ الرمادي للسلطة الرسمية، أكثر تأثيراً، كما كانوا يقولون من الملك خوسِه الأولّ. كان نابليون قد بدأ يُقلِّص السلطةَ من أخيه، لأنّه لم يعد يحتاجه لتخليدِ سلالة بونابرت، فقد صار له ولد، طفل هزيل، لُقِّب بالنسر الصغير وقد خنقوه منذ نعومة أظفاره بلقب ملك روما. وكان *الشافالبير* يُحرّك شبكة واسعة من الجواسيس الذين يخبرونه عن مخططات أعدائه حتى قبل أن يصيغوها. كان برتبة سفير، لكن في الحقيقة حتى كبار القادة العسكريين كانوا يُقدّمون له الطاعة. لم تكن حياته في تلك المدينة التي تمقتُ الفرنسيين، مريحة؛ فالطبقة العليا تقاطعه، رغم أنّه يتملق الأسر الثرية بالرقص وحفلات الاستقبال والأعمال المسرحية، تماماً كما كان يعمل على كسب الدهماء بتوزيع الخبز عليهم وبالسماح لهم بمصارعة الثيران، الممنوعة سابقاً. لا أحد كان يريد أن يظهر متفرنساً. فالنبلاء، من أمثال إيولاليا دِ كالّيس، الذين لا يجرؤون على عدم رمي السلام عليه، كانوا يرفضون دعواته. بالمقابل كان توماس دِ رومِو يتشرّف بصداقته، لأنّه مُعجَب بكلّ ما كان يأتي من فرنسا، بدءاً من الأفكار الفلسفية والتهذيب وحتى نابليون نفسه، الذي كان يُقارِنه بالاسكندر المقدوني. كان يعرف أنّ *الشافالبير* مرتبط بالشرطة السرّية، لكنّه لا يُصدِّق الإشاعات التي تحمّله مسؤولية التعذيب والإعدامات في القلعة. بدا له محالاً أن يتلوّث رجل رقيق ومثقّف مثله بالوحشية التي كانت تُعزى للعسكر. كانا

يتناقشان بالفن، والكتب، والاكتشافات العلمية، وتقدّم علم الفلك؛ ويعلقان على وضع المستعمرات في أمريكا، مثل فنزويلا وتشيلي ومستعمرات أخرى أعلنت استقلالها.

وبينما كان الفارسان يمضيان معاً الساعات الممتعة بكؤوس الكونياك والسيجار الكوبي، كانت أغنِس دو شامب، ابنة *الشافالبير* تتسلّى مع خوليانا بقراءة الروايات الفرنسية من وراء ظهر توماس دِ رومِو، الذي ما كان ليسمح أبداً بهذه القراءات. كانتا تذوبان ضنىً حتى الموت بحب الشخصيات المصدود، وتتنهدان ارتياحاً للنهايات السعيدة. لم تكن الرومانسية قد درجت بعد في إسبانيا، وقبل أن تظهر أغنِس في حياة خوليانا لم يكن يُسمح لها أن تقرأ غير بعض المؤلفين الكلاسيكيين في مكتبة العائلة، التي اختارها والدها بمعيار تعليمي. كانت إيزابيل ونوريا تحضران القراءات. الأولى تسخر، لكنّها لا تضيّع كلمة واحدة والثانية تذرف دموعاً حارّة. وضّحتا لها أن لا شيء من هذا يحدث في الواقع، وأنّها مجرّد أكاذيب من المؤلّف، لكنّها لم تصدّقهما، وصل الأمر إلى حدٍّ أن الشخصيات صارت تشغلها فراحت الصبيتان تغيّران حبكة الروايات كيلا تُنغّصا حياتها. لم تكن القهرمانة تعرف القراءة، لكنّها تشعر باحترام مقدس تجاه أيّ مادة مطبوعة. كانت تشتري براتبها بعض النشرات المصوّرة عن حياة القديسين الشهداء، وهي مختصرات حقيقية للوحشيات، التي كان على الصغيرتين أن تقرآها مرّة وأخرى. كانت مقتنعة تماماً بأنّهم جميعاً بؤساء من أبناء بلدها عذّبهم مسلمو غرناطة. وكان من العبث أن توضَح لها أن ستاد الكوليسِوم موجود، كما يدلّ اسمه، في روما. كما كانت مقتنعة، مثل كلّ إسبانية حقيقية، بأنّ المسيح مات على الصليب من أجل البشرية بشكل عام، لكن من أجل إسبانيا بشكل خاص. ما لم تكن تغفره للفرنسيين هو أنّهم، بالنسبة إليها، ملحدون، لذلك كانت ترشّ الكرسيّ الذي يجلس عليه *الشافالبير* بالماء المبارك بعد كلّ زيارة. كانت توضّح أنّ سيّدها أيضاً لا يؤمن بالله، نتيجة موت زوجته، أمّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الصغيرتين، المبكّر. كانت واثقة من أنّ حالة السيّد توماس مؤقّتة، وسيستعيد عقله على فراش الموت وسيطلب معرّفاً يغفر له ذنوبه، وهو، بعد كلّ حساب، ما كان يفعله الجميع، مهما أعلنوا أنّهم ملحدون ما داموا ينعمون بالصحّة.

كانت أغنِس رقيقة حالمة وحيوية، ذات بشرة صافية ونظرة خبيثة وغمّازتين في خدّيها، وبراجمها ومرفقيها. أنضجتها الروايات قبل الأوان، وفي العمر الذي لم تكن تخرج فيه الأخريات من البيت كانت هي تمارس حياة المرأة الناضجة. كانت تستعمل أجرأ موضات باريس لترافق أبيها في نشاطاته الاجتماعية. تحضر حفلات الرقص بثياب مبلّلة، كي يلتصق القماش بجسدها فلا يبقى هناك من لا يُقدّر وركيها المستديرين وحلمتيها، حلمتي العذراء الجسورة. وضعت منذ اللقاء الأوّل عينَها على دييغو، الذي خلّف وراءه في ذلك العام مرارات المراهقة ونما نموَّ مهر، فصار بطول توماس دِ رومِو وكسب، بفضل الوجبات القطلانية وتدليل نوريا له، وزناً، كان بأمسّ الحاجة إليه. استقرّت تقاسيمه بشكلٍ نهائيّ، وبناءً على اقتراح إيزابيل تَرَكَ شعرَه طويلاً كي يُغطّي أُذنيه. كان يبدو بالنسبة إلى أغنِس مقبولاً، غريباً ويمكن تخيّله في براري أمريكا الوحشية محاطاً بالهنود الوديعين والعراة. لم تكن تملّ من سؤاله عن كاليفورنيا، التي تخلط بينها وبين جزيرة غامِضة وحارّة، مثل تلك التي ولدت فيها جوزفين بونابرت فائقةُ الوصف، التي كانت تُحاوِل أن تُقلِّدها بلباسها الشفاف وعطور بنفسجها. تعرّفت عليها في باريس، في بلاط نابليون، وهي طفلة في العاشرة من عمرها، في أثناء غياب الإمبراطور في إحدى حروبه، خصّت جوزفين *الشافالبير* بصداقة شبه غرامية. بقيت صورة هذه المرأة منقوشة في ذاكرة أغنِس، التي ودون أن تكون جميلة بدت لها كذلك من مشيتها المتماوجة وصوتها الحالم وعطرها الفرور. مضى على ذلك أكثر من أربع سنوات. لم تعد جوزفين إمبراطورة فرنسا، فقد استبدلها نابليون بأميرة نمساوية تافهة، ملاحتها الوحيدة حسب أغنِس، أنّها

أنجبت له ولداً. آهِ ما أصفق الإخصاب! عندما علمت أن دييغو هو الوريث الوحيد لألِخاندرو دِ لابِغا، صاحب أرضٍ بحجم بلد صغير، لم يُكلِّفها شيء تخيّل أن تُصبح قشتاليّةَ تلك الأرض الأسطورية. انتظرت اللحظة المناسبة، وهمست له من خلف مروحتها أن يذهب لزيارتها كي يتكلّما على انفراد، لأنّهما في بيت توماسِ دِ رومِو كانا دائماً تحت مراقبة نوريا. أضافت إنّ من لم يكن عنده في باريس قهرمانة، فهذا يمثّل ذروة التخلّف. ولكي تختم الدعوة سلّمته منديلاً من القماش المخرّم طرّزت الراهبات عليه اسمها الكامل وعُطِّر بعطر البنفسج. لم يدرِ دييغو بماذا يُجيبها. حاول خلال أسبوع أن يُثير غيرة خوليانا متكلّماً عن أغنِسْ وهازّاً المنديل في الهواء، لكنّ الطلقة ارتدّت عليه، لأنّ الجميلة عرضت عليه بلطف أن تُساعده في غرامه. كما أنّ إيزابيل ونوريا سخرتا منه بلا رحمة، فانتهى به الأمر إلى أن رمى بالمنديل إلى القمامة؛ فأخذه بِرناردو الوفيّ لنظريّته القائلة بأنّ كلّ شيء يمكن أن يُفيد في المستقبل، وخبّأه.

كثيراً ما كان دييغو يلتقي أغنِس دوشامب، لأنّ الفتاة تحوّلت إلى زائرة مواظبة إلى المنزل. كانت أصغر من خوليانا، لكنّها تفوقها حيوية وتجربة. لو كانت الظروف مختلفة لما تنازلت أغنِس وصادقت فتاة ببساطة خوليانا، لكنّ موقف والدها أغلق أمامها أبواباً كثيرة وحرمها من الصديقات. ثمّ إنّ خوليانا كانت تملك لصالحها شهرتها بأنّها جميلة، وعلى الرغم من أنّ أغنِس تفادت من حيث المبدأ مثلَ هذه المنافسة، إلا أنها سرعان ماانتبهت إلى أنّ مجرّد اسم خوليانا كان يشدّ انتباه الفرسان، فتستفيد عَرَضاً من ذلك. وللتهربّ من تلميحات أغنِس دوشامب الغرامية، التي راحت تتكثّف وتزداد، حاول دييغو أن يغيّر الصورةَ التي كوّنتها الشابةُ عنه، فلا هو غنيّ ولا ملاّك شجاعٍ يخبّ وسيفه على جنبه في وديان كاليفورنيا. وبدل ذلك راح يتكلّم عن رسائل مفترضة من والده تُعلمه، بين كوارث أخرى، عن إفلاس العائلة الاقتصاديّ الحتميّ. لم يكن يدري في تلك اللحظة كم كان قريباً بأكذوباته من الحقيقة، التي

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ستحل بعد سنوات قليلة. ولكي يكمل الصورة كان يُقلّد آدابَ مُعَلِّم خوليانا وإيزابيل في الرقص السارّة وبنطلوناته الضيّقة. كان يردّ على نظرات أغنِس الروائية بحساسية شديدة وألم مُفاجئ في الرأس، حتى أنّه ولّد عند الشابة شكّاً بأنّه مُخنَّث. هذا اللعب المرائي كان ينسجم تماماً مع شخصيّته التهريجية. إيزابيل، التي عاملته منذ البداية بصراحة تقارب القسوة، سألته أكثر من مرّة: «لماذا تتظاهر بالبله؟». خوليانا الشاردة كما هي دائماً في عالمها الروائي، لم تعتبر قط أنّها معنيّة بالكيفية التي تغيّر بها دييغو في حضور أغنِس. بالمقارنة مع إيزابيل، التي كانت أفعال دييغو المسرحية بالنسبة إليها جليّة، كانت خوليانا فتاة تتمتّع ببراءة مُقلقة.

بدأ توماس دِ رومِو عادةَ دعوةِ دييغو ليشرب بعد العشاء كأسَ العقَبَة مع *الشافالبير*، لأنّه لاحظَ أنّه كان يهتمّ بضيفه الشاب. كان الشافالبير يسأل عن نشاطات الطلبة في مدرسة العلوم الإنسانية، وعن ميول الشباب السياسية، عن شائعات الشارع والخدم، لكنّ دييغو كان يعرف سمعته وينتبه كثيراً إلى أجوبته. فهو إذا قال الحقيقة سيحرج أكثر من شخص، خاصّة رفاقه وأساتذته، أعداء الفرنسيين الألداء، على الرغم من أنّ غالبيّتهم كانت متفقة مع الإصلاحات المفروضة من قبلهم. وبنوعٍ من الحذر تظاهر أمام *الشافالبير* بالآداب المتكلّفة نفسها وبمخّ البعوضة الذي كان يتخذه مع أغنِس دو شامب، وفعل ذلك بنجاح جعل هذا يعتبره فضولياً تافهاً ورخواً. كان الفرنسيّ يستغرب اهتمام ابنته بـ دِ لابِغا. كان يرى أنّ ثروة الشاب المفترضة لا تعوّض برودته. كان *الشافالبير* رجلاً حديدياً، فلولا ذلك ما استطاع أن يخنق قطلونيا بالشكل الذي فعله، وسرعان ما انزعج من تفاهات دييغو. لم يعد يستنطقه؛ وكان يقوم أحياناً بتعليقات في حضوره، كان سيتفاداها لو أنّ رأيه به أفضل.

ـ عند مجيئي البارحة من جِرونا، رأيت أجساداً مُقطّعة مُعلّقة

على الأشجار ومشكوكة في رماح من قبل رجال حرب العصابات. كانت النسور في عيد. لم أستطع أن أنزع عنّي النتن... - علّق الشافاليير.

- وكيف عرفت أنّه من عمل رجال حرب العصابات وليس من عمل الجنود الفرنسيين؟ - سأل توماس دِ رومِو.

- أنا حسن الاطلاع، يا صديقي. الحرب في قطلونيا ضروس. في هذه المدينة تمرّ آلاف قطع الأسلحة المهرّبة، يوجد مخازن منها حتى في أماكن الاعتراف في الكنائس. رجال حرب العصابات يقطعون طرق الإمداد والسكان يتضورون جوعاً لأنّ الخضار والخبز لا يصلان.

- إذن، ليأكلوا بسكويت - ابتسم دييغو، مُقلّداً جملةَ الملكة ماري أنطوانيت الشهيرة، بينما راح يدفع بحبّة حلوى اللوز إلى فمه.

- الحالة جدّية ولا تتحمّل النكات، أيّها الشابّ - ردّ *الشافالبير* مُنزَعِجاً. منذ غد سيكون ممنوعاً حمل الفوانيس ليلاً، لأنّهم يستخدمونها في تبادل الإشارات وكذلك ارتداء الأدثرة، لأنّهم يُخفون تحتها البنادق القصيرة والخناجر. يكفي أن أقول لكم، أيّها الفارسان، أنّ هناك خططاً لنشر الجدري بين العاهرات اللواتي يخدمن القوات الفرنسية!

- بالله عليك أيّها الفارس دوشامبّ! - صاح دييغو بنبرة استنكار.

- نساء ورهبان يُخفون أسلحة في ملابسهم ويستخدمون الأطفال لنقل الرسائل وإشعال مخازن البارود. علينا أن نسوي المستشفى بالأرض لأنّهم يخبئون أسلحة تحت طرحاتِ الناموسيات.

تدبّر دييغو أمره بعد ساعة كي يُنبِّه مدير المستشفى إلى أنّ الفرنسيين سيصلون بين لحظة وأخرى. وتمكّن بفضل المعلومات التي راح يُسهِّلها إليه *الشافالبير* أن يُنقِذ أكثر من رفيق من رفاق

مدرسة العلوم الإنسانية أو جار في وضع خطير. من ناحية أخرى أوصل *للشافالبير* ملاحظة مجهولة المصدر حين علم بأنّهم سمّموا الخبز المخصّص لإحدى الثكنات. وأبطل تدخّله العملية وأنقذ ثلاثين جنديّاً عدوّاً. لم يكن دييغو واثقاً من أسبابه، كان يكره كلَّ أشكال الخيانة والغدر، كما كان يحبّ اللعب والمجازفة. كان يمقت أساليب رجال حرب العصابات كما يمقت أساليب قوات الاحتلال.

ـ من المحال البحث عن العدالة في هذه الحالة، يا برناردو، لأنّها ليست موجودة عند أيّ من الجانبين. فقط نستطيع أن نتجنّب مزيداً من العنف. سئمت من كثرة الرعب والفظائع. لا شيء نبيل أو مجيد في الحرب ـ علّق مخاطباً أخاه.

كانت حرب العصابات تسوط الفرنسيين بلا هوادة وتُلهب الشعبَ. فلاحون، خبّازون، بنّاؤون، حرفيون، تجّار، ناس عاديون خلال النهار، كانوا يُقاتلون في الليل؛ يحميهم السكان المدنيون، يُسهّلون لهم الإمدادات والمعلومات والبريد والمشافي والمقابر السرّيّة. استنزفت المقاومة الشعبيّة الضروس قوّات الاحتلال، لكنّها أيضاً دمّرت البلد، لأنّ الفرنسيين كانوا يردّون على الشعار الإسباني: «الحرب والسكين» بوحشيّة مماثِلة.

شكّلَت دروسُ المبارزة نشاط دييغو الأهمّ، فلم يصل إلى درس متأخّراً قط، لأنّه كان يعلم أنّ المعلّم سيصرفه للأبد. كان يقف في الثامنة إلا ربع أمام باب الأكاديمية، فيفتح له خادم بعد خمس دقائق وفي الثامنة يتسمّرُ وشيشه في يده أمام معلّمه. كان هذا يدعوه بعد انتهاء الدرس ليبقى دقائقَ أكثر ويتحدّث معه عن نبل فنّ المبارزة، وفخر الإمساك بالسيف، وعن أمجاد إسبانيا العسكرية، والضرورة الملحّة لكلّ فارس يملك عزّة نفس ليقاتل حتى الموت باسمها، على الرغم من أنّ المبارزات كانت ممنوعة. وقد قادت هذه الموضوعات إلى موضوعات أخرى أعمق وهذا الرُجَيل المتكبّر، له مظهر غندور

منشّى مفرط في منح التوافه أهمّية، حسّاس إلى حدّ أنّه لامس اللامعقول حين تعلّق الأمرُ بشرفه وكرامته الخاصّتين فكشف عن الجانب الآخر في طبيعته. كان مانوِل إسكالانتِ ابن تاجرٍ، لكنّه نجا من مصير متواضع، مثل مصير أخوته، لأنّه كان فذّاً مع السيف. رفعت المبارزة من مكانته، وسمحت له باختراع شخصيّة جديدة والتجولّ في أوروبا محتكّاً بالنبلاء والفرسان. لم يكن هوسه الطعنات التاريخية ولا ألقاب النبالة، كما كان يبدو من النظرة البسيطة، بل العدالة. تنبّأ بأنّ دييغو كان يُشاطره القلقَ ذاته، وإن كان لا يعرف نظراً لصغر سنّه أن يُسمّيه. عندها شعر بأنّه صار لحياته غاية سامية: هداية هذا الشاب كي يتبع خطواته، وتحويله إلى بطل مناضل من أجل القضايا العادلة. كان قد علّم المبارزة لمئات الفرسان، لكنّ ما من أحد منهم برهن أنّه أهل لهذه الوجاهة. كان ينقصهم الوهج الذي عرفه على الفور عند دييغو، لأنّه هو أيضاً كان يتمتّع به. لم يسمح لنفسه أن يُؤخذ بالحماس الأوّلي، فقرّر أن يعرفه بشكلٍ أفضلَ ويختبره قبل أن يجعله شريكاً له في أسراره. جسّ نبضه في تلك الأحاديث القصيرة في ساعة تناول القهوة. دييغو، المستعد دائماً للانفتاح حكى له بين أشياء أخرى، عن طفولته في كاليفورنيا، عن مغامرة الدب والقبعة، هجوم القراصنة، خرس بِرناردو، وتلك المناسبة التي أحرق فيها الجنود قرية الهنود. كان صوته يرتعش وهو يتذكّر كيف شنقوا زعيم القبيلة العجوز، وساطوا الرجالَ وقادوهم للعمل لصالح البيض.

التقى دييغو، في إحدى زيارات المجاملة التي قام بها إلى قُصير إيولاليا دِ كالّيس، بِرافائيل مونكادا. كان يزور السيّدة من حين لآخر، بتكليف من أبويه أكثر منه مبادرة خاصّة. كان المنزلُ يقع في شارع سانتا إيولاليا، فظنّ دييغو في البداية، أنّهم سمّوا الشارع باسم هذه السيّدة. انقضى عام قبل أن يتحقّق من أنّها كانت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إيولاليا الأسطورية، قديسة برشلونة المفضّلة، العذراء المعذّبة، التي قطعوا، حسب الأسطورة، ثدييها ودحرجوها في نفق فوق شظايا زجاج قبل أن يصلبوها. وكان عقار حاكمة كاليفورنيا القديمة جوهرة من الجواهر المعمارية في المدينة، وقد زيّنت داخله بترف مفرط، كان يصدم القطلانيين المعتدلين، الذين يعتبرون الأبّهة دليلاً أكيداً على الذوق السيّء. عاشت إيولاليا سنواتٍ كثيرة في المكسيك، فأصيبت بعدوى الازدحام الباروكي. في بلاطها الخاصّ كان هناك عدّة مئات من الأشخاص، يعيشون بشكلٍ أساسيّ على تجارة الكاكاو. أنشأ زوجُ إيولاليا قبل أن يموت بالغشية في المكسيك تجارة في الأنتيل كي يغطي حاجة محلات الشوكولا في إسبانيا وهذا ما زاد من ثروة العائلة. لم تكن ألقاب إيولاليا قديمة أو مُدهِشة، لكنّ مالها كان يُعوّض بسخاءٍ ما كان ينقصها من ألقاب. فبينما كانت الطبقة النبيلة تخسر مداخيلها وامتيازاتها وأراضيها وإيراداتها بقيت هي تزداد ثراءً بفضل نهر الشوكولا الفوّاح الذي كان يجري من أمريكا مباشرة إلى خزائنها. لو كان الزمن آخر لأخفى النبلاء الأكثر عراقةً في النسب، أولئك الذين كان باستطاعتهم أن يؤكّدوا زرقة دمهم قبل العام 1400، إيولاليا، التي كانت تنتمي إلى نبالة الدهماء، لكن الوضع لم يعد مناسباً للتشدّد الأرستقراطي. فالآن ما يحسب حسابه هو المال وليس النسب، وكانت تملك الكثير منه. ملاّكون آخرون كانوا يَشكُون من أنّ فلاّحيهم يرفضون دفع الضرائب والكراء، لكنّها لم تكن تُعاني من هذه المشكلة، لأنّها كانت تملك مجموعة مختارة من القبضايات المُكلّفين بالتحصيل. ثمّ إنّ معظم دخلها كان مصدره الخارج. أصبحت إيولاليا واحدة من أبرز شخصيات المدينة. وكانت تتنقّل دائماً حتى في ذهابها إلى الكنيسة في عدّة عربات برفقة موكب من الخدم والكلاب. وكان خدمها يلبسون بزّات سماوية وقبّعات مزيّنة بقنزعات من الريش صمّمتها لهم بنفسها مستلهمة إيّاها من الأوبرا. ومع الزمن زاد وزنها وتراجعت أصالتها وصارت امرأة متسلّطة بلباس جِدادها، نهمة،

محاطة بالرهبان والورعات وكلاب التشهواهوا، هذه الحيوانات التي تُشبِه الجرذان الحليقة وتبول على الستائر. وقد تخلّصت تماماً من عواطفها التي أقضّت مضجعها في ألق شبابها، حين كانت تصبغ شعرها بالأحمر وتستحمّ بالحليب. صارت اهتماماتها تقتصر على الدفاع عن نسبها، وعلى بيع الشوكولا وتأمين مكان لها في الجنّة بعد مماتها، والتهيئة بكلّ الوسائل الممكنة لعودة فِرناندو السابع إلى عرش إسبانيا. كانت تمقت الإصلاحات الليبرالية.

قرّر دييغو دِ لابغا أن يزور هذه السيّدة، بين الفينة والأخرى، بأوامر من والده واعترافاً بتصرفها الحسن مع رخينا، أمّه، على الرغم من أنّ هذا الواجب كان يُثقل عليه كالذبح. لم يكن عنده ما يقوله لهذه الأرملة غير أربع جمل مجاملة صارمة، ولم يعرف قط الترتيب الذي عليه أن يستخدم به الملاعق الصغيرة والشوكات على المائدة. كان يعلم أنّ إيولاليا دِ كالّيس تمقت توماس دِ رومِو لسببين من الوزن الثقيل: أوّلاً لأنّه متفرنس، وثانياً لأنّه والد خوليانا، التي من المؤسف أنّ رافائيل مونكادا، حفيدها المفضَل ووريثها الرئيسيّ كان يعشقها. كانت إيولاليا قد رأت خوليانا في الصلاة، وكان لا بدّ لها من أن تعترف بأنّها ليست قبيحة، لكنها وضعت لحفيدها خططاً أكثر طموحاً. فقد كانت تفاوض سرّاً من أجل ارتباط بينه وبين واحدة من بنات دوق مدينة سالم. كانت الرغبة بمنع زواج رافائيل من خوليانا الشيء الوحيد المشترك بين دييغو والسيّدة.

في أثناء زيارته الرابعة لقصر دونيا إيولاليا، بعد عدّة أشهر من حادث السيرينادا تحت نافذة خوليانا، حالفت الفرصة دييغو ليعرف رافائيل مونكادا بشكلٍ أفضل. كان قد التقى به مصادفة في بعض النشاطات الاجتماعية والرياضيّة، لكن لم تقم بينهما أيةّ علاقة باستثناء التحيّة بانحناءة من الرأس. كان مونكادا يعتبر دييغو صبيّاً خالياً من أيةّ أهمّية، فضيلته الوحيدة أنّه يعيش تحت سقف

واحد مع خوليانا دِ رومِو. لم يكن هناك من سبب لتمييزه عن رسوم السجادة. في تلك الليلة فوجِئ دييغو بمنزل إيولاليا منارًا بإسراف وأنّ هناك عشرات العربات المصطفّة في الفناء. قبلها لم تَدعُهُ إلا إلى مسامرات الفنانين وعشاءٍ ودّيّ، استقصت منه خلاله عن رِخينا. كان دييغو يعتقد أنّها تشعر بالخجل منه، ليس لأنّه قادم من المستعمرات بقدر ما لأنّه خلاسيّ. كانت إيولاليا قد عاملت أمّه معاملة حسنة جدّاً في كاليفورنيا، على الرغم من أنّ رِخينا فيها من الهنديّة أكثر مما من البيضاء، لكنّها منذ أن استقرّت في إسبانيا أُصيبت بعدوى احتقار أهل العالم الجديد. كان يُقال إنّ المتحدرين من أصل إسباني، ونظراً للطقس والاختلاط بالسكان الأصليين عندهم استعداد مسبق وطبيعي للبربريّة والفساد. أرادت إيولاليا قبل أن تُقدّمه إلى صفوة أصدقائها أن تكوّن فكرةً تامّة عنه. لم تبغ أن تقع في خيبة أمل، لذلك تأكّدت من أن يكون أبيض في مظهره وحسن الهندام ويتمتّع بالآداب المناسبة.

اقتيد دييغو في تلك المناسبة إلى قاعة رائعة، اجتمع فيها صفوة النبلاء القطلانيين برئاسة المرأة المتسلّطة، التي ترتدي دائماً القطيفةَ السوداء، حداداً جليّاً على بِدرو فاخِس، مسربلة بالماس، جالسة في كرسيّ أسقفيّ بمظلّة. كانت الأرامل الأخريات يُقْبرن وهنّ حيّاتٍ مسربلاتٍ بالسواد الذي يُغطّيهنّ من رؤوسهنّ وحتى مرافقهنّ، ولم تكن هذه حالها. كانت إيولاليا تنشر مجوهراتها فوق صدرها، الصدر المكتنز لدجاجة حسنة التغذية. كانت التقويرة تُظهر منبت ثديين هائلين وبضّينْ، مثل بطّيختين في عزّ الصيف، لم يستطع دييغو أن يرفع نظره عنهما، دائخاً من بريق الماس ووفرة اللحم. أعطته السيّدة يداً غليظةً فقبّلها كما يجب، سألته عن أبويه وصرفته بحركة مبهمة دون أن تنتظر منه جواباً.

كانت غالبية الفرسان تتناقش بالسياسة والتجارة في قاعاتٍ منفصِلَةٍ، بينما الأزواج الشبّان يرقصون على إيقاع الأوركسترا،

تراقبهم أمّهاتُ الفتيات الحسناوات. في إحدى القاعات كان هناك عدّة طاولات قمار، وهي أكثر تسليات البلاطات الأوروبية شعبية، حيث لم يكن هناك طريقة أخرى لمحاربة الضجر، غير التآمر والصيد والغرام العابر. كانوا يُقامرون بثرواتٍ، واللاعبون المحترفون يُسافرون من قصرٍ إلى قصرٍ ليُفقِروا النبلاء عديمي النفع، الذين إذا لم يجدوا لاعبين من طبقتهم كي يخسروا المال، قاموا بذلك مع الأشرار في مقامر وأكواخ متوافرة بالمئات في برشلونة. على إحدى الطاولات رأى دييغو رافائيل مونكادا يلعب 21 رئال مع فرسان آخرين. كان واحد منهم الكونت أورلوفّ. عرفه دييغو على الفور من وجاهته الرائعة وعينيه الزرقاوين اللتين ألهبتا خيال نساء كثيرات خلال زيارته إلى لوس أنجلوس، لكنّه لم يتوقّع من النبيلُ الروسيّ أن يعرفه. فهو قد رآه مرّةً واحِدةً، حين كان صبيّاً صغيراً. «دِ لابِغا!» صاح أورلوفّ ونهض على قدميه، وعانقه بحرارة مفرِطة فرفع رافائيل مونكادا عينيه عن الورق مُندَهِشاً وانتبه لأوّل مرّة انتباهاً تاماً إلى وجود دييغو. قاسه من أعلاه إلى أسفله، بينما الكونت الأنيق يروي بأعلى صوته كيف اصطاد هذا الشابُّ عدداً من الدببة حين لم يكد يكون أكثر من صعلوك صغير السن. هذه المرّة لم يكن هناك ألِخاندرو دِ لابِغا كي يُصحّح له روايته الملحمية. صفّق الرجالُ بلطف وعادوا على الفور إلى ورق لعبهم. وقف دييغو قرب الطاولة كي يُراقِب تفاصيل اللعبة، دون أن يتجرّأ على طلب إذن بالمشاركة، على الرغم من أنّهم كانوا لاعبين متواضعين، لأنّه لم يكن يملك المبالغ التي يُقامِرون بها هناك. فوالده كان يُرسل إليه المال بانتظام لكنّه لم يكن كريماً، لأنّه كان يعتبر أنّ التقشف يُشذّب الطبيعة. خمس دقائق كانت كافية لدييغو كي ينتبه إلى أنّ رافائيل مونكادا كان يغشّ، لأنّه هو نفسه كان يعرف كيف يفعل ذلك؛ وخمس دقائق أخرى كي يُقرّر أنّه إذا كان لا يستطيع أن يكشفه، ويوقع فضيحة لن تغفرها له دونيا إيولاليا، فهو على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأقلّ يستطيع أن يمنعه. بدا له إغواء إهانة غريمه لا يُقاوَم. وقف بجانب مونكادا يراقِبه بإمعانٍ جعل هذا الأخير يتململ منزعجاً.

- لماذا لا تذهب لترقص مع الفتيات الجميلات في القاعة الأخرى؟ - سأله مونكادا، دون أن يخفي وقاحته.

- تهمّني جداً طريقتك الخاصّة في اللعب، يا صاحب السعادة، لاشكّ أنّني أستطيع أن أتعلّم الكثير منك... - ردّ دييغو مبتسماً بوقاحة الآخر ذاتها.

وعلى الفور التقط الكونت أورلوفّ قصدية كلمات مونكادا فجعله يعرف غارزاً عينيه فيه، وبنبرة باردة برودة سهوب بلاده قال بأنّ حظّه بالورق يبدو فعلاً عجيباً. لم يردّ رافائيل مونكادا، لكنّه لم يستطع منذ تلك اللحظة أن يستمرّ بالغشّ، لأنّ اللاعبين الآخرين صاروا يراقبونه بانتباهٍ واضح. لم يتحرّك دييغو خلال الساعة التالية من جانبه وهو يُراقبُه، إلى أن اعتبرت اللعبة منتهية. حيّا الكونت أورلوفّ، خابطاً كعبيه وانسحب بثروة صغيرة في جيبيه، مستعداً لأنّ يقضي بقيّة الليل بالرقص. كان يعرف أنّه ما من امرأة في الحفلة لم تُمعن في قدّه الرشيق، وعينيه الصفيرتي اللون(•) وبزّته الإمبراطورية المدهشة.

كانت ليلة من ليالي برشلونة الرصاصية، الباردة والرطبة. كان بِرناردو ينتظر دييغو في الفناء يتقاسم زقّ نبيذه وجبنته القاسية مع جوانِت، أحد الخدم الكثيرين الذين يعتنون بالعربات. كلاهما كان يُدفّئ قدميه خابطاً بهما البلاط. كان جوانِت متحدّثاً يصعب إصلاحه، وجد أخيراً شخصاً يصغي إليه دون أن يُقاطِعه. وعرّف بنفسه أنّه خادم رافائيل مونكادو، الأمر الذي كان بِرناردو يعرفه ولذلك دنا منه، فراح يروي قصّة لا تنتهي مليئة بالنكات بينما بِرناردو يصنّفُ تفاصيلها ويخزّنها في ذاكرته. تأكّد من أنّ كلّ معلومة، حتى أكثرها

(•) Zafiro: الصفير هو الياقوت الأزرق. م.

ابتذالاً يمكن أن تفيد في لحظة من اللحظات. في هذه الأثناء خرج رافائيل مونكاد بمزاج سيّء وطلب عربته.

- منعتك من الكلام مع خدم آخرين - باغتَ جوانِت.

- ليس أكثر من هنديّ من أمريكا، يا صاحب السعادة، خادم السيّد دييغو دِ لابِغا.

وبدافع الانتقام من دييغو، الذي وضعه في موقف حرج على طاولة القمار، رجع رافائيل مونكادا القهقرى، رفع عصاه وأفرغها على ظهر بِرناردو، الذي سقط على ركبتيه، مباغَتاً أكثر من أيّ شيء آخر. من على الأرض سمعه بِرناردو يأمر جوانِت بالبحث عن بّلايو. لم يتمكّن رافائيل من أن يستوي في عربته لأنّ دييغو ظهر في الفناء في الوقت المناسب ورأى ما حدث. نحّى الخادم جانباً، أمسك باب العربة وواجه مونكادا.

- ماذا تريد - سأل هذا مرتبكاً.

- ضربتَ بِرناردو! - صاح دييغو وقد امتقع لونه.

- من؟ هل تعني هذا الهنديّ؟ لقد قلّل أدباً معي، رفع صوته عليَّ.

- برناردو لا يستطيع أن يرفع صوته ولا حتى على الشيطان بعينه، لأنّه أخرس. أنت مدين له بالاعتذار، أيّها الفارس - طالبه دييغو.

- هل فقدت رشدك! - صاح الآخر، غيرَ مُصدِّق.

- بضربك بِرناردو أهنتني. عليك أن تتراجع أو أنك ستستقبل كفيليّ - ردّ دييغو.

راح رافائيل مونكادا يضحك برغبة. لم يكن يستطيع أن يُصدّق أنّ هذا المولَّد الإسباني، غير المربّى ولا طبقة اجتماعية له مستعد لمقارعته. أغلق الباب بطرقة واحدة وأمر سائق العربة أن ينطلق.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أخذ بِرناردو دييغو من ذراعه وأوقفه بقوّة، متوسّلاً إيّاه بنظره أن يهدأ، فالأمر لا يستحق إثارة كلّ تلك الضجّة، لكنّ دييغو كان قد خرج عن طوره، راح يرتجف من الإهانة. تخلّص من أخيه، امتطى حصانه وتوجّه خابّاً إلى مكان إقامة مانوِل إسكالانتِ.

على الرغم من أنّ تلك الساعة من الفجر لم تكن مناسبة، فقد طرق دييغو بابَ مانوِل إسكالانتِ بعصاه إلى أن فتح له الخادم العجوز نفسه الذي كان يُقدّم القهوة بعد الدرس. قاده إلى الطابق الثاني، حيث اضطرّ أن ينتظر نصف ساعة قبل أن يظهر المُعلّم. كان المعلّم في فراشه منذ برهة لكنّه حضر بتهذيبه المُعتاد وشاربه المقسّى، مرتدياً دثار نومه. حكى له دييغو بكلام متدافع ما جرى وتوسّله أن يكون كفيله. فأمامه أربع وعشرون ساعة كي تُصبح المبارزة رسمية والمعاملة يجب أن تتمّ بتكتّم، من وراء ظهر السلطات، لأنّه كان سيعاقب مثل أيّ قاتل. وحدهم النبلاء يستطيعون المبارزة لأنّ جرائمهم تلقى الحصانة التي لا يتمتع بها.

ـ المبارزة شيء جدّي، يتعلّق بشرف النبلاء. لها لباقتها وقواعدها الصارمة جدّاً. الفارس لا يقاتل في مبارزة دفاعاً عن خادِم ـ قال مانوِل إسكالانتِ.

ـ بِرناردو أخي، وليس خادمي، يا مُعلّم. لكن حتى ولو كان كذلك فليس من العدل أن يسيء مونكادا لشخص أعزل.

ـ تقول ليس من العدل؟ هل حقّاً تُفكّر بأنّ الحياة عادلة، يا سيّد دِ لابِغا؟

ـ لا، يا مُعلّم، لكنّني أُفكّر أن أعمل بكلّ ما في وسعي كي تكون كذلك ـ ردّ دييغو.

جاء الإجراء أكثر تعقيداً مما افترضه دييغو. فأوّلاً جعله مانوِل إسكالانتِ يكتب رسالة يطالب فيها بتوضيحات، حملها بنفسه إلى

بيت المعتدي. بدءاً من تفاهم اللحظة تفاهم المعلّم مع كفيليّ مونكادا، اللذين عملا ما بوسعهما لتجنّب المبارزة، كما هو واجبهما، لكن ما من أحد من الخصمين أراد أن يتراجع. إضافة إلى كفلاء الجانبين، كان يتطلّب الأمر طبيباً حصيفاً وشاهدين غير منحازين، باردي الدم وعارفين بالقواعد، تكفّل مانوِل إسكالانتِ بالحصول عليهم.

- كم عمرك، يا سيّد دييغو؟ - سأل المعلّم.

- سبعة عشر عاماً تقريباً.

- إذن لست في عمر يسمح لك بالمبارزة.

- أرجوك، يا مُعلّم، لا تجعلنا نعمل من هذه الحبّة من الرمل قبّة. ماذا تهمّ أشهر أكثر أو أشهر أقل؟ شرفي في خطر، وهذا ليس له عمر.

- حسناً، لكن يجب أن يُعلم السيّد توماس دِ رومِو بهذا، وإلاّ اعتُبرت إهانة له، فهو قد خصّك بثقته وضيافته.

وهكذا كان أن عُيِّن دِ رومِو كفيلاً ثانياً. عمل الممكِن لإقناعه، لأنّه إذا ما كانت النهاية سيّئة بالنسبة إلى الشاب، فلن يكون عنده مايقوله لألِخاندرو دِ لابِغا، لكنّه لم يتمكّن. كان قد حَضَر لِدييغو درسين في المبارزة في أكاديمية إسكالانتِ وكان يثق بمهارة الشاب، لكنّ اطمئنانه النسبيّ ذِهب إلى الشيطان حين أعلمه كفيلا مونكادا أنّ هذا الأخير قد لُويَ مرفقه توّاً ولا يستطيع أن يقاتل بالسيف. فالمبارزة ستكون بالمسدّس.

التقوا في غابة مونتِجويك في الخامسة صباحاً، حين أصبح هناك بعض النور وصار التجوال ممكناً في المدينة، ففي تلك الساعة كان يُرفع حظر التجوّل، كان ينبعثُ بخار خفيف من الأرض ونور الفجر الخافت يتسرَّبُ بين الأشجار. كان المشهد من الوداعة بحيث بدت تلك المبارزة أكثر فظاظة، لكن ما من أحد من الحضور غير

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بِرناردو لاحظه. بقي الهنديُ بصفته خادماً على مسافة معيّنة، دون أن يُشارك في الطقس الصارم. وعملاً بالبروتوكول تبادل الخصمان التحيّة وفتّش الشهودُ على الفور جسديهما كي يتأكّدوا من أنّهما لايحملان ما يقيهما من الطلقات. رموا قرعة ليروا من يكون في مواجهة الشمس فخسر دييغو، لكنّه فكّر أن نظره الحسن سيكون كافياً كي يُعوّضه عن هذا العائق. ونظراً لأنّ دييغو هو المُهان استطاع أن يختار المسدَّسين فاختار المسدّسين اللذين أرسلتهما إيولاليا إلى والده في كاليفورنيا قبل سنوات كثيرة، فهما نظيفان وشُحِّما حديثاً للمناسبة. ابتسم أمام مهزلة أن يكون حفيد إيولاليا بالتحديد أوّل من يستخدمه. فحص الشهود والكفلاء السلاحين ولقّموهما. كانوا قد اتفقوا على أنّها لن تكون مبارزة أوّل دم يسيل، فكلا المقاتلين لهما الحقّ بالرماية دورياً، حتى ولو كانا جريحين، ما دام الطبيب يأذن بذلك. اختار مونكادا المسدّس قبله لأنّه لم يكن صاحب السلاحين، ثم اقترعا على من سيكون البادئ بالرماية ـ أيضاً مونكادا ـ وقاسوا مسافة الخمس عشرة خطوة التي يجب أن تفصل بين الخصمين.

أخيراً تواجه رافائيل مونكادا ودييغو دِ لابِغا. ما من أحد منهما كان جباناً، لكنّهما كانا شاحِبين، وقميصاهما مُبلَّلَين بالعرق البارد. دييغو وصل إلى هذه الحالة حنقاً ومونكاداً كبرياءً، وتأخَّر الوقت، فلم يعد باستطاعتهما دراسة إمكانية التراجع. في هذه اللحظة أدركا أنّهما سيقامران بحياتيهما دون أن يكونا واثقين من السبب. ولم تكن المبارزة، كما بيّن بِرناردو لدييغو، بسبب ضربة العصا التي أنزلها مونكادا بِبِرناردو، بل بسبب خوليانا، وعلى الرغم من أنّ دييغو أنكر ذلك إنكاراً قطعيّاً، إلا أنّه في أعماقه كان يعرف أنّه على حقّ. عربة مُغلقة كانت تنتظر على بعد مئتي ذراع كي تحمل جثّةَ الخاسِر بأكبر قدر من الكتمان الممكن. لم يُفكّر دييغو بوالديه ولا بخوليانا. في اللحظة التي اتخذ فيها وضعيته، بجسده جانبيّاً كي يعرض أقل قدر من المساحة منه لخصمه، حضرت إلى

ذهنه صورة البومة البيضاء بكلّ جلاء، فرآها إلى جانب بِرناردو. كانت جدّته الغريبة منتصبة على قدميها، بالموقف ذاته ودثار جلد الأرنب ذاته حين ودّعتهما عندما غادرا كاليفورنيا. رفعت البومة البيضاء عصاها، عصا الشامان بإيماءة الكبرياء، التي رآها تقوم بها مرّات كثيرةً وحرّكتها بثقة في الهواء. عندها شعر بنفسه حصيناً فاختفى الخوفُ بالسحر واستطاع أن ينظر إلى وجه مونكادا.

طرق أحدُ الشهود، المُعينّ مديراً للمعركة، يداً بيد مرّةً واحدة للاستعداد. تنفّس دييغو عميقاً وواجه دون أن يرفّ له جفن مسدَّسَ الآخر، الذي كان يرتفع إلى وضعية الإطلاق. طرقت يدا المدير مرّتين من أجل التسديد. ابتسم دييغو لِبرناردو وجدَّتهِ، مستعدّاً للرّماية. اليدان صفقتا ثلاثاً فرأى دييغو اللمعة، سمع انفجار البارودِ، وأحسّ في الوقت ذاته بالألم يحرقه في ذراعه الأيسر.

تردّد الشابّ وبدا للحظة طويلة أنّه سيسقط، بينما كمّ قميصه يتبلّل بالدم. في ذلك الفجر الضبابي، اللوحةِ المائية الخفيفة، وحواف الأشجار والرجال تتبخّر، كانت بقعة الدم تلمع مثل اللك. أشار المدير لدييغو بأنّه لا يملك غير دقيقة واحدة كي يردّ على رمية خصمه. أشار برأسه موافقاً ووقف في وضعية الرماية بيده اليمنى بينما اليسرى تقطر دماً، متدلّية متخشبة. استدار مونكادا أمامه جانبياً ممتقع اللون، مرتعداً، ومغمَضَ العينين. صفق المدير صفقة فرفع دييغو مسدّسه، اثنان وسدّد، ثلاثة. على بعد خمس عشرة خطوة سمع مونكادا الطلقة وتلقّى جسده صدمة الطلقة. سقط بركبتيه على الأرض ومرّت عدّة ثوان قبل أن ينتبه إلى أنّه سليم: لقد أطلق دييغو على الأرض. عندها تقيّأ، مرتعداً كمن أصابته برديّة. اقترب كفيلاه شاعرين بالعار لمساعدته بالنهوض وتنبيهه بصوت خافت إلى أنّ عليه أن يتمالك نفسه.

خلال ذلك ساعد بِرناردو ومانوِل إسكالانتِ الطبيبَ على تمزيق قميص دييغو، الذي بقي منتصباً على قدميه هادئاً ظاهريّاً. كانت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الطلقة قد مسّت الجانب الخلفيّ من ذراعه دون أن تصيب العظم أو تؤذي العضلة كثيراً. ضمّده الطبيب ولفّه لوقف الدم، حتى يستطيع أن يغسله ويخيطه براحة فيما بعد. تصافح المتقاتلان تماماً كما كانت تتطلّب آداب المبارزة. لقد غسلا الشرف، لم تبق هناك من إهانة عالقة.

- أحمدُ السماء على أنّ جرحك خفيف أيّها الفارس - قال رافائيل مونكادا، وقد صار في أوج سيطرته على أعصابه - وأعتذر منك لضربي خادمك.

- عذرك مقبول، يا سيّد، وأُنكِّرك بأنّ بِرناردو أخي - أجاب دييغو.

سنده بِرناردو من ذراعه السليمة وحمله بما يشبه التثاقل إلى العربة. سأله توماس دِ رومِو فيما بعد لماذا تحدّى مونكادا، إذا لم يكن مستعداً لإطلاق النار عليه. فأجابه دييغو أنّه لم يحاول قط أن يُثقل ذاكرته بقتيل سيدمر حلمه، فقط أراد أن يهينه.

اتفقا على ألا يقولا شيئاً عن المبارزة لخوليانا وإيزابيل، ويجب عدم جرح حساسية الجنس اللطيف، فهذه مسألة تخصّ الرجال، لكن ما من واحدة منهما صدّقت رواية سقوط دييغو عن الجواد. وزّت إيزابيل في رأس بِرناردو إلى أن حكى لها هذا بعدّة إشارات ما جرى. وعلّقت الصغيرة: «لم أفهم قط مسألة شرف الذكر. يجب أن يكون المرء أخرق تماماً كي يُخاطِر بحياته من أجل أمرٍ تافه» لكنّها كانت مندهشة، كما استطاع أن يُقدّر بِرناردو، لأنّها في الانفعالات القويّة كانت تحوِل عينها. منذ تلك اللحظة صارت خوليانا وإيزابيل وحتى نوريا يتشاجرن على شرف حمل الطعام إلى دييغو. فالطبيب أمر بالراحة أيّاماً عدّة تفادياً للتعقيدات. كانت أسعد أربعة أيّامٍ في حياة الشاب؛ كان مستعداً أن يسقط في المبارزة مرّة في

الأسبوع شرط أن يلقى عناية خوليانا. فغرفته تمتلئ بنور خارق حين تدخلها، ينتظرها بدثار نوم أنيق، مستلقياً على كرسيّ كبير، وكتاب سونتات على ركبتيه، متظاهراً بالقراءة، مع أنّه كان يعدّ دقائقَ غيابها. كانت ذراعه تؤلمه في هذه الحالة حتى أنّ خوليانا كانت تُضطرّ لأن تضع الحساء في فمه، وتمسح جبينه بماء الزهر وتُسلّيه لساعات بجنكها وقراءتها ولعب الداما.

لم يعد بِرناردو المشغول بجرح دييغو، لا لخطورته بقدر ما لاهتمامه، ليُفكّر بأنّه سمع رافائيل مونكادا يذكر اسم بّلايو إلا بعد عدّة أيّام، حين علم من فم الخدم أنّ الكونت أورلوفّ قد هوجم ليلة حفلة إيولاليا دِ كاليّس ذاتها. كان النبيل الروسي قد بقي حتى ساعة متأخّرة جداً في القُصير، أخذ بعدها عربته، التي استأجرها مدّة وجوده القصير في المدينة، ليعود مكان إلى إقامته. في الطريق اعترضت العربةَ في شارع ضيقٍ مجموعةٌ من قطّاع الطرق المسلحين بالبنادق القصيرة، وأخضعوا الخدم الأربعة دون مشاكل ثم وبعد أن أفقدوا الكونت وعيَه جرّدوه من محفظته ومجوهراته ودثاره المصنوع من جلد الشنشيلة الذي كان يرتديه. عُزي الهجوم إلى رجال حرب العصابات، على الرغم من أنّها لم تكن طريقتهم في العمل. وكان التعليق العام أنّ برشلونة فقدت الحدّ الأدنى من النظام. ماذا كان يهمّ حُسن سلوك بالنسبة لمنع التجوّل إذا لم يعد باستطاعة الناس المحترمين أن يسيروا في الشوارع؟ وكانت ذروة الأزمة أن لا يكون باستطاعة الفرنسيين أن يُحافِظوا على الحدّ الأدنى من الأمن! أعلم بِرناردو دييغو أنّ المحفظة المسروقة كانت تحتوي على الذهب الذي ربحه الكونت أورلوفّ من رافائيل مونكادا على طاولة القمار.

ـ هل أنت متأكّد من أنك سمعت مونكادا يذكر اسم بّلايو؟ أعرف ما تُفكّر به، يا بِرناردو. أنت تُفكّر بأنّ مونكادا متورّط بالهجوم على الكونت. هذا لاتهام جدّي أكثر من اللازم، ألا ترى ذلك؟ ليس لدينا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أدلّة، لكنّني أتفق معك بأنّ قدراً كبيراً من المصادفة يوجد في الأمر. حتى ولو لم يكن لمونكادا أيّة علاقة بالأمر، فهو محتال. لا أريده قريباً من خوليانا، لكنّني لا أدري كيف أمنعه من ذلك ـ علّق دييغو.

في عام 1812 وقّع الإسبان في مدينة قادش دستوراً ليبرالياً مرتكزاً على مبادئ الثورة الفرنسية، مع فارق أنّه يُعلن الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلد ويمنع ممارسة أيّة ديانة أخرى. تماماً كما قال توماس دِ رومِو لم يكن هناك من داعٍ لكلّ ذلك القتال ضدّ نابليون إذا كانوا في نهاية المطاف متفقين على الجوهر: سيبقى حبراً على ورق لأنّ إسبانيا ليست جاهزة للأفكار المستنيرة، ذلك كان رأي *الشافالبير* الذي أضاف بحركة قلقة إلى أنّ إسبانيا بحاجة إلى خمسين عاماً كي تدخل القرنَ التاسع عشر.

بينما كان دييغو يقضي الساعات في الدراسة في قاعات مدرسة العلوم الإنسانية العريقة ويمارس المبارزة ويخترع حيلاً سحريّةً جديدة لإغواء خوليانا التي لا شيء كان يحرّكها وعادت، ما إن شُفِيَ جرحُه، لتعامله كأخٍ، كان بِرناردو يجوب برشلونة مجرجراً حذاء القسّ مِندوثا الثقيل، الذي لم يتمكّن قط من الاعتياد عليه. كان يحمل دائماً كيسه السحري معلّقاً على صدره، حيث ضفيرة برقِ الليل السوداء، التي صارت تحمل حرارة جلده ورائحته، وتشكّل جزءاً من جسمه، صارت ملحقاً لقلبه. أرهفَ الخرسُ الذي فرضه على نفسه حواسه الأخرى، صار باستطاعته أن يهتدي بالشمّ والسمع. كان ذا طبيعة انعزالية وصار بصفته أجنبيّاً أكثر انعزالاً، لكنّه كان يحبّ ذلك. لم يكن الزحام يُضايقه، لأنّه يجد وسطَ الصخب مكاناً هادئاً لروحه. كان يشتاق للفضاءات المفتوحة التي عاش فيها من قبل، لكنّه أيضاً أحبَّ تلك المدينة التي تراكمت عليها قرون الزمن، أحبَّ شوارعها الضيّقة، وأبنيتها الحجرية، وكنائسها المُظلمة، التي كانت تُذكّره بإيمان القسّ مِندوثا. كان يُفضّل حيّ الميناء، حيث يستطيع أن يتأمّل البحرَ ويتواصل مع دلافين المياه البعيدة. كان يتنزّه على

غير هدى، صامتاً، خفيّاً، مختلطاً بالناس، يلتقطُ نبضَ برشلونة والبلد. عاد ورأى بّلايو في إحدى نزهاته الساهية.

في مدخل حانة كانت قد تربّعت غجرية، وسخة وجميلة، لتغوي المارّة بالكشفِ عن مستقبلهم، الذي باستطاعتها الكشف عنه بالورق أو بخارطة اليد، كما كانت تُعلن بلغةٍ قشتالية مقلوبة. قبل دقائق كانت قد تنبّأت لبحّارٍ سكران، لتواسيه، أنّ كنزاً ينتظره على شاطئ بعيد، على الرغم من أنّها رأت في راحة يده صليبَ الموت. على بعد خطوات انتبه الرجل إلى أنه فقد المحفظة والنقود فاستنتج أنّ الغجرية قد سرقتها. كانت نظرته رمادية وراح يرغي ويزبد مثل كلب كَلِب حين أخذ اللصة المفترضة من شعرها وراح يهزّها. خرج زبائن الحانةِ على عوائه ولعناته وراحوا يحمّسونه بسخرياتهم الشيطانية، لأنّه إذا كان هناك من شيء يوحّد الناس جميعاً فهو الكراهية العمياء للغجر، ثم إنّه كان يكفي في سنوات الحرب تلك أدنى ذريعة كي ترتكب الغوغاء أعمال الشغب. كانوا يتهمونهم بكلّ الرذائل التي عرفتها البشرية، بما في ذلك سرقة الأطفال الإسبان لبيعهم في مصر. وكان باستطاعة الأجداد أن يتذكّروا الحفلات الشعبية الحيوية التي أحرقت فيها محاكمُ التفتيش ملحدين وسحرةً وغجراً على حدٍّ سواء. في اللحظة التي فتح فيها البحار سكينه كي يشطب وجه المرأة تدخّل بِرناردو ودفعه بقوّة بغل ورمى به أرضاً، حيث بقي يتخبّط في أبخرة الكحول المزمنة. وقبل أن يقوم الحشد بردّ فعل أخذ بِرناردو الغجريةَ من يدها وجريا معاً ليضيعا في نزلة الشارع. لم يتوقّفا حتى حيٍّ لا بَرثِلونِتا، حيث أصبحا إلى هذا الحدّ أو ذاك في منأى من الحشد المهتاج. هناك أفلتها بِرناردو وأشار مودّعاً، لكنّها أصرّت على أن يتبعها فراسخَ عدّة باتجاه عربةٍ ثقيلة مزوّقة بالرسوم وعلامات الأبراج، مربوطة إلى جواد بدين عريض القوائم، وضعت في زقاق جانبيّ. كان داخل تلك العربة المخلّعة من تمادي عدّة أجيال من الرحّالة في استعمالها، كهفٌ تركيٌ، مزدحمٌ بالأشياء الغريبة، فيه شلال من المناديل الملونة، وفوضى من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الجلاجل ومتحف من التقاويم والصور الدينية الملصقة بالسقف. كانت تصدر عنها رائحة هي مزيج من عطر البتشولي والخرق الوسخة. أثاثها فراش ووسائد بروكار فخمة، وحائلة اللون. أشارت إليه مومئةً أن يستريح وجلست على الفور مقابله منكمشةَ الساقين تراقبه بنظرة قاسية. أخرجت زجاجة مشروب كحولي، شربت جرعة وأعطتها له، وهي ما تزال مهزوزة من الركض. كانت سمراء البشرة، عضلية الجسد، ضارية العينين، مصبوغة الشعر بالحنّاء؛ حافية ترتدي فستانين أو ثلاثةً واسعة الدارة وقميصاً حائل اللون وصدارة قصيرة، مربوطة من الأمام بأربطة متصالبة وشال مهدّب على كتفيها ومنديل عقدته على رأسها، علامة النساء المتزوّجات في قبيلتها، على الرغم من أنّها كانت أرملة. وكانت تُخشخِش في معصميها ببضع عشرة سوار وبعدد من الجلاجل الفضّية في كعبيها، وببعض النقود الذهبية المخاطة إلى المنديل على جبينها.

كانت تستخدم اسم أماليا بين *الغدج*، أي بين من ليسوا غجراً. حين ولدت تلقت من أمّها اسماً آخر، لا يعرفه غيرها بهدف إبعاد الأرواح الشريرة والمحافظة على سرّية هويّة الصغيرة الحقيقية. كان لها أسم ثالث أيضاً، تستخدمه بين أبناء قبيلتها. رامون، رجل حياتها، قتله فلاحون في سوق لِريدا بهراواتهم بتهمة سرقة الدجاج. كانت قد أحبّته منذ نعومة أظفارها. واتفقت العائلتان على العرس حين لم يكن لها من العمر إلا أحد عشر عاماً. دفع حمواها ثمناً غالياً، لأنّها كانت حسنة الصحّة، وقويّة العريكة، وجيّدة التدريب على الأعمال المنزلية ثم إنّها كانت *درابار دي* حقيقية، فقد ولدت بموهبة طبيعية بالتنجيم والشفاء بالسحر والأعشاب. كانت تبدو في ذلك العمر قطّة هزيلة، لكن الجمال لا يدخل في الحساب حين اختيار الزوجة. فوجئ زوجها مفاجأة سارة حين رأى تلك الكومة من العظام تتحوّل إلى امرأة جذّابة، لكنّه أصيب من ناحية أخرى بالخيبة لأنّ أماليا لم تكن تستطيع الإنجاب. كان شعبها يعتبر

الأولادَ بركة، والبطن الجاف كان سبباً للطلاق، لكنّ رامون كان يُحبّها كثيراً. وقد أدخلها موت زوجها في حدادٍ طويل، لن تخرج منه أبداً. كان عليها ألا تلفظ اسم المتوفّى كيلا تستدعيه من العالم الآخر، لكنّها كانت تبكيه سرّاً كلّ ليلة.

منذ قرون وشعبها يتيه في العالم، ملاحَقاً ومكروهاً. أسلاف قبيلتها خرجوا من الهند قبل ألف عام وعبروا أوروبا وآسيا كلّها قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى إسبانيا، حيث كانوا يسيئون معاملتهم كما في أماكن أخرى، لكنّ الطقس كان أفضل قليلاً بالنسبة إلى حياة التشرّد. استقرّوا في الجنوب، حيث كانت ما تزال هناك بعض الأسر الرحالة، مثل عائلة أماليا. هؤلاء الناس الذين تحمّلوا من الخيبات ما يجعلهم لا يثقون حتى بظلّهم، وللسبب ذاته حرّك تدخّل بِرناردو غير المتوقَّع لواعجَ الغجرية. لم يكن بمقدورها أن تتعامل مع الغرباء إلا لأسباب تجارية وإلاّ عرّضت نقاء عرقها وتقاليده للخطر. وبحكمة دقيقة كان الغجر يَبْقون على الهامش، لا يثقون مطلقاً بالأجانب ويحتفظون بولائهم للعشيرة، لكن ذلك الشاب بدا لها أنّه لم يكن أجنبيّاً تماماً، كان قادماً من كوكب آخر، غدج (غريباً) في كلّ مكان. ربّما كان غجريّاً من قبيلة ضائعة.

حدثَ أنّ اماليا كانت أخت بِّلايو، كما سيكتشف بِرناردو في ذلك اليوم ذاته، حين دخل هذا إلى العربة الثقيلة. لم يعرف بِّلايو الهنديَّ، لأنّه في الليلة التي بوغت فيها وهو يُغنّي لخوليانا بالإيطالية، بتكليف من مونكادا، لم يملك عينين إلا ليرى دييغو، الذي كان سيفه يضغط على عنقه. شرحت أماليا لبِّلايو ما جرى، بالرومية(*)، لغتها ذات الأصوات المتهشّمة، المشتقّة من السنسكريتية. واعتذرت منه

(*) en romani لغة هندية أوروبية صفة مشتقة من Roma، وهو اسم الشعب الذي تنتمي إليه أماليا. كما نلاحظ أنّ ياء النسبة هي اشتقاق عربي موجود في اللغة الإسبانية، كيلا يقع خلط بينها وبين romano نسبة إلى روما أو rumano نسبة إلى رومانيا. م.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لأنّها خرقت حرمة عدم التعامل مع *الغدج* (الغرباء). هذا الخطأ الخطير الذي يمكن أن يدينها بـ*الماريمِة*، حالة الدنس، التي تستحق نبذ الجماعة، لكنّها كانت تستند إلى أنّ القواعد تراخت منذ بداية الحرب. كانت القبيلة قد عانت كثيراً في تلك السنوات، فالعائلات تشتّتت. وصل بِّلايو إلى النتيجة ذاتها وبدل أن يُوبّخ أخته، كما كانت العادة، شكر بِرناردو على حركاته. وكان مندهشاً مثلها من طيبة الهنديّ، لأنّه لم يحصل أن عاملهم *غدج* (غريب) بمثل تلك المعاملة الطيّبة قط. انتبه الأخوان إلى أنّ بِرناردو كان أخرس أو متخلّفاً. كانا يُشكلان جزءاً من مجموعة تقيم أودها من أي شغل يقع في أيديهم، ويقتصر دائماً تقريباً على شراء وبيع الخيول، ومداواتها إذا كانت مريضة أو جريحة. يكسبون عيشهم من كيرهم، من صناعة المعادن، الحديد والذهب والفضّة. يصنعون بدءاً من نعال الخيل وحتى السيوف والمجوهرات. كانت الحرب تجعلهم يتنقّلون كثيراً، لكنّها من ناحية أخرى لصالحهم، لأنّ الفرنسيين والإسبان، نسوهم على حدّ سواء في حمأة قتل بعضهم البعض. كانوا في أيام الآحاد والأعياد الأخرى ينصبون خيمة ممزّقة في الساحات ويقومون بتجارب سيرك. وسيتعرّف بِرناردو على بقيّة المجموعة قريباً سريعاً، ومن بينهم رودولفو، العملاق المغطّى بالوشم، الذي كان يلفّ أفعى ضخمة حول عنقه ويرفع حصاناً بين ذراعيه. كان يتجاوز الستين من عمره، فهو أكبر أفراد العائلة سنّاً وبالتالي أكثرهم سلطة. كانت بترينا تساهم بالدور الأقوى في السيرك البائس. كانت طفلة ضئيلة الحجم، في التاسعة من عمرها تنطوي مثل منديل وتدخل كلّها في جرّة من جرار حفظ الزيتون. وكان بِّلايو يقوم بألعاب بهلوانية على ظهر حصان أو حصانين بينما يُمتع أفراد العائلة الآخرين الجمهورَ، قاذفين بعضهم بعضاً بالخناجر بعيون معصوبة. كانت أماليا تبيع أوراقَ يانصيب، تقرأ الأبراجَ وتتنبّأ بالمستقبل بوساطة كرة زجاجية كلاسيكية، بحدس صائب يجعلها

هي نفسها ترتعب من سداد رؤيتها المبهرة؛ كانت تعرف أنّ القدرة على فكّ رموز المستقبل عادة ما تكون لعنة، لأنّه إذا كان من غير الممكن تغيير ما سيحدث فمن الأفضل عدم معرفته.

لم يكد دييغو دِ لابِغا يعلم أنّ بِرناردو أقام علاقة صداقة مع الغجر حتى أصرّ على معرفتهم، لأنّه كان يريد التحقّق من تعامل بْلايو مع رافائيل مونكادا. لم يكن يتصوّر أنّه سيتعلق بهم ويشعر بالراحة برفقتهم. في ذلك الوقت كان القسم الأعظم من قبائل شعب روما، كما كان الغجرُ البوهيميون يُسمون أنفسهم، يعيشون حياة مستقرّة. كانوا يقيمون مخيّماتهم في أطراف البلدات والمدن؛ وراحوا شيئاً فشيئاً يُشكلون جزءاً من المشهد، إلى أن اعتادهم السكان المحليون وتخلّوا عن إزعاجهم، رغم أنّهم لم يقبلوا بهم قط. بالمقابل لم يكن يوجد في قطلونيا مخيّمات ثابتة، فأهل روما في المنطقة كانوا رحّلاً. وكانت قبيلة بْلايو وأماليا أوّل قبيلة تُقيم لتبقى، فقد مضى عليها ثلاث سنوات في المكان ذاته. انتبه دييغو منذ اللحظة الأولى إلى أنّه لا يتوجّب عليه أن يسألهما عن مونكادا أو عن أيّ موضوع آخر، لأنّ هؤلاء الناس لديهم من الأسباب ما يكفي كيلا يثقوا ويراعوا أسرارهم. وما إن اندمل جرح ذراعه القبيح تماماً وحمل بْلايو على أن يغفر له الوخزة التي وخزه إيّاها في رقبته بسيفه، حتى تمكن من أن يسمح له بالمشاركة مع بِرناردو في سيركه المرتجل. قاموا بتجربة صغيرة لم تكن لامعة كما توقّعا، لأنّ ذراع دييغو كان ضعيفاً، لكنّه كان كافياً كي يضماهما إليهم كبهلوانين. صنعوا بمساعدة بقيّة الفرقة شبكة ذكية من الأوتاد والحبال وأراجيح البهلوانات، المستلهمة من حبال *لامادرِ دِ ديوس*. كان الشابّان يظهرون في الحلبة بأدثرة سوداء يخلعونها بحركة أولمبية ليبقوا بعدها في ثياب من اللون ذاته. في هذا المظهر كانا يطيران في الهواء دون حذر شديد، لأنّهما فعلا ذلك من قبل في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أشرعة السفن على ارتفاع مضاعف وهما يتأرجحان فوق الأمواج. أيضاً كان دييغو يُخفي دجاجة ميتة سرعان ما يخرجها حيّة من تقويرة أماليا، ويُطفئ بسوطه شمعة وُضِعت على رأس العملاق رودولفو، دون أن يُخرِّب له شعره. هذه الأعمال لم تكن تُحكى خارج جو الغجر، لأنّ تسامح توماس دِ رومِو كانت له حدود وبالتأكيد ما كان ليوافق عليها. كثيرة هي الأشياء التي كان يجهلها هذا الفارس عن ضيفه الشاب.

وذات أحدٍ من تلك الآحاد أطلّ بِرناردو من خلف ستارة الفنانين فرأى خوليانا وإيزبيل ترافقهما القهرمانة بين الجمهور. عند عودتهما من القدّاس، الذي كانت نوريا تُصرّ على أن تأخذهما إليه، مع أنّ الفكرة لم تكن تروق لتوماس دِ رومِو، رأت الصغيرتان السيرك وأصرّتا على الدخول. كانت الخيمةُ، المصنوعة من قطع مصفرّة من أشرعة بالية في الميناء، تحتوي على حلبةٍ مركزية مغطاة بالتبن وبعض المقاعد الخشبية للمشاهدين ذوي المكانة وفضاء في العمق للدهماء الواقفة. في دائرة التبن كان العملاقُ يرفع الجوادَ وأماليا تُدخِلُ بِترينا في جرّة الزيتون ودييغو وبِرناردو يتسلقانِ الأراجيح. وفي المكان ذاته كانت تقوم ليلاً مصارعة الديكة التي يُنظّمها بُلايو. لم يكن المكان الذي يودّ توماس دِ رومِو أن يرى ابنتيه فيه، لكنّ نوريا لم تكن قادرة على المعارضة حين تتحالف خوليانا وإيزابيل كي يكسرا إرادتها.

ـ لو علم السيّد توماس أنّنا نكرّس أنفسنا لهذا لأعادنا إلى كاليفورنيا في أوّل سفينة جاهزة ـ همس دييغو لبرناردو حين رأى الصغيرتين تحت الخيمة.

عندئذٍ تنكّر بِرناردو القناعَ الذي استخدماه لتخويف بحارة لا مادرِ دِ ديوس. فتح فتحتين للعينين في منديلين من مناديل أماليا وبذلك غطيا وجهيهما داعيين الربّ كيلا تتعرّف عليهما الأختان دِ رومِو. امتنع دييغو عن عروض السحر، لأنّه قام بها مرّاتٍ كثيرةً

أمامهما. في جميع الأحوال ترسّخ لديه انطباع بأنّهما عرفتاه، إلى أن سمع خوليانا تُعلّق في المساء ذاته على تفاصيل الفرجة مع أَغْنِس دوشامب. حكت لها همساً من خلف ظهر نوريا عن البهلوانين الجريئين اللذين كانا يرتديان السواد ويُخاطران بحياتهما على الأراجيح، وقالت إنّها مستعدّة لأن تمنحهما قبلة مقابل أن ترى وجهيهما.

لم يحالف دييغو الحظُّ ذاته مع إيزابيل. فقد كان يحتفل بالمزحة مع بِرناردو حين دخلت الصغيرة إلى غرفته دون أي سابق إنذار كما كانت تفعل، رغم المنع الصارم لها بالتواصل الودّي مع دييغو. انتصبت أمامهما وذراعاها على خصريها وأبلغتهما أنّها تعرف هويّة البهلوانين وهي مستعدة لأن تكشف عنها، إلا إذا أخذاها في الأحد التالي لتتعرّف على فرقة الغجر. كانت ترغب بالتأكّد من حقيقة وشم العملاق، الذي بدا رسماً والأفعى المسبوتة، التي من الممكن أن تكون مُحنَّطة.

في الأشهر التالية وجد دييغو، الذي كان دمه في فورة السابعة عشرة، راحتَهُ في حضن أماليا. كانا يلتقيان خفيةً مُخاطرَيْن مخاطرة كبيرة. فهي بممارسة الحبّ مع غريب تخرق حرمة أساسية يمكن أن تُكلّفها غالياً جدّاً. كانت قد تزوّجت عذراءَ، كما هي العادة بين نساء شعبها، وكانت وفيّة لزوجها حتى وفاته. وقد تركها الترمّل في وضعية معلّقة، هي فيها شابّة لكنّها تُعامل كأنّها جدّة، إلى أن وفّى بِّلايو، المُكلّف بالبحث لها عن زوجٍ آخر حين تجفّ دموع حدادها الأخيرة، بوعده. كانت الحياة في العشيرة تجري على مرأى من البقيّة. لم تكن أماليا تملك وقتاً ولا مكاناً كي تبقى لوحدها، لكنّها كانت تتمكّن أحياناً من التواعد مع دييغو في زقاق منعزلٍ، فتُهدهده بين ذراعيها، ينتابها دائماً الخوف القاتل من أن يباغتوهما. لم تكن تدخله في متاهة المطالب الرومانسية، لأنّ مقتل زوجها الفظيع أسلمها إلى الأبد إلى الوحدة. كانت في ضعف عمر دييغو وبقيت متزوّجة أكثر من عشرين عاماً، لكنّها لم تكن خبيرة في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أمور الحب. كانت قد شاطرت رامون وداً عميقاً وأميناً دون مبالغة بالعواطف. كانا قد تزوّجا في طقس بسيط تقاسما فيه قطعةَ خبزٍ مدهونة بقطرات من دميهما. لم يكن يُطلب أكثر من ذلك. فمجرّد اتخاذ القرار بالعيش المشترك يُبارك الارتباط، لكنّهما قدّما مائدةَ عرسٍ كريمة وموسيقى ورقصاً دامت ثلاثة أيّام بكاملها. بعدها تدبّرا أمرهما في زاوية من الخيمة المشتركة. منذ تلك اللحظة لم يفترقا، جابا طرق أوروبا، جاعا في أشدّ الأيام فقراً، هربا من اعتداءات كثيرة واحتفلا باللحظات السعيدة. وكانت حياتهما، كما روتها لدييغو، سعيدةً. كانت تعرف أنّ رامون ينتظرها غير ممسوس وكاملاً في مكان ما وقد نجا من عذابه بمعجزة. منذ أن رأت جسده الذي مزّقته معاول ومجارف القتلة انطفأ الوهجُ الذي كان يضيء داخلها قبل ذلك ولم تعد لتفكّر بمتع الحواسّ أو بعزاء العناق. قرّرت أن تدعو دييغو إلى عربة ثقيلةٍ لمجرّد الصداقة. رأته مضطرباً لانعدام وجود المرأة فخطر لها أن تُروِّح عنه، هذا هو كلّ شيء. كانت تجازف بأن تأتي روحُ زوجها متحوّلة إلى مولو، لتعاقبها على تلك الخيانة اللاحقة على وفاته، لكنّها كانت تأمل أن يتفهّم رامون دوافعها: فهي لم تكن تفعل ذلك شبقاً، بل كرماً. المسألة أنّها كانت مُحِبّة مُحتشِمة، تمارس الحبَّ في الظلمة، دون أن تخلع ثيابها. كانت تبكي أحياناً بصمت. عندها كان دييغو يُجفّف لها دموعها بقبلات ناعمة، متأثّراً حتى العظم، وهكذا تعلّم أن يفكّ بعض رموزِ ألغاز قلب الأنثى الخفيّة. ورغم القواعد الجنسية الصارمة في تقاليدها كان من الممكن لأماليا أن تفعل المعروف ذاته مع بِرناردو استلطافاً غير مصلحي، لو أنّه ألمح إلى ذلك، لكنّه لم يفعل ذلك قط، لأنّه كان يعيش مصحوباً بذكرى برق الليل.

راقب مانوِل إسكالانتِ دييغو دِ لابِغا زمناً طويلاً قبل أن يُقرِّرَ الكلام معه حول أهمّ المواضيع في حياته. في البداية فقد الثقة بلطافة الشاب الساحرة، فبالنسبة إليه، هو الرجل الذي يتمتع برزانة

جنائزية، كانت خفّة دييغو تُشكِّل عيباً في طبيعته، لكنّة وجد نفسه مُضطرّاً لأن يُراجِع ذلك الحكم، حين حضر مبارزته مع مونكادا. كان يعلم أن الهدف من المبارزة لم يكن الانتصار، بل مواجهة الموت بِنبلٍ لاكتشاف نوعيّة روحه ذاتها. كانت المبارزة بالنسبة إلى المُعلِّم - وبمنطق أكبر المبارزة - صيغة صائبة لمعرفة الرجال. في حمّى المعركة تظهر للعيان جواهر الشخصيّة الأساسية، فالفائدة في التجربة أن يكون خبيراً في استخدام السيف، وأن تكون مكتسيةً بالشجاعة والرزانة لمواجهة الخطر. لاحظ أنّه لم يملك، خلال السنين الخمس والعشرين التي قضاها في تعليم فنّه، تلميذاً مثل دييغو. رأى آخرين لهم فطنة واجتهاد مماثلين لفطنته واجتهاده، لكن ما من أحدٍ منهم كان يملك رباطة جأشه وقوّة يده التي تمسك بالسيف. تحوّل الإعجابُ الذي كان يشعر به تجاه الشابِّ إلى حنان والمبارزة إلى ذريعةٍ لرؤيته يوميّاً. كان ينتظره متأهِّباً قبل الثامنة بكثير، لكنّه أدباً وكبرياءً لم يكن ليظهر قبل دقيقة واحدة من تلك الساعة. كان الدرس يتمّ بأكبر قدر من الجدِّية وبصمتٍ تقريباً، ومع ذلك كان في الأحاديث التي يتبادلانها، يُشاطِرُ دييغو أفكارَه وتطلّعاته الحميمة. وما إن ينتهي الدرس حتى يجفّفا عرقهما بمنديل مبلّلٍ ويبدّلان ملابسهما ويصعدا إلى الطابق الثاني، حيث كان يعيش المُعلِّمُ. كانا يجتمعان في حجرة مظلمةٍ ومتواضِعة، يجلسان على كرسيين غير مُريحين، من الخشب المحفور، محاطَين بالكتب على رفوف قديمة وبالأسلحة الجميلة المعروضة على الجدران. الخادم العجوز نفسه الذي كان يدمدم بلا توقُّفٍ، كما لو أنّه في صلاة أبديّة، كان يُقدّم لهما قهوة داكنة في فنجانين من خزف الروكوكو. سرعان ما انتقلا من الموضوعات المتعلِّقة بالمبارزة إلى الكلام عن موضوعات أخرى. أسرة المُعلِّم، الإسبانية والكاثوليكية طوال أربعة أجيال، لم تكن رغم ذلك تتباهى بنقاء دمها، لأنّها كانت من أصل يهوديّ. كان أجدادها قد اعتنقوا الكاثوليكية وبدّلوا أسماءهم للتهرّب من الملاحقات. وقد فعلوا ذلك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بإتقان مكّنهم من تفادي حصار محاكم التفتيش الرجيم، لكنّهم خسروا في العملية الثروة التي راكَموها خلال أكثر من مئة سنة من التجارة الناجحة والاعتدال في العيش. عندما وُلِد مانوِل بالكاد كانت توجد ذكرى باهتة لماضٍ رغيد ورهيف، لم يبقَ شيء من أملاكهم وأعمالهم الفنّية وجواهرهم. كان والده يكسب عيشه من مخزن صغير في أستورياس، واثنان من أخوته يعملان في المهن اليدوية، بينما ضاع الثالث في شمال أفريقية. كان انهماك أقرب أقربائه إليه في التجارة والأعمال اليدوية يُشعره بالخجل. كان يعتبر أن الأشغال الوحيدة التي تليق بسيّد غير إنتاجية. لم يكن الوحيد في هذا. إذ ما من أحد كان يعمل في إسبانيا تلك الأيّام غيرُ الفلاحين الفقراء. كلّ واحدٍ منهم كان يعيل أكثر من ثلاثمئة عديمِ فائدة. لم يعرف دييغو ماضي المُعلّم إلا بعد ذلك بكثير. حين كلّمه هذا عن *العدالة* وأراه رصيعتها لأوّل مرّة، ولم يقل له شيئاً عن ماضيه اليهودي. كانا في ذلك اليوم، كما في كلّ صباح، في القاعة يتناولان القهوة. خلع مانوِل إسكالانتِ من عنقه سلسلة رقيقة فيها مفتاح، توجّه إلى صندوق من البرونز، موجود على المكتب، فتحه بوقار وأرى تلميذَهُ محتواه: رصيعة من الذهب والفضّة.

ـ رأيت هذه من قبل، يا مُعلّم... ـ تمتم دييغو، متعرّفاً عليها.

ـ أين؟

ـ كان يحملها السيد سانتياغو دِ ليون، قبطان السفينة التي أقلّتني إلى إسبانيا.

ـ أعرف القبطان سانتياغو دِ ليون. إنّه مثلي ينتسب إلى *العدالة*.

كانت واحدةً من الجمعيات السرّية الكثيرة الموجودة في أوروبا في ذلك العصر. تشكّلَت قبل مئتي سنة كردّ فعل على سطوة محاكم التفتيش، ذراع الكنيسة المخيف، الذي كان يُدافع منذ عام 1478 عن الوحدة الروحية للكاثوليكيين بملاحقة اليهود،

اللوثريين، الملحدين، المأفونين، الكفّار، السحرة، والعرّافين ومستحضري الشياطين، والمشعوذين، والمنجمين والكيمياويين، وكذلك قارئي الكتب الممنوعة. كانت أملاك المتهمين تنتقل إلى متّهِميهم، بحيث أنّ كثيرين من الضحايا أحرقوا لأنّهم أغنياء وليس لأسباب أخرى. وقد احتفل حماس الشعب الديني خلال أكثر من ثلاثمئة سنة بمحارق الملحدين، وحفلات المجون الوحشية العلنية التي كانت تُنفّذ فيها أحكام حرق المدانين، لكن محاكم التفتيش بدأت تتدهور في القرن الثامن عشر. بينما استمرّت هذه المحاكمات فترة، لكن خلف الأبواب المُغلقة، إلى أن أُلغيت محاكم التفتيش. وكان عمل *العدالة* يقوم على إنقاذ المتهَمين، وإخراجهم من البلد ومساعدتهم على الشروع بحياةٍ جديدة في مكان آخر. كانوا يوزِّعون الغذاء واللباس ويؤمِّنون لهم وثائق مزوَّرة ٍوحين يكون الأمر ممكناً يدفعون الفدية. في المرحلة التي جنَّد فيها مانوِل إسكالانتِ دييغو كان توجُّه *العدالة* قد تبدَّل، فهي لم تعد تحارب التعصُّبَ الدينيَّ فقط، بل أشكالاً أخرى منْ القمعِ، مثل قمع الفرنسيين في إسبانيا والرقَّ في الخارج. كان الأمر يتعلّق بتنظيم تراتبيّ ونظام عسكريّ، لا مكان فيه للمرأة وكانت رتبة المبتدئ تُحَدَّدُ بالألوان والرموز وكانت الاحتفالات تُقام في أماكن خفيّة، والطريقة الوحيدة للقبول هي عبر عضوٍ آخر، يعمل كحامٍ له. كان المشاركون يُقسمون على أن يضعوا حياتهم في خدمة القضايا النبيلة التي تتبناها *العدالة*. على ألا يقبلوا أيّ شيءٍ مقابل خدماته، وأن يُحافِظوا على السرّيّة وإطاعة الرؤساء مهما كان الثمن. وكان القسمُ ذا أناقة بسيطة: «البحث عن العدالة، إطعام الجائع، حماية الأرامل واليتامى، استضافة الغريب وعدم هدر دم الأبرياء».

لم يجد مانوِل إسكالانتِ صعوبةً في إقناع دييغو دِ لابِغا بالالتحاق بالعدالة، فاللغز والمغامرة كانتا تشكلان إغواء لا يُقاوم بالنسبة إليه، وشكّه الوحيد كان في الطاعة العمياء، لكنّه حين اقتنع بأنّ أحداً لن يأمره بما يتناقض مع مبادئه تجاوز هذه العقبة. درس

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

النصوص المرمّزة التي قدّمها إليه المُعلّمُ وخضع للتدريب بطريقة القتال الوحيدة التي كانت تتطلّب رشاقةً عقليّة ولياقة بدنية عالية. وكانت تقوم على سلسلة دقيقة من الحركات بالسيف والخنجر التي كان يقوم بها على مُخطّط مرسوم على الأرض، يُسمّى دائرة المعلّم. الرسم ذاته كان منسوخاً على ميداليات الذهب والفضّة التي تُحدّد هويّة أعضاء التنظيم. تعلّم دييغو أوّل ما تعلّم تسلسل وتقنية القتال، كرّس نفسه بعدها أشهراً لتطبيق ذلك مع بِرناردو، إلى أن صار بمقدوره أن يقاتل دون تفكير. ولن يكون جاهزاً، كما قال له مانوِل إسكالانتِ إلا عندما يستطيع أن يلتقط ذبابة في أوج طيرانها بحركة عرضيّةٍ واحدة من يده. لم يكن هناك طريقة أخرى للانتصار على عضو قديم في العدالة، كما يجب أن يفعل كي يُقبَلَ.

جاء أخيراً اليوم الذي صار فيه دييغو جاهِزاً لحفلة الابتداء. قاده معلّم المبارزة عبر أماكن مجهولة حتى من قِبَل المعماريين والبنّائين الذين كانوا يتبجّحون بمعرفة المدينة مثل راحة كفّهم. لقد توسّعت برشلونة فوق طبقات متتالية من الأنقاض، فقد مرّ بها الفينيقيون والرومان دون أن يُخلّفوا أثراً كبيراً، جاء بعدهم الرومان وبصموا طابعهم، حلّ محلّهم القوط ثمّ أخيراً المُسلمون، الذين مكثوا فيها قروناً عدّة. حين ساهم أحدهم في تعقيدها، من وجهة النظر المعمارية، كانت برشلونة حلوى من ألف توريقة. حفر العبريون مكامن وممرات وأنفاقاً لحماية أنفسهم من عملاء محاكم التفتيش. وعندما هجرها اليهود تحوّلت هذه الممرات الغامِضةُ إلى مأوى لقطّاع الطرق إلى أن راحت منظمة العدالة وطوائف أخرى تستولي شيئاً فشيئاً على أحشاء المدينة العميقة. وقد جاب دييغو ومُعلّمُه متاهةً من الأزقّة الملتوية، توغّلا في الحي القديم، عبرا بوّابات خفيّة، نزلوا أدراجاً آكلها الزمنُ، دخلا أقبية ملتوية، غاصا في أنقاض كفهية وعبرا مجاري أقنيةٍ لا يجري فيها ماء، بل سائل

لزجٍ وداكن له رائحة فاكهة عفنة. أخيراً وجدا نفسيهما أمام بابٍ مُعلَّم بعلامات قبالية، فُتح أمامهما حين أعطى المُعلِّم كلمةَ السرِّ ودخَلا قاعة لها أبّهة معبد مصريّ. وجد دييغو نفسه مُحاطاً بقرابة عشرين رجلاً مزدانين بعباءات ملوّنة ومزيّنة بعلامات مختلفة. جميعهم كانوا يتقلّدون ميداليات شبيهة بميدالية المُعلِّم إسكالانتِ وسانتياغو دِ ليون. كان في الخيمة اليَهَوية النقّالة، قلب العدالة ذاته.

دام الطقس الليل بأكمله وتخطّى دييغو في هذه الساعات الطويلة الامتحانات التي أُخضِع لها واحداً بعد الآخر. في مكان مسور ربّما كان أطلالاً رومانية، كانت دائرة المُعلِّم محفورة في الأرض. تقدَّم رجلٌ ليواجه دييغو واصطفّ البقيّة من حوله، حكّاماً. قدَّم نفسه على أنّه خوليو ثِسر، اسمه الرمزي. كلاهما خلع قميصه ونعليه وبقي في البنطلون. كانت المصارعة تتطلّبُ دقّةً، وسرعةً ودماً بارِداً. كان يهاجم كلّ منهما الآخر بخنجر مسنون، وكأنّ الغاية أن يجرحه جرحاً قاتلاً. كلّ طعنة كانت عميقة، لكنّهما في الجزء الأخير من الثانية عليهما أن يوقفا الضربة في الهواء. وأدنى خدش في جسد الآخر يكفي لإخراجه على الفور. لم يكن باستطاعتهما الخروج من التصميم المرسوم على الأرض. والنصر يكون لمن يتمكّن من تثبيت الآخر من كتفيه على الأرض، في وسط الدائرة ذاتها. كان دييغو قد تدرَّب أشهراً وكان واثقاً من رشاقته ومقاومته، لكن لم تكد تبدأ المصارعة حتى انتبه إلى أنّه لا يملك أيّة ميّزة على خصمه. كان خوليو ثِسَر في الأربعينات من عمره، نحيلاً، بادي الذراعين، منتفخ الشرايين، الخنجر يلمع في يدِه اليمنى، لكنّ وجهَه كان في هدوء تام، كان خصماً مُخيفاً. وبأمرٍ راح الاثنان يدوران في الدائرة، باحثَيْن عن أفضل زاويةٍ للهجوم. دييغو هو أوّلُ من فعل، مهاجماً من أمام، لكنّ الآخر قفز ودار دورة في الهواء، كما لو أنّه طار، وسقط خلفه، لا يكاد يمنحه الوقت كي يلتفت ويقرفص كي يتفادى حدّ السلاح الذي كان ينقّض به عليه. ثلاث حركات أو أربع ونقل الخنجر إلى اليد اليسرى. دييغو كان أيضاً يستخدم يديه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الإثنتين، لكنّه لم يحدث أن واجه أحداً كذلك فارتبك لحظةً، فاستغلّ خصمه ذلك ليقفز قفزةً ويطاله برفسة على صدره رمته أرضاً، لكنّ دييغو وثب على الفور، وباستخدامه اندفاعه صوّب إليه طعنة مباشرة في حنجرته، بحيث لو أنّها كانت قتالاً حقيقيّاً، لذبحه، لكنّ يده توقّفت عند هدفها لدرجة ظنّ أنّه قد جرحه، لكنّه لم يتمكّن من التأكّد من ذلك لأنّ خصمه انقضّ عليه. واشتبكا في معركة متلاحمين، وكلاهما يدافع عن نفسه من يد الآخر التي تمسك بالخنجر، بينما يحاول بساقيه ويده الطليقة أن يقلب عدوّه ويتركه على ظهره. تمكّن دييغو من الإفلات وعادا ليدورا، مُتحفِّزاً للقاء جديد. شعر دييغو أنّه يشتعل، كان محمرّاً وسابحاً بعرقه، لكنّ خصمه لا يكاد يلهث وبقي وجهه هادئاً كما في البداية. وجاءت كلمات مانوِل إسكالانتِ إلى ذهنه: «يجب ألا تقاتل أبداً بحنق». تنفّس عميقاً مرّتين، مانحاً نفسه الوقتَ كي يهدأ، دون أن يضيع عن بصره أيّ حركة من حركات خوليو ثِسَر. انجلى ذهنه، وانتبه إلى أنّ عضو العدالة مثله لم يكن مستعدّاً لمواجهة من يستخدم يدين. نقل الخنجر من يده بالسرعة التي تتطلّبها حيل سحر غاليليو تِمبِستا، وهجم قبل أن ينتبه الآخر إلى ما جرى. مأخوذاً على حين غرّة، قفز هذا إلى الوراء، لكنّ دييغو أدخل قدمه بين ساقيه وأفقده التوازن. وما إن سقط حتى انقضّ عليه دييغو وهرسه دافعاً صدره بذراعه اليمنى، بينما حمى نفسه باليسرى من الخنجر المُعادي. تغالبا بكلّ قواهما دقيقة طويلةً، وعضلاتهما مشدودة مثل حبال من فولاذ وعينا كلّ واحدٍ منهما مغروزتان في عيني الآخر، مشدود الأسنان. ولم يكن على دييغو أن يبقي عليه على الأرض وحسب بل أن يجرّه أيضاً إلى وسط الدائرة، المهمّة الصعبة لأنّ الآخر لم يكن مستعدّاً للسماح بذلك. وبطرف عينه قدّر المسافة، التي بدت له هائلةً، ولم يكن هناك من ير قط مثل ذلك الطول. لم يكن هناك غير طريقة واحدة لفعل ذلك. تدحرج فوق نفسه فصار خوليو ثِسَر فوقه، ولم يستطع الرجل أن يتفادى صرخة انتصار، لأنّه وجد نفسه في تفوّق نهائيّ. وبجهد خارق تدحرج

دييغو من جديد فصار خصمه تماماً على العلامة التي تشير إلى مركز الدائرة على الأرض. تعكّرت رزانة خوليو ثِسَر بطريقة لا تكاد تُلحظ، لكنّها كافية كي ينتبه دييغو إلى أنه انتصر. وبدفعة أخيرة تمكّن من تثبيت كتفيه على الأرض.

ـ حسناً فعلت ـ قال خوليو ثِسَر مبتسماً ورامياً بالخنجر.

بعدها كان على دييغو أن يواجه اثنين آخرين بالسيف. ربطوا إحدى يديه إلى ظهره، كي يعطوا ميّزة لخصميه، لأنّه ما من احدٍ من هذين الرجلين كان يعرف بالمبارزة مثله. كان مانوِل إسكالانتِ قد أحسن إعدادَه فاستطاع أن يتغلّب عليه في أقلّ من عشر دقائق. بعد الامتحانات الجسدية جاءت الامتحانات الفكرية. وبعد أن برهن أنّه يعرف جيّداً تاريخ العدالة، طرحوا عليه مسائل مُعقّدة، عليه أن يُقدّم لها حلولاً أصيلة، تتطلّب دهاءً وشجاعة ومعرفة. أخيراً وبعد أن تخطّى بنجاحٍ كلّ العوائق، قادوه إلى مذبح. هناك كانت تُعرض الرموز التي عليه أن يُبجّلها: قطعة خبز، ميزان، سيف، كأس طقسي ووردة. كان الخبز يعني واجب مساعدة الفقراء، الميزان تُمثّل العزم على النضال من أجل العدالة؛ السيف يُجسّد الشجاعة؛ كأس الطقس يحتوي على إكسير الرحمة؛ والوردة تُذكّر أعضاء الجمعية السرّية بأن الحياة ليست تضحية فقط، بل هي جميلة وبالتالي يجب الدفاع عنها. عند الانتهاء من الطقس قام مانوِل إسكالانتِ بصفته الحامي الإشبين بتقليد دييغو الميدالية.

ـ ما الإسم الرمزي الذي سيكون لك؟ ـ سأل حامي المعبد الأعلى.

ـ زورو ـ ردّ دييغو دون تردّد.

لم يكن قد فكّر بالأمر، لكنّه تذكّر في تلك اللحظة بجلاء مُطلق عيني الثعلب الحمراوين اللتين رآهما في طقس ابتداءٍ آخر، قبل سنواتٍ كثيرة، في غابات كاليفورنيا.

ـ مرحباً بك، يا زورو ـ قال حامي المعبد السامي وردّد جميع الأعضاء الاسمَ بصوتٍ واحد.

كان دييغو دِ لابِغا من الانتعاش بسبب تخطّيه للامتحانات، ومن الخجل من وقار أغضاء الطائفة، ومن الدوخان من خطوات الاحتفال وأسماء الترتبية الرنانّة ـ فارس الشمس، فارس هيكل النيل، معلّم الصليب، حارس الأفعى ـ بحيث لم يكن باستطاعته أن يُفكّر بوضوح. كان على وفاق مع مبادئ الطائفة ويُشرّفه أنّه قد تم قبوله فيها. فقط فيما بعد وعندما تذكّر التفاصيلَ ورواها لبرناردو، حكم على الطقس الصبيانيّ قليلاً. حاول أن يسخر من نفسِهِ لأنّه أخذها بكلّ جدّية، لكنّ أخاه لم يضحك، بل أراه كم تتشابه مبادئ العدالة مع أُكاهو قبيلته.

فاجأ دييغو معلّمه بعد شهر من قبوله من قِبَل مجلس العدالة بفكرةٍ جنونية: كان يحاول تحرير مجموعة من الرهائن. كلّ هجوم من رجال حرب العصابات يأتي بسلسلة فورية من انتقامات الفرنسيين. يأخذون مجموعة من الرهائن تعادل أربعة أضعاف قتلاهم ويشنقونهم أو يرمونهم بالرصاص في مكان عام. ولم تكن هذه الطريقة لتثني الإسبان، بل كانت تُشعل الكراهية فقط، لكنّها تجرح قلب الأسر المفجوعة أسيرة الصراع.

ـ يتعلّقُ الأمر هذه المرّة بخمس نساء ورجلين وطفل في الثامنة من عمره يا مُعلّم. لقد قتلوا خوري الكنيسة أمام كنيسته. وضعوهم في الحصن وسيرمونهم بالرصاص ظهرَ يوم الأحد ـ وضّح دييغو.

ـ أعرف هذا، يا سيّد دييغو. رأيتُ الإعلانات في كلّ أنحاء المدينة ـ أجاب إسكالانتِ.

ـ يجب إنقاذهم، يا مُعلّم.

ـ سيكون من الجنون محاولة ذلك. فالحصن منيع. فيما عدا

ذلك، وعلى افتراض أنك تمكّنت من ذلك، أوكّد لك أنّ الفرنسيين سيعدمون ضعفَ الرهائن أو ثلاثة أضعافهم.

ـ وماذا تفعل العدالة في مثل هذه الحالة، يا مُعلِّم؟

ـ أحيانا لا يكون هناك غير الإذعان لما لا يمكن تفاديه. في الحرب يموت كثير من الأبرياء.

ـ سأتذكّر هذا.

لم يكن دييغو مستعداً للإذعان، لأنّ أماليا كانت واحدة من المحكوم عليهم ولا يستطيع أن يتركها لقدرها بين أسباب أخرى. وبخطأ من أخطاء القدر، نسيت أوراق لعبها أن تُحذِّرها، فكانت في الشارع في أثناء إحدى جولات الفرنسيين وأُسرت مع أشخاص آخرين رغم براءتها. ولم يُفكّر دييغو بالعوائق التي عليه أن يواجهها، حين جاءه بِرناردو بالخبر، بل فكّر فقط بضرورة التدخّل ومتعة المغامرة التي لا تُقاوَم.

ـ نظراً لاستحالة النفوذ إلى القلعة، يا بِرناردو، فإنّني سأدخل إلى قصر دوشامب. أرغب بالتحدّث إليه، ما رأيك؟ أرى أنّ الفكرة لاتُعجبك، لكنه لا يخطر لي غيرها. أعرف بماذا تُفكِّر: أنّ هذه جسارة شبيهة بجسارة عملية الدب حين كنّا طفلين. لا، هذه المرّة جدّية، هناك حياة بشر في الموضوع، لا نستطيع أن نسمح لهم بأن يعدموا أماليا. إنّها صديقتنا. حسناً، بالنسبة إليّ هي أكثر من صديقة، لكن ليست هذه هي المسألة. من سوء الحظ أنني لم ألق دعم العدالة، لذلك أنا بحاجة إلى مُساعدتِك، يا أخي. إنّها عملية خطيرة، لكن ليس إلى الحد الذي تبدو لك فيه. اسمعني...

رفع بِرناردو يديه في إشارة إلى استسلامه وحضّر نفسه للحاق به، كما كان يفعل دائماً. أحيانا في لحظات التعب والوحشةِ القصوى كان يُفكّر بأنّ ساعة عودتهما إلى كاليفورنيا قد حانت. كان دييغو يملك مظهر المراهق الأبدي. وكان يتساءل كيف يمكن أن يكونا

بمثل ذلك الاختلاف ويحبّان بعضهما بعضاً إلى ذلك الحدّ. فبينما كان القدر يُثقل كاهله، كان أخوه بخفّة القُبَّرة. أماليا التي كانت قادرة على فكّ ألغاز النجوم، قدّمت لهما تفسيراً لشخصيتيهما المتناقِضَتيْن. قالت إنّهما ينتميان إلى برجين فلكيين مختلفين، على الرغم من أنّهما وُلِدا في المكان نفسه والساعة ذاتها. دييغو كان من برج العذراء وبِرناردو من برج الثور وهذا ما كان يُحدّد مزاجهما. استمع بِرناردو إلى خطّة دييغو بصبره المعهود، دون أن يكشف عن الشكوك التي كانت تنتابه، لأنّه في أعماقه كان يثق بحظّ أخيه الحسن والذي يفوق التصوّر. قدّم أفكاره وشرعا بالعمل.

تدبَّر بِرناردو أمره فأقام صداقة مع جندي فرنسيّ، أسكره بعدها حتى أفقده وعيه. أخلعه بزّته وارتداها، سترة زرقاء طويلة بقبّة حمراء عالية، بسروال وكشكش أبيض وطماقان سوداوان وقبّعة عالية. هكذا دخل إلى حدائق القُصير يجرُّ جوادين، دون أن يلفتَ انتباه الحرّاس الليليين. لم تكن الحراسة في إقامة الشافالير الفاخرة مشدَّدة، لأنّه لم يخطر لأحدٍ مهاجمتها. في الليل كان يقف حرّاس يحملون فوانيسَ، لكنّ مع مرور الساعات المملّة ترتخي همَّتُهم. دييغو، المرتدي بزّة البهلوان السوداء والقناع، اللباس الذي كان يُسميه هو زورو، استغلّ العتمة للاقتراب من البناء. وبومضة إلهام وضع شارباً، حصل عليه من خزائن أقنعة السيرك، يشبه ضربة ريشة سوداء فوق الفم. كان القناع يُغطّي فقط الجزء العلويّ من وجهه فخاف أن يتمكّن الشافالير من معرفته، لذا فإن الشارب يقوم بمهمّة إلهائه وتشويشه. استخدم السوط لتسلّق شرفة الطابق الثاني ولم يصعب عليه حين أصبح فيه أن يحدّد موقع الغرف الخاصّة للعائلة، لأنّه سبق ورافق خوليانا وإيزابيل في عدّة زياراتٍ. كانت الساعة تُقارب الثالثة فجراً، وهي ساعة متأخِّرة، فلا يعود هناك خدم يتجوّلون والحرّاس يكبون في مواقعهم. لم يكن المسكن يملك شيئاً من التقشف الإسباني، فقد كان مزيّناً على الطريقة الفرنسية، بكثير من الستائر والأثاث والنباتات والتماثيل، بحيث أنّه

كان باستطاعة دييغو أن يجتازها دون أن يُرى. كان عليه أن يقطع ممرّات لاتُحصى ويفتح قرابة عشرين باباً قبل أن يصل إلى حجرة الشافاليير، الذي وجد أنّها بسيطة بساطة غير متوقّعة بالنسبة إلى سلطته ونسبه.

كان ممثل نابليون ينام على سرير جنديّ قاسٍ، في غرفة تكاد تكون عارية، يُضيئها شمعدان بثلاثة أضواء في زاوية. كان دييغو يعرف من خلال تعليقات أغنِس دوشامب غير المتحفّظة، أنّ أباها كان يُعاني من الأرق ويلجأ إلى الأفيون كي يرتاح. ورغم الأفيون استيقظ الفرنسيُّ على الفور، لكنّه وقبل أن يتمكّن من الصراخ أغلق دييغو فمه بيده المُقفَّزة.

- اسكت وإلاّ متّ مثل فأر، يا صاحب السعادة - ابتسم.

وضع رأس سيفه في صدره. نهض الشافالييه إلى الحدّ الذي سمح له به السيفُ وأشار بانحناءة من رأسه أنّه فهم. عرض عليه دييغو ما يريده همساً.

- أنت تعزو إليّ سلطة أكثر من اللازم. فإذا ما أمرت بإطلاق هؤلاء الرهائن، سيُصدر قائد الموقع غداً أمراً آخر - ردّ الشافاليير بالنبرة ذاتها.

- سيكون من المؤسف أن يحدث هذا. ابنتُك أغنِس طفلة رائعة ولا نودّ أن نعذّبها، لكن وكما تعلم سيادتكم، في الحرب يموت أبرياء كثيرون - قال دييغو.

رفع يده إلى السترة الحريريّة، أخرج المنديل المطرّز عليه اسم أغنِس دوشامب، الذي أخذه بِرناردو من القمامة وهزّه في وجه الشافاليير، الذي لم يجد صعوبةً في التعرف عليه، رغم قلّة الضوء، من عطر البنفسج الذي لا يُخطأ.

- أقترح عليك ألا تنادي الحرّس، يا صاحب السعادة، لأنّ رجالي في هذه اللحظات موجودون في غرفة ابنتك. فإذا ما حدث لي

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أي مكروه، لن تعود لتراها حيّةً. سينسحبون بمجرّد إشارة منّي - قال دييغو بألطف نبرة، وهو يشمّ المنديل ويُخبِّئه في الصدرة.

- تستطيع أن تخرج حيّاً هذه الليلة، لكنّنا سنقبض عليك وعندها ستلعن اللحظة التي ولدت فيها. نعرف أين نبحث عنك - دمدم الشافالبير.

- لا أظنّ ذلك، يا صاحب السعادة، لأنّني لست رجل حرب عصابات، وليس لي شرف أن أكون واحداً من أعدائك الشخصيين.

- هسّ! تذكّر أن أغنِس في رفقة طيّبة... خادِمُك اسمي زورز - تمتم دييغو.

توجّه الفرنسيُّ مدفوعاً بخاطِفه وكتب ملاحظة صغيرة على ورقة شخصية، يأمر فيها بتحرير الرهائن.

- سأكون لك شاكراً لو وضعت خاتمك الرسميّ، يا صاحب السعادة - أشار إليه دييغو.

نفَّذ الآخر ما طُلِب منه مُكرهاً، نادى بعدها خادِمه، الذي أطلّ من العتبة. كان دييغو خلف الباب مصوّباً سيفه، مستعدّاً لأن يطعنه عند أوّل ارتياب.

- أرسل هذه مع حارسٍ إلى القلعة وقل له إنّ عليه أن يأتيني بهذه على الفور، موقّعة من قائد المنطقة، كي أتأكّد من أنّني سأُطاع. هل فهمت؟ - أمر الشافالبير.

- بلى، يا صاحب السعادة - ردّ الرجلُ وانطلق سريعاً.

نصح دييغو الشافالبير أن يعود إلى فراشه كيلا يبرد؛ فالليل بارد والانتظار يمكن أن يطول. كان يأسف لأنّ عليه أن يفرض نفسه بتلك الطريقة، أضاف، لكن عليه أن يبقى برفقته حتى يعيدوا الرسالةَ موقَّعةً. ألا يوجد عندك شطرنج أو ورق كي نُقضي الوقتَ؟ لم يتشرّف الفرنسي بالجواب. ودخل مغتاظاً تحت الملاحف مراقباً من المُقنَّع،

الذي استراح على حافّة السرير، كما لو أنّهما صديقين حميمين. تملّى الواحد منهما الآخر بصمت لأكثر من ساعتين، وفي اللحظة التي خاف فيها دييغو أن يكون قد حدث شيء سيّء، طرق الخادم الباب برؤوس أصابعه وسلّم سيّده الورقة موقّعة من شخص يُدعى فوغِت.

- إلى اللقاء، يا صاحب السعادة. أرجوك أن تُبلّغ تحيّاتي للحسناء أغنِسْ - ودّعه زورو.

كان واثقاً من أنّ الشافالبير يُصدّق تهديداته ولن يُثير ضجّة قبل الموعد المتوقّع، ومع ذلك ربطه وكمّ فمَه احتراساً. رسم برأس سيفه حرف زِد على الجدار وقام على الفور بانحناءة تقدير ساخرة ونزل متدلّياً من الشرفة. وجد الجواد ينتظره حيث خبّأه بِرناردو وقد لفّت حوافره بالخرق كيلا تُحدث صوتاً، واختفى دون أن يُثير بلبلة، لأنّه ما من أحد كان يجول في شوارع برشلونة. في اليوم التالي كان الجنود يلصقون إعلانات على جدران المباني الرسمية تُعلن أنّه وبمبادرة حُسن نوايا من السلطات تمّ العفو عن الرهائن. وبُدئَ في الوقت نفسه بحفلة صيد سرّية للعثور على الجسور المدعو زورِو. آخر ما كان ينتظره قادة رجال حرب العصابات هو العفو المجاني عن الرهائن، وقد بلغ بهم الإرباك حدّ أنّه لم تُسجّل اعتداءات جديدة على الفرنسيين في قطلونيا أسبوعاً كاملاً.

لم يستطع الشافالبير أن يمنع دبّ الصوت، أولاً بين الخدم ثم حرّاس القصر الصغير، ثمّ في كلّ مكان، بأن لصّاً وقحاً دخل إلى غرفته ذاتها. ضحك القطلانيون مقهقهين مما حدث وراح اسم زورو الثعلب الغامض ينتقل من فم إلى فم أيّاماً عديدة، إلى أن شغلت اهتمام الشعب قضايا أخرى ونُسيَ. سمعه دييغو في مدرسة العلوم الإنسانية، في الحانات، وفي بيت دِ رومِو. وكان يعضّ على لسانه كيلا يتبجّح جهراً ولا يعترف بمأثرته لأماليا. ظنّت الغجرية أنّها أُنقِذت بفعل طلسماتها وتمائمها، التي تحملها دائماً معها، وتدخّل روح أمّها المناسِب.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

القسم الثالث

برشلونة 1812 ـ 1814

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لا أستطيع أن أُقدِّم تفاصيل حول العلاقة بين دييغو وأماليا. فقد كان الحبّ الجسدي جانباً من جوانب أسطورة الثعلب (زورو) الذي لم يُخوّلني بنشره، ليس خوفاً من السخريات أو التكذيب بل كحدّ أدنى من الشهامة. معروف جيّداً أنّه ما من رجل محبوب تماماً من النساء يتبجّح بانتصاراته الغرامية. والذين يفعلون ذلك يكذبون. ثمّ إنّني لا أحبّ أن أُنقِّب في حميميات الغير. إذا كنتم تتوقّعون منّي صفحات بذيئة فسأُخيّب آمالكم. فقط أستطيع أن أقول أنّ دييغو في الفترة التي كان ينتشي فيها مع أماليا كان قلبه مستسلماً تماماً لخوليانا. كيف كانت عناقاته مع الغجرية الأرملة؟ فقط نستطيع أن نتصوّرها. ربّما كانت هي تُغمِض عينيها وتُفكّر بزوجها القتيل، بينما هو يستسلم غائبَ الفكر لمتعة عابرةٍ. هذه اللقاءات السرّية لم تكن تُعكّر شعورَ دييغو النظيف الذي كانت تُلهِمه إيّاه خوليانا العفيفة، كانا يُشكلان منطقتين منفصلتين، خطّين متوازيين لايتقاطعان أبداً. أخشى أنّ هذه كانت حال الثعلب (زورو) على امتداد حياته. راقبته خلال ثلاثة عقودٍ وأعرفه تقريباً تماماً كما يعرفه بِرناردو ولذلك أجرؤ على القيام بهذا التأكيد. فبفضل سحره ـ وهذا ليس قليلاً ـ وحسن حظّه المذهل، كان محبوباً، حتى دون أن يتقصّد ذلك، من عشرات النساء. كانت تكفي بشكلٍ عامّ تلميحةٌ غامضة، نظرةٌ جانبية، ابتسامةٌ من ابتساماته المشعّة، كي تدعوه حتى من اشتهرت منهنّ بالورع لتسلّق شرفتها في ساعات الليل

البهيم. ومع ذلك فالثعلبُ (زورو) لا يتعلّق بهنّ، لأنّه يُفضّل الحالات الرومانسية المستحيلة. أستطيع أن أقسم أنّه ما إن كان يهبط من الشرفة ويطأ اليابسة حتى ينسى السيّدة التي كان قبل لحظات يُعانقها. هو نفسه لا يعرف كم مرّة نازل بالسيف زوجاً مغتاظاً وأباً مُهاناً، لكنّني أملك الإحصاء، ليس حسداً ولا غيرةً، بل دقّةَ مؤرّخة. دييغو لا يتذكّر إلا النساء اللواتي أضنينَه بلامبالاتهنّ، مثل خوليانا منقطعة النظير. كثير من مآثره في تلك السنوات كانت محاولات محمومة للفت انتباه الشابّة. ولم يكن يلعبُ أمامها دور الغندور الجبان الذي كان يخدع به أغنِس دوشامبّ والشافاليير وشخصياتٍ أخرى، بل على العكس كان ينفش في حضرتها كلّ ريش طاووسه. كان باستطاعته أن يواجه لأجلها تنيناً، لكن وبما أنّه لم يكن موجوداً في برشلونة اضطرّ أن يكتفي برافائيل مونكادا. وبما أنّنا ذكرناه يبدو لي أنَّ من العدل أن نُكرّم هذه الشخصيّة. الوغدُ أساسيٌّ في كلّ قصّة، لأنّه لا يوجد بطل دون وجود عدوّ بمستواه. لقد حالف الحظ زورز كثيراً بمواجهته لرافائيل مونكادا، ولولا ذلك ما كان عندي كثير مما أرويه في هذه الصفحات.

كانت خوليانا ودييغو ينامان تحت السقف ذاته، لكنّهما كانا يعيشان حياتين منفصلتين ولم تكن تتوافر لهما فرص الالتقاء في ذلك البيت ذي الغرف الفارغة الكثيرة. كان ينتظر أحياناً ساعاتٍ كي يُفاجئها وحيدةً في أحد الممرات ويرافقها عدّة خطوات دون شهود. كانا يتصادفانِ في قاعة الطعام ساعةَ العشاء وفي القاعة خلال عزفها على الجُنك، وقدّاسات أيّام الآحاد والمسرح حين يكون هناك أعمال للوبّ دِ بِغا وكوميديات لموليير التي كانت تسحر توماس دِ رومِو. في الكنيسة كما في المسرح كان الرجال والنساء يجلسون منفصلين، فكان على دييغو أن يكتفي بالنظر إلى نقرة حبيبته من بعيد. عاش في بيت الصبيّة ذاته أكثر من أربع سنواتٍ، يُلاحِقها

بعناد صيّاد مُطلق، دون نتائج تستحق الذكر إلى أن صفعت المأساة العائلة ومالت كفّة الميزان لصالح دييغو. كانت خوليانا تتلقّى اهتماماته بشعور مرتاح، كما لو أنّها لا تراه، لكنّ ما كان يحتاجه كي يُغذّي آماله كان قليلاً جدّاً. كان يعتقد أنّ لا مبالاتها نوع من استراتيجية تخفي بها مشاعرها الحقيقيّة. هناك من قال له إنّ النساء عادةً ما يفعلن ذلك. مسكين الرجلُ، كان منظره يُثير الشفقة. كان من الأفضل لو أنّ خوليانا تكرهه؛ فالقلب جهاز نزويّ عادةً ما يدور دورة كاملة، لكنّ عاطفة أخت دافئة كانت عملياً شيئاً لا رجعة عنه.

كان آل دِ رومِو يذهبون في نزهاتٍ إلى سانتا فِهْ، حيث يملكون عقاراً شبه مهجور. كان بيت الأبوّة بناء مربّعاً على رأس شير صخري سادت فيه جدّاً زوجة توماس دِ رومِو المرحومة على أولادهما وعلى رعايا الإقطاعة. كان المنظر رائعاً، فالتلال زُرعت من قبل كرمةً تُنتِج نبيذاً يستطيع أن يُنافِس أفضل نبيذ فرنسيّ. لكنّ أحداً لم يهتمّ بها خلال الحرب فتحوّلت إلى جذوع جافّة ومسوّسة. والبيت غزته فئران سانتا فِهْ الشهيرة، تلك الحيوانات الضخمة وسيّئة المزاج، كان الفلاحون يطبخونها في أزمنة الحاجة القصوى، فهي بالثوم والكرّاث لذيذة جدّاً. كان توماس يُرسل قبل أن يذهب إلى هناك بأسبوعين، سريّةً من الخدم لتدخين الغرف، الطريقة الوحيدة التي كانت تُجبر الفئران على الانسحاب مؤقّتاً. صارت هذه الرحلات في كلّ مرّة أقل، لأنّ الطرق أصبحت خطيرة أكثر من اللازم. كانت كراهية الشعب تُحَسُّ في الهواء، مثل نَفَسٍ ثقيل، لهاث مشؤوم يُقشعر البدن المُشعِر. لم يكن توماس دِ رومِو، مثله مثل الكثيرين من ملاّك الأراضي، ليجرؤ على الخروج من المدينة، وأقل من ذلك قبض الأجور من المستأجرين خوفاً من الموت ذبحاً. هناك كانت خوليانا تقرأ وتعزف الموسيقى وتُحاول التقرُّب من الفلاّحين مثل حوريّة مُحسنة كي تكسب ودّهم دون نتائج تُذكر. وكانت نوريا تقاتل الأشرار وتشكو من كلّ شيء. بينما إيزابيل تتسلّى برسم لوحات

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الطبيعة والوجوه بالألوان المائيّة. هل ذكرت أنّها كانت رسّامة جيّدة؟ يبدو أنّني نسيت ذلك، وهذا إغفال لا يُغتَفَر، لأنها كانت موهبتها الوحيدة. بشكل عامٍ كان هذا يُكسبها ودَّ الناس البسطاء أكثر من كلّ أعمال إحسان خوليانا. وكانت تحقّق الشبه من خلال الرسم بطريقة ملحوظة، لكنّها كانت تُحسِّن موديلاتها، تضع لهم مزيداً من الأسنان، وتُخفّف من تجاعيدهم وتمنحهم تعابير الكرامة التي نادراً ما كانوا يملكونها.

لكن لنعد إلى برشلونة، حيث كان دييغو يقضي أيّامه مشغولاً بدروسه، بـ العدالة، والحانات، التي كان يجتمع فيها مع طلاّب آخرين، وبمغامرات «الدثار والسيف»، كما كان يسميها بدأبٍ رومانسيّ. بينما كانت خوليانا تمارس حياة بطالة آنسات تلك السنوات. أيضاً لم يكن ممكناً أن تُرى وهي تتكلّم مع رجال دون الستين من العمر. كانت تذهب للرقص مع والدها، يُرافقهما أحياناً دييغو، الذي يُقدّمانه على أنّه ابن العمّ الأمريكي. لم تكن خوليانا تُظهر أيّ استعجال في الزواج، على الرغم من أنّ العشّاق كانوا يقفون في الصفّ. كان على والدها أن يُؤمّن لها زواجاً جيّداً، لكنّه لم يكن يعرف كيف يختار صهراً جديراً بابنته الرائعة. لم يكن ينقصها إلا عامين كي تُكمل العشرين، العمر الأقصى للحصول على خطيب، فهي إن لم تملكه في تلك السن تضاءلت فرصة الزواج شهراً بعد آخر. وكان دييغو، بتفاؤله الحصين يعمل الحسابات ذاتها ويَخلُص إلى أنّ الزمن يعمل لصالحه، لأنّها حين ترى أنّها بدات تذبل ستتزوّج منه كيلا تصبح عانساً. بهذه الحجّة كان يُحاول أن يقنع بِرناردو، الوحيد المتمتّع بالصبر لسماعه يشطح في كلّ لحظة حول حبّه اليائس.

في نهاية العام 1812 هُزِم نابليون بونابَرت في روسيا. كان الإمبراطور قد غزا هذا البلد الشاسع بجيشه المكون من مئتي ألف رجل. وكانت الجيوش الفرنسية التي لا تُهزَم تملك نظاماً حديدياً

وتتنقّل بإيقاع إجباريّ وأسرع من أعدائها بكثير، فهم لا يحملون إلا أثقالاً قليلة لأنّهم يعيشون في أرض مُحتلّة. ومع تقدّمهم نحو الداخل الروسيّ، كانت القرى تُخلى ويتبخّر سكّانها والفلاحون يحرقون محاصيلهم. وبمرور نابليون كانت الأرض تُمحق. دخل الغزاة موسكو منتصرين، فاستقبلهم دخان حريق هائل ونيران متفرقة من قناصة مختبئين بين الأنقاض، مستعدين للموت وهم يقاتلون. أحرق الموسكوفيون، مُقلّدين الفلاحين البواسل، ممتلكاتهم قبل أن يُخلوا المدينةَ. لم يبق أحد كي يُسلّم المفاتيح لنابليون، ولا جنديّ واحد يُهينونه، فقط بعض العاهرات المذعنات لإرضاء المنتصرين، لأنّ زبائنهنّ المعتادين اختفوا. وجد نابليون نفسه معزولاً وسط جبل من رماد، بقي ينتظر، لا يدري ماذا، وهكذا انقضى الصيفُ. وحين قرّر العودةَ إلى فرنسا كانت الأمطار قد بدأت والثلوجُ القاسية كالمبرد ستُغطي الأرضَ الروسية قريباً. لم يتصوّر الإمبراطور قط الامتحانات الرهيبة التي على جنوده أن يتحمّلوها. إلى سياط القوزاق وكمائن الفلاحين أُضيف الجوع والبرد القارس، الذي لم يختبره أيّ من أولئك الجنود قط. آلاف الفرنسيين بقوا منتصبين على امتداد طريق الانسحاب المخزي متحوّلين إلى تماثيل من جليد أبديّ. اضطُرّوا لأن يأكلوا الجياد والنعالَ، بل وأحياناً جثث رفاقهم. فقط عشرة آلاف رجل، حطّمهم العوز والقنوط عادوا إلى وطنهم. وحين رأى نابليون جيشه محطّماً علم أنّ النجم الذي أنار له صعوده العجيب إلى السلطة بدأ ينطفئ. اضطُرّ لأن يسحب قواته، التي كانت تحتلّ جزءاً كبيراً من أوروبا. وسُحِب ثلثا القوّات المنتشرة في إسبانيا. أخيراً لمح الإسبان نهاية منتصرة بعد سنوات من المقاومة القاسية، لكنّ هذا النصر لن يصل إلا بعد ستّة عشر شهراً.

في تلك السنة، في المرحلة ذاتها التي كان يلعق فيها نابليون جراحَ هزيمة العودة إلى فرنسا، أرسلت إيولاليا دِ كالّيس حفيدها رافائيل مونكادا إلى بلاد الأنتيل بمهمّة نشر تجارة الكاكاو. كانت تُفكّر ببيع الشوكولا، وعجينة اللوز ومحفوظات الجوز والسكّر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

العَطِر لصانعي الحلوى والمُلبّسات الناعمة في أوروبا والولايات المتحدة. كانت قد سمعت أن الأمريكيين يُحبّون الحلوى كثيراً. وكانت مهمّة الحفيد نسج شبكة من العلاقات التجارية في أهمّ المدن، بدءاً من واشنطن وحتى باريس. وبقيت موسكو أمراً يُنظَرُ فيه، لأنّها كانت مدمّرة، لكنّ إيولاليا كانت واثقة من أنّ دخان الحرب سرعان ما سينقشع، وسيعاد بناء العاصمة الروسية بالألق ذاته الذي كان لها من قبل. انطلق رافائيل في رحلة عبور لمدّة أحد عشر شهراً، عابراً بحاراً وساحقاً كليتيه في مطيات أبديّة كي يؤسّس أخوّة الشوكولا العطرة التي تخيّلتها إيولاليا.

طلب رافائيل مقابلة توماس دِ رومِو قبل ذهابه إلى بلاد الأنتيل، دون أن يقول كلمةً واحدة لخالته عن نواياه. لم يستقبله هذا في بيته، بل في أرضٍ محايدة من جمعية الجغرافيا والفلسفة، التي كان عضواً فيها وكان يوجد فيها مطعم رائع في الطابق الثاني. كان إعجاب توماس دِ رومِو بفرنسا لا يتسع ليشمل مطبخها الطيّب، لا ألسنة كناري، فهو كان يُفضّل صحوناً قطلانيّة قويّة، إسكودِلاً واللحم بالقدر، وهو طبيخ يحي الموتى، يخنة العجل، قنبلة من لحم وسجق الأسقف، وهي سجق أكثر سواداً وغلظة من أنواع السجق الأخرى. رافائيل مونكادا، الجالس إلى المائدة مقابل مُضيفه وكومة من اللحم والشحم، كان شاحباً قليلاً. لم يكد يُجرب الطعام، لأنّه كان مرهفَ المعدة وكان متوتّراً. عرض وضعه الشخصيّ على والد خوليانا، بدءاً من شهاداته وحتى يسره الاقتصادي.

ـ يؤسفني جدّاً، يا سيّد دِ رومِو، أنّنا تعارفنا في مناسبة المبارزة المفجعة مع سيغو دِ لابِغا. إنّه شابّ مُندفِع، وأنا، عليّ أن أعترف، كذلك أحياناً. بدأنا بالكلام وانتهينا إلى ميدان الشرف. من حسن الحظ أنّه لم ينتج عن ذلك شيء خطير. آمل ألا يكون لذلك وزن سلبيّ في حكم حضرتك عليّ... ـ قال المُتطلّع لأن يكون صهره.

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال، أيّها الفارس. الهدف من المبارزات

إزالة العار. وما أن يتبارز نبيلان حتى تزول الضغينة بينهما ـ ردّ الآخر بلطف، على الرغم من أنّه لم ينسَ تفاصيل ما حدث.

وعندما حانت ساعة تناول الحلوى التي كانت تحتوي في ذلك المطعم من السكّر ما يجعلها تلتصق بالأضراس، عبّر مونكادا عن رغبته بالحصول على يدِ خوليانا عند عودته من رحلته. كان توماس قد راقب، زمناً طويلاً ودون أن يتدخّل، العلاقةَ الغريبة بين ابنته وبين طالب ودّها العنيد ذاك. كان عزوفاً عن الكلام عن المشاعر، ولم يجهد نفسه قط في التقرّب من ابنتيه، فالمسائل النسائية كانت تُربِكه ويُفضّل أن يوكلها لنوريا. رأى خوليانا تتعثّرُ على بلاط ممرات بيته المثلج حين كانت صغيرة، وحين بدّلت أسنانها وراحت تنمو وتُبجِرُ في سنين البلوغ بلا ملاحة. ظهرت مرّةً أمامه بجدائل طفلة وجسد امرأة ولباس تفجّر عند الخصرين، عند ذلك أمر نوريا أن تُفصّل لها ملابس مناسبة، وتتعاقد مع مدرّس رقص، وألا تتركها تغيب عن نظرها لحظة واحدة. والآن يُحاصره رافائيل مونكادا من بين فرسانٍ آخرين ذوي وضع جيّدٍ، ليطلبوا منه خوليانا زوجة وهو لا يعرف بماذا يجيب. إن ارتباطاً كهذا مثاليّ، وأيّ والد مكانته سيكون راضياً، لكنّه لم يكن يستلطف مونكادا، ليس لأنّهما يختلفان بمواقفهما الفكرية، بقدر ما للتقوّلات التي لا تُريح والتي سمعها عن طبيعة هذا الرجل. الرأيُ العامّ كان يرى أنّ الزواج يقوم على تسوية اجتماعية واقتصادية، ليست المشاعر فيها أساسيّة، فهذه تسوّى بسرعة، لكنّه لم يكن موافقاً. هو تزوّج حبّاً وكان سعيداً جدّاً، إلى حدّ أنّه لم يستطع أن يستبدل أية امرأة أخرى بزوجته. كانت خوليانا من طبيعته ذاتها، ثمّ إنّها حشت رأسها بالروايات الرومانسية. كان يكبحه الاحترام الهائل الذي تمنحه له ابنته. كان عليه أن يلوي ذراعها كي تقبل أن تتزوّجَ دون حبّ، وهو ليس قادراً على فعل ذلك. كان يريدها سعيدة ويشك بأن يستطيع مونكادا أن يُساهم في ذلك. كان عليه أن يطرح الأمر على خوليانا، ولا يعرف كيف يفعل ذلك،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فجمالها وفضائلها تُخيفه. كان يشعر بارتياح أكثر مع إيزابيل، التي جعلتها عيوبها ألين جانباً. كان يُدرك أنّ الموضوع لا يقبل التأجيل فأبلغها اقتراح مونكادا في الليلة ذاتها. هزّت هي كتفيها، ودون أن تُضيع إيقاع الإبرة في تطريزها، وعلّقت قائلة إنّ ناساً كثيرين يموتون في بلاد الأنتيل بالملاريا، ولذلك لا حاجة للاستعجال في اتخاذ القرار.

كان دييغو سعيداً. فرحلة هذا المنافس الخطير منحته فرصة أن يكون وحيداً كي يكسب ودّ خوليانا. لم تتبدّل الفتاة في غياب مونكادا، كما لم تعتبر نفسها مقصودة بتقدّمات دييغو. بقيت تعامله بالودّ المتسامح والشرود ذاته، دون أن تُبدي أدنى فضولٍ تجاه نشاطات الفتى الغامِضة. كما لم تُدهشها قصائده، فقد كانت تجد صعوبة في فهم معنى أسنان اللؤلؤ، والعينين الزمرديتين والشفتين الياقوتيتين. قرّرَ دييغو، الباحث عن وقت أطول يقضيه معها، المشاركةَ في دروس الرقص، فأصبح راقصاً رشيقاً وحيويّاً. وتمكّن حتى من إغواء نوريا كي تحرّك عظامها على إيقاع الفاندانغو، على الرغم من أنّه لم يتمكّن من جعلها تتدخّل لأجله مع خوليانا، ففي هذا الأمر برهنت أنّها قاسية، مثلها مثل إيزابيل. ولكي ينال إعجاب نساء البيت راح دييغو يقطع الشموع من وسطها بضربة من شيشه وبدّقة جعلت اللهب لا يهتزّ والجزء المقطوع يبقى في مكانه. كذلك كان يستطيع إطفاءها برأس سوطه. أتقن العلم الذي علّمه إيّاه غاليليو تِمبِستا وتوصّل إلى فعل العجائب بورق اللعب. كذلك كان يقوم بألعاب بهلوانية بالمشاعل المشتعلة، ويخرج من صندوق مقفل بالأقفال دون مساعدة من أحد. وحين استنفد هذه الحيل حاول أن يُدهشَ حبيبته بمغامراته، بما في ذلك تلك التي وعد بِرناردو والمُعلّم مانوِل إسكالانتِ ألا يذكرها أبداً. فقد ألمح لها في لحظة ضعفٍ بوجود جمعية سرّية لا ينتمي إليها إلا بعض الرجال

المُصطفين. هنّأته، معتقدة أنّه كان يُشير إلى ثلّة طلابية من تلك التي تمضي في الشوارع عازفة الموسيقى العاطفية. لم يكن موقف خوليانا مزدرياً، فهي كانت تُقدِّره كثيراً، ليس خُبثاً، فهي لم تكن قادرة عليه، بل شروداً روائيّاً. كانت تنتظر بطل كتبها، الشجاع والدرامي، الذي سيُخلّصها من السأمِ اليوميّ، ولم يكن يخطر في ذهنها أنّ هذا يمكن أن يكون دييغو دِ لابِغا. ولا رافائيل مونكادا.

بدأ الوضع السياسي يتغيّر في إسبانيا. وكان يتضح في كلّ يوم أكثر أنّ نهاية الحرب قد أزفت. كانت إيولاليا دِ كالّيس تستعد بفارغ الصبر لتلك اللحظة، بينما حفيدها يحبك تجارتها في الخارج. لم تحلّ الملاريا مشكلة مونكادا بالنسبة إلى خوليانا فعاد في تشرين الثاني من العام 1813 أكثر ثروة من قبل، لأنّ خالته منحته نسبة مئويّة مرتفعة من تجارة الملبَّسات. فقد لاقت نجاحاً في أفضل صالونات أوروبا وفي الولايات المتحدة تعرّف لا أكثر ولا أقل على توماس جِفرسون، الذي اقترح عليه أن يزرع الكاكاو في فرجينيا. وما إن نفض مونكادا عن نفسه غبار الطريق حتى اتصل بتوماس دِ رومِو كي يؤكّد على نيّته بخطبة خوليانا. مضى عليه سنوات وهو ينتظر منها أن تقول كلمتها ولم يكن مستعدّاً لقبول جواب متملّص. بعد ساعتين تواعد توماس مع ابنته في المكتبة، حيث كان يحلُّ مُعظمَ مسائله ويوضّح شكوكه الوجودية بمساعدة كأس من الكونياك، ونقل إليها رسالة عاشقها.

ـ أنت في سنّ الزواج، يا بُنيّتي. والزمن يمرّ بالنسبة للجميع ـ علّل ـ رافائيل مونكادا فارس جدّيّ وبموت خالته سيصبح واحداً من أغنى أغنياء قطلونيا. أنا لا أحكم على الأشخاص من وضعهم المالي، كما تعلمين، لكن عليّ أن آخذ أمنكِ بعين الاعتبار.

ـ زواج شقيّ أسوأ بالنسبة للمرأة من الموت، يا سيّدي. لا مخرج. فكرة إطاعة الرجل وخدمته رهيبة إذا لم توجد الثقة والودّ.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ـ هذا ما يحدث بعد الزواج، يا خوليانا.

ـ ليس دائماً، يا سيِّدي. ثم إنّه يجب أن ننظر في حاجاته وواجبي. من سيُعنى بك حين تشيخ؟ فإيزابيل ليس لديها مزاج لذلك؟

ـ بالله عليك يا خوليانا! لم يحدث قط أن ألمحتُ إلى أنّ على ابنتيّ أن تعتنيا بي في الشيخوخة. ما أرغب به هم أحفاد وأن أراكما أنتِ وهي مستقرَّتين جيّداً في وضع جيّد. لا أستطيع أن أموت ما لم أترككما محميَّتَيْن.

ـ لا أدري ما إذا كان رافائيل مونكادا هو رجلي. لا أستطيع أن أتصوّر أيَّ نوعٍ من الحميمية معه ـ تمتمت وهي محمرَّةً.

ـ أنت لا تختلفين عن الآنسات الأخريات، يا بُنيّتي. أيّة شابّة ورعة يمكنها أن تتصوّر هذا؟ ـ ردّ توماس دِ رومِو، خجلاً مثلها.

كان موضوعاً لم يتوقّع أن يطرحه قط مع ابنتيه. افترض أنّه حين تحين اللحظة ستشرح لهما نوريا ما هو ضروريّ، وإن كانت القهرمانة في غاية الجهل في هذا الموضوع، مثلها مثل الطفلتين. لم يكن يعلم أنّ خوليانا كانت تتكلّم بهذا مع أغنِس دوشامب وبحثت عن التفاصيل في روايتها الغرامية.

ـ أحتاج إلى بعضِ الوقت كي أُقرِّر، يا سيّدي ـ توسّلت خوليانا.

فكَّر توماس دِ رومِو أنّه لم يحدث أن افتقد زوجته المرحومة كما افتقدها وقتذاك، هي التي كانت ستحلّ الأمور بحكمة ويدٍ راسخة، كما تفعل الأمهات عادةً. كان متعباً من الشدّ والرخي. تكلَّم مع رافائيل مونكادا كي يطلب منه تأجيلاً آخر، ولم يكن أمام هذا إلا أن يُذعِن. ثمّ أمر خوليانا أن تستشير وسادتها، فإذا لم تحصل على جواب خلال أسبوعين، قَبِل اقتراح مونكادا وانتهى الأمر. تلك كانت كلمته الأخيرة، خلص، لكنّ صوته لم يكن صارماً. كان حصار مونكادا الطويل قد بلغ مستويات من التحدّي الشخصي؛ فراحوا يُعلِّقون في الصالونات الرفيعة كما في فناءات الخدم، بأنّ هذه

الشابة التي لا تملك ثروة ولا شهادات تهين أكرم شخصٍ في برشلونة. وإذا ما استمرّت ابنته تجعلهم يتوسّلونها، فإنّ توماس دِ رومِو سوف يواجه خِلافاً جدّياً مع مونكادا، وهي كانت بالتأكيد ستستمرّ بتسويف المسألة لو لم يقع حادثٌ غريب استعجلَ النهاية.

كانت الصبيّتان دِ رومِو قد ذهبتا في ذلك اليوم مع نوريا لتوزيع الصدقات كما كانتا تفعلان دائماً في أوّل يوم جمعة من كلّ شهر. كان هناك ألف وخمسمئة متسوّل في المدينة وعدّة آلاف من الفقراء والمعوزين، لا أحد يزعج نفسه بإحصائهم. منذ خمس سنوات كان بالإمكان رؤية خوليانا في اليوم ذاته والساعة ذاتها دائماً، محروسة بشخص قهرمانتها المتخشّبة، تزور بيوتات الإحسان. وكانتا تتغطيان من أعلى رأسيهما وحتى أقدامهما بالطُرَحِ والأدثرة القاتمة اللون، احتشاماً وتفادياً للتسبب بالإهانة بما يدل على الفخامة، وتجوبان الأحياء سيراً على الأقدام وكان جوردي ينتظرهما بعربته في ساحة قريبة، متسلياً عن الضجر بزجاجة كحوله. وكانتا تقضيان المساء بطوله في هذه الرحلة، لأنّهما بالإضافة إلى مساعدة الفقراء تزوران الراهبات المُكلّفات بالمياتم. بدأت إيزابيل ترافقهما في ذلك العام، فقد أصبحت في الخامسة عشرة وفي عمر عليها أن تُمارس فيه الإحسان، بدل أن تقضي الوقت في التجسُس على دييغو، وتصارع نفسها أمام المرآة، كما كانت تقول نوريا. كان عليهن أن يسرن في أزقّة ضيّقة من أحياء مُدقعة الفقر، القطط ذاتها لا تسهو فيها خوفاً من أن تُصطاد لتُباع على أنّها أرانب. وكانت خوليانا تستسلم بصرامة مثاليّة لهذا العمل البطولي، بينما كانت إيزابيل تمرض ، ليس لأنّ القروحَ والدمامل، والأسمالَ والعكاكيزَ والأفواهَ الدرداء والأنوف التي تأكلها الزهري عند تلك الحشود البائسة، التي كانت أختها تعاملها مثل مبشِّرة، ترعبها، بل لأنّ أعمال الإحسان كانت تبدو لها سخرية.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كانت تُقدِّر أن نقود محفظة خوليانا لا تَجدي شيئاً أمام هول الفقر. فتردّ عليها أختها: «عدمه أسوأ منه».

كنّ قد بدأن جولتهنّ قبل نصف ساعة، ولم يزرن بعد إلا ميتماً واحداً حين خرج في وجههن عند إحدى الزوايا ثلاثة رجال بمظهر مريع. لا تكاد تُرى عيونهم، لأنّهم اعتمروا قبّعات هابطة حتى حواجبهم وربطوا على وجوههم مناديل. ورغم منع ارتداء الأدثرة كان أطولهم متدثّراً بمعطف. كانت تلك ساعة القيلولة الخمولة، حيث يندر الناس الذين يسيرون في المدينة. وكانت الأزقّة محميّة الجوانب بأسوار كنيسة حجرية مصمتة لا يوجد فيها باب واحد قريب يمكن اللجوء إليه. راحت نوريا تصرخُ مذعورة، لكنّ صفعة على وجهها من واحد من أولئك الأوغاد رمتها أرضاً وأخرستها، حاولت خوليانا أن تُخفي مِحفظةَ نقود إحسانها تحت معطفها، بينما إيزابيل راحت تنظر شزراً باحثة عن طريقة لطلب المساعدة. انتزع أحد اللصوص المحفظةَ من خوليانا وحاول آخر أن ينتزع قرطي اللؤلؤ، لحظة وضعتهم حوافر جواد فجأة في حالة الدفاع. صاحت إيزابيل بأعلى صوتها فظهر بعد برهة ظهوراً ربّانيّاً لا أكثر ولا أقل رافائيل مونكادا. ففي مدينة مكتظّة مثل تلك كان وصوله أقل من أعجوبة بقليل. كفت مونكادا نظرة كي يُقدِّر الوضعَ ويُجرّد سيفه بسرعة ويواجه أولئك الشياطين السفلة. اثنان منهما امتشقا خنجرين معقوفين، لكنّ توبيخين من مونكادا وموقفاً حازماً أربكهما. بدا هائلاً ونبيلاً على مطيّته بجزمته السوداء اللامعة في الركاب الفضّيّ والسروال الناصع البياض المشدود على ساقيه، وسترة القطيفة الخضراء الداكنة بطيَّتَيّ استبرقها والسيف الطويل ونهاية المقبض الدائرية المزركشة بالذهب. كان باستطاعته من مكانه أن يقضي على أكثر من خصم دون أيّة تدابير أخرى، لكنّه بدا مستمتعاً بتخويفهم. وكان يمكن أن يكونَ بابتسامته الضارية وسيفه الذي يلمعُ في الهواء الصورةَ المركزية للوحة معركة. كان الآخرون يلهثون بينما هو ينخسهم من الأعلى دون هوادة. وقف الجوادُ

الغاضب من المشادة، على قائمتيه الخلفيتين وبدا لبرهة على وشك أن يرمي بفارسه أرضاً، لكنّ هذا شدّ ساقيه عليه. بدت رقصة غريبة وعنيفةً. كان الجوادُ يدور وسط دائرة الخناجرِ حول نفسه، صاهلاً رعباً، بينما مونكادا يُسيطر عليه بيدٍ ويرفع سلاحه باليد الأخرى يحيط به اللصوص، الذين يبحثون عن مناسبة كي يطعنوه، لكنهم لم يجرؤوا على الاقتراب منه. انضمّت إلى صرخات إيزابيل صرخات نوريا، وسرعان ما أطلّ عدد من الرجال على الشارع، لكنّهم حين رأوا الحديد يلمع في ضوء النهار الشاحب، بقوا حذرين. خرج فتى راكضاً يبحث عن الشرطة، لكن لم يكن هناك أمل بأن يعود بالمساعدة في الوقت المناسب. استغلّت إيزابيل الارتباك لتنتزع المِحفظةَ من يدي رجل المعطف، وأخذت أختها من جانب ونوريا من جانب آخر كي تجبرهما على الهرب، لكنّها لم تستطع تحريكهما، فكلاهما تسمّرتا بالبلاط. لم تدم المواجهة إلا دقائق، جرت ببطء الكوابيس المستحيلة الحدوث واستطاع مونكادا أخيراً أن يرمي خنجر أحد الرجال وبذلك أدرك المهاجمون الثلاثة أنَّ من الأفضل لهم أن ينسحبوا. قام الفارس بحركة من سيلاحقهم، لكنّه تراجع عندما رأى روع النساء وقفز عن مطيّته ليساعدهنّ. لطخة حمراء ظهرت على بنطلونه. هرعت خوليانا لتلوذ بذراعيه مرتعدةً مثل أرنب.

ـ أنت جريح! ـ صاحت حين رأت الدم على ساقه.

ـ مجرّد خدش ـ ردّ هو.

كانت الحالة بالنسبة إلى الشابة حالة تأثّر مفرطة. زاغت عيناها وخانتها ركبتاها، لكنّ ذراعي مونكادا اليقظين رفعاها قبل أن تسقط على الأرض. علّقت إيزابيل قائلةً بأنه لم يكن ينقص المشهد كي يكتمل غير هذا: إغماءة أختها. تجاهل مونكادا السخرية اللاذعة وحمل خوليانا بين ذراعيه إلى الساحة وهو يعرج قليلاً، لكن دون تعثّر. تبعتهما إيزابيل ونوريا، جارّتين الجواد من رسنه، يحيط بهما

الفضوليون الذين اجتمعوا وكان لكلّ واحدٍ منهم رأيه بما حدث، وجميعهم يريد أن يقول كلمته الأخيرة حول ما جرى. عندما رأى جوردي ذلك الموكب نزل عن مقعد الحوذيّ وساعد مونكادا على وضع خوليانا في العربة. سادت بين المتلصصّين موجة من التصفيق. نادراً ما كان يحدث في شوارع برشلونة شيء بمثل هذه الدونكيشوتية والرومانسيّة؛ صار هناك موضوع لعدّة أيّام. بعد عشرين دقيقة وصل جوردي إلى فناء بيت دِ رومِو يتبعه مونكادا على جواده. كانت خوليانا تبكي منهارة الأعصاب، ونوريا تعدّ أسنانها التي أسقطتها الصفعة، بينما إيزابيل تُطلق شرراً وهي تحتضن المحفظة.

لم يكن توماس دِ رومِو من الرجال الذين تُدهِشهم كثيراً الكنى العريقة، لأنّه كان يطمح لأن تمّحي النبالة عن وجه الأرض، ولا ثروة مونكادا، لأنّه كان ذا طبيعة كريمة، لكنّه تأثّر حتى البكاء حين علم أنّ هذا الفارس، الذي عانى كثيراً من صدود خوليانا، قد خاطر بحياته كي يحمي ابنتيه من أذى ماحق. ورغم أنّه كان يقول إنّه مُلحِد، فقد كان متفقاً تماماً مع نوريا بأن العناية الإلهية أرسلت مونكادا في الوقت المناسب لينقذهنّ. أصرّ على أن يرتاح الفارس ريثما يذهب جوردي للبحث عن طبيب يداوي له جرحَه، لكنّ الفارِسَ فضّل أن ينسحب بلباقة. وما من شيء غير اضطرابه عند التنفس وشى بالمه. الجميع علّق بالقول بأنّ برودة دمه أمام الألم مذهلة مثل جرأته أمام الخطر. وحدها إيزابيل لم تُبد أية علامة امتنان. وبدل أن تنضمّ إلى تأثّر بقيّة العائلة الطافح راحت تُطقطِق بلسانها طقطقات ازدراء قوبلت بالاستهجان. أمرها أبوها بأن تذهب وتُغلق على نفسها البابَ في غرفتها، ولا تعود لتطلّ بأنفها قبل أن تعتذر عن دهمائيّتِها.

اضطرّ دييغو إلى أن يستَمِع بصبرٍ وإكراهٍ إلى تفاصيلِ الهجوم

من فم خوليانا، إضافةً إلى التخيلات حول ما كان من الممكن أن يحدث لولم يتدخّل المخَلِّص في اللحظة المناسبة. لم يحدث قطّ للشابة شيء بمثل تلك الخطورة، كبِرت صورة رافائيل مونكادا في عينيها، تزيّنها فضائل لم ترها فيه من قبل: فهو قويّ ووسيم، له يدان أنيقتان وخصلة شعر متماوِجة. ورجل بمثل هذه الأناقة أمامه الكثير مما يكسبه في هذه الحياة. فجأة لاحظت أنّه يُشبه أشهر مصارعِ ثيرانٍ في إسبانيا، قرطبيّ طويل الساقين ناريّ العينين. وقرّرت أنّ خاطب ودّها لم يكن قبيحاً أبداً، وهكذا أصابتها الوعكة الرهيبة بالحمّى فذهبت باكراً إلى فراشها. كان على الطبيب أن يفصد دم نوريا، التي صار رأسها مثل قرعة بعد أن وضع لها كؤوس هواء.

ونظراً إلى أنّ دييغو لن يرى الجميلةَ على العشاء فقد انسحب بدوره إلى غرفته، حيث كان ينتظره بِرناردو. وللحشمة لم يكن باستطاعة الصغيرتين أن تقتربا من جناح البيت الذي يضمّ غرف الذكور، الاستثناء الوحيد حدث يوم كان دييغو يتعافى من جرح المبارزة، لكنّ إيزابيل لم تكترث قطّ بهذه القاعدة، كما لم تطبّق حرفيّاً العقوبات التي كان يفرضها عليها أبوها. تجاهلت في تلك الليلة أمر العزل في غرفتها فظهرت في غرفة الفتيين دون سابق إعلان، كما كانت تفعل أحياناً كثيرة.

ـ ألم أقل لك أن تقرعي الباب؟ سيأتي يوم تجدينني فيه عارياً ـ احتجّ دييغو.

ـ لا أظنّ أنّني سأظفر بانطباعٍ لا يُنسى ـ ردّت هي.

جلست على حافّة سرير دييغو، بتعابير داهيةٍ يملكُ معلومات ولا يريد أن يُقدّمها، بانتظار أن يتوسّلا إليها، لكن دييغو حاول مبدئيّاً ألا ينصاع لحيلها وبِرناردو كان ساهياً يعمل عُقداً في حبله. مضت بُرهة طويلة انصاعت بعدها لرغبتها بالكلام بلغتها الجميلة التي تستخدمها بعيداً عن مسمع نوريا، قائلة إنّه إذا كانت أختها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لاتشكّ بمونكادا فلأنّها بلهاء، وأضافت أنّ كلّ شيء كانت تفوح منه رائحة سمك فاسِد، لأنّ أحد المُهاجمين كان رودولفو، عملاق السيرك. قفز دييغو قفزةَ قردٍ وأفلت بِرناردو الحبلَ الذي كان يعقده.

ـ هل أنت متأكّدة؟ ألم تقولي إنّهم كانوا أوغاداً ويغطّون وجوههم ـ زجرها دييغو.

ـ بلى، ثمّ إنّ هذا كان ملفوفاً بدثار، لكنّه كان ضخماً وحين انتزع منها المِحفظة رأيتُ ذراعيه. كانا موشومين.

ـ يمكن أن يكون بحّاراً. كثيرون منهم موشومون، يا إيزابيل ـ أضاف دييغو.

ـ كان وشم عملاق السيرك ذاته، لا شكّ عندي في ذلك، لذلك من الأفضل لك أن تُصدِّقني ـ ردّت هي.

وبين هذا واستنتاج دييغو وبِرناردو بأنّ الغجر كانوا متورّطين لم يكن يوجد غير خطوة واحدة خطياها على الفور. كانا يعلمان منذ فترة أنّ بِلايو وأصدقاءه ينفذون أعمالاً قذرة لمونكادا، لكنّهما لا يتمكنان من التحقّق منها. لم يجرؤا قط على التطرّق إلى الموضوع مع الغجري، الذي كان في جميع الأحوال كتوماً ولن يعترف لهما بشيء. أماليا بدورها لم تكن تذعن لاستفسارات دييغو المُبطّنة، حتى في أكثر اللحظات ودّية كانت حذرة بخصوص أسرار العائلة. ودييغو لم يكن يستطيع أن يمثل أمام توماس دِ رومِو بريبة مثل تلك، دون براهين ودون أن يرى نفسه مجبراً على أن يقبل بتعامله الخفيّ مع قبيلة البوهيميين، لكنّه قرّر التدخُل. كما قالت إيزابيل، لم يكن باستطاعتهم أن يقبلوا أن تنتهي الشابة بالزواج من مونكادا لامتنان لا أساس له.

تمكّنوا في اليوم التالي من إقناعها بأن تنهض من الفراش وتُرافقهم إلى حيث كانت تتوضّع أماليا لتقرأ حظّ المارّة. ذهبت

نوريا معهم، لأنّه كان واجبها، على الرغم من أنّ وجهها كان يبدو أسوأ من اليوم السابق. كان أحد خدّيها مزرقّاً وأجفانها منتفخة وتبدو مثل ضفدعٍ. تأخروا أقلّ من نصف ساعة في العثور على أماليا، بينما كانت الفتاتان وقهرمانتهما ينتظرن في العربة. توسّل دييغو للغجرِيَّة بفصاحة هو نفسه لا يعرفها، أن تُنْقِذ خوليانا من قدرٍ مشؤوم.

ـ كلمة واحدة منك يمكن أن تمنع حدوث كارثة زواج بلا حب بين فتاة بريئة ورجل بلا ضمير. عليك أن تقولي لها الحقيقة ـ تعلَّل بمأساوية.

ـ لا أعرف عمّا تُكلِّمني ـ ردّت أماليا.

ـ بل تعرفينه. العناصر الذين هاجموهنّ من قبيلتك. أعرف أنّ واحداً منهم هو رودولفو. أعتقد أن مونكادا دبّر المشهد كي يظهر بمظهر البطل أمام الصغيرتين دِ رومِو. كلّ شيء كان مُدبَّراً، أليس صحيحاً؟ ـ أصرّ دييغو.

ـ هل أنت عاشق لها؟ ـ سألت أماليا دون خبث.

اضطرَّ دييغو مُختنقاً، أن يعترف بأنّه كذلك فعلاً. أخذت هي يديه، فحصتهما بابتسامة مُبهَمة ثمّ بلّلت إصبعاً بريقها ورسمت إشارة الصليب على كفّيه.

ـ ماذا تفعلين؟ هل هذه لعنة؟ ـ سأل دييغو، مذعوراً.

ـ إنّه تنبُؤ. لن تتزوّج منها أبداً.

ـ هل تعنين أنّ مونكادا سيتزوّج منها؟

ـ هذا ما لا أعرفه. سأفعل ما تطلبه منّي، لكن لا تتوهّم، لأنّ على هذه المرأة أن تُكمِل قدرها، تماماً كما عليك أنت أن تفعل، ولا شيء مما أقوله يمكن أن يُغيّر ما هو مكتوب في السماء.

تسلّقت أماليا العربة، حيّت بإشارة إيزابيل، التي كانت قد رأتها أحياناً، حين كانت تُرافِق دييغو وبِرناردو، وجلست على المقعد

مقابل خوليانا. كتمت نوريا نَفَسَها مذعورةً، لأنّها كانت واثقة من أنّ البوهيميين يتحدّرون من قابيل ومن أنّهم لصوص محترفين. صرفت خوليانا قهرمانتها وإيزابيل، اللتين نزلتا من العربة مدمدمتين. حين أصبحتا وحيدتين راقبت كلّ منهما الأخرى دقيقة كاملة. جردت أماليا خوليانا جرداً تامّاً: الوجه الكلاسيكي، المحاط بخواتم شعر أسود، عينا القطّة الخضراوان، الرقبة الدقيقة، الضماد والقبّعة الجلدية، جزمة جلد الجدي. من جهتها كانت خوليانا تفحص الغجريةَ بفضول، لأنّها لم تر قط غجريّة عن مثل ذلك القرب. لو أنّها أحبتْ دييغو لكان حدسها نبّهها إلى إنّها خصمها، لكنّ هذه الفكرة لم تخطر ببالها. أحبّت رائحة التبغ فيها، وجهها الناشز الوجنتين، تنورتها الواسعة ودندنة مجوهراتها الفضّية. بدت لها في غاية الجمال. وباندفاعة وديّة خلعت قفّازيها وأمسكت يديها. فقط قالت لها: «شكراً على تكلّمك معي». أماليا وقد جرّدتها تلقائية الحركة من سلاحها، قرّرت أن تخرق قاعدة شعبها: لا تثِقي أبداً بغريب، خاصّة إذا كان هذا يضع عشيرتك في خطر. وبكلمات قليلة وصفت الجانب الغامِض من مونكادا، كشفت لها أنّه بالفعل كان هجوماً مبرمجاً، فهي وأختها لم تكونا قط في خطر. ولم تكن البقعة الحمراء على بنطلون مونكادا ناتجة عن جرح، بل عن مصران مُلئ بدم دجاجة. قالت إنّ بعض رجال القبيلة يُنفّذون من حين لآخر ما يُكلّفهم به مونكادا من مسائل معينة غالباً ما تكون غير ذات أهمّية. في مناسبات معدودة ارتكبوا خطأً جدّياً، مثل الهجوم على الكونت أورلوفّ. «لسنا مُجرمين»، وضّحت أماليا وأضافت أنّها تأسف لأنّها اعتدت على الروسيّ ونوريا، لأنّ العنف ممنوع في قبيلتها. وبضربة قاضية أعلمتها أنّ بّلايو هو من كان يُغنّي لها السيرينادات، لأنّ مونكادا كان ينشز مثل بطّة. استمعت خوليانا إلى الاعتراف الكامل دون أن توجّه إليها أسئلة. ودّعت الواحدة منهما الأخرى بإيماءة خفيفة وهبطت أماليا من العربة فانفجرت خوليانا بالبكاء.

في ذلك المساء ذاته استقبل توماس دِ رومِو رسمياً في منزله رافائيل مونكادا، الذي أبدى عبر رسالة قصيرة أنّه تعافى من فقدانه للدم ويرغب بأن يُقدّم احتراماته لخوليانا. في الصباح كان قد جاء إليها خادِمٌ بإكليل من الزهر وعلبة تورّون لوز لإيزابيل، اللفتتان المهذّبتان غير التبجّحيتين اللتان سجّلهما توماس لصالح طالب الودّ. وصل مونكادا بأناقة تامّة مستنداً إلى عكّاز. استقبله توماس في القاعة الرئيسية، الذي نفض الغبار عنها على شرف الصهر المستقبلي، قدّم له نبيذ شيرش وما إن جلسا حتى شكره مرّة أخرى على تدخّله المناسب. وأمر على الفور باستدعاء الصغيرتين. حضرت خوليانا هزيلة بزيّ دير، غير مناسبٍ كثيراً لمثل تلك المناسبة المهمّة. أختها إيزابيل جاءت بعينين مضطربتين وتصعيرة ساخرة تسندها من ذراعها بقوّة بدا منها وكأنّها تجرّها. عزا رافائيل مونكادا وجه خوليانا المُتجهّم إلى التوتر العصبي.

- لا يتوقّع أقل من ذلك بعد العدوان الرهيب الذي تعرّضت له...
- بادر معلقاً قبل أن تُقاطعه هي كي تُعلن له بصوت مرتعش لكن بإرادة حديديّة، أنّها لن تتزوّجه ولا حتى وهي ميتة.

وأمام رفض خوليانا القاطع انسحب رافائيل مونكادا من هذا البيت شاحِباً، وإن بقي متحكّماً بآدابه الحسنة. اصطدم في سنيّه السبع والعشرين ببعض العوائق، لكنّه لم يفشل قط. لم يفكّر أن يعتبر نفسه مهزوماً، ما زال في كمّه عدد من الحيل، فهو لذلك يملك موقعاً اجتماعيّاً وثروة وعلاقات. امتنع عن سؤال خوليانا عن أسبابها، لأنّ الحدس نبّهه إلى أنّ شيئاً ما خانه فيِ استراتيجيّته. هي كانت تعرف أكثر من اللازمِ، وهو لم يكن مستعدّاً لأن يرى نفسه مُحرجاً. إذا كانت خوليانا تشكّ بأنّ الهجوم كان مسرحيّة هزليّة، فليس هناك غير سبب واحد: بَلايو. لم يُصدّق بأنّ الرجلَ يمكن أن يكون قد تجرّأ على خيانته، لأنّه لا يربح من هذا شيئاً، لكن من المحتمل أن يكون قد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ارتكب حماقة. لم يكن ممكناً كتمان السرّ هناك لزمن طويل، فالخدم كانوا يُشكلون شبكة معلومات أكثر فعالية من الجواسيس الفرنسيين في القلعة. يكفي تعليق من أيٍّ من المتورّطين في غير مكانه حتى يصل إلى مسمع خوليانا. كان قد استخدم الغجر في عدّة مناسبات، تماماً لأنّهم رحّالة، فهم لا يملكون أصدقاء ومعارف في برشلونة، وكانوا محتشمين بالضرورة. في أثناء رحلته فقد الاتصال بِبِلايو وشعر بطريقة ما بالراحة لذلك. فالعلاقة مع هؤلاء الناس كانت تُزعِجه. وعند عودته اعتقد أنّ باستطاعته أن يضرب عرض الحائط وينسى كوابيس الماضي ويبدأ بشكل نظيف، بعيداً عن ذلك العالم التحتي من الشرّ المدفوع الأجر. لكنّ نيّة الولادة الجديدة لم تدم سوى بضعة أيّام. حين طلبت خوليانا أسبوعين آخرين كي تردّ على طلبه بالزواج، جاء ردّ فعله مذعوراً وهو أمر نادر عنده، هو الذي كان يقدّر في نفسه أنّه قادر حتى على السيطرة على مسوخ كوابيسه. كتب إليها خلال غيابه عدّة رسائل لم تُجب عليها. عزا هذا الصمت إلى الخجل، لأنّ خوليانا كانت في عمرٍ، النساءُ الأخريات فيه أمّهات، بينما هي تتصرّف كغرّة. كانت تلك البراءة في نظره أفضل ما في الشابّة، لأنّها كانت تضمن له أنّها حين تستسلم له فسيكون ذلك دون تحفُّظ. لكنّ أمانه اصطدم بالتأجيل الجديد الذي فرضته بنفسها، وعندئذٍ قرّر الضغط عليها. قدّر أنَّ تصرّفاً رومانسيّاً، كتلك التصرفات التي تزخر بها كتب الحبِّ التي كانت تتمتّع بها، سيكون الأكثر فعالية بالنسبة إلى أهدافه، لكنّ لم يكن باستطاعته أن ينتظر أن تأتي الفرصة من تلقاء ذاتها، وعليه أن يستعجلها؛ وسيحصل على ما يرغب دون أن يضرَّ بأحدٍ، والحقيقة لم تكن المسألة خداعاً، لأنّه لو حدث وهوجِمَت خوليانا ـ أو أيّة امرأة أخرى ـ سيخرج للدفاع عنها دون تردُّد. لم يبدُ له ضروريّاً أن يُقدّم هذه المُبرِّرات لِبّلايو، طبعاً اقتصر على إعطائه الأوامر التي نفّذها دون تلكّؤ. وجاء المشهد الذي ركّبه البوهيميون أقصر من المُخطّط له، لأنّهم ولّوا الأدبار بعد دقائق قليلة، حين شعروا أنّ سيفَ مونكادا يعمل

بجدّية. لم يمنحوه الفرصة كي يتألّق بالبهاء الدرامي الذي كان يطمح إليه، لذلك عندما جاءه بّلايو ليقبض منه اعتبر من العدل مساومته على السعر المُتَّفَقِ عليه. تجادلا وانتهى الأمر بأن قَبِل بّلايو التخفيض، لكنّ رافائيل مونكادا بقي يشعر بطعم حريفٍ في حلقه، فالرجل كان يعرف أكثر من اللازم ويمكن أن يقع في إغواء أن يفضحه. بالنتيجة ختم أنّه لم يكن يناسب أن يكون لعنصر من هذه الطبيعة بلا قانون ولا أخلاق، سلطةٌ عليه. يجب أن يتخلّص منه ومن قبيلته بأسرع ما يمكن.

من ناحيته كان بِرناردو يعرف جيّداً نسيج التقوّلات القوي الذي كان يخافه كثيراً الأشخاص من نوع مونكادا. فهو بصمته، صمت القبر، وبمظهر الهندي الجليل وطيب إرادته في صنع المعروف قد استلطفه ناس كثيرون، باعة السوق، حمّالو الميناء، حرفيو الأحياء، الحونديون، أزلام وخدم بيوت الأغنياء. كان يُخزِّن المعلومات في ذاكرته العجيبة، المقسمة إلى أقسام مثل أرشيف هائل، حيث يحفظ المعلومات منظَمة وجاهزة للاستخدام في اللحظة الضرورية. كان قد تعرَّف على جوانِت، أحد خدم مونكادا، في فناء منزل إيولاليا دِ كالّيس، في الليلة التي ضربه فيها مونكادا بعصاه. في أرشيف تلك الليلة لا ينكر ضربة العصا التي تلقاها، بل الهجوم على الكونت أورلوفّ. بقي على تواصل مع جوانِت، وهكذا كان باستطاعته أن يُراقب بيت مونكادا من بعيد. لم يكن الرجل متنوراً كثيراً ويكره كلّ ما ليس قطلانيّاً، لكنّه كان يتسامح مع بِرناردو لأنّه لم يكن يُقاطِعه وكان مُعمَّداً. وما إن اعترفت أماليا بتعامل مونكادا مع الغجر حتى قرّر بِرناردو أن يعرف المزيد عن هذه الشخصيّة. قام بزيارة جوانِت، حاملاً إليه هديّةً وهي أفضلَ كونياك عند توماس دِ رومِو، سهّلَت أمر الحصول عليه إيزابيل عندما علمت أنّ الكحول سيستخدم لأهدافٍ غيريّة. لم يكن الرجل يحتاج للكحول كي يُطلق العنان للسانه، لكنّه شكره وراح يحكي له على الفور الأخبار الجديدة. هو نفسه كان قد حمل رسالة من سيّده إلى قائد القلعة العسكريّ، وفيها

يتهم مونكادا قبيلة الغجر بإدخال أسلحة مهرّبة إلى المدينة والتآمر على الحكومة.

ـ الغجر تُحيق بهم لعنة أبديّة، لأنّهم صنعوا مسامير صليب المسيح. ويستحقون أن يُحرَقوا جميعاً دون رحمة، أنا أقول ذلك ـ ذلك كان استنتاج جوانِت.

كان بِرناردو يعلم أين يجد دييغو في تلك الساعة. اتجه على الفور إلى الخلاء خارج أسوارِ برشلونة، حيث نصب الغجر خيامهم الوسخة ووضعوا عرباتهم المُخلّعة. في السنوات الثلاث التي مضت على وجودهم هناك اكتسب المُخيّم مظهر قرية من خرق. لم يكن دييغو قد جدّد غرامياته مع أماليا، لأنّها خافت أن تُضيع مصيرها للأبد؛ فهي قد أُنْقِذَت من الإعدام على يدِ الفرنسيين وهذا أكبر برهان على أنَّ روحَ زوجها رامون تحميها من الجانب الآخر. لم يكن يناسبها أن تُثير غضبه بالنوم مع غريب. كما أثّر في معنوياتها أنّ دييغو اعترف لها بحبّه لخوليانا، وبذلك يكون الاثنان غير وفيَّين، هي لذكرى المرحوم وهو للفتاة العفيفة. تماماً كما قدّر بِرناردو كان دييغو قد ذهب إلى المُخيّم ليساعد أصدقاءه في تحضير الخيمة لسيرك الأحد، الذي لن يكون في هذه الحالة في ساحة كما هو معتاد، بل هناك بالذات. كان أمامه عدّة ساعات، لأنّ العرض يبدأ في الرابعة مساء. حين وصل بِرناردو كان يجرّ مع رجال آخرين الحبال لشدّ القماش على إيقاع أغانٍ تعلّمها من بحّارةِ لامادرِ دِ ديوس. كان باستطاعته أن يُحسّ بأفكاره عن بعد وكان ينتظره. لم يحتج لأن يرى تعابير وجه أخيه المكفهرّة كي يعلم أنّ شيئاً ما سيّئاً يحدث. امحت ابتسامته، التي طالما كانت تتراقص على وجهه عند سماعه ما تحقّق بِرناردو منه من خلال جوانِت فجمع القبيلة على الفور.

ـ إذا كانت المعلومات صحيحة فأنتم في خطر حقيقيّ. أتساءل لماذا لم يوقفوكم حتى الآن ـ قال لهم.

ـ بالتأكيد سيأتون خلال العرض، حين نكون جميعاً هنا ويكون هناك جمهور. فالفرنسيون يُحبّون تلقين الدروس، هذا ما يجعل السكان خائفين، وليس هناك ما هو أفضل من أن يفعلوه بنا ـ أجاب رودولفو.

جمعوا أطفالهم وحيواناتهم بصمت وبحذرِ قرونٍ من الملاحقة وحياة التيه؛ حزموا ما لا غنى لهم عنه، امتطوا خيولهم، واختفوا في أقل من نصف ساعة باتجاه الجبال. عندما ودّعهم دييغو قال لهم أن يُرسلوا في اليوم التالي أحداً إلى كاتدرائيّة الحيّ القديم. قال لهم «عندي شيء لكم»، وأضاف إنّه سيُحاول أن يُلهي الجنود كي يكون لديهم الوقت للهرب. كان الغجر يخسرون كلّ شيء. فالمخيّم بقي خلفهم مقفراً وفيه خيمة السيرك الحزينة، العربات بلا خيول، الصلاءات التي ما يزال ينبعث منها الدخان، الخيام المهجورة وكومة من الأواني والفرش والخرق. في هذه الأثناء جال دييغو وبِرناردو وهما يعتمران قبّعتي بهلوان ويقرعان الطبل كي يستدعوا الجمهور الذي راح يتبعهم إلى السيرك. وسرعان ما توافر ما يكفي من المتفرّجين ينتظرون تحت الخيمة. باغتت صفرة قلقة دييغو، الذي ظهر في الحلبة بلباس زورو وقناعٍ وشاربٍ قاذفاً في الهواء ثلاثة مشاعل مشتعلة، يلتقطها في الهواء ويمرّرها من بين رجليه وخلف ظهره قبل أن يعود ويقذف بها من جديد. لم يبدُ الجمهورُ مندهشاً كثيراً وبدأ يُمازحه، أخذ بِرناردو المشاعلَ وطلب دييغو مُتطوّعاً من أجل حيلة مدهشة جدّاً، كما أعلن. خرج له بحّار مفتول العضلات متحدّياً ووقف متّبعاً التعليمات على بُعد خمس خطوات وسيجارة مشتعلة بين شفتيه. أزَّ دييغو سوطه مرّتين على الأرض قبل أن يوجّه إليه ضربة صائبة. حين شعر الرجل بأزيز يلامس وجهه احمرَّ غضباً، لكنّ حين طارت السيجارة في الهواء دون أن يلمس السوط جلده أطلق قهقهةً تبعتها قهقهات الحضور. عندئذٍ تنكّر أحدً القصص التي كانت تدور في المدينة حول الثعلب (زورو)، الذي كان يرتدي الأسود والقناع، وتجرّأ على إخراج الشافاليير من فراشه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لإنقاذ بعض الرهائن. زورو... ثعلب؟ ... أيّ ثعلب... ودبّ الصوت بلمح البصر وأشار أحدهم إلى دييغو، الذي حيّاهم بانحناءة عميقة وتسلّق بقفزة واحدة الحبال باتجاه الأرجوحة. وفي اللحظة التي أعطاه بِرناردو إشارة سُمِعَ وقعُ حوافرِ خيول. كان ينتظرهم. دار دورة بالأرجوحة وبقي متدلّياً من قدميه، مترنّحاً في الهواء فوق رؤوس الجمهور.

بعد دقائق دخلت مجموعة من الجنود الفرنسيين، بقبعاتهم المائلة خلف ضابط يزأر مُهدِّداً. دبّ الذعر بين الناس الذين راحوا يُحاولون الخروج، اللحظة التي استغلّها دييغو لينزل إلى الأرض، منزلقاً على الحبل. دوَّت عدّة طلقات وحدثت جلبة رهيبة. راح المتفرّجون يتزاحمون للخروج متعثّرين بالجنود فهرب دييغو مثل ابن عرس قبل أن يُدركوه، وراح يقطع الحبال التي تشدّ الخيمة بمساعدة بِرناردو. وسقط القماش على رؤوس الحضور المحاصرين في الداخل، جنوداً وجمهوراً على حدٍّ سواء. وقد منح الارتباك الشابين الوقت كي يمتطيا مطيّتيهما وينطلقا باتجاه بيت توماس دِ رومِو. تجرّد دييغو وهو على حصانه من الدثار والقبّعة والقناع والشارب. قدّرا أنّ الجنود سيحتاجون إلى برهة طويلة كي يتخلّصوا من الخيمة فوقهم وينتبهوا إلى أنّ الغجر هربوا، وينظّموا أنفسهم ليلحقوا بهم. كان دييغو يُدرك ان اسم زورو سيكون في اليوم التالي على كلّ لسان. رمقه بِرناردو من فوق حصانه بنظرة عتاب بليغة. فالغرور يمكن أن يكلّفه ثمناً غالياً، لأنّ الفرنسيين سيبحثون في السماء والأرض عن هذه الشخصية الغامضة. وصلا إلى مقرّهما دون أن يلفتا انتباه أحد، دخلا عبر باب الخدمة وبعدها بقليل كانا يتناولان الشوكولا مع البسكويت برفقة خوليانا وإيزابيل. لم يكونوا يعرفون أن مُخيّم الغجر في تلك اللحظة ذاتها كانت تلتهمه النيران، فقد أضرم الجنود النار بقشّ أرضية السيرك الذي اشتعل مثل الهشيم ووصل بعد قليل إلى الخيش القديم.

مَثُل دييغو ظهيرةَ اليوم التالي في جناح من أجنحة الكاتدرائيّة. كان ظهور زورو الثاني قد جاب برشلونة كاملة ووصل إلى مسامعه. في يوم واحد استطاع البطلُ الغامِض أن يستولي على المـُخيّلة الشعبية. وظهر حرف Z محفوراً بالسكين على عددٍ من الجدران، من عمل صبية متحَمّسين لتقليد زورو. قال دييغو: «هذا ما نحتاجه، يا بِرناردو، ثعالب كثيرة تُلهي الصيّادين». كانت الكنيسة في تلك الساعة فارغة إلا من سادنين يُبدلان الأزهار في المذبح الرئيسي. كانت تسود عتمة وسكون ضريح باردين. فنور الشمس القاسي وضجّة الشارع لا يصلان إلى هناك. انتظر دييغو جالساً على مقعد، مُحاطاً بتماثيل قديسين، يستنشق رائحة البخور المعدنية المميّزة، التي تشرّبتها الجدران. عبر الزجاج الملوّن كانت تنفذ انعكاسات خجولة لألوان تغمر الجوّ بنور خياليّ. ذكّره سكون اللحظة بأمّهِ. لم يكن يعرف شيئاً عنها، كانت كما لو أنّها تبخّرت. كان يستغرب ألا يذكرها أبوه أو الأب مِندوثا في رسائلهما، وأنّها نفسها لم ترسل له سطراً واحداً. لكنّه لم يكن قلقاً. كان يعتقد أنّه لو حدث شيءٌ لأمّه لشعر به في عظامه. بعد ساعة وحين أوشك أن يُغادِر مقتنعاً أنّ أحداً لن يأتي إلى الموعد، ظهرت إلى جانبه صورةُ أماليا كأنّها شبح. تبادلا التحيّة بنظرة دون أن يتلامسا.

- ماذا سيحدث لكم الآن؟ - همس دييغو.

- سنغيب حتى تهدأ الأمور، إذ سرعان ما سينسوننا - ردّت هي.

- أحرقوا المخيّم، لم يبق لكم شيء.

- ليس هذا بجديد أبداً، يا دييغو. نحن أهل روما معتادون على فقدان كلّ شيء، حدث لنا هذا وسيحدث من جديد.

- هل سأراك ثانية، يا أماليا؟

- لا أدري، ليس معي ولا حتى كرة زجاجية - ابتسمت هازّة بكتفيها.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أعطاها دييغو ما استطاع جمعه في تلك الساعات القليلة: القسم الأعظم مما تبقّى معه من إرسالية والده وما حصّلته ابنتا دِ رومِو بعد أن علمتا بما جرى. وبتكليف من خوليانا سلّمها صرّة ملفوفة بمنديل.

- طلبت منّي خوليانا أن أسلّمك هذه للذكرى - قال دييغو.

فكّت أماليا المنديل فوجدت أنّه يحتوي على تاج رقيق من اللؤلؤ، ذاته الذي رأى دييغو خوليانا تستعمله عدداً من المرّات، والذي كان أثمن جواهرها.

- لماذا؟ - سألت المرأة مستغربة.

- أعتقد لأنّك أنقذتها من الزواج من مونكادا.

- هذا ليس أكيداً. على كلّ حالٍ، ربّما كان قدرها أن تتزوّج منه...

- إطلاقاً! الآن صارت خوليانا تعرف أيّ نوع من الأوغاد هو - قاطعها دييغو.

- القلب متقلّب - ردّت هي. خبّأت الجوهرة في كيس بين طيات تنوراتها المتراكبة الفضفاضة. أومأت بأصابعها لدييغو مودّعة، وتراجعت ضائعة في ظلال الكاتدرائية المثلجة. بعد لحظات كانت تجري في أزقّة الحيّ باتجاهِ لاس رامبلاس.

بعد فترة قصيرة من هرب الغجر وقبل عيد الميلاد، وصلت رسالة من الأب مِندوثا. كان المُبشِّر يكتبُ له كلَّ ستّة أشهر كي يُخبره عن العائلة والبعثة. كان يحكي مثلاً أنّ الدلافين عادت إلى الشاطئ، ونبيذ تلك الفترة حامِض، والجنود ألقوا القبض على البومة البيضاء، لأنّها انهالت عليهم ضرباً بعصاها دفاعاً عن هنديّ، لكنّهم أخلوا سبيلها بعد أن توسّط لها ألِخاندرو دِ لابِغا. ومنذ ذلك الوقت،

أضاف، لم يرَ الطبيبة الشعبية في تلك النواحي. وكان بأسلوبه الدقيق والجذل يُثير عواطف دييغو أكثر بكثير من الخِاندرو دِ لابِغا، الذي كانت رسائله مواعظ مبهَرةً بنصائحها الأخلاقيّة. كانت لا تختلف إلا قليلاً عن النبرة المعتادة التي أسّسها ألخِاندرو في علاقته مع ابنه، ومع ذلك فرسالة الأب مِندوثا القصيرة، لم تكن موجّهة إلى دييغو بل إلى بِرناردو وجاءت مختومة بالشمع. كسر بِرناردو الختم بسكينٍ وجلس قرب النافذة ليقرأها. دييغو، الذي كان يُراقِبه على بعد خطوات قليلة، رأى أن لونَهُ يتبدّل كلّما مرّ بعينيه على كتابة المبشّر الرقيقة. قرأها بِرناردو مرّتين ثمّ مرّرها إلى دييغو.

البارحة، الثاني من آب من العام ألف وثمانمئة وثلاثة عشر، جاءت لزيارتنا في البعثة فتاة من بنات البلد من قبيلة البومة البيضاء. جاءت بابنها معها، وعمره أقل من سنتين بقليل، وهي تناديه ببساطة طفل. عرضتُ عليها تعميده كما يجب، ووضّحت لها أنّه في حال لم تفعل فإنّ روح هذا البريء ستكون في خطر، ذلك أنّه إذا ما شاء الله أن يأخذه، لن يستطيع أن يذهب إلى السماء وسيبقى عالقاً في اليمبوس. رفضت الهندية تعميده. وقالت إنّها تنتظر عودةَ الأب كي يختار هو اسمه. كذلك رفضت أن تسمع كلمة المسيح وتنضمّ إلى البعثة، حيث ستنعم هي وابنها بحياة مُتحضِّرة. وقدّمت لي الذريعة ذاتها: عندما يعود والد الطفل سيتخذ قراره بهذا الخصوص. لم ألّح عليها لأنّني تعلّمت أن أنتظر بصبر أن يأتي الهنود إلى هنا بمحض إرادتهم، وإلا كان تحولهم إلى الإيمان الحقيقي مجرّد طلاء. اسم المرأة برق الليل. باركك الربُّ دائماً وسدّد خطاك، يا بُني.

يُعانقك في المسيح ربّنا.

القسّ مِندوثا

أعاد دييغو الرسالة إلى برناردو ولزم الاثنان الصمت، بينما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

راح نور النهار ينطفئ في النافذة. برناردو، الذي كان وجهه معبّراً جدّاً بحكم الحاجة للتواصل، بدا في تلك اللحظة منحوتاً من الغرانيت. بدأ يعزف مقطوعة حزينة، لائذاً بالناي كيلا يقدّم توضيحاتٍ لم يطلبها منه دييغو، لأنّه كان يشعر في صدره ذاته بضربات قلب أخيه. آنت لحظة انفصالهما. برناردو لم يعد يستطيع العيش كصبيّ، فجذوره تستدعيه، كان يرغب بالعودة إلى كاليفورنيا وتحمّل مسؤولياته الجديدة. لم يشعر بالراحة قط بعيداً عن أرضه. كان قد عاش عدّة سنوات يعدّ الأيّام والساعات في مدينة من حجر وشتاءاتٍ من ثلج، بوفاء فولاذيّ ربطه بدييغو، لكنّه لم يعد يستطيع أكثر، فقد راحت الفجوة في صدره تكبر مثل كهف لا يُدرك غوره. الحبّ المُطلق الذي كان يشعر به تجاه برق الليل صار إلحاحه الآن رهيباً، لأنّه لم يساوِره أدنى شكّ بأنّ ذلك الطفل ابنه. قَبِل دييغو الصمت بخطاب يطفحُ من روحه.

ـ سيكون عليك أن تذهب وحيداً، يا أخي، لأنّه بقي لديّ عدّة أشهر كي أتخرّج من مدرسة العلوم الإنسانية وأريد خلال هذه الأشهر أن أُقنع خوليانا بأن تتزوّج منّي. لكنّني وقبل أن أصرّح لها بذلك وأطلب يدها من السيّد توماس عليّ أن أنتظر أن تتعافى من خيبة الأمل التي أحدثها عندها رافائيل مونكادا. اعذرني يا أخي، فأنا أنانيّ جدّاً، فليست هذه هي لحظة أن أدوّخ رأسك من جديد بخيالات الحب، بل أن أتكلّم عنك. خلال هذه السنوات الثلاث مرحتُ مثل صبيّ مُدلّل، بينما أنت مريض حنيناً لبرق الليل، دون أن تعلم حتى أنّها أنجبت لك ولداً. كيف استطعت تحمّل كلّ هذا؟ لا أريدك أن تذهب، لكنّ مكانك في كاليفورنيا، لا شكّ في ذلك. الآن أفهم ما قاله لي والدي وما قلته لي أنت أيضاً، يا بِرناردو، إنّ قدرينا مختلفان، فأنا ولدتُ وعندي ثروة وامتياز لا تملكه أنت. وهذا ليس عدلاً، لأنّنا أخوان. سيأتي يوم أصير فيه صاحب أملاك دِ لابِغا، عندها سيكون باستطاعتي أن أعطيك نصفها، الذي هو لك، وبينما يحدث ذلك سأكتب لأبي أن يعطيك ما يكفي من المال كي تستقرّ مع برق الليل

وابنك حيث تشاء. ليس عليك أن تعيش في البيت الكبير. أعدك أنّني ما دمت أستطيع لن ينقص عائلتك شيء ماديّ أبداً. لا أعرف لماذا أبكي مثل صبيّ صغير. يبدو لأنّني أشتاق إليك سلفاً. ماذا سأفعل من دونك؟ لا تستطيع أن تتصوّر مدى حاجتي لقوّتك وحكمتك، يابِرناردو.

تعانق الاثنان، متأثّرين في البداية ثم ضاحكين ضحكة مكرهة، لأنّهما كانا يتبجّحان بأنّهما ليسا عاطفيين. لقد انتهت مرحلة من مراحل الشباب.

لم يستطع بِرناردو أن يغادر فوراً، كما كان يرغب. اضطرّ أن ينتظر حتى كانون الثاني كي يؤمّن فرقاطة تجارية تنقله إلى أمريكا. قليل جدّاً ما كان معه مِن النقود، لكنّهم قبلوا أن يدفع ثمن رحلته بالعمل بحاراً على متن السفينة. ترك رسالة لدييغو، يوصيه فيها بأن ينتبِهَ من زورو، ليس من خطر أن يُكتشف، بل لأنّ الشخصيّة ستنتهي إلى التمكّن منه. قال له في الرسالة: «لا تنسَ أنّك دييغو دِ لابِغا من لحم ودمّ، بينما هذا زورو من بنات أفكارك». صعب عليه كثيراً وداع إيزابيل، التي صار يُحبّها مثل أخت صغيرة، لأنّه خاف ألا يعود ويراها، رغم أنّها وعدته مئة مرّة بأنّها ستذهب إلى كاليفورنيا ما إن يسمح لها والدها بذلك.

ـ سنتقابل من جديد، يا بِرناردو، حتى ولو لم يتزوّج دييغو من خوليانا أبداً. العالم كرويّ وإذا ما درت حوله سأصل ذات يومٍ إلى بيتك ـ أكّدت له إيزابيل، ماخطةً ومُجفِّفة دموعها بحركة من يديها.

أطلّ العام 1814 مُفعماً بالأمل بالنسبة إلى الإسبان. لقد ضَعِفَ نابليون نتيجة هزائمه في أوروبا ووضع فرنسا الداخلي. أعادت معاهدة فالنساي التاجَ إلى فِرناندو السابع، الذي استعجل العودة إلى وطنه. في كانون الأوّل أعطى الشافاليير الأوامر لرئيس خدمه

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بأن يحزم محتويات قصره الصغير، المهمّة غير السهلة أبداً لأنّه كان ينتقل بألق أمير. كان يتوقّع أنه لم يبق غير القليل لنابليون في الحكم وفي هذه الحالة سيكون مصيره نفسه في خطر، لأنّه وبحكم أنّه رجل الإمبراطور الموثوق، لن يكون له مستقبل في أيّة حكومة تحلّ محلّه. ولكي لا يُعكّر مزاج ابنته قدّم لها الرحلة على أنّها ترقٍّ في منصبه: أخيراً ها هم يعودون إلى باريس. لفّت أغنس عنقه بذراعيها مسحورة. كانت قد سئمت الظلمات الإسبانية وأبراج النواقيس الخرساء، الشوارع الميتة نتيجة منع التجوّل وخاصّة من إلقائهم القمامة على عربتها ومعاكستها. كانت تكره الحربَ، والحرمان وزهد القطلانيين والإسبان بشكل عام، في الطعام والشراب. وأطلقت العنان لاستعدادات جنونية للسفر. وفي زياراتها إلى بيت خوليانا راحت تُثرثر منفعلة حول الحياة الاجتماعية والتسليات في فرنسا. «عليك أن تزوريني في الصيف، أجمل فترة في باريس. سنكون أنا ووالدي قد استقرينا كما يجب. سنعيش قريباً جدّاً من قصر اللوفر». وبالمناسبة عرضت استضافتها على دييغو، لأنّه برأيها لا يستطيع أن يعود إلى كاليفورنيا قبل أن يتعرف على باريس. كل ما هو مهمّ يحدث في تلك المدينة، الموضة، الفنّ والأفكار، قالت، حتى الثوريون الأمريكيون تشكّلوا في فرنسا. ألم تكن كاليفورنيا مستعمرة إسبانية؟ إذاً يجب العمل على استقلالها. وربّما شُفي دييغو من تدلّله ووجع رأسه وتحوّل إلى عسكريّ شهير، مثل ذلك الأمريكي الجنوبيّ الذي يُسمّونه بالمحرِّر، سيمون بوليفار، أو ما شابه ذلك.

خلال ذلك كان الشافالبير دوشامبّ يشارك توماس دِ رومِو، الذي كان أقرب ما يكون للصديق الذي كسبه خلال عدّة سنوات من وجوده في تلك المدينة المعادية، آخرَ كأس كونياك. وطرح عليه، دون أن يكشف له عن معلومات استراتيجيّة، الوضعَ السياسي واقترح عليه أن يستغلّ تلك اللحظة ليذهب في رحلة إلى الخارج مع ابنتيه. فالصغيرتان في العمر المناسب تماماً كي تكتشفا فلورنسا

والبندقيّة، وما من أحد يُقدّر الثقافة يستطيع أن يتخلّى عن معرفة هاتين المدينتين. وردّ توماس بأنّه سيُفكّر بالأمر، ليست فكرة سيّئة، وربّما يقوم بذلك في الصيف.

ـ أذِنَ الإمبراطورُ بعودة فِرناندو السابع إلى إسبانيا. يمكن أن يحدث هذا بين لحظة وأخرى. أعتقد أنّ من المناسب ألا تكونوا هنا ـ ألمح الشافالِيير.

ـ لماذا، يا صاحب السعادة؟ أنت تعلم كم أُجلّ التأثير الفرنسيّ في إسبانيا، لكنّني أعتقد أن عودة المرغوب ستنهي حرب العصابات المستمرّة منذ ستّ سنوات، وستسمح لهذا البلد بأن يُعيد تنظيم نفسه. سيكون على فِرناندو السابع أن يحكم بدستور 1812 الليبرالي ـ ردّ توماس دِ رومِو.

ـ آملُ ذلك، لخير إسبانيا وخيرك، يا صديقي ـ خلُص الآخرُ.

بعد وقت قصير عاد الشافالِيير دو شامبّ مع ابنته أغنِيس إلى فرنسا. اعترضت عصابة من آخر رجال حرب العصابات المتبقّية، المتحمّسين قافلة عرباته عند سفح جبال البيرينيه. كان المهاجِمون حسني المعلومات، يعرفون هويّة المسافِر الأنيق، ويعرفون أنّه كان ظلّ القلعة الرمادي، المسؤول عن عمليات تعذيبٍ وإعدام لا تُحصى. لم يتمكّنوا من الانتقام، كما أرادوا، لأنّ الشافالِيير كانت تحميه فرقة من الحرّاس المسلّحين جيّداً، الذين استقبلوهم ببنادق جاهزة. الرشقة الأولى تركت عدداً من الإسبان يسبحون في بركة من الدم وتكفّلت السيوف بالباقي. دام اللقاء أقلّ من عشر دقائق. تفرّق بعدها رجال العصابات الناجون، مُخلّفين وراءهم عدداً من الجرحى، شُكّوا بالفولاذ دون رحمة. كان الشافالِيير، الذي لم يتحرّك من العربة، وبدا ملولاً أكثر منه خائفاً، سينسى المناوشة لو لم تجرح رصاصةٌ طائشة أغنِيس. مرّت ملامسة وجهها فمزّقت وجنتها وقسماً من أنفها. الدمل المريع سوف يُغيّر حياةَ الفتاة. أغلقت على نفسها ببيت العائلة الريفي في سان ـ موريس سنواتٍ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

طويلة. وقعت في البداية في الكآبة المُطلقة، لأنّها فقدت جمالها، لكنّها تخلّت مع مرور الزمن عن البكاء وبدأت تقرأ شيئاً آخرَ غيرَ الروايات العاطفيّة التي كانت تُشارك فيها خوليانا دِ رومِو. راحت تقرأ كتب مكتبة والدها واحداً فواحِداً، ثمّ طلبت منه غيرها. خلال شتاءات شبابها الموحِشة، الذي قطعته تلك الرصاصة المشؤومة، درست الفلسفةَ والتاريخَ والسياسة. بدأت بعدها تكتبُ باسم رجلٍ مستعار، واليوم بعد سنوات طويلة صارت أعمالها معروفة في مناطق كثيرة من العالم؛ لكن ليست هذه هي حكايتنا. فلنعُد إلى إسبانيا والمرحلة التي تهمّنا.

على الرغم من نصائح بِرناندو، وجد دييغو نفسَهُ ملفوفاً بحوادث ستحوّله بشكلٍ نهائيّ إلى زورو. غادرت القوات الفرنسية إسبانيا، بعضها في السفن وبعضها الآخر بتثاقلٍ برّاً، مثل بهيمة ثقيلة، تحت شتائم وحجارة الشعب. عاد في شهر آذار فِرناندو السابع من منفاه الذهبيّ في فرنسا. عبَرَ الموكب الملكيُّ مع المرغوب، الحدودَ في نيسان ودخل البلدَ عبر قطلونيا. أخيراً تتوّج نضالُ الشعب بطرد الغزاة. كانت الفرحة الوطنية في البداية طافحة وبلا حدود. من النبلاء إلى آخر فلاّح، بمن فيهم غالبية المتنوّرين من أمثال توماس دِ رومِو، نظروا بسعادة إلى عودة الملك وتجاوزوا عيوبَه الرهيبة، التي ظهرت جليّة منذ عمره المبكّر. كانوا يفترضون أنّ المنفى قد أنضج هذا الأمير، قليل الأنوار، وأن يكون قد عاد وقد شُفيَ من غيرته وخساساته وشغفه بمؤامرت البلاط. أخطأوا. فقد بقي فِرناندو السابع صغيرَ النفسِ، يرى أعداءً في كلّ مكان، ويحيط به المنافِقون.

بعد شهر أُجبِر نابليون بونابرت على التنازل عن عرش فرنسا. خرّ أقوى ملوك أوروبا مهزوماً بتكتّل قوى سياسية وعسكرية هائلة. وانضمّت البلاد الخاضعة له، مثل إسبانيا، إلى تحالف بروسيا والنمسا وبريطانيا العظمى وروسيا لتدميره. ونُفيَ إلى

جزيرة إلبا، لكنّهم سمحوا له بالاحتفاظ بلقب إمبراطور، الذي صار مهزلة الآن. حاول نابليون في اليوم التالي أن ينتحر دون أن ينجح في ذلك.

في إسبانيا تحوّلت الفرحةُ بعودة المرغوب إلى عنف بعد أسابيع قليلة. ألغى الملكُ المستجدُ، المحاط بالكهنوت الكاثوليكي وبالنبلاء وقوى الجيش والإدارة العامّة الأشدّ محافظَة، دستورَ 1812 والإصلاحات الليبرالية، معيداً البلدَ في أشهر قليلة إلى عصر الإقطاع. وأُعيدت محاكم التفتيش، وكذلك امتيازات النبلاء والكهنوت والعسكر، وأُطلق العنان لملاحقة لا رحمة فيها للمنشقين والمعارضين الليبراليين والمتفرنسين والمتعاونين القدماء مع حكومة خوسِه بونابرت. واعتقِلَ حكّامٌ ووزراء وبرلمانيون، واضطرّت اثنتا عشر ألف أسرة لاجتياز الحدود باحثة عن ملاذ لها في الخارج، وانتشر القمع بشكل لم يعد يوجدُ فيه من هو آمن، إذ يكفي شكّ أو اتهام لا أساس له كي يُقبض عليه ويُعدَم دون إجراءات.

كانت إيولاليا في قمة مجدها. انتظرت عودة الملك زمناً طويلاً كي تستعيد المكانة التي كانت لها أيّام زمان. لم تكن تُحب وقاحة الدهماء ولا الفوضى، وتُفضّل حكمَ ملكٍ مُطلق، حتى ولو كان من النوع الرديء. كان شعارها: «كلّ في مكانه ومكان لكلّ واحد». طبعاً كان مكانها في القمّة. على العكس من نبلاء آخرين أضاعوا ثرواتهم في تلك السنوات الثورية لتمسُّكِهم بالتقاليد. لم تجد هي حياء من اللجوء إلى أساليب برجوازية للثراء. كانت تملك حاسّة شمٍّ تجارية. كانت أغنى من أيّ وقت مضى، قويّة، لها أصدقاء في بلاط فرناندو السابع، وكانت مستعدة أن ترى القضاءَ الممنهج على الأفكار الليبرالية، التي شكّلت خطراً على قسم كبير مما كان يدعم وجودها. ومع ذلك فشيء من كرم الماضي كان ما يزال مختبئاً في طيّات أنسانيتها الضخمة، لأنّها حين رأت كلّ تلك المعاناة من حولها فتحت خزائنها لتنقذ الجياع دون أن تسألهم إلى أيّة عصبة سياسية

ينتمون. وهكذا انتهت إلى أن خبّأت في بيتها الريفي، وبحثت عن وسيلة لترسل إلى فرنسا أكثر من عائلة من اللاجئين.

ورغم أنّه لم يكن بحاجة لفعل ذلك، لأنّ حالته في جميع الأحوال كانت مزدهرة، دخل رافائيل مونكادا هيئة ضبّاط الجيش، حيث تضمن له ألقاب واتصالات خالته ترقيات سريعة. كان إعلانه للجهات الأربع أنّه صار باستطاعته أن يخدم إسبانيا في جيشٍ ملكيّ، كاثوليكي وتقليديّ، أخيراً يمنحه امتيازات. وكانت خالته معه في الرأي، لأنّها كانت ترى أنّه حتى أغبى الأغبياء يظهر بمظهر الحُسن باللباس الموحّد.

عندئذٍ أدرك توماس دِ رومِو كم كان صديقه الشافالبير دوشامبّ على صواب عندما نصحه بأن يذهب إلى الخارج مع ابنتيه. دعا محاسبيه بهدف مراجعة وضع أملاكه واكتشف أنّ مردودها لا يكفيه كي يعيش بحشمة في بلد آخر. ثمّ إنّه خاف إذا ما انعزل في مكانٍ آخر أن تُصادر حكومةُ فِرناندو السابع الأملاك المُتبقّية له. وصار عليه الآن أن يتشبّثَ بأملاكه، بعد أن أظهر طوال عمره احتقاره للمسائل الماديّة. كان الفقرُ يُرعِبه. لم يهتمّ كثيراً بالتآكل المضطرد للثروة التي ورثها عن زوجته، لأنّه افترض أنّه سيكون لديه دائماً ما يكفيه كي يستمر بالعيش بالطريقة التي اعتاد عليها. لم يضع نفسه قط أمام احتمال أن يفقد موقعه الاجتماعي. لم يكن يريدُ أن يتخيّل ابنتيه محرومتين من الرغد الذي تمتّعتا به دائماً. قرّر أنّ من الأفضل أن يذهب بعيداً، بانتظار أن تمرّ موجة العنف والملاحقة. في عمره رأى أشياء كثيرة، كان يعرف أنّ الرقّاص السياسيّ سيتجه آجلاً أو عاجِلاً إلى الاتجاه المعاكس. كلّ شيء يتعلّق بالتخفّي إلى أن يستتب الأمر. لم يكن باستطاعته حتى أنْ يُفكّر بالذهاب إلى البيت الأبوي في سانتا فِهْ، حيث كان معروفاً ومكروهاً أكثر من اللازم، لكنّه تذكّر بعض أراضي زوجته المرحومة على طريق ليريدا، التي لم يزرها قط. هذه المُلْكيّة التي لم تعد عليه بأيّ مردود، بل بالمشاكل

فقط، يمكن أن تُشكّل الآن خلاصه. كانت تتألف من هضاب مزروعة بالزيتون الهرم، تعيش فيها بعض العائلات الفلاحيّة الفقيرة والمُتخلِّفة جدّاً، التي مرّ زمن طويل عليها لم ترَ فيه مالكاً، حتى ظنّوا أنّه غير موجود. كان في المزرعة بيت كبير مريع، يكاد يكون خراباً، بُني حوالى العام 1500، مكعّب بشكلٍ مصمت، مغلق مثل قبر كي يحفظ سكانه من أخطار والجنود واللصوص، الذين خرّبوا المنطقة قروناً طويلة، لكنّ توماس رأى أنّه دائماً أفضل من سجن. يستطيع أن يمكث هناك مع ابنتيه بضعة أشهر. فصل غالبيةَ الخدم، أغلق نصفَ منزله في برشلونة، وترك الباقي على مسؤولية رئيس الخدم وشرع بالرحلة في عدد من العربات، لأنّه كان عليه أن ينقل الأثاث الضروريَّ معه.

حضر دييغو نزوح العائلة بإحساس سيّء، لكنّ توماس دِ رومِو طمأنه بحجّة أنّه لم يشغل مناصب في الإدارة البونابرتية وقليلون هم الناس الذين يعلمون بعلاقته بِالشافالِيير، ولذلك ليس هناك مايُخشاه. «لمرّة واحدة أنا سعيد لأنّني لستُ شخصاً مهمّاً» ابتسم مودّعاً. لم تكن خوليانا وإيزابيل تملكان فكرة كاملة عن الوضع الذي هم فيه وانطلقتا كمن يذهب في إجازة غريبة. لم تُدركا دوافع والدهما للذهاب بهما إلى هناك، بعيداً كلّ هذا البعد عن الحضارة، لكنّهما كانتا معتادتين على الطاعة ولم تطرحا أسئلة. قبّل دييغو خوليانا على خدّيها وهمس في أذنها ألا تقنط، لأنّ الانفصال سيكون قصيراً، فردّت عليه بنظرة مرتبكة. ومثل الكثير من الأشياء التي كان يُلمّح إليها بها دييغو، بدت لها تلك التلميحة غير مفهومة.

لا شيء كان سيُسعِد دييغو مثل أن يرافق العائلة إلى الريف، كما طلب منه توماس دِ رومِو. ففكرة أن يقضي زمناً بعيداً عن العالم وبرفقة خوليانا كانت مغوية جدّاً، لكنّه لم يكن يستطيع أن يبتعد عن برشلونة في تلك اللحظات. فأعضاء العدالة مشغولون جدّاً، وعليهم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن يُضاعفوا مواردهم لمساعدة جمهور اللاجئين الذين يُحاولون أن يُغادروا إسبانيا. كان من الضروري أن يخبئوهم، ويؤمنوا لهم وسيلة النقل ويدخلوهم إلى فرنسا عبر جبال البيرينه أو يرسلوهم إلى بلدان أوروبيّة أخرى. إنكلترا، التي قاتلت نابليون بعزيمة حتى هُزِم، تُساند الآن الملكَ فِرناندو السابع، وباستثناء بعض الحالات لم تُقدِّم الحماية لأعداء حكومته. ولم تكن منظمة العدالة، كما وضّح له المُعلّم إسكالانتِ قط على وشك أن تنكشف كما في ذلك الوقت. صارت محاكم التفتيش تتمتّع بقوّة أكبر من السابق، وبتفويض تام للدفاع عن الإيمان بأيّ ثمن، وبما أنّ الخطّ الفاصل بين الملحدين والمعارضين للحكومة كان غامضاً كان يمكن لأيّ شخص أن يقع في براثنها. خلال الأعوام الذي أُلغيت فيها أهمل أعضاء العدالة الإجراءات الأمنية، مُقتنعين بأنّه لا مكان في العالم الحديث للتعصّب الديني. اعتقدوا أنّ الأزمنة التي يُحرق فيها الناس بالنار قد ولّت للأبد. والآن يدفعون نتيجة تفاؤلهم المفرط. كان دييغو منخرطاً في مهماتِ العدالة إلى حدّ أنّه لم يعد يحضر إلى مدرسة العلوم الإنسانية، حيث كانت التربية، كما في البلد كلّه، مراقبة. كثير من أساتذته ورفاقه أوقفوا نتيجة التعبير عن آرائهم. في تلك الأيّام نطق رئيس جامعة ثِربِرا الرهيب الجملةَ التي تُعرّف بالحياة الجامعية في إسبانيا: «بعيدٌ عنّا هوس التفكير المشؤوم».

أوقفوا في بداية شهر أيلول عضواً من العدالة، تخفّى خلال عدّةَ أسابيع في بيت المعلّم إسكالانتِ. وكانت محاكم التفتيش، كذراع للكنيسة، تُفضّل ألا تسفك الدماء. وأكثر الأساليب المتبعة في استنطاق الضحايا هي فسخهم بآلة التعذيب المعروفة بالمهر، أو حرقهم بالحديد المحمّى. السجين الشقيّ اعترف بأسماء الذين أنجدوه وبعدها بقليل اعتقل مُعلّم المبارزة. وملَكَ قبل أن يُجرّ إلى عربة الشرطة المشؤومة الوقت الضروريّ لإخبار خادِمه، الذي حمل الخبر السيّء إلى دييغو. استطاع هذا في فجر اليوم التالي أن يتأكّد من أنّهم لم يقودوه إلى القلعة، كما كانت العادة مع السجناء

السياسيين، بل إلى ثكنة في حي الميناء، لأنّهم كانوا يُفكّرون بأخذه في اليوم التالي إلى طُلَيْطلة، حيث تتمركز بيروقراطيّة محاكم التفتيش المشؤومة. وعلى الفور اتصل دييغو بخوليو ثِسَر، الرجل الذي تكلّم معه في خيمة الجمعية السرّية أثناء التدرّب.

ـ هذا شيء خطير جدّاً. يمكن أن يُلقوا القبض علينا جميعاً ـ قال هذا.

ـ لن يستطعوا إطلاقاً أن يحملوا المُعلّم إسكالانتِ على الاعتراف ـ عبّر دييغو.

ـ لديهم طرق لا تُخطئ، طُوِّرت خلال قرون. لقد اعتقلوا عدداً من أتباعنا، صار لديهم معلومات كثيرة. الدائرة تنغلق من حولنا. سيكون علينا أن نحلّ الجمعيّة مؤقّتاً.

ـ والسيّد مانوِل إسكالانتِ؟

ـ آمل ومن أجل خير الجميع أن يتمكّن من وضع نهاية لحياته قبل أن يخضعوه للتعذيب ـ تنهّد خوليو ثِسَرْ.

ـ وضعوا المُعلم في ثكنة حيٍّ، وليس في القلعة. علينا أن نُحاول إنقاذه... ـ اقترح دييغو.

ـ إنقاذه؟ محال!

ـ صعب لكنّه ليس مُحالاً. أحتاج إلى مساعدة من العدالة. سنقوم بذلك هذه الليلة ذاتها ـ وشرع يشرح خطّته.

ـ يبدو لي ذلك جنوناً، لكنّه يستحق المحاولة. سنساعدكم ـ قرّر زميله.

ـ علينا أن نُخرج المُعلّم من المَدينة فوراً.

ـ طبعاً. سيكون هناك زورق مع مجذّف موثوق تماماً ينتظر في الميناء. أعتقد أنّ باستطاعتنا أن نحتال على الحراسة. المجذّف سيقود المعلّم إلى سفينة ستمخر غداً فجراً باتجاه نابولي. سيكون هناك بمنجى منهم.

تنهّد دييغو مُفكّراً أنّه لم يكن قط بمثل تلك الحاجة إلى برناندو. كان ذلك الامتحان أكثر جدّية من الدخول إلى قصر الشافالبير دوشامبْ. ليست مهاجمةُ ثكنةٍ بمزاح، وقهر الحرّاس - لم يكن يعرف عددهم - وتحرير الأسير وحمله سالماً إلى زورق، قبل أن يقع بين براثن القانون.

توجّه على حصانه إلى بيت إيولاليا دِ كاليس، التي عكف على دراسة طابقها باهتمام في كلّ مرّة زاره. ترك الحصان في الشارع، دون أن يُرى، تقدّم متخفّياً في الحدائق وتوجّه إلى فناء الخدمة، حيث كانت تضجّ حيوانات منزلية بين غرفٍ لذبح الخنازير والطيور، وأحواض الغسيل، وقدور غلي الملاحف وأسلاك نشر الغسيل للتجفيف. في العمق كانت عنابر العربات وإسطبلات الخيول. وفي كلّ مكان كان يرى الطباخون والخدم والأزلام، كلّ واحد مشغول بشأنه. ما من أحد أولاه نظرة. دخل إلى العنابر متخفّياً بين العربات، اختار التي تناسبه وانتظر منزوياً فيها، راسماً الصليب بأصابعه كيلا يكتشفه أيّ من خدم الإسطبل. كان يعرف أنّهم يقرعون في الخامسة جرساً يدعون به الخدم إلى المطبخ، إيولاليا نفسها حكت له ذلك. كانت الساعة التي تُقدّم فيها المرأة المتسلطة وجبتها الخفيفة لجيش الخدم: فناجين كبيرة من الشوكولا المزبدة وحليب مع الخبز الذي يبلل فيه. بعد نصف ساعة سمع دييغو قرع الناقوس وفرغ الفناء بلمح البصر. حملت له النسمة عبق الشوكولا، فامتلأ فمه باللعاب. فمنذ أن ذهبت عائلة دِ رومِو إلى الريف ساء الطعام جداً في بيته. دييغو الواعي إلى أنّه لا يملك غير عشر أو خمس عشرة دقيقة نزع شعار السلاح الخاص بها باب العربة واستولى على سترتين من سترات خدم الموكب الأنيقة، المعلّقة إلى مشاجبها. كانت زيّاً من القطيفة السماوية ذات القبّة والبطانة القرمزيّتين والأزرار والشراشيب الذهبية. ومكملاتها من القبّعات المطرزة والبنطلونات البيضاء، والأحذية السوداء المُلمّعة ذات الأبازيم الفضّية ومآزر البروكار الأحمر على الخصر. ولم يكن كما

كان يقول توماس دِ رومِو، حتى نابليون بونابرت يرتدي ملابس فاخرة مثل خدم إيولاليا. وما إن تأكّد من أنّ الفناء أصبح خالياً حتى خرج بحمله مُتخفّياً بين الشُجيرات وبحث عن جواده. بعد قليل كان يهبط الشارع.

في منزل توماس دِ رومِو كانت عربة العائلة المُخلّعة، الهشّة والقديمة أكثر من اللازم حتى لأخذها إلى الريف. وبالمقارنة بينها وبين أيّة عربة من عربات السيّدة إيولاليا كانت خراباً. لكنّ دييغو كان يأخذ بالحسبان أنّه في الليل والسرعة لن يُلاحِظ أحد مظهرها المُهلهل. كان عليه أن ينتظر غياب الشمس ويقيس وقته بدقّة، فعلى هذا يعتمد نجاح مهمّته، وتوجّه، بعد أن سمّر الشِعار في العربة، إلى ديماس المشروبات الكحولية، الذي كان رئيس الخدم يبقي عليه مقفلاً دائماً، وهو عائق تافه بالنسبة إلى دييغو، الذي تعلّم السخرية من أيّ نوع من أنواع الأقفال. فتح الديماس، أخرج برميل نبيذ وأخذه دحرجةً على مرأى من الخدم، الذين لم يوجّهوا إليه أية أسئلة، معتقدين أنّ السيّد توماس دِ رومِو أعطاه المفتاح قبل أن يذهب.

حفظ دييغو أكثر من أربع سنوات قنينة الشراب المُنوِّم الذي أعطته إليه جدّته البومة البيضاء هديّةَ وداعٍ واعداً إيّاها ألا يستخدمه إلا لإنقاذ حياة إنسان. هذا هو تماماً المصير الذي أراده له. قبل ذلك بسنوات كثيرة كان القسّ مِندوثا قد بتر باستخدام ذلك المشروب ساقاً وصعق هو دبّاً. لم يكن يعلم كم هو جبّار هذا المُخدّر محلولاً في تلك الكميّة من النبيذ، ربّما لن يكون له التأثير الذي كان يتوقّعه، لكن عليه أن يُحاوِل. سكب محتوى القنينة في البرميل ودحرجه كي يخلطه. بعد قليل جاء اثنان من أعضاء العدالة، اللذان اعتمرا شعر الأزلام الأبيض المستعار وسترات اللباس الموحّد في منزل دِ كاليّس ليُرافقاه. ارتدى دييغو ملابس أمير وأفضل سترة قطيفة بنّية داكنة بقماطين من ذهب وفضّة، وقبّة جلدية وربطة عنق من البلاسترون مثبتة بمشبك من اللؤلؤ وبنطلون زبديّ اللون وحذاء

غندور بأبازيم ذهبية وقبّعة عالية. وهكذا حمله رفيقاه في العربة إلى الثكنة. كان الليل مُطبقاً حين ظهر في الباب، الذي أضاءته الفوانيس بشكل سيّء. أمر دييغو الحارسين بصوتٍ رنّان لمن اعتاد أن يأمر، أن ينادیا رئيسهما. وكان هذا رقيباً شاباً له نبرة أندلسية قويّة، صعقته أناقةُ دييغو الماحقة وشعار السلاح على العربة.

ـ سعادتها، السيّدة إيولاليا دِ كالّيس تُرسل إليكَ برميلاً من أفضل نبيذ ديماساتها كي تشرب النخب مع رجالك هذه الليلة ذاتها. إنّه عيد ميلادها. أعلن دييغو بنبرة فوقيّة.

ـ يبدو لي أمراً مستغرباً... ـ بادر الرجل أن يقول، مُفاجأً.

ـ مستغرب. لا بدّ أنك جديد في برشلونة! ـ قاطعه دييغو ـ سعادتها دائماً تُرسل نبيذاً للثكنة في عيد ميلادها، ولها الآن أسبابها، خاصّة وقد تحرّر البلد من الطاغية الملحِد.

أمر الرقيب مرتبكاً مرؤوسيه أن يسحبوا البرميل، بل ودعا دييغو كي يشرب معهم. لكنّ هذا اعتذر بحجّة أنّ عليه أن يُوزِّع هدايا مشابهة في القلعة.

ـ بعد قليل ستُرسِل إليكم سعادتُها طبيخها المُفضَّل، كوارع الخنزير باللفت. كم من الأفواه يوجد هنا؟ ـ سأل دييغو.

ـ تسعة عشر فماً.

ـ طيّب. ليلة سعيدة.

ـ اسمك، من فضلك...

ـ أنا رافائيل مونكادا، حفيد سعادتها، السيّدة إيولاليا دِ كالّيس ـ ردَّ دييغو وأمرَ، صافقاً بابَ العربة، الحوذِيَّ أن يشرع بالانسحاب.

في الثالثة فجراً، والمدينة غافية وشوارعها خالية، قرَّر دييغو القيام بالمرحلة الثانية من الخطّة. قدّر أن يكون رجال الثكنة في تلك

الساعة قد شربوا النبيذَ، فإن لم يكونوا نائمين، فهم مخبولون. تلك هي ميّزته الوحيدة. كان قد بدّل ثيابه وارتدى ثياب زورو. كان يحمل معه سوطاً ومسدّساً وسيفاً حادّاً مثل سكينٍ. ولكي لايلفت الانتباه بصوت حوافر حصانه على البلاط ذهب سيراً على الأقدام، متسلّلاً بملاصقة الجدران. فوصل إلى أحد الأزقّة القريبة من الثكنة، حيث تأكّد من أنّ الحارسين إياهما كانا يتثاءبان تعباً وهما ما يزالان تحت الفانوسين. يبدو أنّه لم تُتح لهما الفرصة ليُجرّبوا النبيذ. في ظلّ أحد الدهاليز كان ينتظِره خوليو ثِسَرْ وأعضاء آخرون من العدالة، مموّهين بلباس بحّارة، كما اتفقوا. أعطاهم دييغو تعاليمه، التي تضمّنت الأمر القاطِع بألاّ يتدخّلوا لمساعدته، مهما حدث. كلّ واحد يجب أن يكفي ذاته. تمنوا كلّ للآخر حظّاً طيّباً باسم الله وتفرّقوا.

تظاهر البحّاران بمشاجرة سكرانين قرب الثكنة، بينما راح دييغو ينتظر فرصته، متخفياً في العتمة. لفتت المشاجرة انتباه الحارسين اللذين غادرا برهةً قصيرة موقعهما كي يتحقّقا من سبب المشاجرة. اقتربا من السكرانين المزعومين كي يُنبهاهما للابتعاد وإلاّ فإنهّما سيتعرّضان للاعتقال، لكنّ هذين استمرّا يُوجّهان لبعضهما بعضاً صفعات متلكئة، وكأنهما لم يسمعاهما. تعثّرا وتلعثما بحماقاتٍ بلغت حدّ أن الحارسين راحا يضحكان برغبة حقيقية من كلّ قلبيهما، لكن حين همّا بتفريقهما بالضرب، استعاد السكرانان توازنهما بمعجزة وانقضّا عليهما. الحارسان اللذان أُخذا بالمباغتة لم يقدرا على الدفاع عن نفسيهما. صعقاهما في لحظة وأخذاهما من كعبيهما جرّاً إلى زقاق مجاورٍ، دون تروٍّ، حيث توجد خوخة معدنية في باب كبير. قرعا ثلاث مرّات فَفُتِحَت طاقةٌ صغيرة ، أعطيا كلمة السرّ ففتحت لهما البابَ امرأةٌ ستينية ترتدي السواد. دخلا منحنيين كيلا يطرقا رأسيهما بالعتبة المنخفضة وأدخلا أسيريهما المتخشبين إلى ديماس الفحم. وتركاهما هناك مربوطي الأيدي ومعصوبي العينين، بعد أن نزعا عنهما ملابسهما. ارتديا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اللباس الموحّد وعادا إلى باب الثكنة ووقفا تحت الفانوسين. كان دييغو قد دخل إلى البناء والمسدّس والسيف في يديه.

بدا المكان من الداخل مقفراً، يسوده صمتُ مقبرة وليس فيه إلا قليل من الضوء، لأنّ نصف المصابيح نفد زيتها. عبر زورو خفيّاً مثل شبح ـ وحده بريق سيفه يشي بوجوده ـ المدخلَ. دفع بحذرٍ أحد الأبواب وأطلّ على قاعة السلاح، حيث ولا شكّ وزّعوا محتوى البرميل، لأنّه كان يوجد ستّة رجال يشخرون على الأرض بينهم الرقيب. تأكّد من أنّه ما من أحدٍ منهم مستيقظ، فتّش البرميل فوجده فارغاً حتى آخر قطرة.

ـ صحّة، أيّها السادة! ـ هتف بسرور وبحركة لعوب رسم على الجدار حرف Z بثلاثة خطوط من سيفه. فورد إلى ذهنه تنبيهُ برناردو له بأنّ الثعلب سينتهي بالتمكّن منه، لكنّ الوقت فات.

صادر على الفور الأسلحة النارية والسيوف وكوّمها في خزائن المدخل وتابع على الفور نزهته في المبنى، وهو يُطفئ الفوانيس والشموع في طريقه. لقد كانت الظلمة دائماً حليفه الأفضل. وجد ثلاثة رجال آخرين هزمهم شراب البومة البيضاء وقدّر أنّه إذا لم يكونوا قد كذبوا عليه بقي هناك قرابة الثمانية. كان يأمل بالعثور على زنزانات السجناء دون أن يُضطرّ لمواجهتهم، لكنّ أصواتاً قريبة وصلته فأدرك أنّ عليه أن يختبئ بسرعة. كان في غرفة واسعة تكاد تكون عارية. لم يكن هناك من مكانٍ يتمترس خلفه، كما لم يملك وقتاً لإطفاء المشعلين الموجودين على الجدار المقابل، على بعد خمس عشرة خطوة منه. نظر حوله فوجد أنّ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفيده هي عوارض السقف الخشبية السميكة العالية أكثر من اللازم كي يتمكن من إدراكها بقفزة واحدة. وضع سيفه في غمده ومسدّسه في الحزام وأفلت سوطه، ولفّ بحركة من معصمه رأسَ السوط حول إحدى العوارض وجذبه ليثبته وتسلّقه بحركتين من ذراعيه، كما فعل ذلك مرّات كثيرة على حبال الصواري وسيرك

الفجر. وما أن أصبح في الأعلى حتى لمّ السوط وانبسط على العارضة، مُطمئنّاً لأنّ نور المشعلين لم يكن يصل إلى هناك. في هذه الأثناء دخل رجلان يتحدّثان وبدا بالحكم من حماسهما أنّهما لم يأخذا حصّتهما من النبيذ.

قرّر دييغو أن يعترضهما قبل أن يصلا إلى قاعة السلاح حيث يرقد رفاقهما غارقين في أفضل أحلامهم. انتظر أن يمرّا تحت العارضة ورمى بنفسه من الأعلى مثل طائر أسود عملاق وانتشر دثاره المفتوح مثل مروحة والسوط في يده. تأخّر الرجلان اللذان شلتهما المفاجأة في إخراج سيفيهما من غمديهما، فملك وقتاً كي يلوي سيقانهما بضربتين صائبتين من سوطه.

صوّت بسوطه محذّراً، بينما هو يخرج مسدّسه الذي يضعه في حزامه. أطاعه الرجلان دون أن ينبسا ببنت شفة ورفس السيفين باتجاه إحدى الزوايا.

ـ لنرى ما إذا كنتما ستساعدانني. أعتقد أنّكما لا تريدان أن تموتا. أين أستطيع أن أحبسكما كيلا تسبّبا لي مشاكل؟ ـ سألهما ساخراً.

نظر الجنديّان إليه مرتبكين، لا يعلمان ماذا كان يقصد. كانا فلاّحين، فتيين، فظّين جنّدهما الجيش، رأيا في حياتهما القصيرة أهوالاً وخرجا من مجازر الحرب وجاعا كثيراً. لم يكونا مؤهلين للتكهّن. بسّط الثعلبُ السؤالَ، مؤكّداً على كلماته بفرقعة السوط. أشار أحدهما، وكان من الخوف بحيث لم يستطِع أن يُخرج صوته، إلى الباب الذي دخلا منه. اقترح عليهما المُقنّعُ أن يتلوَا صلاتيهما، لأنّهما إذا ما خدعاه سيموتان. كان الباب يؤدّي إلى ممرّ طويل وفارغ جابوه صفّاً واحداً: الأسيران في الأمام وهو خلفهما. كان الممرّ يتفرّع في نهايته. وهناك إلى اليمين باب مثلوم وإلى اليسار آخر أحسن حالاً بقفلٍ يعمل من الجانب الآخر. أمرهما زورو أن

يفتحا البابَ الأيمن. ظهر له مرحاض مثير للغثيان، فيه أربع حفر في الأرضِ مليئة بالبراز وبعض دلاء الماء ومصباح مُغطى بالذباب. لم يكن هناك اتصال آخر مع الخارج غير باب صغير بقضبان حديدية.

ـ تمام! يؤسفني أنّ الرائحة ليست رائحة غاردينيا. لنرى ما إذا كانوا سينظفونها في المستقبل بشكلّ أفضل ـ علَّق وأشار بحركة من مسدَّسه للرجلين المذعورين أن يَدخلا.

أوصد زورز البابَ من الخارج وسار باتجاه الباب الآخر، الذي كان قفله أكثر بساطة، فاستطاع أن يفتحه خلال ثوانٍ قليلة بإبرة فولاذية كان يحملها معه دائماً في درزة جزمته، للقيام بحيله السحرية. فتحه بحكمة وهبط حذراً سلماً بعدَّة درجات. قدَّر أنّه يقود إلى القبو، الذي لا بدَّ أن الزنازين فيه. في نهاية الدرج ألقى نظرة وهو ملتصق بالجدار. مشعل واحد كان يُضيء دهليزاً بلا تهوية، يحرسه حارس، كان من الواضح أنّه أيضاً لم يُجرِّب النبيذ المنوِّم، لأنّه كان يلعب لعبة الورق المفردة متربِّعاً على الأرض وبندقيته في متناول يده، لكنّه لم يسنح له أن يأخذها، لأنّ زورز ظهر أمامه بغتةً ورفسه على ذقنه فرماه على ظهره، ثمّ أبعد البندقيّة برفسة أخرى. كانت رائحة النتن في المكان مريعة إلى حدّ أنّه شعر بالرغبة في التراجع، لكنّه لم يكن وقتَ التأنّق. أخذ المشعل وأطلّ على الزنازين الصغيرة، وهي عبارة عن فجوات موبوءة، رطبة ومليئة بالحشرات، يتكوَّمُ فيها السجناء في الظلمة. كان في كلّ زنزانة ثلاثة أو أربعة، عليهم أن يبقوا واقفين أو يجلسوا بالتناوب. بدوا هياكل عظمية بعيون مجنونة. كان الهواء الموبوء يهتزّ من تنفّس أولئك المساكين اللاهث. نادى الشابُ المقنَّع مانوِل إسكالانتِ فأجابه صوت من إحدى الزنازين. رفع المشعل ورأى رجلاً ممسكاً بالقضبان، وقد صار وجهه من كثرة الضرب قطعة واحدة مشوّهة ومزرقّة، لا تبرز فيها التقاسيم.

ـ إذا كنتَ الجلاّد فأهلاً بك ـ قال السجين فعرفه عندئذ من عزّة نفسه وثبات صوته.

ـ جئت أُحرِّرُك، يا مُعلِّم، أنا زورز.

ـ فكرة حسنة جدّاً! المفاتيح معلّقة بالقرب من الباب، وبالمناسبة اعتنِ في طريقك بالحارس فقد بدأ يصحو... ـ ردّ مانوِل إسكالانتِ هادئاً.

أخذ تلميذه حزمة المفاتيح وفتح القضبان. خرج السجناء الثلاثة، الذين كانوا يتقاسمون الزنزانة، مثل حيواناتٍ، متدافعين ومتعثِّرين، بمزيج من الرعب والأمل المثير. سدّد زورز عليهم مسدّسه.

ـ ليس بهذه السرعة، أيّها الفرسان، عليكم أوّلاً أن تنجدوا رِفاقَكم ـ أمرهم.

كان للمظهر المُهدّد للمسدَّس الضخم فضيلة أنّه أعاد إليهم بعضاً من إنسانيَّتهم المفقودة. وبينما هم يُعملون المفاتيح والأقفال، حبس دييغو الحارس في الزنانة المُخلاة واستولى إسكالانتِ على البندقيّة. وما إن فُتِحت كلّ الزنازين حتى قادا معاً كلّ تلك الأشباح المحزنة بخرقهم وشعورهم الشعثاء، المغطّاة بالدم الجافّ والخراء والقيء. صعدوا الدرج وقطعوا الممرّ وعبروا الغرفة الفارغة التي تسلّق فيها دييغو العارضة وتمكّنوا من الوصول إلى مقربة قاعة السلاح حين ظهرت أمامهم مجموعة من الجنود، استنفرهم الضجيج في الزنازين. جاؤوا مستعدّين وسيوفهم في أيديهم. أطلق زورز الطلقة الوحيدة في سلاحه فأصاب أحد الحرّاس الذي سقط مثل خرقة، وهنا اكتشف إسكالانتِ أنّ بندقيّته غير مُلقّمة ولا يملك وقتاً لتهيئتها، أمسكها من سبطانتها واندفع إلى الأمام مثل إعصارٍ يوزّع الضربات في كلّ اتجاه. جرّد دييغو حسامه وشرع بدوره بالهجوم. تمكّن من حشر الخصوم لثوان مفسحاً المجال

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لإسكالانتِ كي يأخذ أحد السيوف التي انتزعها دييغو من الرجال الذين حبسهم في المرحاض. كانا فيما بينهما يُحدثان من الجلبة والضرر أكثر من فصيل. كان دييغو قد استخدم شيشه يوميّاً منذ كان طفلاً، لكنّه لم يُقاتل جدّيّاً. مبارزته الوحيدة حتى الموت كانت بالمسدَّس وكانت أكثر نظافةً بكثير. تأكّد من أنّه لا يوجد شيء مشرّف في القتال الحقيقيّ، حيث لا مكان للقواعِد. القاعدة الوحيدة هي النصر مهما كلَّف الأمر. لم تتصادم النصول في تصميمٍ أنيق كما في دروس المبارزة، بل كانت تُسدَّدُ إلى العدوّ مباشرةً كيّ تخترقه. لا وجود للفروسيّة؛ فالضربات ضاريّة ولا توفِّر أحداً. كان الإحساس عند دخول السيف في لحم رجل لا يوصَف. خالطه إحساس من الهيجان الذي لا يرحم والقرف والنصر، فقد الشعور بالواقع وتحوّل إلى بهيمة. صرخات الألم والملابس المصبوغة بدم أعدائه جعلته يُقدِّر تقنية القتال عند أعضاء العدالة، التي لا تُخطئ في دائرة المُعلِّم كما في قتال ملتحم جسداً بجسد. بعدها حين تمكّن من التفكير عبّرعن امتنانه لأشهر التدريب مع بِرناردو، حين كان ينتهي منهكاً فلا تكاد ساقاه تحملانه. خلال العمليّة طوّر انعكاسات سريعة ورؤية دائرية، وتنبّأ بالغريزة ما كان يحدث خلفه. ففي جزء من ثانية كان يستطيع أن يُدرك الحركات التلقائية لعدد من الأعداء، ويُقدّر المسافة، ويقيس السرعة والاتجاه لكلّ طعنة سيف، يحمي نفسه ويُهاجِم.

أثبتَ المُعلِّم إسكالانتِ أنّه بفعالية تلميذه على الرغم من العمر والضرب المُبرِّح الذي تعرّض له على يد جلاّديه. لم تكن له رشاقة ولا قوّة زورز، لكنّ خبرته وهدوءه عوّضتا النقص وأكثر. في حمأة المعركة غطّى العرقُ الشاب وأفقده نفسه، بينما كان المُعلِّم يهزّ حسامه بالحميّة ذاتها وبأناقة أكبر. استطاعا خلال دقائق قليلة أن يهزما خصومهما ويُجرّداهم من أسلحتهم أو يجرحاهم. ولم يجرؤ السجناء المحرَّرون على الاقتراب إلا بعد أن صارت ساحة المعركة آمنة. ما من أحد منهم تجرّأ على مساعدة مُخلِّصيهما، لكنّهم صاروا

الآن أكثر من مستعدّين لجرّ الحرّاس المهزومين باتجاه الزنازين التي شغلوها، هم أنفسهم قبل دقائق، حيث حبسوهم بالسباب والضرب. عندها استعاد زورز وعيه وألقى نظرة حوله. أغمار من الدم على الأرض، دماء متناثرة على الجدران، دم على أجساد الجرحى الذين حملوا إلى الزنازين، دم على سيفه، دم في كلّ مكان.

- يا إلهي - صاح مذعوراً.

- هيّا بنا، لا وقت للتفكير - أشار إليه المُعلّم إسكالانتِ.

خرجوا من الثكنة دون مقاومة. الفارّون الآخرون تبعثروا في أزقّة وعتمة المدينة. سيتمكّن بعضهم من النجاة بالهرب إلى الخارج أو بالتخفّي لسنوات، لكنّ آخرين سيُلقى عليهم القبض من جديد وسيخضعون للتعذيب قبل أن يُنفّذ فيهم حكم الإعدام كي يعترفوا كيف هربوا. لم يستطع هؤلاء الرجال أن يقولوا قط من كان ذلك الرجل الجسور المقنّع الذي حرّرهم، لأنّهم لا يعرفونه. فقط سمعوا اسمه: زورز، الذي ينطبق على حرف Z المرسوم على جدار قاعة السلاح.

إجمالاً انقضت أربعون دقيقة بين اللحظة التي ألهى بها سكرانان مزعومان حارسي الثكنة واللحظة التي أنقذ فيها زورز مُعلّمه. في الشوارع كان يربض رجلا العدالة، وهما مايزالان في لباس الحارسين الموحّد، اللذين أخذا السجين الفارّ إلى المنفى. عندما ودّع دييغو وإسكالانتِ بعضهما بعضاً تعانقا لأوّل وآخر مرّة.

عند الفجر، وما إن استعاد رجال الثكنة وعيهم من تأثيرات المُخدّر واستطاعوا أن ينظّموا أنفسهم ويعتنوا بالجرحى حتى كان على الرقيب أن يُقدّم لرؤسائه كشفاً بما جرى. الشيء الوحيد الذي كان لصالحه هو أنّه ما من أحد من مرؤوسيه قُتل في الاشتباك. أخبرهم بأنّ إيولاليا دِ كالّيس ورافائيل مونكادا كانا حسب علمه

مُتوَرِّطينْ في العملية، لأنّ برميل النبيذ المشؤوم الذيّ سمّم الجنود هما أرسلاه.

في المساء ذاته حضر نقيب أمام المشكوك بهما يرافقه أربعة حرّاس مُسلّحين، لكنّ بتذلُّلٍ وابتهال ورعٍ زائف على رأس لسانه. استقبلته إيولاليا ورافائيل كتابع، مطالبين إيّاه بالاعتذار لتعكيره صفوهما بحماقاته. أرسلته السيّدة إلى الإسطبلات كي يتأكّد من أنّ شعار السلاح الخاص بها قد انتُزِع من إحدى العربات، الدليل الذي لم يبدُ للنقيب كافياً، لكنّه لم يجرؤ على النطق به. كان مظهر رافائيل مونكادا بملابس ضبّاط الملك الموحّدة، مخيفاً إلى حدٍّ أنّه لم يطلب منه توضيحات. لم يكن مونكادا يملك ما يُثبت به عدم وجوده في مكان الجريمة، لكنّ وضعه الاجتماعي يجعله لا يحتاج إلى ذلك. وبرفّة جفن كان الشخصان الرفيعان خارج أيّة شبهة.

ـ الضابط الذي سمح بأنّ يُخدَعِ بهذه الطريقة أحمق مكّار ويجب أن يلقى عقابه ليكون عبرة لغيره. أطالب بمعرفة ماذا يعني حرف Z المرسوم على جدار الثكنة، وهويّة اللص الذي يتجرّأ على استخدام اسمي واسم حفيدي في أعماله الشريرة. هل فهمت، أيّها الضابط؟ ـ باغتت إيولاليا العسكريَّ.

ـ لا تشكّي ولا للحظة بأنّنا سنعمل كلّ ما بوسعنا لاستجلاء هذا الحادث المفجع، يا صاحبة السعادة ـ أكّد لها النقيب، وهو يتراجع إلى الخلف نحو المخرج بانحناءات كبيرة.

في تشرين الأوّل قرَّر رافائيل مونكادا أنّه قد حان الوقت كي يجعل الآخرين يشعرون بسلطته في مواجهة خوليانا، طالما أنّ الدبلوماسية والصبرَ لم يُجديا نفعاً. قد تكون شكّت بأنّ الهجوم الذي تعرَّضت إليه في الشارع كان من صنيعه، لكنّها لم تكن تملك أدلّة، ومن كان باستطاعته أن يُقدّمها إليها، الغجر، وقد صاروا بعيدين

ولا يجرؤون على العودة إلى برشلونة. وكان من ناحيته قد تحقّق من أنّ وضع توماس دِ رومِو الاقتصادي عصيّ على الحلّ. فالأزمان قد تبدّلت وهذه العائلة لم تعد في ظرف يسمح لها بأن تُرتجى. وضعه هو كان رائعاً، ولا ينقصه غير خوليانا كي يمسك بزمام قدره في قبضته. صحيح أنّه لم يكن يحظى بموافقة إيولاليا دِ كاليس كي يخطب الشابّة، لكنّه قرّر أنّه لم يعد في عمر يسمح فيه بأن يؤمر من خالته المتسلّطة. ومع ذلك حين عزم على زيارة توماس دِ رومِو ليعرض عليه خططه، فأعادوا إليه الرسالة لأنّ هذا كان غائباً عن المدينة مع ابنتيه. ولم يعرفوا أين هو، لكنّه كان يملك وسائله للتحقّق من ذلك. بالمصادفة استدعته إيولاليا كي يُحدّد تاريخ تقديم ابنة دوق مدينة سالم له.

ـ أنا آسف، يا خالتي. مهما يكنِ هذا الارتباط مناسباً إلا أنّني لا أستطيع القيام به. كما تعلمين، أنا أُحِبّ خوليانا دِ رومِو ـ أعلمها رافائيل بكلّ حزم استطاع أن يملكه.

ـ أبعد هذه الفتاة عن رأسك، يا رافائيل ـ حذّرته إيولاليا. لم يكن هذا الأمر يوماً شيئاً مهمّاً وهو اليوم يعادل الانتحار الاجتماعي. هل تعتقد أنّهم سيستقبلونها في البلاط حين يعلمون أنّ والدها كان مُتفرنِساً؟

ـ أنا مستعدّ لهذه المُجازفة. إنّها المرأة الوحيدة التي لاقت اهتمامي في حياتي.

ـ حياتُك لا تكاد تبدأ. أنت ترغب بها لأنّها صدّتك وليس لأيّ سببٍ آخر. لو أنّك حصلت عليها لكنت مللتها الآن. أنت بحاجة إلى زوجة من مستواك، يا رافائيل، امرأة تساعدك في مسيرتك. ابنة دِ رومِو لا تكاد تصلح أن تكون عشيقة لك.

ـ لا تتكلّمي بهذا الشكل عن خوليانا! ـ صاح رافائيل.

ـ ولماذا لا؟ أتكلّم كما يحلو لي حقيقةً، خاصّة حين أكون على حقّ ـ ردّت المرأة المتسلطة ـ أنت بمؤهّلات ابنة دوق مدينة سالم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وثروتي تستطيع أن تصل بعيداً. منذ موت ابني المسكين، صرتَ أسرتي الوحيدة، لذلك أعاملك كأمّ، لكنّ لصبري حدوداً، يا رافائيل.

ـ حسب علمي، زوجك المرحوم، بِدرو فاخِش أيضاً لم يكن يملك مؤهلات وألقاباً ومالاً حين عرفته ـ علّق الحفيد.

ـ الفرق هو أنَّ بِدرو كان شجاعاً، وكان لديه سجلّ خدمة ناصع في الجيش، وكان مستعداً لأن يأكل السحالى في العالم الجديد مقابل الحصول على ثروة. بينما خوليانا تافهة مُدلّلة ووالدها ليس سيّد أحد. إذا كنت تريد أن تُدمّر حياتك معها، فلا تعتمد عليّ إطلاقاً، واضح؟

ـ واضح جدّاً، يا خالتي، مساء سعيد.

وانحنى مونكادا ضارباً كعباً بكعب، وخرج من القاعة. بدا رائعاً في لباسه الموحّد، وحذائه اللامع وسيفه وشراشيبه على خصره. لم تتبدّل السيّدة إيولاليا. كانت تعرف الطبيعة البشرية وتثق بانتصار الطموح الطافح على أيّ جنون غرامي. ولم يكن هناك مايجعل من حالة حفيدها استثناء.

بعد أيّام قليلة عادت خوليانا وإيزابيل ونوريا إلى برشلونة فجأة في عربة العائلة، دون أي موكب غير جوردي وخادمين. ضجّة الحوافر والجلبة في الفناء استنفرتا دييغو، الذي كان يهمّ بالخروج. ظهرت النساء الثلاث مغطيات ومموهات بالغبار، يحملن خبر أنّ توماس دِ رومِو قد اعتقل. فقد حضرت إلى البيت الريفي مجموعة من الجنود ودخلوا عابثين، واقتادوه دون أن يفسحوا له مجالاً حتى يأخذ دثاراً. لم تعرف الفتيات شيئاً آخر غير أنّه اتُهِم بالخيانة وسيُنقل إلى القلعة.

حين اعتُقِل توماس دِ رومِو تَوَلّت إيزابيل أمورَ الأسرة، لأنَّ خوليانا، التي تكبرها بأربع سنوات، فقدت رشدها. وبنضج لم

تُظهره لأحدٍ من قبل أمرت بحزم الأشياء الضرورية وإغلاق الدار. وفي أقلّ من ثلاث ساعات كانت تمضي خابَةً مع نوريا وأختها في الطريق إلى برشلونة. انتبهت في الطريق إلى أنّها لا تملك حليفاً في هذا الوضع. والدها الذي لم يؤذِ، حسب رأيها، أحداً قط ليس له الآن غير الأعداء. ما من أحدٍ كان مستعدّاً لأن يمدّ يدَ المساعدة لضحايا ملاحقة الدولة. الشخص الوحيد الذي كان باستطاعتها أن تلجأ إليه لم يكن صديقاً، ومع ذلك لم تتردّد لحظة في اللجوء إليه. على خوليانا أن تركع عند قدمي رافائيل مونكادا، إذا دعت الضرورة، ما من ذلّ لا يُسمَح به حين يتعلّق الأمر بإنقاذ والدها، كما قالت. وسواء أكانت ميلودراما أم لا، فهي على حقّ. هكذا قبلت خوليانا المسألة وبعدها اضطُرَّ دييغو لقبول القرار، لأنّه لا يمكنُ ولا لعشرة زورروات أن يُنقِذوا أحداً من القلعة. كان الحصنُ منيعاً. فالدخول إلى ثكنة من ثكنات الأحياء، يقوم عليها ملازم ثانٍ لم تنبت لحيتُه بعد لإنقاذ إسكالانتِ، شيء ومواجهة قوات الملك في برشلونة شيء آخر مختلف. ومع ذلك فإنّ فكرة أن تذهب خوليانا وتتضرّع إلى مونكادا أثارته. أصرّ على أن يذهب هو نفسه.

- لا تكن ساذَجاً، يا دييغو، الوحيدة التي تستطيع أن تحصل على شيء من هذا الرجل هي خوليانا. وأنت ليس عندك ما تقدّمه له
- ردّت إيزابيل دون توسّل.

هي نفسها كتبت رسالة تُعلن فيها زيارة أختها وأرسلتها مع أحد الخدم إلى الغندور العنيد، ثمّ أمرت أختها بأن تستحمّ وترتدي أفضل ملابسها. وأصرّت خوليانا على ألا يُرافقها أحد غير نوريا، لأنّ إيزابيل تفقد صوابها بالسعادة ودييغو لم يكن فرداً من الأسرة. ثمّ أنّه هو ومونكادا يكرهان بعضهما بعضاً. بعد ساعات، وعيناها ما زالتا مزرقّتين من السفر، قرعت خوليانا باب منزل الرجل الذي كانت تمقته، متحدّيةً عرف الحشمة المعمول به منذ قرون. وحدها امرأة مُريبة السمعة تجرؤ على زيارة رجل أعزب، حتى ولو حضرت

برفقة قهرمانة صارمة. ورغم أنّ ريحاً خريفيّةً بدأت تهبُّ فقد ارتدت تحت الدثار الأسود لباساً صيفياً، مكوّناً من فستان هفهاف بلون الذرة، وسترة قصيرة مطرَّزة بالخردل وقبّعة بلون الفستان ذاته، شُدّت إليها شريطة من الحرير الأخضر، وتوّجت بريش نعام أبيض. كانت تبدو عن بعد طائراً غريباً وعن قرب أجملَ من أيّ وقت مضى. انتظرت نوريا في المدخل بينما قاد خادم خوليانا إلى القاعة، حيث كان ينتظرها عاشقها.

رآها رافائيل تدخل طافية مثل حوريّة ماء في هواء المساء الساكن، وفكّر أنّه ينتظر تلك اللحظة منذ أربع سنوات، وكانت رغبته في جعلها تدفع ثمن إهانات الماضي على وشك أن تسيطر عليه، لكنّه افترض أنّ عليه ألا يشدّ الحبل، ولا بدّ أنّ تلك الحمامة الرقيقة كانت في آخر حدود مقاومتها. آخر ما كان يتصوّره هو أن تملك تلك الحمامة الرقيقة مهارة مساومة تركيٍّ في سوق. لا أحد عرف بالضبط كيف تحادثا، لأنّ خوليانا لم توضّح بعد ذلك غير النقاط الأساسية للاتفاق الذي توصّلا إليه: هو يحصل على إطلاق حرّية سراح توماس دِ رومِو مقابل أن تتزوَّج هي منه. ما من إيماءة ولا كلمة زائدة جرحت مشاعر خوليانا. بعد نصف ساعة خرجت من القاعة في غاية الهدوء، يرافقها مونكادا الذي يسندها برقّة من ذراعها. أومأت إيماءة حازمة لنوريا واتجهت إلى عربتها، حيث كان جوردي مُنهكاً يغطّ في نومه على مقعد الحوذيّ. ومضت دون أن تلتفت بنظرة واحدة إلى الرجل الذي وعدته بالزواج.

انتظرت ابنتا دِ رومِو أكثر من ثلاثة أسابيع نتائج تحرّكات مونكادا. والخروج الوحيد الذي قامتا به كان إلى الكنيسة لتتوسّلا إيولاليا، قديسة المدينة، أن ترأف بحالهما وتنجدهما. «ما أمسّ حاجتنا لبِرناردو!» علّقت إيزابيل أكثر من مرّةٍ في تلك الأيّام، لأنّها كانت مقتنعة بأنّه لا بدّ كان سيتمكّن من معرفة الظروف التي كان فيها والدها، بل وسيوصل إليه بعض الرسائل. ما لم يكن من الممكن

الحصول عليه من أعلى كان بِرناردو يحصل عليه عادة من خلال ارتباطاته.

ـ نعم، جيّد لو أنّه كان معنا، لكنّني سعيد لأنّه ذهب. فهو أخيراً مع برق الليل، التي دائماً أراد أن يكون معها ـ أكّد لها دييغو.

ـ هل تلقيت أخباراً منه؟ رسالة؟

ـ لا، حتى الآن لا، هذا يتأخّر.

ـ إذن كيف عرفت؟

هزَّ دييغو كتفيه. لم يكن باستطاعته أن يشرح لها ماهية هذا الذي يسميه البيضُ بالبريد الهندي. وكان هذا يقوم بينه وبين بِرناردو دون تعثُر، فهما كانا يتواصلان منذ نعومة أظفارهما دون كلماتٍ ولا يوجد ما يمنع من أن يفعلا ذلك الآن. لم يكن يفصل بينهما غير البحر، وما يزالان يتواصلان باستمرار، كما كانا يفعلان دائماً.

اشترت نوريا قطعة خيش بنّية وبدأت تخيط سترات حجّاج. كي تُعزّز تأثير القديسة إيولاليا في البلاط السماوي، كما لاذت أيضاً بسانتياغو دِ كومبوستِلا. نذرت له إنْ هم أطلقوا سراح ربّ عملها أن تذهب والصغيرتان إلى ضريحه سيراً على الأقدام. لم يكن لديها أدنى فكرة عن عدد الفراسخ التي عليهن أن تمشياها، لكنّها افترضت أنّه إذا كان هناك ناس يقومون بذلك من فرنسا فهذا يعني أنّها ليست كثيرة.

كانت حال العائلة في غاية السوء. فقد غادر رئيس الخدم، ما إن سمع بتوقيف ربّ عمله، دون أن يقدّم توضيحات، والخدم القليلون الموجودون في البيت كانوا منقلبي الوجوه، ويردّون بوقاحة على أيّ أمرٍ، لأنّهم فقدوا الأمل بقبض رواتبهم المتخلّفة، وهم إذا كانوا لم يرحلوا فلأنّه ليس عندهم مكان يذهبون إليه. ورفض المحاسبون والقائمون على أملاك السيّد توماس استقبال ابنتيه حين ذهبتا لتطلبا مالاً لنفقاتهما اليوميّة. ولم يكن باستطاعة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دييغو أن يُساعدهما، لأنّه كان قد أعطى كلّ ما ملكه تقريباً إلى الغجر، وكان ينتظر إرساليّة من والده، لكنّها لم تصل. في هذه الأثناء لجأ إلى اتصالات أكثر دنيوية من اتصالات نوريا كي يتحقّق من الظروف التي كان فيها السجين. لم يعد باستطاعة منظمة العدالة أن تُساعِده، فأعضاؤها قد تفرّقوا. كانت المرّة الأولى التي توقف فيها الجمعيّة السرّية نشاطاتها خلال قرنين، لأنّهم حتى في أسوأ لحظات تاريخهم استمرّوا في عملهم. بعض أعضائها هرب من البلد وأخرون تخفّوا وسيّئو الحظ وقعوا في براثن محاكم التفتيش، التي ما عادت تحرق الموقوفين وتُفضّل أن تُصفّيهم بحذرٍ.

استطاع رافائيل مونكادا أن يكلِّم خوليانا في نهاية تشرين الأوّل. جاء بعلائم مهزوم. اكتشف خلال تلك الأسابيع الثلاثة أنّ سلطته محدودة أكثر من المفترض، هذا ما وضحه. وفي الحقيقة قليل مااستطاع فِعله في مواجهة روتين الدولة. قام برحلة سريعة إلى مدريد كي يقدّم التماساً شخصيّاً للملك، لكنّ هذا أحاله إلى أمين سرّه، وهو أحد أقوى رجال البلاط فحذّره من أن يزعجه بأمور تافهة. لم يحصل بكلماته المعسولة على شيء من أمين السرّ، ولم يجرؤ على رشوته، لأنّه لو أخطأ لكلّفه ذلك غالياً جدّاً. أعلموه أنّ توماس دِ رومِو وحفنة من الخونة سيُعدمون رمياً بالرصاص. وأضاف أمين السرّ قائلاً له ألا يحرق أوراق نفوذه بالدفاع عن نسر عجوز، لأنّه يمكن أن يندم على ذلك. لم يكن من الممكن أن يكون التهديد أكثر وضوحاً. وعند عودته إلى برشلونة لم يملك من الوقت إلا ما كفاه كي يغتسل ويحضر ليحكي كلّ هذا للفتاتين، اللتين استقبلتاه شاحبتين، لكنّهما متماسكتين. ولتطمينهما أكّد لهما أنّه لا يفكّر أن يعتبر نفسه مهزوماً، سيستمر يحاول بكلّ وسائله تخفيفَ العقوبة.

ـ في جميع الأحوال لن تبقيا سيادتكما وحيدتين في هذا العالم. يمكنكما دائماً أن تعتمدا على تقديري وحمايتي ـ أضاف مغموماً.

- سنرى - ردّت خوليانا، دون أيّة دمعة.

حين علم دييغو بالأخبار المأساوية قرّر أنّه إذا كانت القديسة إيولاليا، غير قادرة على أن تفعل شيئاً لأجلهم، فعليه أن يلجأ إلى سميّتها.

- هذه المرأة ذات نفوذ جبّار. تعرف أسرار نصف العالم. إنّهم يخافونها. ثمّ إنّ المال يفعل في هذه المدينة أكثر من أيّ شيءٍ آخر. سنذهب نحن الثلاثة للتكلّم معها قال دييغو.

- إيولاليا دِ كالّيس لا تعرف أبي، وهي حسب ما يقولون تمقتُ أختي - حذّرته إيزابيل، لكنّه لم يكن يستطيع أن يتخلّى عن المحاولة.

بدا التناقض بين هذا القصر الصغير المُكتظّ بالزخارف، كأفخر قصور العصر الذهبي المكسيكي، وبين وقار برشلونة بشكل عام وبيت دِ رومِو بشكل خاص صادماً. عَبَر دييغو وخوليانا وإيزابيل قاعة هائلة مرسومة الجدارن بالفرِسكو، أو مغطاة بالسجاد الفلندي ولوحات الأسلاف النبيلة ولوحات المعارك الملحميّة. وكان هناك خدم يرتدون بدلاتهم في كلّ باب، وخادمات متقلات بالمطرزات الهولندية، يعتنين بكلاب التشهواهوَا المريعة، ويغرزن بصرهنّ في الأرض عند مرور أيّ شخص من طبقة اجتماعية أعلى. استقبلت إيولاليا زوّارها في عرشِ القاعة الرئيسيّة ذي المظلّة، مزيّنةً كما لعرس وإن كانت دائماً بلباس الحداد الصارم. بدت لبوْة بحرٍ هائلة ملفوفة بطبقات من الشحم برأسها الصغير وعينيها الجميلتين برموشهما الطويلة، والبرّاقتين مثل حبّتي زيتون. إذا كان ما تريده السيّدة العجوز هو إرهابهما فقد حقّقت ذلك تماماً. اختنق الشبّان خجلاً في جوّ ذلك القصر القطنيّ، فهم لم يجدوا أنفسهم قط في مثل تلك الحالة، فقد ولدوا ليعطوا لا ليطلبوا.

لم يسبق أن رأت إيولاليا خوليانا إلا من بعيد، وكانت تشعر ببعض الفضول لتفحّصها عن قرب. لم يكن باستطاعتها أن تُنكر أنّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفتاة كانت لطيفة، لكنّ مظهرها الخارجي لا يُبرِّر الحماقة التي كان حفيدها مستعدّاً لارتكابها. تذكّرت سنوات شبابها الأسطوري. تحت شحومها التي تمنعها الآن من السير، ما تزال ذكرى المرأة التي كانت في الماضي، شبقة، خيالية، كاملة الطاقة. لسببٍ ما أحبّها بدرو فاخِسْ، بولهٍ لا ينضب وحسده عليها كثير من الرجال. خوليانا بالمقابل لها موقف غزالة جريحة. ما الذي كان يراه رافائيل في تلك الآنسة النحيلة والشاحبة، التي لا شكّ ستتصرّف كراهبة في الفراش؟ وخلصت إلى أنّ الرجال بلهاء جدّاً. ابنة دِ رومِو الأخرى، ما اسمها؟ بدت لها أهمّ، لأنّها لم تكن تبدو منكمشة خجولة، لكنّ مظهرها ليس فيه الكثير مما يُشتهى، خاصّة إذا ما قورِنَت بخوليانا. وفكّرت: سيّء حظّ هذه الفتاة لشهرة جمال أختها. في وضع طبيعي كانت ستقدّم نبيذ شيرش ومقبّلات لزوّارها، لا أحد سيستطيع اتهامها بأنّها شحيحة في الطعام، فمنزلها كان مشهوراً بمطبخه الطيّب؛ لكنّها لم تبغِ أن تجعلهم يشعرون بالراحة، إذ عليها أن تبقي على امتيازها للمساومة التي لا شكّ كانت تنتظرها.

أخذ دييغو الكلمة كي يعرض وضع والد الفتاتين، دون أن يحذف أنّ رافائيل مونكادا كان قد سافر إلى مدريد برغبة التدخلّ لأجله. أصغت إيولاليا بصمت، مراقبة كلّ واحدٍ منهم بعينيها النافذتين ومستخلصة استنتاجاتها الخاصّة. تكهّنت بالاتفاق الذي لا بدّ أن خوليانا أتمّته مع حفيدها، ولولا ذلك ما كان أزعج نفسه بالمجازفة بسمعته ليدافع عن ليبرالي متهم بالخيانة. هذا التحرّك الأحمق يمكن أن يُكلّفه حظوته عند الملك. ومن ناحية سعدت لأنّ رافائيل لم يحقّق مبتغاه، لكنّها سرعان ما رأت الدموع في عيني الفتاتين ورأت قلبها يخونها مرّة أخرى. كثيراً ما كان يحدث أنّ عقلها الجيّد في التجارة ومشاعرها العامة تتعثّر بمشاعرها الحقيقية. وكان لذلك ثمنه، لكنّها تنفق المال بسعادة، لأنّ احتدام عواطفها المباغت كان آخر ما تبقى من طعم شبابها الضائع. أخيراً أخبرتهم السيدة المتسلطة التي تأثّرت رغماً عنها أنّ لديهم فكرة

مبالغ بها عن نفوذها. لم يكن في يدها إنقاذ توماس دِ رومِو. وقالت إنّها لاتستطيع عمل شيء لم يستطع حفيدها عمله، باستثناء أن ترشو السجّانين كي يُعاملوه باعتبارات خاصّة حتى تحين لحظة إعدامه. وعليهم أن يُدركوا أن لا مُستقبل لخوليانا وإيزابيل في إسبانيا، فهما ابنتا خائن وحين يموت أبوهما ستصبحان ابنتي مُجرم وستنقلب كنيتهما عاراً عليهما. فالتاجُ سيُصادر أملاكهما وستصبحان في الشارع بلا وسيلة للعيش في هذا البلد أو في أيّ بلدٍ أوروبي. ماذا سيصير بحالهما؟ سيكون عليهما أن تُطرّزا ملاحف للعرائس أو تعملا معلّمتين لأولاد الآخرين. صحيح أنّ باستطاعة خوليانا أن تصطاد زوجاً أرعنَ، بما في ذلك رافائيل مونكادا نفسه، لكنّها كانت واثقة من أنّ حفيدها حين تحين ساعة اتخاذ قرارٍ بهذا المستوى من الخطورة ، فهو ليس أخرق أبداً، سيضع في الميزان مستقبله ووضعه الاجتماعي. وخوليانا ليست من مستوى رافائيل، كما قالت، ثمّ أنّه لا يوجد إزعاج أسوأ من امرأة جميلة أكثر من اللازم. ما من رجل يناسبه ذلك، فهي تجلب كلّ أنواع المشاكل. وأضافت إنّ الحسناوات اللواتي لا يملكن ثروة مصيرهنّ المسرحِ أو الإعاشة على حساب محسن، كما هو معروف. وهي تتمنّى من كلّ قلبها أن تفلت خوليانا من هذا المصير. ومع استمرار السيدة المتسلطة في عرض الحالة راحت خوليانا تفقد سيطرتها على نفسها، هي التي حاولت أن تُحافِظ عليها طوال تلك المقابلة المريعة، فبلّل نهرٌ من الدموع خدّيها وذقنها. اعتبر دييغو أنّهم سمعوا ما يكفي وأسف لأنّ إيولاليا لم تكن رجلاً، لأنّه كان سيقتلها هناك بالذات. أخذ خوليانا وإيزابيل من ذراعيهما ودفعهما نحو الخارجْ دون توديع. ولم يصلوا إلى الباب حتى أوقفهم صوت إيولاليا.

ـ كما قلت، لا أستطيع أن أفعل شيئاً لتوماس دِ رومِو لكنّني أستطيع أن أفعل شيئاً لأجلكما.

عرضت عليهما أن تشتري أملاك العائلة، بدءاً من دار برشلونة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المهلهلة، بسعر جيّد وعدّاً ونقداً، وبذلك يكون بين يدي الفتاتين الرأسمالِ الضروري كي تبدآ حياةً أخرى بعيداً، حيث لا أحد يعرفهما. تستطيع أن ترسل محاميها في اليوم التالي ليراجع سنداتهم ويحرّر الوثائق الضروريّة. وستحصل من قائد برشلونة العسكري على السماح لهما بزيارة أبيهما لآخر مرّة وأعطائه أوراق البيع ليُوقِّعها، الإجراء الذي يجب اتخاذه قبل أن تتدخّل السلطات لمصادرة الأملاك.

- ما تريدينه هو أن تتخلّصي من أختي كيلا تتزوّج من رافائيل مونكادا! - اتهمتها إيزابيل وهي ترتجف حنقاً.

تلقّت إيولاليا الإهانة مثل صفعةٍ. لم تكن معتادة على أن يرفعوا صوتهم في وجهها، فمنذ أن توفِّي زوجها لم يفعل أحد هذا. بقيت لحظات لا تستطيع التنفّس، لكنّ السنين علّمتها السيطرة على طبيعتها الانفجارية وتقدير الحقيقة حين تكون أمام أنفها. عدّت بصمت للثلاثين قبل أن تردّ.

- لستما في وضع يسمح لكما برفض عرضي. العقد بسيط وواضح: ما إن تستلما المال حتى ترحلا - ردّت.

- حفيدك ابتزّ أختي ليتزوّج منها وأنت تبتزينها الآن كيلا تفعل ذلك!

- أرجوك، كفى يا إيزابيل - همست خوليانا، وهي تُجفّف دموعها - لقد اتخذت قراراً. أقبل العرض وأشكر كرمك يا صاحبة السعادة. متى نستطيع أن نرى أبانا؟

- سريعاً، أيتها الصغيرتان. سأخبركما حين أحصل على المقابلة - قالت إيولاليا راضية.

- غداً في الساعة الحادية عشرة صباحاً نستقبل موكّلك. وداعاً أيتها السيّدة.

أوفت إيولاليا بوعدها بحرفيّته. ففي الساعة الحادية عشرة

تماماً من اليوم التالي مَثَلَ ثلاثة قانونيين في مسكن توماس دِ رومِو وراحوا يبحثون في أوراقه، يفرغون محتوى مكتبه، يراجعون حساباته غير المنظمة ويعدوا جرداً تقريبيّاً لممتلكاته. استنتجوا أنّه لم يكن يملك فقط أقلّ مما يظهر، بل إنّه كان مخنوقاً بالديون. وبذلك فإنّ دخل الصغيرتين لم يكن مناسباً للإبقاء عليهما في المستوى الذي كانتا تعرفانه. لكنّ المحامي كان يحمل تعليمات صارمة من سيّدته المتسلطة. فإيولاليا حين قدّمت عرضها لم تكن تنظر إلى قيمة ما فكّرت بشرائه، بل فقط إلى ما كانت تحتاجه الشابتان كي تعيشا. هذا ما قدّمته. ولم يبد لهما كثيراً ولا قليلاً، لأنّهما لم تكونا تملكان فكرة عن كلفة خبزة واحدة. لم تكونا قادرتين على تصوّر المبلغ الذي كانت السيّدة المتسلّطة مستعدّة لدفعه لهما. أيضاً دييغو لم يكن لديه خبرة في الأمور المالية ولا ما يُساعد به خوليانا وإيزابيل في تلك اللحظات. قبلت الأختان المبلغ المُتفَق عليه دون أن تعلما أنّه يُساوي ضعف القيمة الحقيقية لأملاك أبيهما. وما إن حرّر المحامون السندات حتى أمّنت لهما إيولاليا مقابلته في السجن.

كانت القلعة مخمّساً مريعاً من الحجارة والخشب والملاط، صمّمها في العام 1715 مهندس هولندي. كانت قلب السطوة العسكرية للملوك البوربونيين في قطلونيا. أسوار عريضة، متوّجة ببرج في كلّ زاوية من زواياها الخمس، تنغلق على مساحتها الواسعة. منها كان يُسيطَر على المدينة كلّها. من أجل بناء الحصن المنيع دمّرت جيوشُ فيليبّ الخامس أحياء بكاملها، مستشفيات وأديرة وألف منزل وقطعوا الغابات المجاورة. كان البناء الثقيل وأسطورته الكئيبة تُثقِل على برشلونة مثل غيمة سوداء. كانت الحصن الموازي للباستيل في فرنسا: رمز القمع. عاشت بين جدرانها جيوش احتلال مختلفة ومات في زنزاناتها آلاف وآلاف السجناء، وكانوا يُعلّقون

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى أبراجها المشنوقين ليكونوا عبرة للسكّان. وحسب القول الشعبي المأثور، الخروج من الجحيم أسهل من الخروج من القلعة.

قاد جوردي دييغو وخوليانا وإيزابيل إلى باب المدخل الضخم حيث قدّموا ورقة إذن الدخول، الذي حصلت عليه إيولاليا دِ كاليّس. اضطرَّ الحوذي للانتظار في الخارج ودخل الشبّان سيراً على أقدامهم يرافقهم أربعة جنود مسلحين بالبنادق والحراب المركّبة. كان الطريق مشؤوماً. في الخارج كان يسود نهار بارد لكنّه بهيّ، سماؤه صافية وهواؤه نقيّ. كانت مياه البحر مرآة فضّية وضوء الشمس يرسم انعكاسات احتفاليةً على جدران المدينة البيضاء. بينما توقّف الزمنُ داخل القلعة منذ قرن، والجوّ صار غروباً شتوياً أبديّاً. كان المشوار، الذي قاموا به بصمت، من بوّابة المدخل حتى البناء المركزيّ طويلاً. دخلوا المكان المشؤوم عبر باب جانبيّ سميك من خشب السنديان المدعّم بعوارض حديدية وسيقوا عبر ممرات طويلة راحت تعيد صدى خطواتهم. كانت تصفر فيه تيارات هوائيّة وتطفو تلك الرائحة الخاصّة بالثكنات العسكرية. كانت الرطوبة تدلفّ من السقف، راسمة على الجدران خرائط ضاربة للخضرة. عبروا عدّة عتبات وفي كلّ مرّة كان ينغلق خلفهم باب ثقيل. مع كلّ صفقة باب كانوا يشعرون أنّهم ينفصلون عن عالم الأحرار والواقع المعروف كي يُغامروا في أحشاء بهيمة عملاقة. كانت الفتاتان ترتجفان ودييغو لا يستطيع إلا أن يتساءل عمّا إذا كانوا سيخرجون أحياء من ذلك المكان المشؤوم. وصلوا إلى دهليز اضطرّوا أن ينتظروا فيه واقفين برهةً طويلة يراقبهم الجنود. أخيراً استقبلهم ضابطٌ في قاعة صغيرة، فيها طاولة خشنة وعدد من الكراسي تشكّل أثاثها الوحيد. ألقى العسكريُّ نظرة سريعة على إذن الدخول كي يتأكّد من الخاتم والتوقيع، لكنّه لا شكّ لم يكن يعرف القراءة. أعاده دون تعليق. كان رجلاً يقارب الأربعين من عمره، وجهه مشدود وشعره برونزي وعيناه بلون سماوي غريب، يكاد يكون بنفسجيّاً. خاطبهم

بالقطلانية كي ينبّههم إلى أنّهم يملكون خمس عشرة دقيقة للتحدّث مع السجين عن بعد ثلاث خطوات منه، لم يكن باستطاعتهم الاقتراب منه. شرح له دييغو أنّ على السيّد دِ رومِو أن يُوقِّع بعضَ الأوراق ويحتاج إلى وقت لقراءتها.

- من فضلك، أيّها السيّد الضابط. هذه هي المرّة الأخيرة التي سنرى فيها والدنا. أرجوك دعنا نضمّه - توسّلت خوليانا بإجهاشٍ اخترقَ صدرها، ساقطة على ركبتيها أمام الرجل.

تراجع صاحب اللباس الموحّد بمزيج من الانزعاج والهول، بينما دييغو وإيزابيل يُحاولان أن يُجبرا خوليانا للنهوض على قدميها، لكنّها كانت مغروزة في الآرض.

- بالله عليك أن تنهضي، يا آنسة! - هتف العسكريّ بنبرة حازمة، لكنّه سرعان ما لان وشدّ خوليانا رافعاً إيّاها إلى الأعلى بنعومة - لستُ عديم إحساس، يا صغيرة. أنا ربّ أسرة أيضاً، عندي عدّة أولاد وأدرك كم هي مؤلمة هذه الحالة. حسناً، أمامكم نصف ساعة كي تبقوا على انفرادٍ معه وليطّلع على هذه المستندات.

أمر أحد الجنود أن يذهب ليأتي بالسجين. خلال الدقائق التالية ملكت خوليانا وقتاً كي تتحكّم بعواطفها وتستعدّ للقاء. بعد قليلٍ دخل توماس دِ رومِو يرافقه جنديّان. جاء طويل اللحية، وسخاً، هزيلاً، لكنّه مفكوك القيود. لم يستطع أن يحلق أو يغتسل خلال هذه الأسابيع؛ كانت له رائحة متسوِّل وعينا مخبول زائغتان. أضعف نظام غذاء الزنزانة البائس الرجل المُنعَّم وجعل تقاسيمه حادّة وأنفه المعقوف يبدو هائلاً في وجهه الممتقع، ووجنتاه اللتان كانتا في السابق متورِّدتين صارتا متهدّلتين مثل قربتين تغطيهما اللحية الخفيفة والرمادية. تأخّرت ابنتاه دقيقة في التعرف عليه والارتماء باكيتين بين ذراعيه. انسحب الضابط مع الجنديّين. فألم هذه الأسرة من الطراوة والحميمية بحيث ودَّ دييغو لو يصبح غير مرئيٍّ. التصق بالجدار ونظرته عالقة بالأرض متشنّجاً من المشهد.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ـ هيّا، هيّا يا صغيرتاي، لا تبكيا، رجاءً. وقتنا قصير وهناك الكثير مما علينا فعله ـ قال توماس دِ رومِو وهو يُجفّف دموعه بظهر يده ـ قالوا لي إنّ عليَّ أن أُوقِّع بعض الأوراق...

شرح له دييغو دون مواربة عرض إيولاليا وأعطاه مستندات البيع، راجياً منه أن يُوقِّعها لإنقاذ ممتلكات ابنتيه القليلة.

ـ هذا ما يؤكِّد ما أعرفه. لن أخرج حيّاً من هنا ـ زفر السجينُ.

أبدى له دييغو أنه حتى ولو وصله عفو الملك فعلى الأسرة في جميع الأحوال أن تذهب إلى الخارج، وهم لا يستطيعون ذلك ما لم يكن المال موجوداً عدّاً ونقداً في الكيس. أخذ توماس دِ رومِو الريشةَ والمحبرة. اللتين أحضرهما دييغو معه ووقّع على نقل كلّ ممتلكاته من الأراضي إلى اسم إيولاليا دِ كاليس. وطلب على الفور من دييغو أن يتكفّل بابنتيه ويأخذهما بعيداً عن هذا المكان، حيث لا أحد يعلم أنّ والدهما قد أُعدم كمُجرِم.

ـ خلال السنوات التي عرفتُك فيها، يا دييغو تعلّمت أن أثق بك مثل الابن الذي لم أُنجِبه. إذا بقيت ابنتاي في حمايتك أستطيع أن أموت مُطمَئنّاً. خذهما إلى بيتك في كاليفورنيا، وتوسّل إلى صديقي ألخِاندرو دِ لابِغا أن يعتني بهما كما لو كانتا ابنتيه ـ توسّل.

ـ عليك ألا تقنط، يا أبي، رجاءً. فقد أكّد لنا رافائيل مونكادا أنّه سيستخدم كلّ نفوذه كي يحصل على تحريرك ـ أنّت خوليانا.

ـ لقد حُدّد موعد الإعدام خلال يومين، يا خوليانا. لن يفعل مونكادا شيئاً لمُساعدتي، لأنّه هو الذي وشى بي.

ـ أبي! هل أنت متأكِّد؟ ـ صاحت الصبيّةُ.

ـ ليس لديّ أدلّة، لكنّني سمعته من الذين ألقوا القبضَ عليَّ ـ وضّح توماس.

ـ لكنَّ رافائيل ذهب ليطلب لك العفو من الملك!

- لا أصدق هذا، يا صغيرتي. يمكن أن يكون قد ذهب إلى مدريد، لكن لأسبابٍ أخرى.

- إذن الذنب ذنبي!

- لستِ مسؤولة عن سوء الغير، يا بُنيّتي. لستِ مسؤولة عن موتي. شدّي حيلك. لا أريد أن أرى مزيداً من الدموع.

كان دِ رومِو يعتقد أنّ مونكادا لم يشِ به لأسباب سياسية ولا انتقاماً من صدود خوليانا، بقدر ما لحسابات عنده. فبعد موته ستبقى ابنتاه بلا حماية وستُضطَرّان لأن تلوذا بحماية أوّل من يقدّمها لهما. وسيكون هناك ينتظر أن تسقط خوليانا مثل تُرغلة بين يديه، وأضاف: لذلك فدور دييغو في غاية الأهميّة في هذه اللحظة. كاد الشابّ يقول له إنّ خوليانا لن تقع أبداً بين يدي مونكادا وأنّه يعبدها وسيركع طالباً يدها زوجةً له، لكنّه بلع كلماته. فخوليانا لم تمنحه قط مبرّراً ليفترض أنّها تتجاوب مع حبّه. لم تكن تلك اللحظة المناسبة لذكر ذلك. ثمّ إنّه كان يشعر كما لو أنّه عالة، لا يستطيع أن يُقدّم للصغيرتين أدنى حدود الأمان. شجاعته، سيفه، حبّه لا تفيد شيئاً في هذه الحال. انتبه إلى أنّه من دون دعم ثروة والده، لن يستطيع فعل شيء لأجلهما.

- تستطيع أن تكون مُطمَئنّاً، يا سيد توماس. سأقدّم حياتي لأجل ابنتيك. سأسهر دائماً على راحتهما - قال ببساطة.

بعد يومين، وعند الفجر حين كان الضباب يُغطّي المدينة مثل غطاء حميم وغامض، أعدموا في أحد فناءات القلعة أحد عشر سجيناً سياسيّاً متهماً بالتعاون مع الفرنسيين. قبلها بنصف ساعة قدّم لهم راهب مسحة الغفران، كي يذهبوا إلى العالم الآخر نظيفين من الذنوب، كأنّهم مولودون جدد، كما وضّح. توماس دِ رومِو، الذي هذر خلال خمسين عاماً ضدّ الإكليروس وعقيدة الكنيسة، تلقى السرّ

المقدّس مثل بقيّة المحكومين بل وتناول القربان أيضاً. وعلّق مازحاً: «ربّما، أيّها الأب، لا أخسر شيئاً...»، كان قد مرض منذ سمع الجنود يصلون إلى بيته الريفي، لكنّه كان الآن هادئاً. تلاشى كربه في اللحظة التي استطاع أن يودّع فيها ابنتيه. نام الليلتين التاليتين دون أحلام وقضى النهارين منتعشاً. استسلم للموت القريب بسرور لم يملكه في حياته. بدأت تعجبه فكرة أن تنتهي أيّامه بطلقة بدل أن يموت بالتدريج غارقاً في سيرورة الهرم التي لا مفرّ منها. ربّما فكّر بابنتيه، المتروكتين لمصيرهما، متمنّياً أن يفي دييغو دِ لابِغا بكلمته. شعر بهما أبعد عنه من أيّ وقت مضى. خلال أسابيع الأسر تخلّص من ذكريات ومشاعر فكسب حرّية جديدة: لم يعد هناك ما يخسره. عندما كان يُفكّر بابنتيه لم يكن يستطيع تصوّر وجهيهما أو تمييز صوتيهما، كانتا صغيرتين بلا أمّ تلعبان بدماهما في قاعات منزله المعتمة. قبل يومين، حين زارتاه في السجن ذُهل أمام تلك المرأتين اللتين حلّتا مكان تلكما الطفلتين بجزمتي ومئزرَي وشرائط ذكرياته. يا للهول، كيف يمرّ الزمن! هكذا تمتم عندما رآهما. ودّعهما دون غمّ، مندهشاً من لامبالاته نفسه. ستتدبّر خوليانا وإيزابيل حياتيهما من دونه، ما عاد يستطيع حمايتهما. منذ تلك اللحظة صار باستطاعته أن يستطعم ساعاته الأخيرة ويراقب بفضول طقس إعدامه.

في فجر موته، تلقّى توماس دِ رومِو آخر هديّة من إيولاليا دِ كالّيس، سلّة وافرة الوجبة، وزجاجة من أفضل نبيذ وطبقاً من ألذّ قطع شوكولا تنويعتِها. سمحوا له بأن يحلق ذقنه ويغتسل، تحت مراقبة حارس، وسلّموه الثياب النظيفة البديلة التي أرسلتها له ابنتاه. سار بهياً رابطَ الجأش إلى مكان الإعدام. وقف أمام العمود الملطخ بالدم حيث ربطوه، فلم يسمح لهم بأن يعصبوا عينيه. كان على رأس الفصيلة الضابط الذي يشبه أقواس قزح السماوية نفسه الذي استقبل خوليانا وإيزابيل في القلعة. كان من نصيبه أن يطلق عليه طلقة في صدغه حين تبيّن له أنّ النيران مزّقت نصف جسده

ومع ذلك بقي حيّاً. آخر ما رآه المحكوم قبل أن تنفجر طلقة الرحمة في دماغه كان نور الفجر الذهبيّ في الضباب.

العسكريّ، الذي لم يكن يُذهل بسهولة، لأنّه عانى الحرب واعتادَ وحشيّة الثكنة والزنازين، لم يستطع أن ينسى وجه العذراء خوليانا الراكعة أمامه والغارقة في الدموع. خرق قاعدة نفسه القائمة على الفصل بين القيام بالواجب والعواطف، وذهب لينقل لهما الخبر بنفسه. لم يبغ أن تعرف ابنتا سجينه الخبر بطرق أخرى.

- لم يتعذّب، أيتها الآنستان - كذّب عليهما.

علم رافائيل مونكادا في الوقت نفسه بموت توماس دِ رومِو وبخدعة إيولاليا لإخراج خوليانا من إسبانيا. المسألة الأولى كانت ضمن خططه، لكنّ الثانية تسبّبت عنده بانفجار من الغضب. ومع ذلك حرص على ألا يصطدم معها، لأنّه لم يتراجع عن فكرة الحصول على خوليانا دون أن يخسر الإرث. وكان يأسف لأنّ خالته تتمتّع بصحّة جيدة، فهي سليلة عائلة معمّرة ولم يكن هناك من أمل في أن تموت قريباً، تاركة إيّاه ثريّاً وحرّاً كي يُقرّر مصيرَه بنفسه. كان عليه أن يجعل السيّدة المتسلّطة تقبل خوليانا بالحسنى، إنّه الحلّ الوحيد. لا يخطر له إطلاقاً أن يفرض عليها زواجه، فهي لن تغفر له أبداً، لكنّه اكتشف خطّةً، قائمة عَلى أنّ إيولاليا حين كانت زوجة الحاكم في كاليفورنيا، حوّلت محاربة هنديّة خطيرة إلى غادة مسيحية وإسبانية. لم يخطر له أنّ هذه الشخصية كانت أمّ دييغو دِ لابِغا، لكنّه سمع القصّة مرّات عديدة من فم إيولاليا نفسها، التي كانت تُعاني من رذيلة محاولة مراقبة حياة الآخرين، بل وتتباهى بذلك. فكّر أن يتوسّل إليها أن تقبل ابنتي دِ رومِو في بلاطها بصفة الحماية، نظراً إلى أنّهما فقدتا والدهما وليس لهما عائلة. كان إنقاذهما من العار والتمكن من جعلهما مقبولتين من جديد في المجتمع يُشكّل تحدّياً مهمّاً بالنسبة إلى إيولاليا، تماماً كما كان

الأمر بالنسبة إلى تلك الهنديّة في كاليفورنيا، قبل نيِّفٍ وعشرين سنة. حين تفتح العجوز قلبها لخوليانا وإيزابيل، كما كانت تفعل في نهاية المطاف مع كلّ الناس، سيعود ويطرح عليها موضوع الزواج. ومع ذلك إذا لم تُعطِ تلك الخطّة المفتعلة نتيجة يبقى الخيار الآخر المقترح من إيولاليا نفسها قائماً، فكلمات خالته ولّدت عنده انطباعاً لا يُمحى: يمكن أن تكون خوليانا دِ رومِو عشيقته. سينتهي الأمر بالفتاة وقد أصبحت بلا أب يسهر عليها، إلى رعاية حامٍ ما. وما من أحد أفضل منه لهذا الدور. لم تكن فكرة سيّئة. وهذا ما سيسمح له أن يكون لديه زوجة ذات مكانة، ربّما تكون ابنه دوق مدينة سالم ذاتها، دون أن يتنازل عن خوليانا. فكّر: كلّ شيء يمكن أن يتمّ بتعقّل. وظهر في منزل توماس دِ رومِو وهذه الفكرة في عقله.

المنزل الذي بدا له دائماً أنّه ينحدر باتجاه الفاقة بدا الآن خراباً. خلال أشهر، أي منذ تبدّل الوضع السياسيّ في إسبانيا وتوماس دِ رومِو يغرق في همومه وديونه، والبناء اكتسب جوّ هزيمة وتوسّل صاحبه ذاته. كانت الأعشاب قد سطت على الحديقة والنخيل القزم والسراخس يبست في أصصها، وكان هناك روث حصان وقمامة ودجاج وكلاب في الفناء النبيل، وداخل المنزل يسودُ الغبار والعتمة، لم تُفتح الستائر ولم تُشعل المدخنة منذ شهور. بدت نفحة الخريف الباردة محاصرة في القاعات الموحشة. ما من رئيس خدم خرج لاستقباله فظهرت بدلاً عنه نوريا، باكفهرارها وجفافها الدائمين وقادته إلى المكتبة.

حاولت القهرمانة أن تحلّ محلّ رئيس الخدم وعملت الممكن كي تبقي ذلك الشراع الموشك على الغرق طافياً، لكن لا سلطة لها على بقيّة الخدم. كما أنّه لم تكن تفيض عنهم السيولة النقدية، لأنّهم خبّؤوا آخر «مُرابطي» للمستقبل، المهر الوحيد الذي سيكون لخوليانا وإيزابيل. كان دييغو قد حمل سندات دفع إيولاليا دِ كالّيس إلى مصرفيّ هي نفسها نصحته به، وهو رجل ذو نزاهة

مثيرة للجدل، سلّمه ما يعادلها حجارةً كريمة ودوبلات ذهبية ناصحاً إيّاه أن يخيط على الكنز في القميص الداخليّ. ووضّح لهم أنّ العبريين أنقذوا ممتلكاتهم بتلك الطريقة خلال قرون من الملاحقة، لأنّه يمكن نقلها بسهولة ولها القيمة نفسها في كلّ مكان. لم يكن باستطاعة خوليانا وإيزابيل أن تُصدّقا أن هذه الحفنة من البلورِ الصغير الملون تساوي كلّ ما ملكته عائلتهما.

بينما كان رافائيل مونكادا ينتظر في المكتبة بين الكتب المجلّدة بالجلد والتي شكّلت عالم توماس دِ روموِ الخاص، انطلقت نوريا لتنادي خوليانا. كانت الشابة في غرفتها، وقد أضناها البكاء والصلاة على روح والدها.

ـ لست مُجبرة على أن تُكلّمي عديمَ الضمير هذا، يا صغيرتي ـ قالت القهرمانة ـ إذا أردتِ أستطيع أن أقول له أن يذهب إلى الجحيم.

ـ أعطني الفستان الكرزيّ وساعديني على تسريح شعري، يانوريا. لا أريده أن يراني في حداد ولا مهزومة ـ قرّرت الشابّة.

وبعد لحظات ظهرت في المكتبة مبهرةً كما في أفضل أيّامها. لم يستطع رافائيل أن يرى على ضوء الشموع المتذبذبة عينيها المحمرّتين من البكاء ولا شحوب الحداد. نهض على قدميه بقفزة واحدة وقلبه يقرع بعنف، متبيّناً مرّة أخرى التأثير غير المعقول الذي لتلك الشابة على حواسّه. كان يتوقّع أن يراها منهارة من العذاب والمعاناة، لكن ها هي ذا هناك أمامه، على عهدها من الجمال والشموخ والإثارة. وحين تمكّن من إخراج صوته دون نحنحة أظهر كم تحزنه المأساة المريعة التي طالت العائلة، وكرّر أنّه لم يترك حجراً لم يرفعه طلباً لمساعدة السّيد توماس، لكنّ كلّ شيء كان عبثاً. كان يعرف، قال مُضيفاً، أنّ خالته إيولاليا نصحتها بأن تخرج مع أختها من إسبانيا، لكنّه لا يعتبر ذلك ضروريّاً. فقد كان واثقاً أنّ القبضةَ الحديدية التي يخنق بها فِرناندو السابع معارضيه

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سرعان ما ستلين. البلد كان مفلساً. والشعب عانى سنواتٍ كثيرةً من العنف وهو الآن يُطالب بالخبز والعمل والسلام. واقترح ألا تستخدم خوليانا وإيزابيل من الآن فصاعداً غير كنية الأم، لأنّ كنية الأب أصبحت ملطّخة بشكل لا رجعة فيه، وأن تتواريا عن الأنظار فترة زمنية معقولة ريثما تخرس الشائعات حول توماس دِ رومِو. ربّما تستطيعان بعدها الظهور في المجتمع. في هذه الآثناء ستكونان في حمايته.

ـ ما الذي تقترحه بالضبط، يا سيّد؟ ـ قالت خوليانا في وضعية دفاعية.

كرّر مونكادا عليها أنّه ما من شيء يجعله أسعد من أن يتخذها زوجة وأنّ عرضه السابق ما زال قائماً، لكن ونظراً للظروف لا بدّ من مراعاة المظاهر لعدّة أشهر. كما أنّ عليهما أن يتفادا معارضة إيولاليا دِ كالِيس، لكن هذا ليس مشكلة عصيّة على الحلّ. حين تسنح الفرصة لخالته كي تعرفها بشكلٍ أفضلَ لا شكّ ستُغَيِّرُ رأيها. كان يفترض أنّ خوليانا الآن، بعد أحداث بمثل تلك الخطورة، لا بدّ أنّها فكّرت بمستقبلها. ورغم أنّه لا يستحقّها ـ ما من رجل يستحقّها تماماً ـ فهو يضع حياته وثروته عند قدميها. فهي بجانبه لن ينقصها شيء أبداً. وإن كان يجب تأجيل الزواج إلا أنّه يستطيع أن يقدّم لها ولأختها الرغد والأمان. وعرضه لم يكن مبتذلاً. فهو يرجوها أن تأخذ ذلك بحُسن النية.

ـ أنا لا أطلب جواباً فورياً. أُدرك تماماً أنّك في حداد، وربّما ليست هذه هي اللحظة المناسبة للحديث عن الحب...

ـ لن نتكلّم أبداً عن الحبّ، يا سيِّد مونكادا، لكنّنا نستطيع أن نتكلّم عن صفقات ـ قاطعته خوليانا ـ فبسبب وشاية منك فقدتُ أبي.

شعر رافائيل مونكاد بأنّ الدم يصفعه في رأسه فلم يعد يستطيع التنفّس.

ـ لا يمكنك أن تتهمينني بمثل هذه السفالة! أبوك حفر قبره بيده، دون مساعدة من أحد. أغفر لك هذه الإهانة فقط لأنك منفعلة ويخنقك الألم.

مكتبة الرمحي أحمد

ـ كيف تُفكّر أن تُعوِّضنا أنا وأختي موتَ أبينا ـ أصرّت هي بغضبٍ ساطع.

كانت نبرتها من الاحتقار بحيث فقد مونكادا تماماً السيطرة على زمامه، وقرّر دون لفّ ولا دوران أن الأمر لم يعد يستحقّ التظاهر بفروسيّة عبثيّة غير مُجدية. يبدو أنّها من تلك النساء اللواتي يجبنَّ أفضل أمام السلطة الذكورية. أمسكها من ذراعيها وهزَّها بعنفٍ وبينّ لها أنّها لم تكن في وضع يسمح لها بالمساومة، بل بالامتنان. ألا تنتبه إلى أنّها يمكن أن تنتهي إلى الشارع أو السجن مع أختها، تماماً كما حدث لأبيها الخائن، فالشرطة كانت جاهزة ولم يمنع اعتقالهما غير تدخّله في الوقت المناسب. لكنّ هذا ما يمكن أن يحدث في أيّة لحظة، ووحده من يستطيع إنقاذهما من العوز والزنزانة. حاولت خوليانا التخلّص منه وخلال المشادّة تمزّق كمّ فستانها، كاشفاً عن كتفها وانفلتت دبابيس الشعر التي تمسك بكعكة شعرها، وسقط شعرها الأسود على يدي مونكادا. الرجل الذي لم يعد قادراً عن السيطرة على نفسه، قبض على شعر الشابّة وشدّ رأسها إلى الخلف وقبّلها تماماً على فمها.

دييغو كان يتجسّس على المشهد من الباب المشقوق، وهو يُكرّر بصمت مثل صلاة، نصيحةَ المعلّم إسكالانتِ في أوّل دروس المبارزة: إيّاك أن تُقاتل وأنت غاضب. ومع ذلك فحين انكبّ مونكادا فوق خوليانا ليُقبّلها بالقوّة، لم يتمالك نفسه فاندفع إلى المكتبة وسيفه في يده، مزمجراً نقمةً.

أفلت مونكادا الشابّة، دافعاً إيّاها باتجاه الجدار وأخرج سيفه.

وتقابل الرجلان منحنيي الركب والسيفان ممشوقان في زاوية قائمة على الجسم، والذراع الأخرى مرفوعة فوق مستوى الكتف للمحافظة على التوازن. وما إن اتخذ دييغو هذه الوضعية حتى انقشع الغضب وحلتْ محلّه سكينة مُطلقة. تنفَّس عميقاً، أفرغ صدره من الهواء وابتسم راضياً. أخيراً صار متحكِّماً بحميَّته، كما كان قد ألحّ عليه معلّمه إسكالانتِ. إيّاك أن تفقد نفَسَك. سكينة في النفس، وصفاء في الفكر وثبات في الذراع. هذا الشعور البارد الذي كان يسري في ظهره مثل ريح شتوية يجب أن يسبق وطيس المعركة. في هذه الحال كان العقل لا يُفكّر والجسد يستجيب انعكاسيّاً. كانت غاية التدريب الصارم في العدالة أن توجِّه الغريزةُ والمهارة حركاته. تقاطع السيفان مرّتين أو أكثر، متلامسين، وعلى الفور وجّه مونكادا طعنة عميقة أوقفها مُجمدةً. منذ المناورات الأولى استطاع دييغو أن يقدِّر نوع الخصم الذي أمامه. كان مونكادا لاعب سيف ممتاز، لكنّه كان أخفّ وأكثر ممارسة منه، فليس عبثاً أنّه جعل من المبارزة شغله الشاغل الرئيسي. وبدل أن يردّ الطعنة بسرعة، تظاهر بالارتباك، متراجعاً حتى صار ظهره على الجدار في وضعية الدفاع. كان يوقف الضربات بجهد مفتعل كالقانط، لكنّ الحقيقة أنّ الآخر لم يكن عنده مكان يستطيع أن يدخل سيفه فيه.

بعدها، حين ملك دييغو وقتاً لتقييم ما حدث انتبه إلى أنّه ودون أن يُخطِّط للأمر، كان يُمثِّل شخصيّتين مختلفتين، حسب الظروف والملابس التي يرتديها. هكذا كان يُقلّص دفاعات العدوّ. كان يعلم أنّ رافائيل مونكادا يحتقره، هو نفسه أخذ ذلك على عاتقه وذلك بالتظاهر في حضوره بغنج الغندور. كان يفعل ذلك للسبب ذاته الذي فعله مع الشافالبير وابنته أغنِس: حَذَراً.

عندما تبارز بالمسدّس مع مونكادا استطاع هذا أن يُقدِّر شجاعته، لكنّه حاول بكبرياء جريح أن ينساه. التقيا بعدها عدّة مرّات وفي كلّ مرّة كان دييغو يُعزِّز عنده الفكرة السيّئة التي يملكها

عنه، لأنّه كان يتكهّن بأنّه عدوّ بلا حياء. قرّر أن يواجِهه بالدهاء أكثر مما بالصلف. في مزرعة والده كانت الثعالب ترقص عادةً لتجلب الخراف، التي تقترب بفضول لتراقبها وعند أولّ غفلة تلتهمها. راحَ بتكتيك التظاهر بالبهلول يُضلّل ويُشوّش مونكادا. حتى تلك اللحظةِ لم يكن يعي وعياً كاملاً شخصيته المزدوجة، دييغو دِ لابِغا، الأنيق، المتدَلّل، المُوسوَس من ناحية، والثعلبُ، النبيه، الجريء واللعوب من ناحية أخرى. كان يفترض أن طبيعته الحقيقيّة موجودة في نقطة ما بين الإثنتين، لكنّه لا يعرف ماهيتها، ما إذا لم تكن أيّاً من الإثنتين أو الإثنتين معاً. تساءل كيف تراه، مثلاً خوليانا وإيزابيل، وخلص إلى أنّه لا يملك أدنى فكرة عن ذلك، ربّما أفرط في الحالة المسرحية فولّد عندهما انطباعاً بأنّه مُهرِّج. ومع ذلك لم يكن هناك وقت للتفكير بهذه المسائل، لأنّ حياته تعقّدت ويحتاج إلى عمل فوريّ. تبنّى فكرة أنّه شخصان وقرّر أن يجعل من ذلك ميّزة له.

كان دييغو يصول بين أثاث المكتبة متظاهراً بالهرب من هجومات مونكادا ومثيراً له بتعليقات ساخرة، بينما تنهمر الضربات ويلمع السيفان. تمكّن من إغاظته. فقد مونكادا برودةَ دمِه، التي كان يتباهى بها وبدأ يلهث. راح العرق يتصبّب من جبينه ويُعميه. قدّر دييغو أنّه أصبح طوع يمينه. مثل الثيران في حلبة المصارعة عليه أن يُتعبه أوّلاً.

ـ حذارِ، يا صاحب السعادة، فقد تجرح أحداً بسيفك! ـ صاح دييغو.

في هذه الأثناء كانت خوليانا قد هدأت قليلاً وبدأت تصيح بأعلى صوتها أن يُلقيا سلاحيهما، حبّاً بالله واحتراماً لذكرى والدها. طعن دييغو طعنتين أخريين أو أكثر وترك على الفورْ سلاحه ورفع يديه فوق رأسه، طالباً الرحمة. كانت مُجازفةً، لكنّه قدّر أنّ مونكادا سيكون حذراً من قتل رجلٍ أعزل على مرأى من خوليانا، لكنّ عدّوه انقضّ عليه بصرخة انتصار ومندفعاً بكلّ جسده.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تفادى دييغو شفرة السلاح التي لامست وركه وأدرك النافذة بقفزتين ليلوذ خلف ستارة المخمل السميكة، المتدلية حتى الأرض. اخترق سيف مونكادا القماش، مُطلقاً سحابة من الغبار وعلق السيف واضطرّ الرجل أن يجهد في تخليصه. منح هذا دييغو ثوانٍ كي يقذف بالستارة في وجهه ويقفز فوق طاولة المَغْنَة. أخذ مُجلّداً ضخماً ورماه به فأصابه على صدره فكاد مونكادا أن يفقد رجله، لكنّه سرعان ما انتصب وهجم من جديد. تفادى دييغو ضربتين ورماه بعددٍ آخر من الكتب، ثمّ رمى بنفسه على الأرض وانسلّ تحت الطاولة.

ـ الرحمة، الرحمة! لا أريد أن أموت مثل فرّوج! ـ أنَّ بنبرة بادية السخرية متقوقعاً تحت الطاولة وكتاب آخر في يديه، مثل ترس كي يتفادى طعنات خصمه العمياء.

بجانب الكرسيّ كان العكّاز ذو المقبض العاجيّ الذي يتّكِئ عليه توماس دِ رومِو عندما كان يُصاب بداء النقطة، فاستخدمه دييغو كي يمسك برسغ مونكادا، فتله بقوة فسقط هذا جالساً على الأرض، لكنّه كان في حالة بدنية جيّدة، فنهض على قدميه في ثانية، هاجماً من جديد. كانت إيزابيل ونوريا قد هرعتا على صرخات خوليانا. كفى إيزابيل نظرة سريعة لتنتبه إلى الوضع، واعتقاداً منها بأنّ دييغو على وشك أن يذهب لينتهي في المقبرة أخذت سيفه، الذي كان قد طار إلى الطرف الآخر من الغرفة وواجهت مونكادا دون تردّدٍ. كانت المرّة الأولى التي تختبر فيها مهارتها التي أحرزتها خلال سنوات تدريبها الأربع على المبارزة أمام المرآة.

ـ هيّا ـ تحدّته، غاضبة.

غريزيّاً وجّه إليها رافائيل مونكادا طعنة، واثقاً من أنّه سينزع سلاحها بضربة واحدة، لكنّه وجد نفسه أمام مقاومة حازمة. عندها انتفض، منتبهاً، على الرغم من الغضب الذي استوحشه، إلى الجنون الذي يعنيه أن يقاتل طفلة، خاصّة إذا كانت أخت الفتاة التي كان

يُحاول استمالتها. رمى سلاحه، الذي سقط دون صوت على السجادة.

ـ هل تُفكّرين بقتلي بدم باردٍ، يا إيزابيل؟ ـ سألها ساخراً.

ـ خذ سيفك، أيّها الجبان!

وكجواب قاطع تكتّف مبتسماً بازدراء.

ـ إيزابيل! ماذا تفعلين؟ ـ تدخّلت خوليانا مذعورةً.

تجاهلتها أختُها. وضعت رأس السيف تحت ذقن رافائيل مونكادا، لكنّها لم تعرف ماذا تفعل بعدها. مهزلة الحالة انكشفت أمامها بكلّ حجمها.

ـ غرزه في حلقوم هذا الفارس، كما يستحق دون شكّ، سيجلب بعض المشاكل القانونية، يا إيزابيل. لا يمكن أن يمضي الإنسان في هذه الحياة وهو يقتل الناس. لكن لا بدّ أن نفعل به شيئا... ـ تدخّل دييغو، مُخرجاً منديله من جيبه ونافضاً إيّاه في الهواء قبل أن يُجفّف به جبينه بحركة تأثّر.

كانت هذه الثواني كافية كي يمسك رافائيل ذراع إيزابيل ويفتله ويجبرها على إفلات السيف. دفعها بقوّة فذهبت الفتاة بعيداً لترتطم برأسها على الطاولة. سقطت على الأرض زائغةً قليلاً، بينما أخذ مونكادا سلاحها ليواجه دييغو، الذي تراجع بكلّ سرعة وتفادى عدّة طعنات من عدوّه، وبحث عن طريقة يُجرّده بها من سلاحه ليلتحم معه جسداً بجسد. انتعشت إيزابيل بسرعة وأمسكت بسيف مونكادا ورمت به بصرخة استنفار إلى دييغو، الذي تكمن من التقاطه في الهواء. شعر وقد صار مسلّحاً بأنّه آمن واستعاد جوّ السخرية الذي طالما أفقد خصمه صوابه قبل دقائق. وبحركة سريعة جرحه جرحاً خفيفاً في ذراعه الأيسر، لا يكاد يكون خدشاً، لكن تماماً في المكان الذي أصابه فيه بطلقة المبارزة. أطلق مونكادا صرخة ذهول وألم.

ـ الآن نحن متساويان ـ قال دييغو ونزع سلاحه بطعنة مقلوبة.

ومع ذلك كان تحت رحمته. يسند بيده اليمنى الذراع المجروحة من فوق مزق السترة التي تلطخت بخيط من الدم. امتقع لونه حنقاً أكثر مما خوفاً. وضع دييغو السيف في صدره كما لو أنّه سيخترقه، لكنّه ابتسم بلطف.

ـ للمرّة الثانية يسعدني أن أغفر لك حياتك، يا سيِّد مونكادا. الأولى كانت أثناء مبارزتنا الخالدة. آمل ألا تصبح هذه عادة عندك ـ قال خافضاً سيفه.

لم يحتاجا إلى أن يتجادلا كثيراً. فدييغو كما ابنتا دِ رومِو كانوا يعرفون أنّ تهديد مونكادا كان صحيحاً، وأن أعوان الملك يمكن أن يظهروا في المنزل بين لحظة وأخرى. كانوا قد استعدّوا لهذا الحدث منذ أن اشترت إيولاليا أملاك العائلة وأُعدِم توماس دِ رومِو، لكنّهم اعتقدوا أنّ بمقدورهم أن يذهبوا من الباب العريض، بدل أن يخرجوا هاربين كالأشرار. استغرقوا نصف ساعة تماماً كي يذهبوا بما عليهم إضافة إلى الذهب والحجارة الكريمة التي وكما نصحهم المصرفي خاطوا عليها في المآزر وربطوها حول خصورهم، تحت الثياب. خطر لنوريا أن تحبس مونكادا في غرفة المكتبة الخفيَّة. أخرجت كتاباً من مكانه وشدّت الرافعة فدارت الرفوف ببطء حول نفسها، كاشفةً عن مدخل غرفة مجاورة، كانت خوليانا وإيزابيل تجهلان وجودها تماماً.

ـ كان لدى أبيكما بعض الأسرار، لكن ما من سرّ منها لا أعرفه ـ قالت نوريا على سبيل التوضيح.

كان الأمر يتعلّق بحجرة صغيرة بلا نوافذ ولا منفذ إلى الخارج غير ذلك المخرج المموّه بالرفوف. عندما أشعلوا مصباحاً اكتشفوا في داخلها صناديق كونياك، وعلب سيجار صاحب البيت المفضّل، ورفوفاً بمزيد من الكتب وبعض اللوحات الغريبة المُعلّقة على

الجدران. عندما اقتربوا منها تبيّنوا أنّها سلسلة من ستّة رسومات بالحبر الأسود تمثّل أفظع مشاهد الحرب، تقطيع أجساد، عمليات اغتصاب، وحتى أكل لحوم بشر، لم يبغِ توماس دِ رومِو أن تراها ابنتاه أبداً.

- يا له من شيء يقشعر له البدن! - صاحت خوليانا.

- إنّها من صنع المُعلِّم غويا! هذه قيمتها عالية، نستطيع أن نبيعها - قالت إيزابيل.

- ليست لنا. كلّ ما يحتويه هذا المنزل الآن للسيِّدة إيولاليا دِ كالّيس - ذكّرتها أختها.

كانت الكتب في عدّة لغات وجميعها على لائحة الكنيسة أو القائمة السوداء. أخذ دييغو مُجلَّداً وكان بالمُصادفة التاريخ المُصوّر لمحاكم التفتيش، مع صور توضيحية واقعية حول طرقهم في التعذيب. أغلقه فجأة، قبل أن تراه إيزابيل، التي أطلّت بأنفها من فوق كتفه. كما كان هناك قسم مُخصَّص للإيروسية، لكن ليس لديه وقت ليتفحّصه. كانت الحجرة المصمتة المكان المثاليّ لترك رافائيل مونكادا مسجوناً.

- هل جُننتم؟ سأموت هنا خمصاً أو خنقاً من نقص الهواء! - صاحَ هذا حين أدرك نواياهم الشريرة.

- سعادته على حقّ، يا نوريا. ففارس بمقام مثل مقامه لايستطيع أن يعيش على الكحول والتبغ وحدهما. هاتِ له من المطبخ خنزيراً مُقدّداً كيلا يجوع، ومنشفةً لذراعه - قال دييغو، دافعاً بغريمه إلى الحجرة.

- وكيف سأخرج من هنا؟ - أنّ الأسيرُ مذعوراً.

- بالتأكد هناك آليّة سرّية في الحجرة لفتح الباب من الداخل. وسيكون عندك فائض من الوقت كي تكتشفها. بمهارتك وحظّك ستخرج طليقاً برفّة جفن - ابتسم دييغو.

- سنترك لك مصباحاً، يا مونكادا، لكنّني لا أنصحك بإشعاله، فهو سيستهلك كلّ الهواء. هيا يا دييغو، كم تُقدِّر الوقت الذي يستطيع أن يعيشه شخص هنا؟ - أضافت إيزابيل، متحمّسة للمشروع.

- عدّة أيّام. ما يكفي كي يمعن النظر بعمق في المثل الحكيم القائل بأن الغاية لا تُبرّر الوسيلة - ردَّ دييغو.

تركوا رافائيل مونكادا مزوّداً بالماء والخبز ولحم الخنزير المُقدَّد، بعد أن نظّفت نوريا الجرح في ذراعه وضمّدته له. وقالت إيزابيل: للأسف أنّه لن يُصفّى دمه بسبب هذا الجرح الطفيف. نصحوه ألا يضيّع الهواء والجهد بالصراخ، لأنّ أحداً لن يسمعه، فالخدم الباقون لن يقتربوا من هذه الناحية. كلمات السجين الأخيرة قبل أن يُدوّر الرفوف ويُغلق مدخل الحجرة، مغرقين إيّاه في الصمت والظلمة كانت أنّهم سيعرفون من هو رافائيل مونكادا، وأنّهم سيندمون لأنّهم لم يقتلوه، وأنّه سيخرج من هذا الجحر وسيعثر على خوليانا عاجلاً أو آجلاً، حتى ولو لاحقها إلى الجحيم ذاته.

- ليس من الضروري الذهاب بعيداً إلى هذا الحدّ، سنذهب إلى كاليفورنيا - ودَّعه دييغو.

يؤسفني أن أقول لكم إنّني لا أستطيع الاستمرار في الكتابة، لأنّ ريش الإوز انتهى عندي وهو الذي أستخدمه دائماً، لكنّني طلبتُ المزيد منه وسرعان ما سأستطيع إنهاء هذه القصّة. لا أحبّ ريش الطيور العادية، لأنّه يلطّخ الورق ويُقلّل من أناقة النص. سمعت أنّ هناك بعض المخترعين الذين يحلمون بإبداع جهاز آليّ للكتابة، لكنّني واثقة من أنّ اختراعاً خيالياً من هذا النوع لن يزدهر أبداً. هناك عمليات لا يمكن إنجازها بالآلات الكاتبة، لأنّها تحتاج حناناً والكتابة واحدة منها.

أخشى أن تكون هذه الرواية قد طالت، على الرغم من الكثير

الذي حذفته منها. في حياة زورو، كما في كلّ حياة، هناك لحظات متألقة وأخرى مكفهرّة، لكنّ بين الطرفين مناطق كثيرة محايدة. لا بدّ أنكم لاحظتم، مثلاً، أنّ ما حدث لبطلنا ويستحقّ الذكر في العام 1813 قليل. فقد تفرّغ لأموره دون عناء ولا عزّ ولم يتقدّم كثيراً في موضوع استحواذه على خوليانا. كان لا بدّ أن يعود رافائيل مونكادا من أوديسا شوكولاهُ كي تستعيد هذه القصّة بعض الرشاقة. وكما قلتُ سابقاً، فإنّ الأوغاد، الكريهين في الحياة الواقعية لا غنى عنهم بالنتيجة في العمل الروائي، وهذه الصفحات هي كذلك. أردت في البداية أن أكتب تاريخاً أو سيرة، لكنّني لا أتمكّن من رواية أسطورة زورو دون الوقوع في جنس الرواية المُقلّل من شأنه. بين كلّ مغامرة وأخرى من مغامراته هناك مراحل لا قيمة لها، حذفتها كيلا أقتل قرّائي المحتملين بالضجر. وللسبب نفسه، فقد زيّنت الفصول الجديرة بالذكر واستخدمت بسخاء نعوتاً وأضفت تشويقات لمآثره، على الرغم من أنّني لم أُبالغ كثيراً بفضائله الجديرة بالمديح. هذا ما يُسمّى مجازاً أدبياً، وحسب ما أفهم، هو أكثر شرعيّة من الكذب المحض.

على أيّ حال، يا أصدقائي، ما زال في محبرتي ما يكفي. في الصفحات التالية، التي أقدّر أنّها لن تكون أقل من مئة، سأروي رحلة زورو مع الصغيرتين دِ رومِو ونوريا عبر نصف العالم والأخطار التي تعرّضوا إليها في إتمام قدرهم. أستطيع أن أستبق دون خوف من تدمير النهاية، إنّهم اجتازوه سالمين وبعضهم وصل حتى أعالي كاليفورنيا، حيث لن يكون للأسف كلّ شيء عسلاً وزبدة. في الحقيقة الآن بدأت ملحمة زورو الحقيقية، التي منحته شكلاً في العالم كلّه. بمعنى أنّني أرجوكم قليلاً من الصبر.

القسم الرابع

إسبانيا نهاية عام 1814 بداية عام 1815

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حصلت على ريش إوزٍّ كي أتابع مع شباب زورو. تأخرتُ شهراً في الوصول من المكسيك، وخلال ذلك أضعت إيقاع الكتابة. لنرى ما إذا كنتُ سأستعيده. تركنا دييغو دِ لابِغا هارباً من رافائيل مونكادا مع الصغيرتين دِ رومِو ونوريا في إسبانيا التي شنّجها القمع السياسيّ والفاقة والعنف. وجدتْ شخصياتُنا نفسها على مفترق طرقٍ صعب. لكنّ زورو الغندور لم يجافه النوم بسبب المخاطر الخارجية، بل بسبب ارتياع قلبه المنهك. فالعشق حالة عادة ما تغشى على عقل الرجال، لكنّه ليس خطيراً، إذ أنه بشكل عام ما أن يلقى تجاوباً حتى يستعيد تعقّله ويبدأ يشمّ الهواء بحثاً عن فرائس جديدة. كراوية لهذه القصّة، سيكون أمامي بعض المشاكل مع النهاية الكلاسيكية: «تزوّجا وكانا سعيدين». على كلّ حال من الأفضل لنا أن نعود ونمسك بزمام الكتابة، قبل أن أصاب بالاكتئاب.

بعد أن أغلقوا البابَ المموّه برفوف المكتبة، بقي رافائيل مونكادا معزولاً في الحجرة السرّية. صرخات النجدة لم تصل إلى الخارج، لأنّ الجدران السميكة والكتبَ والستائرَ والسجاجيدَ امتصّت الصوت.

ـ سنخرج من هنا ما إن يحل الظلام ـ قال دييغو دِ لابِغا لخوليانا وإيزابيل ونوريا ـ سنحمل معنا الحدّ الأدنى مما لا غنى لنا عنه للسفر، تماماً كما اتفقنا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ـ هل أنت واثق من أنّه توجد آليّة لفتح باب الحجرة من الداخل؟ ـ سألت خوليانا.

ـ لا.

ـ هذه المزحة تجاوزت حدّها، يا دييغو. فنحن لا نستطيع أن نتحمّل موتَ رافائيل مونكادا، وأقل من ذلك موته موتاً بطيئاً وفظيعاً في قبر مُطبِق.

ـ لكن انظري ما ألحقه بنا! ـ صاحت إيزابيل.

ـ لن ندفع له بالعملة نفسها، لأنّنا أشخاص أفضل منه ـ ردّت أختها جازمةً.

ـ لا تنشغلي، يا خوليانا، فعاشقُك لن يموت اختناقاً هذه المرّة ـ ضحك دييغو.

ـ ولماذا لا؟ ـ قاطعته إيزابيل، خائبةً.

لكزها دييغو وشرع يشرح لهنّ أنّه سيُعطي، قبل أن يذهبوا، رسالةً لجوردي كي يذهب ويسلّمها إلى إيولاليا دِ كالّيس شخصياً خلال يومين. وفيها يضع مفاتيح المنزل والإرشادات للعثور على الحجرة وفتحها. في حال أنّ رافائيل لم يتمكّن من فتح الباب فستنقذه خالته. فالمنزل الكبير مثله مثل بقية أملاك عائلة دِ رومِو يعود لهذه السيّدة، التي ستأخذ على عاتقها نجدة حفيدها المُفضّل، قبل أن يشرب هذا الكونياك كلّه، وسيعطونه بعض المرابطيّات على أمل أن تُكافئه إيولاليا بالمزيد منها عند استلامها الرسالة.

خرجوا ليلاً في عربةٍ من عربات العائلة، يقودها دييغو. ودّعت خوليانا وإيزابيل ونوريا بنظرة البيتَ الكبير الذي قضين فيه حياتهن. خلفهنّ بقيت ذكريات مرحلة سعيدة وآمنة، خلفهنّ بقيت الأشياء التي كانت تشهد على مرور توماس دِ رومِو في هذا العالم. لم تستطع ابنتاه أن تواراياه التراب بشكل لائق، فجثمانه ذهب ليستقرّ في حفرة جماعية بجانب جثث سجناء آخرين أُعدموا في القلعة.

الشيء الوحيد الذي احتفظنا به هو صورة وجهية مصغّرة، رسمها له رسام قطلانيّ، يظهر فيها شاباً، نحيلاً، لا يمكن معرفته. كانت النساء الثلاث يشعرن بأنّهنّ يعبرن في تلك اللحظة عتبة نهائيّة ويبدأن مرحلةً أخرى من حياتهنّ. كنّ يمضين صامتات، خائفات وحزينات. بدأت نوريا تُصلّي صلاةَ السبحة بصوت مسموعٍ، فرافقهن الترتيل العذب للصلوات برهةً طويلة، حتى نمن. كان دييغو في مقعد الحوذيّ يحثّ الجياد ويُفكّر بِبرناردو، كما كان يفعل يوميّاً تقريباً. كان يشتاق إليه إلى حدّ أنّه فوجِئ أحياناً وهو يتكلم مع نفسه، كما كان يفعل دائماً معه. فحضور أخيه الصامت، وثباته الصخري في حماية ظهره والدفاع عنه من كلّ خطر، هو تماماً ما كان يحتاجه. تساءل ما إذا كان فعلاً قادراً على حماية ابنتي دِ رومِو، أم أنّه على العكس يقودهنّ إلى الضياعِ. خطّته لاجتياز إسبانيا يمكن أن تكون إحدى جنوناته، هذا الشكّ كان يُعذّبه. كان خائفاً مثل المسافرات معه. لم يكن الخوف العذب الذي يسبق خطر معركة، هذه القبضة المغلقة التي تسدّ بوّابة معدته، هذا البرد الجليدي في نقرته، بل المسؤولية الثقيلة جدّاً التي لم يكن مستعداً لها. فإذا ما حدث شيء لأولئك النساء، وعلى الأخصّ لخوليانا... لا، يُفضّل ألا يُفكّر بهذا الاحتمال. صرخ منادياً بِرناردو وجدّته البومة البيضاء لمساندته فضاع صوته في الليل، ابتلعته الريح وحوافر الخيل. كان يعرف أنّ رافائيل مونكادا سيبحث عنهم في مدريد ومدن أخرى مهمّة، وسيجعلهم يراقبون الحدود مع فرنسا، ويُفتّشون كلّ سفينة تخرج من برشلونة وأيّ ميناء آخر على المتوسّط، لكنّه ظنّ أنّه لن يذهب ليبحث عنهم على الشاطئ الآخر. كان يُفكّر أن يحتال عليه، ويبحرَ من ميناء لا كورونيا على الأطلسي، لأنّه ما من أحد سليم العقل يمكن أن يذهب من برشلونة إلى هناك ليستقلّ سفينة. سيكون من الصعب جدّاً أن يُجازف قبطانُ سفينة ويحمي هاربين من العدالة، كما بيّنت له خوليانا، لكن لم يخطر له حلّ آخر. سيرى فيما بعد كيف يحلّ مشكلة عبور الأطلسي، فقبل ذلك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عليه أن يتجاوز العوائق على اليابسة. قرّر أن يتقدّم أكثر ما يستطيع خلال الساعات التالية ويتخلّص على الفور من العربة، لأنّه يمكن أن يكون هناك من رآهم يخرجون من برشلونة.

بعد منتصف الليل ظهر الإنهاك على الجوادين واعتبر دييغو أنهم ابتعدوا ما يكفي عن المدينة كي يستريحوا برهةً. خرج عن الطريق مستغلاً ضوء القمر وقاد العربة نحو الغابة، حيث فكّها عن الجوادين وتركهما يرعيان. كان الليل صافياً وبارداً. نام الأربعة في العربة، متدثّرين بالبطانيّات إلى أن أيقظهنّ دييغو بعد ساعتين والظلام ما يزال مُخيّماً كي يتقاسموا وجبة من الخبز والسجق. وعلى الفور وزّعت عليهم نوريا الثياب التي عليهم أن يستخدموها في بقيّة الرحلة: ثياب الحجّاج التي خاطتها بنفسها نذراً لسانتياغو دِ كومبوستِلا إذا ما أنقذ حياة توماس دِ رومِو: كانت أدثرة تصل إلى منتصف الساق، قبّعات عريضة الحواف، عكّازات أو عصي من الخشب معقوفة النهاية تُعلّق إليها قرعة خاصّة لجمع الماء. وللوقاية من البرد كانوا يأتزرون بوزراتٍ وجوارب وقفازات صوفية سميكة. كما أنّ نوريا حملت معها زجاجتين من مشروب كحوليّ قويّ مفيد جدّاً لنسيان الآلام. لم تتصوّر القهرمانة قط أنّ هذه الثياب الطويلة الخشنة ستفيد في هرب من تبقّى من العائلة ولا أن تنتهي بأن تفي بنذرها للقديس، دون أن يفي هذا بما عليه من النذر. وبدا لها ذلك سخرية غير جديرة بشخصيّة بمثل جدّية الرسول سانتياغو، لكنّها افترضت أنّ هناك مقصداً خفيّاً سينكشف لها في اللحظة المناسبة. في البداية بدت لها فكرة دييغو داهية، لكنّها ما إن قلّبت الخريطة حتى أدركت ماذا يعني عبور إسبانيا على الأقدام من أعرض جوانبها. لم تكن نزهةً، كانت ملحمة. فأمامهم على الأقل شهران من المسير تحت رحمة الطبيعة، يتغذّون على ما يتمكنون من الحصول عليه من الإحسان وينامون تحت النجوم. ثمّ إنّهم كانوا في تشرين الثاني، حيث تُمطر في كلّ لحظة وسرعان ما ستُصبح الطرقات مغطاة بالجليد. وما من أحد منهم كان معتاداً على السير

مسافاتٍ طويلةً، خاصّة في صنادل الفلاحين. سمحت نوريا لنفسها بأن تشتم سانتياغو بين أسنانها، وتقول بالمناسبة لدييغو ما كانت تُفكّر به تجاه مسيرة الحجّ المجنونة تلك.

ما إن ارتدوا ملابس الحجّاج وتناولوا فطورهم، حتى قرّر دييغو ترك العربة. أخذ كلٌّ واحد منهم أشياءه ولفّها في بطانية وربط الصرّة إلى ظهره، وحملوا ما تبقّى على ظهر الجوادين. كانت إيزابيل تحمل مسدّس والدها مخفيّاً بين ثيابها ودييغو يحمل قناع الثعلب في الصرّة، الذي لم يستطع التخلّص منه وتحت السترة خنجران بِتكائيان حادان بطول شبر. وكان يُعلّق السوط إلى خصره كما هي الحال دائماً. اضطُرّ لترك سيفه الذي أهداه له أبوه في كاليفورنيا والذي لم ينفصل عنه حتى ذلك الوقت، لأنّه كان من المحال عليه إخفاؤه. فالحجّاج لم يكونوا يتسلّحون. الأشرار الأسوأ كانوا يكثرون في الطرق لكنّهم لم يكونوا يكترثون عامّةً بالحجّاج الذاهبين إلى كومبوستِلا، ذلك أنّهم كانوا يُمارسون نذور العيش الفقير خلال الطريق. ما من أحد كان يتصوّر أن يكون أولئك المشّاؤون المتواضعون يملكون ثروة صغيرة من الأحجار الكريمة المخيطة في ثيابهم. لم يكونوا يختلفون في شيءٍ عن التوّابين العاديين، الذين يأتون ليركعوا أمام سانتياغو الشهير، الذي تُعزى له معجزة أنّه أنقذ إسبانيا من الغزاة المُسلمين. وقد بقي العربُ يفوزون بالنصر قروناً في المعارك بفضل ذراع محمّد الذي لا يقهر، والذي كان يرشدهم، حتى عثر راعٍ بشكل مناسب على عظام سانتياغو مهجورة في حقل جليقي. كيف وصلت عظامه من الأرض المقدّسة إلى هناك؟ هذا ما كان يشكل جزءاً من المُعجزة. وقد تمكّنَ هذا الأثر من توحيد الممالك المسيحية الصغيرة في المنطقة، وكانت من الفعالية في قيادة بواسل إسبانيا بحيث أنّ هؤلاء طردوا المسلمين واستعادوا أرضاً للمسيحية. وتحوّلت سانتياغو دِ كومبوستِلا إلى أهم مكان للحجّ في أوروبا. على الأقل تلك كانت حكاية نوريا، لكنّها أكثر زخرفة. كانت القهرمانة تعتقد أنّ رأس

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الرسول ما زال على حاله ويذرفُ في كلّ يوم جمعة آلام دموعاً خضراء. البقايا المزعومة كانت في تابوت من فضّة تحت مذبح الكاتدرائيّة، لكن وبهدف حمايتها من نزهات القرصان فرانسيس دراك، خبّأها أُسقفٌ بشكل جيّد بحيث أنّهم لم يتمكّنوا من العثور عليها خلال زمن طويل. ولهذا السبب وبسبب الحرب وانعدام الإيمان فقد انخفض عدد الحجّاج، الذي كان يصل في الماضي إلى مئات الآلاف. الذين كانوا يأتون إلى المقام من فرنسا يسلكون الطريق الشمالي، عابرين بلاد الباسك، وهو الطريق الذي اختاره أصدقاؤنا. وبقيت الكنائس والأديرةُ والمستشفيات بل وحتى أفقر الفلاحين يُقدّمون لقرونٍ المأوى والطعام للمسافرين. ذلك التقليد المضياف كان مواتياً للمجموعة الصغيرة التي يقودها دييغو، لأنّه سمح لهم بالسفر متحررين من حمل الزاد. على الرغم من أنّ الحجّاج كانوا نادرين في ذلك الفصل ـ كانوا يُفضّلون السفر في الربيع والصيف ـ كان الأصدقاءُ يأملون ألا يلفتوا الانتباه، لأنّ الغليان الديني راح يزداد منذ انسحاب الفرنسيين من البلد، ونذر الكثير من الإسبان أن يزوروا القديس إذا كسبوا الحرب.

كانت الشمس تُشرق حين عادوا إلى الطريق وراحوا يسيرون. ساروا في ذلك اليوم الأوّل أكثر من خمسة فراسخ، إلى أن أعلنت خوليانا ونوريا عن هزيمتهما لأنّ أقدامهما أدميت وتضوّرتا جوعاً. توقّفوا في حوالى الساعة الرابعة في كوخٍ ريفيّ، صاحبته امرأة مفجوعة، فقدت زوجها في الحرب. ولم يمت كما أخبرتهم على أيدي الفرنسيين، بل ذبحه إسبان، اتهموه بأنّه يُخبّئ الطعام بدل أن يُسلمه إلى رجال حرب العصابات. كانت تعرف من هم القتلةُ، فقد رأت وجوههم جيّداً، فلاحون مثلها استغلّوا الأيّام السيّئة لارتكاب أعمال العنف. لم يكونوا رجال حرب عصابات بل مجرمين، اغتصبوا ابنتها المسكينة، المجنونة منذ ولادتها، التي لم تكن تؤذي أحداً، وسطوا على الحيوانات. نجت منهم المعزاة، التي كانت ترعى في التلال. أحد هؤلاء التهم الزهري أنفه والآخر كان في وجهه ندب

طويل. وأضافت إنّها تتذكّرهم جيّداً، ولا يمرّ يوم إلا وتلعنهم وتطلب الانتقام منهم. كانت رفقتها الوحيدة ابنتها، التي كانت تُبقي عليها مقيّدة إلى كرسيّ، كي لا تخدش نفسها. كانت الأم وابنتها تعيشان مع سرب من الكلاب في المسكن الذي كان مكعباً أفطس من حجارة وطين، نتناً بلا نوافذ. لم يكن عند الفلاحة الكثير مما تُعطيه وتعبت من كثرة ما استقبلت شحّاذين، لكنّها لم تبغِ أن تتركهم في العراء. وقالت وُلِد الطفلُ الربّ في المعلف لأنّهم رفضوا أن يحسنوا استضافة القديس يوسف والعذراء مريم. وكانت تعتقد أنّ رفض استقبال الحجّاج ثمنه قروناً من العذاب في المطهر. جلس المسافرون على الأرض الترابية تُحيط بهم الكلاب المقمّلة، كي يستعيدوا أنفاسهم من التعب، بينما راحت تطبخ بعض البطاطا على الجمر وتُخرج بصلتين من حديقتها البائسة.

ـ هذا هو كلّ ما عندي. لم نأكل أنا وابنتي شيئاً آخر منذ شهور. لكن قد أستطيع غداً حلبَ المعزاة ـ قالت.

ـ جازاك الله خيراً، يا سيّدة ـ تمتم دييغو.

كان الضوء الوحيد في المسكن يأتي من فجوة الباب، الذي تُغلقه ليلاً بجلد حصان قاسٍ ومن الموقد الصغير الذي شوت فيه البطاطا. وبينما هم يلتهمون الطعام الزاهد راحت الفلاحة تراقبهم من طرف عينيها الصغيرتين والرمصاوين. رأت أيادي بيضاء وناعمة، وجوهاً نبيلة، قامات رشيقة، تذكّرت أنّهم يمضون ومعهم جوادان وخلصت إلى استنتاجاتها. لم تبغِ تقصّي التفاصيل، فكّرت أنّه كلّما قلّت معرفتها قلّ تعرضها للمشاكل. لم يكن وقت الإكثار من الأسئلة. وحين انتهى ضيوفها من تناول الطعام قدّمت لهم بعض جلود الخراف سيئة الدباغة وقادتهم إلى منطقة مسقوفة تخبّئ فيها الحطب والعرانيس اليابسة. هناك أقاموا. رأت نوريا أنّها أكثر راحة بكثير من البيت البائس برائحة كلابه وجنير مجنونته. اقتسموا المكان والجلود واستعدوا لليلةٍ طويلة. كانوا يستريحون بأفضل

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ماباستطاعتهم حين ظهرت الفلاحة جالبة لهم مبولةً فيها شحم سلّمتها لهم ونصحتهم باستخدامه للرضوض. بقيت تنظر إلى المجموعة المثخنة بالجراح بمزيجٍ من الريبة والفضول.

ـ ليس فيكم من الحجّاج شيء. واضح أنّكم أهل نِعَم. لا أدري مم تهربون، لكن لكم مني نصيحة مجانية. هناك أوغاد كثيرون في هذه الطرق. عليكم ألا تثقوا بأحد. الأفضل ألا يروا الفتاتين. لتُغطّيا وجهيهما على الأقل ـ أضافت قبل أن تدور نصف دورة وتذهب.

لم يعرف دييغو كيف يُخفّف من قلق النساء، وخاصّة من كانت تهمّه أكثر: خوليانا. كان توماس دِ رومِو قد أوكل إليه أمر ابنتيه ويجب معرفة الظروف التي كانت فيها البائستان. هما المعتادتان على أسرّة الريش والملاحف المطرّزة، ترتاحان الآن على كومة من الذرة اليابسة وتقشطان الحشرات بكلتي يديهما. كانت خوليانا مُدهِشة، لم تتذمّر مرّة واحدة خلال هذا اليوم الشاق، بل إنّها أكلت بصلة العشاء النيّئة دون تعليق. وللعدل يجب أن نعترف أنّ نوريا لم تكشف عن وجهٍ مُكفهرّ أيضاً، أمّا إيزابيل فيبدو أنّها كانت مسرورة بالمغامرة. وقد زاد حنان دييغو تجاههنّ حين رآهنّ بمثل ذلك الاحترام والشجاعة. وشعر بحنوٍّ لا حدود له تجاه هذين الجسدين المعذّبين وبرغبة هائلة للتخفيف من تعبهما، لتدثيرهما من البرد، وإنقاذهما من أيّ خطر. لم تكن إيزابيل تشغله كثيراً، التي كانت تملك مقاومة مهرة، ولا نوريا، التي كانت تتدبّر أمرها بجرعاتٍ من الكحول، بل خوليانا. صندل الفلاّحة ملأ قدميها بالفقاقيع، على الرغم من الجوربين الصوفيين، وقد ألهب احتكاك الرداء جلدها. لكن بماذا كانت تُفكّر خوليانا في هذه الأثناء؟ لا أدري، لكنّني أتصوّر أنّها بدت لدييغو على ضوء المساء المُحتَضَر جميلة. لم يكن قد حلق ذقنه منذ يومين، وكان ظلُّ ذقنه الداكن يضفي عليه خشونة ورجولة. لم يعد الصبيّ المرتبك، المتوتّر، والهزيل، أو محض ابتسامة وأذنين، ظهر في بيتها قبل أربع سنوات. كان رجلاً. وهو

سيكمل العشرين خلال أشهر قليلة، عاشها تماماً، نما خلال ذلك جسمه وأصبح رابط الجأش. لم يكن سيّئ المظهر أبداً، وكان يُحبّها بإخلاص جروٍ مُؤثِّر. لا بدّ أنّ قلبَ خوليانا كان من حجر حتى أنّها لا تلين. وقد استغلّ دييغو الشحم الشافي ذريعةً كي يدغدغ قدَمَي حبيبته برهة طويلة ويتلهّى بالمناسبة عن أفكاره المشؤومة. وسرعان ما تغلّبت طبيعته المتفائلة عليه فسمحت له كي يتوسّع بالتدليك باتجاه بطتي الساقين. «لا تكن خليعاً، يا دييغو»، انتهرته إيزابيل، محطِّمة سعادته في لمحة بصر.

غفت الأختان بينما هو يُقلّبُ همومه المتنوّعة. وخلص إلى أنّ الشيء الوحيد السعيد في تلك الرحلة هي خوليانا، وما عداه كان تعباً وضيقاً. كان رافائيل مونكادا وطالبو ودّ آخرون قد أصبحوا خارج اللعبة، فهو أخيراً يملك فرصة كاملة لاكتساب ودّ الجميلة، أسابيع وأسابيع من العيش اللصيق. ها هي على بُعد أقل من ذراع منه، منهكة، متسخة، موجوعة وهشّة. يستطيع أن يمدّ يده ويلمس خدّها المتورّد من النوم، لكنّه لا يجرؤ. ينام كلّ ليلة إلى جانبها، مثل زوجين عفيفين، ويشاطرها كلّ لحظة من لحظات النهار. وخوليانا لا تعتبر أنّ هناك حماية أخرى لها في هذا العالم غيره، وهذه الحالة كانت صنيعاً لصالحه تماماً. لن يستغلّ أبداً هذه الميّزة ـ طبعاً كان فارساً ـ لكنّه لا يستطيع إلا أن يُلاحظ أنّ تبدّلاً حدث عندها في يوم واحد. صارت خوليانا تنظر إليه بعينين أخريين. كانت قد نامت متقوقعة، ترتعد برداً تحت جلود الخراف في زاوية من الكوخ، لكنّها بعد قليل شعرت بالدفء وأخرجت رأسها تبحث عن وضعية مريحة فوق كومة الذرة. عبر شقوق الخشب كان يدخل بهاء القمر الأزرق وينير وجهها التام، المتروك للنوم. ودّ دييغو لو أنّ هذا الحجّ لا ينتهي أبداً. واتخذ مكانه قريباً منها إلى حدّ أنّه كان يستطيع أن يشعر بحرارة أنفاسها، وعبق خصلات شعرها السوداء. كانت الفلاحة الطيّبة على حقّ، يجب إخفاء جمالها، من أجل إبعاد الحظّ السيّء عنها. فلو أنّ عصابة هاجمتهم لما استطاع أن يُدافع عنها

جيّداً، ذلك أنّه لا يملك حتى سيفاً. كان لديه فائض من الأسباب كي يشعر بالقلق، ومع ذلك ما من شيء خبيث أطلق العنان لخيالاته، وبالتالي تلهّى بتخيّل الحسناء تتعرّض إلى مخاطر رهيبة وتنجو مرّةً وأخرى على يد زورو القاهرة. وتمتم قائلاً إذا لم أكسب ودّها الآن فهذا يعني أنّني أحمق لا علاج لي.

استيقظت خوليانا وإيزابيل مع صياح الديكة، تهزّهما نوريا التي حصلت لهما على طاس حليب معزاة حُلب للتو. لم تنعم هي أو دييغو بالراحة ذاتها التي نعمت بها الصغيرتان في نومهما. صلّت نوريا ساعاتٍ، مذعورة من المستقبل، ودييغو ارتاح نصف راحة، مشغولاً بقربه من خوليانا، عين واحدة مفتوحة عليها ويدٍ على الخنجر للدفاع عنها، إلى أن وضع فجر الشتاء الخجول حدّاً لليله الأبديّ. واستعد المسافرون للشروع بمسيرة يومٍ آخر، لكنّ سيقان خوليانا ونوريا لا تكاد تستطيع الاستجابة. واضطرتا بعد خطوات قليلة أن تستندا كي لا تخرّا أرضاً. بالمقابل أظهرت إيزابيل حالة جسدية جيدة بالقيام بعدّة حركات، متباهيةً بالساعات الطوال التي كانت تقضيها بالمبارزة أمام المرآة. نصحهما دييغو أن تبدآ بالمسير كي تحمّيا عضلاتهما ويختفي التشنّج، لكن لم يحدث هذا، فالألم لم يفعل غير أنّه أساء الوضع فاضطرّت خوليانا ونوريا إلى ركوب الحصانين، بينما حمل دييغو وإيزابيل الرزم. وكان لا بدّ أن يمرّ أسبوع كامل قبل أن يستطيعوا تنفيذ شعار الستة فراسخ يومياً الذي وضعوه في البداية. وقبل أن يذهبوا شكروا الفلاّحة على حسن ضيافتها وتركوا لها بعض المرابطيات، التي مكثت تنظر إليها مذهولة، كما لو أنّها لم ترَ نقوداً قط.

كان الدرب في بعض المراحل ممرّ بغال، وفي أخرى أثرٌ نحيل يتلوّى في الطبيعة. تحوّلٌ غير متوقّع طرأ على الحجّاج الأربعة المزيّفين. أجبرهم السلام والصمتُ على الإصغاء، والنظرِ إلى

الأشجار والجبالِ بعيون أخرى، فتح قلوبهم على التجربة الفريدة بالدوس على آثار آلاف الرحالة الذين قطعوا هذا الطريق طوال تسعة قرون. علّمهم بعض الرهبان على الاهتداء بالنجوم، كما كان يفعل رحالة القرون الوسطى، وبالحجارة والصوى المعلّمة بخاتم سانتياغو، المحارة الإختينية، التي خلّفها مشّاؤون سابقون. وجدوا في بعض المناطق جملاً منقوشة على قطع من الخشب، أو مكتوبة على ورق برديّ خائل اللون، رسائل أمل وتمنيات بالحظّ السعيد. وصارت تلك الرحلة إلى قبر الرسول سبراً للروح نفسها. كانوا يمضون صامتين، موجوعين ومتعبين، لكنّهم مسرورون. وسرعان تخلّصوا من الخوف الذي شعروا به في البداية ونسوا أنّهم هاربون. سمعوا الذئاب ليلاً، وتوقّعوا أن يروا قطّاعَ طرق في كلّ مُنعَطَف في الطريق، لكنّهم تقدّموا واثقين، مطمئنّين كما لو أنّ قوّة عليا تحميهم. بدأت نوريا تتصالح مع سانتياغو، الذي شتمته حين أعدموا توماس دِ رومِو. عبروا غابات وسهوباً شاسعةً وجبالاً موحشة في مشهد دائمِ التبدّل والجمال. لم ينقصهم قط حسنُ ضيافة. باتوا أحياناً في بيوت فلاّحين وأخرى في أديرةٍ وصوامع. كما لم ينقصهم الخبز والحساء، التي تقاسمها معهم أناس مجهولون. باتوا ليلة في كنيسة واستيقظوا على تراتيل غريغورية، يلفّهم ضباب أزرق كثيف، كما لو أنّه من عالم آخر. واستراحوا في مناسبة أخرى في خربةِ كنيسةٍ صغيرة، تعشّشُ فيها آلاف الحمائم البيضاء، التي أرسلها، حسب نوريا، الروح القدس. عملوا بنصيحة الفلاّحة التي آوتهم في الليلة الأولى، فصارت الفتاتان تغطيان وجهيهما عند الاقتراب من الأماكن المأهولة. في البلدات الفقيرة والنُزُل كانت الأختان تبقيان في الخلف وتتقدّم نوريا ودييغو لطلبِ المساعدة، متظاهِرَين بأنّهما أمٌّ وابنها. وكانا يشيران إلى خوليانا وإيزابيل دائماً كما لو أنّهما ذكرين، ويوضّحان أنّهما لا يكشفان عن وجهيهما لأنّ البرص شوّههما، وبذلك لا تُثيران انتباه اللصوص

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

والفلاحين والفارّين من الجندية الذين كانوا يتيهون في تلك الأرياف المهملةِ منذ بداية الحرب.

كان دييغو يُقدِّر المسافة والزمن اللذين يفصلانهم عن ميناء لاكورونيا ويُضيف إلى عملياته الحسابية هذه نجاحاته في العلاقة مع خوليانا، التي لم تكن مبهرة، لكن على الأقل كانت الشابّة تشعر أنّها آمنة برفقته وتعامله بخفّة أقل وغنجٍ أكبر، تتّكئ على ذراعه، تسمح له بأن يُدغدغ قدميها، يُحضّر لها الحليب، بل ويضع ملاعق الحساء في فمها حين تكون متعبة بشكل مفرط. وفي الليالي كان دييغو ينتظر أن تنام بقيّة المجموعة كي يرتاح أقرب ما يمكن للحشمة أن تسمح به منها. يحلم بها فيستيقظ على المجد، وذراعه على خصرها. وكانت هي تتظاهر أنّها لا تنتبه إلى هذه الحميمية المتنامية وتتصرّف نهاراً كما لو أنّهما لم يتلامسا قط، بينما هو يتساءل هو هل تفعل ذلك برداً، أم خوفاً أم للأسباب العاطفية الجارفة نفسها التي كانت تحرّكه. كان ينتظر تلك اللحظات بلهفة مجنونة ويستغلّها إلى حيث يستطيع. كانت إيزابيل مطلعةً على كلّ تلك التحركات الليلية، ولم يكن عندها مانع من المزاح معهما بهذا الخصوص. شكّلت الطريقة التي كانت تعرف بها هذه الصغيرة ذلك لغزاً، لأنّها كانت أوّل من ينام وآخر من يستيقظ.

كانوا قد ساروا في ذلك اليوم عدّة ساعاتٍ، وأضيف إلى التعبِ التأخّرُ الذي تسبّب به رضٌ أصاب ساق أحد الجوادين وجعله يعرج. كانت الشمس قد غابت وما زال أمامهم مسافة طويلة قليلاً للوصول إلى دير فكّروا بالمبيت فيه. رأوا دخاناً يخرج من بيت قريب فقرّروا أنّه يستحق منهم أن يقتربوا منه. تقدّم دييغو، واثقاً من أنّه سيلقى أهلاً، لأنّه بدا مكاناً راقياً، على الأقل بالمقارنة بأماكن أخرى. نبّه الصغيرتين قبل أن يقرع الباب إلى أن تغطيا وجهيهما، على الرغم من العتمة. لفتّا وجهيهما بخرقتين مزوّدتين بفتحات للعيون، اسودتا من الغبار وأضفتا عليهما مظهر البرص. فتح لهما رجل بدا

على خلفية الضوء رَبِعاً مثل إنسان الغاب. لم يستطيعوا أن يُميّزوا تقاسيمه، لكنّه لم يبدُ، بالحكم من موقفه ونبرته الصلفة، سعيداً برؤيتهم. فقد رفض منذ البداية استقبالهم بحجّة أنّه ليس مجبراً على نجدة الحجّاج، فهذا واجب الرهبان والكهنة، فهم لهذا السبب أغنياء. وأضاف إنّه إذا كانوا يسافرون ومعهم حصانان، فليس هناك ما يدل على فقرهم ويستطيعون أن يدفعوا نفقاتهم. ساومه دييغو فقبل الفلاّح أخيراً أن يقدّم لهم بعض الطعام ويسمح لهم بالنوم تحت سقف مقابل بعض النقود التي عليهم أن يدفعوها مقدّماً. قادهم إلى إسطبل فيه بقرة وحصانا فلاحة سمينان. أشار إلى كومة من التبن، كي يرتاحوا عليها، وأعلن أنّه سيعود إليهم ببعض الطعام. بشيءٍ يأكلونه. بعد نصف ساعة وحين فقدوا الأمل بإدخال شيء إلى مِعَدهم عاد وظهر الرجل برفقة آخر. كان الإسطبل مظلماً مثل كهف، لكنّهما جاءا معهما بفانوس. تركا على الأرض بعض القصعات الصغيرة التي تحتوي على حساء ريفي كريه وقطعة خبز أسود وستّ بيضات. عندئذٍ استطاع دييغو والفتاتان أن تتبيّنا على ضوء الفانوس أنّ أحدهما كانت تُشوّهُ وجهه ندبةٌ طويلة تخترق عينه وخدَّهُ، وأنّ الآخر بلا أنف. كانا قصيرين، قويّين، بلا رقبة، لهما أذرع مثل الجذوع، ومظهر مريع جعل دييغو يمدّ يدَه إلى خنجره وإيزابيل إلى مسدّسها. لم يتحرّك الرجلان المشؤومان من هناك، بينما كان ضيوفهما يقرقعون بملاعقهم في الحساء ويقطعون الخبز. كانا يُراقبان بفضول خبيث خوليانا وإيزابيل، اللتين كانتا تحاولان أن تأكلا من تحت الغطاء دون أن تكشفا عن وجهيهما.

ـ ما بهما هاتان؟ ـ سأل أحدهما مشيراً إلى الصغيرتين.

ـ حمّى صفراء ـ قالت نوريا، التي سمعت دييغو يذكر هذا الوباء، لكنّها لم تكن تعرف ماهيته.

ـ إنّها حمّى استوائية كالأحماض ترعى الجلد، وتفسّخ اللسان والعينين. كان يجب أن تكونا قد ماتتا، لكنّ الرسول أنقذهما. لذلك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نحن ذاهبون لنحجَّ إلى مقامه ونشكره ـ أضاف دييغو، مخترعاً كلامه في الحال.

ـ وهل تُعدي؟ ـ أراد المُضيف أن يعرف.

ـ عن بعد لا يُعدي، فقط يعدي باللمس. يجب عدم لمسهما. ـ وضّح دييغو.

لم يبد الرجلان مقتنعين تماماً، لأنّهما رأيا أيدي الصغيرتين السليمة وجسديهما الفتيين، التي لم تستطع العباءتين إخفاءها. ثمّ إنّهما شكّا بأن هؤلاء الحجّاج يحملون مالاً أكثر من المعتاد في هذه الحالات، وألقيا نظرة على الجوادين. فعلى الرغم من أنّ واحداً منهما كان يعرج قليلاً إلاّ أنّهما من سلالة جيّدة، ولا بدّ أن لهم بعض القيمة. أخيراً انسحبا بالفانوس، وتركاهم يغوصون في العتمة.

ـ علينا أن نذهب من هنا، فهذان الشخصان مريعان ـ همست إيزابيل.

ـ لا نستطيع أن نسافر ليلاً، علينا أن نرتاح، أنا سأقوم بالحراسة ـ أجاب دييغو بالنبرة ذاتها.

ـ سأنام ساعتين وسأحل بعدها محلّك في الحراسة ـ اقترحت إيزابيل.

كان قد بقي لديهم البيضات النيّئة، فتحت نوريا فتحة في أربعة منها لترشفها وخبّأت الاثنتين المتبقّيتين.

ـ من المؤسف أنّني أخاف البقر وإلاّ لكان باستطاعتنا الحصول على بعض الحليب ـ تنهّدت القهرمانة ـ ثم طلبت من دييغو أن يخرج لحظة، كي تستطيع الصغيرتان أن تنظّفا نفسيهما بخرقة مبلّلة.

أخيراً سوّين البطانيات على التبن ونمن. مضت قرابة الثلاث أو أربع ساعات بينما دييغو يسقط رأسه على صدره جالساً والخنجران

في متناول يده، ميتاً من التعب، جاهداً كي يبقي على عينيه مفتّحتين. فجأة هزّه نباح كلب فانتبه إلى أنّه نام. كم؟ لم تكن لديه فكرة، لكنّ النوم كان متعة ممنوعة في تلك الظروف. ولكي ينتعش خرج من الإسطبل مستنشقاً هواء الليل القارس ملءَ رئتيه. في المنزل كان الدخان ما يزال يخرج من المدخنة والضوء يلمع في النافذة الوحيدة الموجودة في الجدار الحجري الصلد. وهذا ما جعله يُقدّر أنّه لم ينم طويلاً، كما خاف. قرّر أن يبتعد قليلاً كي يقضي حاجته.

رأى عندما عاد أطيافاً تتحرّك، فقدّر أنّهما الفلاحان، يتوجّهان بحذرٍ شديد إلى الإسطبل. كانا يحملان في أيديهما شيئين مريعين. ربّما كانا بندقيتين وربّما هراوتين. أدرك أنّ خنجريه القصيرين ليسا فعالين في مواجهة هذين الوحشين المسلّحين. فكّ سوطه عن خصره وشعر في نقرته بالبرد الذي يُحضّره دائماً للمعركة. كان يعرف أنّ إيزابيل جهّزت مسدّسها، لكنّه تركها نائمة. ثمّ إنّ الفتاة لم تُطلق ناراً من مسدّسٍ قط. أخذ بالحسبان أنّ عامل المفاجأة لصالحه، لكنّه لا يستطيع العمل في تلك الظلمة. تبع الرجلين حتى الإسطبل، متوسّلاً الله ألا تشي به الكلابُ. ساد الصمتُ المُطبِق لحظاتٍ، بينما الشريران يتأكّدان من أنّ ضيوفهما التعساء غارقين في النوم. ما إن اطمأنّا حتى أشعلا قنديلاً ورأيا الهيئات مرتاحة على التبن. لم ينتبها إلى أنّ واحداً منهم غائب، لأنّهما ظنّا معطف دييغو جسماً مُغطّى. صهل في هذه الأثناء أحد الجوادين فاستوت إيزابيل مذعورة. تأخّرت ثوان في التنكر أين كانت وفي رؤية الرجلين، والانتباه إلى الحالة ومحاولة الإمساك بمسدّسها، الذي تركته جاهزاً تحت طرحتها. لم تتمكّن من إتمام الحركة لأنّ زمجرتين من الشخصين اللذين كانا يهزّان هراوتين جمدتها في مكانها. وهنا استيقظت خوليانا ونوريا.

ـ ماذا تريدان ـ صرخت خوليانا؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ـ نريدكما أنتما أيّتها القحبتان والنقودَ التي تحملانها! ـ ردّ واحد من الرجلين مقترباً شاهراً العصا إلى الأعلى.

عندئذ وعلى ضوء اللهب المرتعش رأى عديما الضمير وجهي ضحيّتيهما. تراجعا بصيحة رعب مُطلق فوجدا نفسيهما أمام دييغو، الذي كان قد رفع ذراعه في الهواء. انهال عليهما السوط محدثاً أزيزاً جافّاً فوق أقربهما إليه منتزعاً منه العصا وصرخةَ ألم قبل أن يخرجا من ذعرهما. انقّض الآخر على دييغو، الذي تفادى ضربة الهراوة، وناوله رفسة على بطنه طواه اثنين. لكنّ الآخر كان قد استفاق من ضربة السوط وقفز فوق الشاب بخفّة غير متوقّعة من رجل ثقيل مثله، ساقطاً فوقه مثل كيس من حجارة. لم يكن السوط مجدياً في الالتحام الجسدي والفلاح يمسك دييغو من رسغ اليد التي يمسك بها الخنجر. سحقه على الأرض باحثاً عن حنجرته بيد، بينما يهزّ بيده الأخرى اليدَ التي تمسك بالخنجر. كان له مخلب جبار وقوّة خارقة. أصاب نَفَسَه النتنُ ولعابُه المُقرف وجه الشابّ، بينما هو يدافع عن نفسه قانطاً، لا يفهم كيف تمكّن هذا البهيمة في لحظة من فعلِ ما لم يستطع خبيرُ المصارعة خوليو ثِسَرْ فعله معه في امتحان تقييم العدالة. وبطرف عينه استطاع أن ينتبه إلى أنّ الشخص الآخر تمكّن من النهوض ومدَّ يده إلى العصا. كان هناك مزيد من النور، لأنّ القنديل تدحرج على الأرض وراح التبن يشتعل. وهنا دوّت طلقة وسقط الرجل المنتصب هادراً مثل أسد. وهذا ما ألهى لثانية الآخر الذي كان فوق دييغو ما يكفي من الزمن كي يزيحه من فوقه برفسة من ركبته على مؤخرته.

كان ارتدادُ الطلقةِ قد أسقطَ إيزابيل فوقعت جالسةً على الأرض. أطلقت النارَ دون تسديد تقريباً وهي تُمسك السلاح بكلتي يديها ففتّتت بمصادفة عجيبة ركبةَ مُهاجِمِها. لم يكن باستطاعتها تصديق ذلك. ففكرة أنّ حركة خفيفة من إصبعها على الزناد أعطت تلك

النتائج لا تكاد تدخل في رأسها. أخرجها من ذهولها أمرٌ حازم من دييغو، الذي كان يُثَبِّتُ الوغدَ الآخر بسوطه.

ـ هيّا! الإسطبل يحترق! يجب إخراج الحيوانات!

شرعت النساء الثلاث بالعمل لإنقاذ البقرة والحصانين اللذين كانا يصهلان من الرعب، بينما دييغو يجرّ إلى الخارج، اللصين اللذين كان واحد منهما ما يزال يجأر من الألم وقد سُحِقت ساقه. غارقاً في دمه.

اشتعل الإسطبل مثل صلاء هائل مضيئاً الليلَ. على هذا الوهجِ رأى دييغو وجهي خوليانا وإيزابيل اللذين أرعبا مهاجميهما ذلك الرعب، وهو أيضاً أطلق صيحة رعب. فالجلد الضارب للصفرة والمُتَشَقِّق مثل جلد تمساح كان يلمع متقيّحاً في بعض أجزائه وكان جافّاً في أجزاء أخرى مثل قِشْرَة، يشدُّ تقاسيمهما. كانت العيون مشوَّهة والشفاهُ مختفية، وقد صارت الفتاتان مسخين.

ـ ماذا جرى؟ ـ صرخ دييغو.

ـ حمّى صفراء ـ ضحكت إيزابيل.

تلك كانت فكرة نوريا. انتاب القهرمانة شكٌ بأنّ مضيفيهما الشريرين يمكن أن يهاجماهم ليلاً. كانت تعرف شرّ هذا النوعِ من الناسِ من الوصفِ الذي قدّمته عنهم الفلاّحة التي قتلوا زوجها. فتذكّرت وصفة تجميلٍ قديمة لصفاء الجلدِ، أساسُها صفار البيض، تعلّمتها الإسبانيات من النساء المسلمات، واستخدمت البيضتين اللتين فاضتا عن العشاء لطلاء وجهَيّ الصغيرتين. وعندما جفّتا تحوّلتا إلى قناعين متشقّقين مقرفي اللون.

ـ إنه يُزال بالماء ويفيد البشرة جدّاً ـ وضّحت نوريا مُتَبَجِّحة.

ضمّدوا جرح الفلاّح ذي الندبة، الذي راح يصرخ ويصرخ مثل مُعذَّب، ليوقفوا على الأقل النزف، رغم أنّه لم يكن هناك أمل بأن تنجو ساقه التي مزّقتها الرصاصة. وتركوا الآخر مربوطاً بشكل

جيّد إلى كرسيّ دون أن يكمّموه، كي يستطيع طلب المساعدة. فالبيت لم يكن يبعد كثيراً عن الطريق وهناك أكثر من عابرٍ يمكن أن يسمعه.

ـ العين بالعين، والسنّ بالسن. لكلّ شيء ثمنه في هذه الحياة أو في الجحيم ـ تلك كانت كلمات وداع نوريا لهما.

حملوا معهم فخذ خنزير مقدّد، كان معلّقاً إلى عارضة في البيت، والجوادين السمينين، البطيئين والثقيلين. لم يكونا مطيّتين جيّدتين، لكنّهما دائماً أفضل من السير على الأقدام، ثمّ أنّهم لم يبغوا أن يتركوا وسائل نقل بين أيدي اللصين كيلا يستطيعا اللحاق بهم.

الحادث الذي جرى لهم مع الرجل المجذوم الأنف ورفيقه السيّء، ذي الوجه المطعون بالسكين أفاد المسافرين كي يكونوا أكثر حذراً. قرّروا منذ تلك اللحظة ألا يبيتوا إلاّ في الأماكن المخصّصة للحجيج منذ غابر الزمان. بعد عدّة أسابيع من السير في طرق الشمال انخفض وزن الأربعة واندبغت جلودهم وأرواحهم. فالنور حمّص جلودهم والهواء الجافّ والصقيع شقّقها. صار وجه نوريا خريطة من التجاعيد الناعمة وهبطت عليها السنون فجأةً. تلك المرأة التي كانت في السابق صلبةً، وظاهرياً بلا عمرٍ، صارت تُجرجر الآن قدميها وتحني ظهرها قليلاً، لكن بعيداً عن أن يجعلها هذا قبيحة، فقد جمّلها. لانت تقاسيمها المكفهرّة وبدأت تتألّقُ عندها فكاهة جدّة غريبة الأطوار وماكرة لم تُظهرها من قبل. ثمّ أنّها بدت أفضل في دثار الحاجّة مما في اللباس الموحد الأسود وغطاء الرأس اللذين استخدمتهما طوال حياتها. منحنيات خوليانا اختفت وبدت أصغر وأفتى بعينيها الهائلتين ووجنتيها المشقّقتين والحمراوين. كانت تحرص على وضع اللانولين على جلدها كي تحمي نفسها من الشمس، لكنّها لم تستطع تفادي تأثير تقلّبات الطقس. إيزابيل، القويّة والنحيلة، كانت أقل من عانى من الرحلة. فقد برزت تقاسيمها واكتسبت خطواً واسعاً وواثقاً أضفى عليها مظهرَ

الرجولة. لم تكن قط أكثر سعادة، فقد وُلدت للحرية. «اللعنة! لماذا لم أولد رجلاً؟»، صاحت في إحدى المناسبات. فقرصتها نوريا منبّهة إيّاها إلى أنّ مثل هذا الكفر يمكن أن يقودها مباشرة إلى جَفَنات مراجل الشيطان، ثمّ راحت تضحك من كلّ قلبها، وعلّقت قائلة لو وُلِدَتْ إيزابيل رجلاً لكانت مثل نابليون، في حروبه الكثيرة التي أشعلها دائماً. تكيّفوا مع الرتابة التي فرضتها عليهم الرحلة. أمسك دييغو بزمام القيادة بشكلٍ طبيعي، يُقرّرُ ويواجه الغرباء. حاول أن تتمتّع النساء ببعض الخصوصيّةِ بالنسبة إلى أكثر حاجاتهنّ الشخصية، لكنّه لا يتركهنّ يغبن عن نظره لأكثر من دقائق قليلة. كانوا يشربون ويغتسلون في الأنهار، لذلك حملوا معهم القرعَ، رمز الحجّاج. وكانوا مع كلّ فرسخ يقطعونه ينسون نِعَمَ الماضي، فمِزقةُ خبز صار لها عندهم طعم الجنّة وجرعة نبيذ بركةً. قدّموا لهم في أحد الأديرة طاسة كبيرة من الشوكولا الحلوة والسميكة تلذّذوا بها ببطء جالسين على مقعد في الهواء الطلق. مضت أيّام لم يُفكّروا فيها بشيء آخر، ولا يتذكّرون أنّهم شعروا بمتعة مطلقة مثل متعة تناول ذلك المشروب الفوّاح الساخن تحت النجوم. وكانوا يقتاتون في بقيّة النهار على بقايا الطعام الذي تلقوه في المضافات، خبز وجبن قاسٍ، وبصلة وقطعة نقانق. كان دييغو يحمل معه بعض النقود في متناول يده للحالات الطارئة، لكنّه حاول ألا يستخدمها. فالحجّاج كانوا يعيشون على الصدقة. وإذا لم يكن هناك بدٌّ من دفع شيء، فهو يُساوِم حتى يحصل عليه كما لو أنه هديّة، وبذلك لم يثيروا الشكوك حولهم.

كانوا قد قطعوا نصف بلاد الباسك حين هبط عليهم الشتاء بلا رحمة. همرات مباغتة كانت تتسرّبُ إلى عظامهم والصقيع يجعلهم يرتعدون برداً تحت البطانيات المبلّلة. كانت الخيول تمضي بطيئة مختنقة من الطقس. كانت الليالي أطول والضباب أكثف والسير أبطأ والصقيع أسمك والرحلة أصعب، لكنّ جمال المنظر خلاّب، خضرة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بعدها خضرة، تلال من قطيفة خضراء، غابات شاسعة من كلّ أطياف اللون الأخضر، أنهار وشلاّلات من ماء بلوري زمرّدي الخضرة. كانت آثار الطريق تختفي لمسافات طويلة في رطوبة الأرض، لتعود وتظهر على شكل دربٍ نحيل بين الأشجار، أو ألواحٍ حجريةٍ متآكلةٍ لطريق روماني قديم. أقنعت نوريا دييغو بأنّ الأمر يستحق إنفاقَ بعضِ النقود على الكحول، الشيء الوحيد الذي يدفئهم في الليالي وينسيهم عوزَ مسيرة اليوم. كانوا يُضطرّون أحياناً لقضاء يوم في مضافة، لأنّها تمطر أكثر من اللازم وهم بحاجة لاستعادةِ قواهم فيستغلون ذلك لسماع قصص مسافرين آخرين ورجال دين، وقد رأوا خطّائين كثيرين مرّوا على طريق سانتياغو.

وذات يوم، من أواسط شهر كانون الأوّل، وكانوا ما يزالون بعيدين عن أقرب ضيعة ولم يروا بيتاً منذ فترة طويلة، لمحوا بين الأشجار أنواراً مرتعشة كأنّها صلاءات متردّدة. قرّروا الاقتراب بحذرٍ، فربّما كانوا بعض الهاربين من الجنديّة، وهم أخطر من أيّ نمر. اعتادوا أن يتيهوا في مجموعاتٍ، باليي الثياب، مسلّحين حتى أسنانهم ومستعدين لكلّ شيء. وفي أفضل الحالات كانوا محاربين قدماء، أولئك العاطلون عن العمل الذين يُستَأجرون كمرتزقة يُقاتلون بأجر، ويقومون بتصفية الحسابات، والانتقام وأعمالٍ أخرى غير مشرّفة لكنّها أفضل من قطع الطرق. ليس لهم حياة غير سيوفهم، وفكرة العمل اليدوي لا تخطر ببالهم. ففي إسبانيا لا يعمل غيرُ الفلاّحين، الذين بعرق ظهورهم ينهضون بثقل الإمبراطوريةِ الهائل، بدءاً من الملك وحتى آخر خادم، وصائد دعاوى وراهب وصبيّ سفينة ومقامر غشّاش، وبغيٍ ومتسوّل.

ترك دييغو النساء تحت بعض الأشجار الصغيرة، يحميهنّ مسدّس إيزابيل، التي تعلّمت أخيراً استخدامه، ريثما يتأكّد هو من ذلك الوميض. بعد قليل من السير وجد نفسه على مقربة منها

واستطاع أن يتأكّد كما تصوّر أنّها عدّة صلاءات. ومع ذلك لم يُصدّق أنهم شرنمة من قطّاع الطرق أو الفارّين من الجندية، لأنّه سمع لحن قيثارة ضعيف. تلقى رفسة من قلبه على صدره حين عرف تلك الموسيقى، غناء صدودٍ مؤثّرٌ ومحزنٌ كثيراً ما رقصت أماليا على لحنه، بطارةِ تنورتها الواسعة وخشخشة صنجاتها، بينما بقيّة القبيلة توقّع لها بالدفوف والأكفّ. لم يكن غناءً خاصّاً بها، فكلّ الغجر يعزفون أغان متشابهة. اقترب على خطو جواده فميّز في منطقة مكشوفة من الغابة عدّة خيام وصلاءات. وتمتم «حماني الله!» وكادَ يصرخ ارتياحاً لأنّ أصدقاءه هم الذين كانوا هناك. لم يساوره أدنى شكّ. إنّها عائلة أماليا وبَلايو. اقترب عدد من رجال القبيلة ليتحقّقوا من يكون ذلك الدخيل، فرأوا على ضوء الليلِ الرمادي راهباً مهلهلَ الثياب وملتحياً يتقدّم باتجاههم على ظهر جواد فلاحةٍ ثقيل. لم يعرفوه حتى قفز إلى الأرض وجرى نحوهم، لأنّ آخر ماكانوا يتوقّعونه هو أن يعودوا ويروا دييغو دِ لابِغا، خاصّة في زيّ حاجّ.

ـ أيّ شياطين حدثت لك، يا رجل؟ ـ هتف بَلايو، رابتاً ربتة ودّ على ظهره، ولم يعرف دييغو ما الذي جرى على وجهه أهو دمع أم قطرات مطر جديدة.

رافقه الغجريّ للبحث عن نوريا والصغيرتين. وما إن جلسوا حول النار حتى حكى المسافرون خطوبهم الجديدةَ بخطوطٍ عريضة، بدءاً من إعدام توماس دِ رومِو إلى ما جرى لهم مع رافائيل مونكادا، حاذفين تفاصيل تقلّبات الحظّ، التي لم تكن تضيف شيئاً للقصّة.

ـ كما ترون، نحن هاربون ولسنا حجّاجاً. علينا أن نصل إلى لاكورونيا، لنرى ما إذا كان باستطاعتنا أن نبحر من هناك إلى أمريكا، لكن ما زال أمامنا نصف الطريق والشتاء يتعقّب أثرنا. هل نستطيع أن نتابع السفر معكم؟ ـ سألهم دييغو.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم يحدث أن تلقّى أهل قبيلة روما طلباً من هذا النوع من غريب. تقليدياً كانوا يشكّون بالغرباء، خاصّة حين يُبدي هؤلاء نوايا حسنة، لأنّ الاحتمالَ الأكبر أنّهم يحملون أفعى في كمّهم، لكنّهم ملكوا فرصة للتعرّف بعمق على دييغو وصاروا يُقدِّرونه. تنحّوا جانباً كي يتشاوروا في الأمر. تركوا مجموعة الغرباء يجفّفون ملابسهم قرب النار وانسحبوا إلى إحدى الخيام، المصنوعة من قطع من عدّة أنواع من الأقمشة المهلهلة والمليئة بالثقوب، لكنّها على الرغم من مظهرها البائس كانت تقي من نزوات الطقس. دام انعقادُ مجلس القبيلة المسمّى عندهم *كريس* قسماً كبيراً من الليل، وقد ترأسه رودولفو، *الروم بارو*، الأكبر سنّاً، والبطريرك، والمستشار والقاضي، الذي يعرف قوانين قبيلةَ روما. لم تُكتب هذه القوانين ولم تُرمَز، وكانت تنتقل من جيل إلى جيل من خلال *الروم بارو*، الذين كانوا يفسّرونها حسب ظروف كلّ عصر ومكان. وحدهم الرجال كانوا يستطيعون المشاركة في اتخاذ القرارات، لكنّ القوانين تراخت في سنوات البؤس تلك، ولم تجبر النساء على التزام الصمت، خاصّة أماليا، التي ذكّرتهم أنّهم في برشلونة نجوا برقابهم بفضل دييغو، ثمّ إنّه أعطاهم كيساً فيه نقود سمح لهم بالهرب والبقاء والنجاة. في جميع الأحوال، هناك بعض أعضاء العشيرة صوّتوا ضدّه لأنهم اعتبروا أن منع تحريم التعايش مع الغرباء أقوى من أيّ شكلٍ من أشكال الامتنان. وقالوا إنّ كلّ شراكة غير تجارية مع الغرباء تجلب المصائب أو سوء الحظّ. استطاعوا أخيراً أن يتوصّلوا إلى اتفاق وحَسَمَ رودولفو المسألة بفرمان غير قابل للطعن. قال إنّهم شاهدوا في حياتهم خياناتٍ وشروراً كثيرة، وعليهم أن يُثمّنوا عالياً من يمدُّ لهم يده، كيلا يستطيع أحد أن يقول إنّ قبيلة روما ناكرة للجميل. انطلق بَلايو لإبلاغ القرار إلى دييغو. وجده نائماً على التراب مشدوداً إلى النساء، والجميع منكمشون من البرد، لأنّ النار كانت قد انطفأت. بدوا مثل مجموعة جراء مثيرة للشفقة.

ـ وافق المجلس على أن تُسافروا معنا حتى البحر، ما دمتم تستطيعون أن تعيشوا كأهل قبيلة روما ولا تخترقون أيّاً من قوانيننا
ـ هذا ما أبلغهم إياه.

كان الغجر أفقر من أيِّ وقت مضى. لم تكن معهم عرباتهم الكبيرة المتآكلة والمفكّكة التي أحرقها الجنود الفرنسيون في العام السابق واستُبدلت خيامهم بأخرى أكثر تهلهلاً، لكنّهم استطاعوا أن يحصلوا على خيول ولديهم كورٌ وقدور وزوج من العربات لنقل ممتلكاتهم. عانوا العوزَ، لكنّهم على حالهم لم ينقصوا طفلاً واحداً. الوحيد الذي بدا وضعه سيّئاً هو رودولفو، العملاق الذي كان يرفع في السابق حصاناً بين ذراعيه، فقد علته أعراض السلّ. كانت أماليا كما هي، لكنّ بُترينا صارت مراهقة رائعة، ولم تعد تدخل في مرطبان زيتون مهمّا طوِيَت. كانت ملتزمة بالزواج بابن عمومة بعيد من قبيلة أخرى، لم تره قط. العرس سيتمّ في الصيف، بعد أن تدفع عائلة الخطيب المهر، وهو المال الذي يعطى لتعويض القبيلة عن خسارتها لبُترينا.

نزلت خوليانا وإيزابيل ونوريا في خيمة النساء. فأُصيبت القهرمانة في البداية بالذعر، إذ كانت تعتقد أنّ الغجر يُخطّطون لاختطاف الصغيرتين دِ رومِو وبيعهما كمحظيّتين في شمال أفريقيا. وكان لا بدّ من أن تمرّ عدّة أسابيع حتى ترفع نظرها عنهما وأسبوعاً آخر كي ترفعه عن أماليا، المُكلّفة بتعليمهنّ العادات الغجرية تفادياً للوقوع في أيِّ خطأ مُخلٍّ بالآداب. أعطتهنّ تنورات واسعة قمصاناً مفككة الدرزات، وشالات مكشكشة من ثياب النساء العوام، وكلّها قديمة ومتسخة، فاقعة الألوان، لكنّها كانت في جميع الأحوال مريحة وواقية أكثر من زي الحجاّج. كان أهل قبيلة روما يعتقدون أنّ النساء غير طاهرات من الخصر وحتى القدمين، ولذلك فإظهار الساقين يعتبر إهانة في غاية الخطورة. كان عليهنّ أن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يغتسلن في أسفل النهر بعيداً عن الرجال، خاصّة في أيّام الحيض. كنّ يُعتبرن أدنى منزلة من الرجال، الذين يُدِنَّ لهم بالخضوع. مزاعم إيزابيل الحانقة لم تَجدها نفعاً، كان عليها أن تسير مثلهنّ خلف الرجال وليس أمامهم أبداً، وهي لا تستطيع لمسهم، لأنَّ هذا سيصيبهم بالعدوى. وضّحت لهنّ أماليا أنّهم محاطون دائماً بالأرواح، التي عليهم أن يُهدّئوها بالسحر. وكان الموت أمراً مناقضاً للطبيعة ويُغضب ضحاياه ولذلك يجب الانتقام للموتى. كان رودولفو يبدو مريضاً وهذا ما أقلَق العشيرة، خاصّة وأنّهم سمعوا للتو صوت البوم، نذير الموت. أرسلوا رسائل إلى الأقارب البعيدين كي يأتوا لوداعه بالاحترام المتوجّب قبل رحيله إلى عالم الأرواح. ذلك أنّه إذا ما رحل رودولفو حانقاً أو عكرَ المزاج يمكن أن يعود وقد صار *مولو*. قاموا تحسّباً لذلك بالتحضير للحفل الجنائزي، على الرغم من أنّه هو نفسه كان يسخر منهم، مُقتنِعاً بأنّه سيعيش عدّة سنوات أخرى. علّمتهنّ أماليا قراءة الكفّ وورق الشاي وكراتِ الزجاج، لكن ما من واحدة من *الغريبات* أثبتت أنّها تملك المؤهلات الحقيقية للعرّافة. بالمقابل تعلّمن استعمال بعض الأعشاب الطبية والطبخ على طريقة أهل قبيلة روما. وأضافت نوريا إلى وصفات القبيلة الأساسية ـ مقلوبةَ الخضار، والأرنب، والوعل، والخنزير الجبلي والدلدل ـ ما تعرفه من المطبخ القطلاني وجاءت النتائجُ باهرة. كان أهل قبيلة روما يكرهون التعامل الوحشيَّ مع الحيوانات، فهم فقط يستطيعون ذبحها للحاجة. كان هناك بعض الكلاب في المخيّم، لكن ما من قطّ واحد، لأنّها مشهورة بالنجاسة.

كان على دييغو في هذه الأثناء أن يقبلَ بمراقبة خوليانا من بعيد، لأنّه كان من قلّة التربية الشديدة الاقتراب من النساء دون هدف محدّد. الوقت الذي لم يعد يُكرّسه لتأمّل خوليانا استغلّه لتعلّم امتطاء الحصان كرجلٍ حقيقي من قبيلة روما. ترعرع خابّاً في سهوب أعالي كاليفورنيا الشاسعة، وكان فخوراً بأنّه خيّال جيّد، إلى أن استطاع أن يرى بهلوانيات بّلايو ورجال العشيرة الآخرين، فقد كان

بالمقارنة معهم مبتدئاً. لا أحد في العالم كان يعرف عن الخيول مثل أولئك الناس. فهم لا يربونها ويدرّبونها ويداوونها إذا كانت مريضة وحسب بل يستطيعون التواصل معها بالكلمات، كما كان يفعل بِرناردو. ما من غجري كان يستخدم السوط، لأنّ ضرب الحيوانات كان يُعتبر أكبر جبن. بعد أسبوع صار باستطاعة دييغو أن ينزلق إلى الأرض في أوج الجري، يدور دورة في الهواء ويسقط جالساً بالعكس على ظهر حصانه؛ وصار قادراً على القفز من مطيّة إلى أخرى والخبب واقفاً على جوادين لا يسنده غير الزمامين. كان يُحاول أن يقوم بهذه البهلوانيات أمام النساء، أو بالأحرى حيث كانت تستطيع خوليانا أن تراه، وبهذا راح يُعوّض عن الانفصال عنها. كان يرتدي ملابس بّلايو، سروالاً حتى الركبتين وجزمة عالية وقميصاً واسع الكمّين وصدرة جلدية ويربط منديلاً ـ من المؤسف أنّه يظهر أذنيه ـ على رأسه، وبندقيّة على كتفه. وكان يبدو بسوالفه وجلده الذهبيّ وعينيه العسليتين، من الرجولة بحيث أنّ خوليانا نفسها أُعجبت به من بعيد.

كانت القبيلة تخيّم أيّاماً عدّةً بالقرب من إحدى البلدات، حيث يقدّم الرجالُ خدماتهم في ترويض الخيل أو في تطويع المعادن، بينما النساءُ يقرأن الحظَّ ويبعن مغلياتهن وأعشابهن الطبية. وحين ينفد الزبائنُ يتابعون رحلتهم إلى البلدة التالية. في الليل يتناولون الطعام حول النار. يحكون بعدها الحكايات، وكان هناك دائماً موسيقى ورقص. كان بّلايو في لحظات الراحة، يُشعِل الكيرَ ويعمل في صناعة سيف وعد به دييغو، وهو سلاح خاصّ جدّاً، أفضل من أيّ حسام طليطليّ، كما قال، وهو مصنوع من خليط من المعادن يعود سرّه إلى ما قبل ألف وخمسمئة سنة من التاريخ ومصدره الهند.

ـ قديماً كانت أسلحة الأبطال تُبَرّد مخترقة بشفرتها المحمرّة الخارجة للتو من الكير جسدَ سجين أو عبدٍ ـ علّق بّلايو.

ـ يكفيني أن أُبرّد سيفي في النهر ـ ردّ دييغو ـ أنّه أروع هديّة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تلقيتها. سأسميه العادل «خوستينا»، لأنّه سيكون دائماً في خدمة القضايا العادلة.

عاش دييغو وصديقاته وسافروا برفقة قبيلة روما حتى شهر شباط. صادفوا في لقائين قصيرين الحرّاسَ، الذين لا يفوِّتون فرصة يفرضون فيها سلطتهم ويزعجون الغجر، لكنّهم لم ينتبهوا إلى أنّه كان يوجد بين أهل القبيلة *غرباء*. استنتج دييغو أنّ أحداً لا يبحث عنهم بعيداً عن برشلونة وأنّ فكرته بالهرب باتجاه الأطلسي لم تكن غير معقولة كما بدت في البداية. قضوا القسم الأعظم من الشتاء محميّين من الطقس وأخطار الطريق في حضن القبيلة الدافئ، الذي استقبلهم كما لم يستقبل أيَّ غريب قطّ. لم يُضطرّ دييغو للدفاع عن النساء من الرجال، لأنّ فكرة الزواج من أجنبية لم تكن تخطر ببالهم. كما أنّهم لم يبدوا مذهولين بجمال خوليانا، بينما لفت انتباههم أنّ إيزابيل تمارس المبارزة وتجهد في تعلّم ركوب الخيل مثل الرجال. قطع أصدقاؤنا خلال تلك الأسابيع ما تبقى من بلاد الباسك وكانتبريا وجليقيا إلى أن وجدوا أخيراً أنفسهم على أبواب لاكورونيا. وباندفاع عاطفيّ طلبت نوريا أن يسمحوا لها بالذهاب إلى كومبوستِلا لترى الكاتدرائيّة وتركع أمام ضريح سانتياغو. فهي ما إن عرفت مزاج الرسولِ الأعوج حتى قرّرت أن تُصبح صديقةً له. فرافقتها القبيلة كلّها.

كانت المدينةُ بشوارعها الضيّقة وممراتها وبيوتها القديمة وحوانيت صناعاتها اليدوية ونزلها وخاناتها وحاناتها وساحاتها وكنائسها الصغيرة طبقاتٍ مركّزةً حول القبر، أحد محاور المسيحية الروحية. كان يوماً صافياً، والسماء رائقة والبرد زمهريراً. ظهرت الكاتدرائيّة أمامهم بكلّ بهائها الألفيّ، مبهرةً، جليلةً بأقواسها وأبراجها المسنبلة.

كسر أهل قبيلة روما السكون معلنين بصوت عال عن

خرداواتهم، وطرقهم في قراءة المستقبل، ومراهمَ الشفاء من الأمراض، وبعث الموتى. ركع دييغو وصديقاته، كما يفعل كلّ الذين كانوا يصلون إلى كومبوستِلا، أمام البوّابة الرئيسيّة، ووضعوا أيديهم على القاعدة الحجرية. لقد أتمّوا حجّهم، وأدركوا نهاية طريق طويل. شكروا الرسولَ لأنّه حماهم وطلبوا منه ألا يهجرهم وأن يُساعدهم على عبور المحيط بسلام. ولم يكادوا ينتهون من صياغة كلامهم حتى انتبه دييغو إلى أنّ رجلاً راكعاً على ركبتيه ويصلّي، على بعد خطوات قليلة، بحماس مبالغ فيه. كان بروفيله جانبيّاً، لا تكاد تُضيئه انعكاسات الزجاج الملوّن، لكنّه عرفه على الفور، على الرغم من أنّه لم يره منذ خمس سنوات. إنّه غاليليو تِمبُستا. انتظر حتى انتهى الملاح من لطم صدره ورسم الصليب عليه ليقترب منه. التفت تِمْبُستا مستغرباً أنّ غجريّاً بسالفين كبيرين وشارب يدنو منه.

ـ هذا أنا، يا سيِّد تِمبُستا، دييغو دِ لابِغا...

ـ ما هذه الفاقة، يا دييغو! ـ صاح الطبّاخ ورفعه بعضلاته الصخرية شبراً عن الأرض في عناقٍ فائق الحرارة.

ـ هس! قليل من الاحترام أنتما في الكاتدرائية ـ جمّدهما راهب.

خرجا إلى الهواء الطلق، يربت الواحد منهما على كتف الآخر، لايصدّقان مصادفة اللقاء، على الرغم من أنّ تلك المصادفات مُبرّرة. فغاليليو تِمْبِستا كان ما يزال يعمل طبّاخاً في لامادرِ دِ ديوس، والسفينة راسية في لاكورونيا تحمّل أسلحة لتنقلها إلى المكسيك. استغلّ تِمبِستا تلك الأيّام من الإجازة على اليابسة لزيارة القدّيس، ورجائه أن يشفيه من مرض لا يباح به. اعترف له هامِساً أنّه أُصيب بعدوى مرض مُخجل في الكاريبي، عقاباً من الله على آثامه، وخاصّة على ضربة الفأس التي أنزلها بزوجته قبل سنوات. كانت فورة غضبٍ مؤسفة، هذا صحيح، لكنّها كانت تستحقّها. المعجزة وحدها تستطيع أن تشفيه، أضاف.

ـ لا أدري ما إذا كان الرسول يكرّس نفسها لهذا النوع من المعجزات، يا سيّد تِمْبُستا، لكن يخطر لي أنّ أماليا تستطيع مساعدتك.

ـ ومن هي أماليا؟

ـ عرّافة. ولدت موهوبة بقراءة مستقبل الغير وشفاء أمراضهم، وعلاجها فعّالٌ جدّاً.

ـ مبارك سانتياغو، الذي وضعها في طريقي! أرأيت كيف تُصنع المعجزات، أيّها الشاب دِ لابِغا؟

ـ على ذكر سانتياغو، ماذا عن القبطان سانتياغو دِ ليون؟ ـ سأل دييغو.

ـ ما زال على رأس لامادرِ دِ ديوس وأطواره أغرب من أيّ وقت مضى، لكنّه سيُسعد جدّاً حين يعلم بخبرك.

ـ ربّما لا، لأنّني الآن فارّ من العدالة...

ـ دافع أكبر، إذن. ما فائدةُ الأصدقاء إذا لم يمدّوا أيديهم لأصدقائهم حين يخونهم الحظّ؟ ـ قاطعه الطبّاخ.

أخذه دييغو إلى زاوية من الساحة، كانت تبيع فيها عدد من الغجريات تنبّؤاتهن وقدّمه إلى أماليا، التي استمعت إلى اعترافه وقبلت أن تعالجَ مرضه بسعر مرتفع كفاية. وبعد يومين دبّر غاليليو تِمبُستا لقاءً بين دييغو وسانتياغو دِ ليون في حانة في لاكورونيا. وما إن اقتنع القبطان بأنّ ذلك الغجري هو الصبيّ الذي نقله في سفينته عامَ 1810 حتى استعدّ لسماع قصّته كاملةً. قدّم له دييغو ملخّص سنواته في برشلونة وحكى له عن خوليانا وإيزابيل دِ رومِو.

ـ هناك أمر بإلقاء القبض على هاتين الطفلتين المسكينتين. إذا ما ألقي القبض عليهما ستنتهيان إلى السجن أو تنفيان إلى المستعمرات.

- وأيّ عملٍ فاحش يمكن أن تكون قد ارتكبت هاتان المخلوقتان؟

- ولا واحد. إنّهما ضحيّتا وغد حاقد. وقد طلب منّي والد الفتاتين، السيّد توماس دِ رومِو، أن آخذهما إلى كاليفورنيا وأضعهما في حماية والدي، السيّد ألخاندرو دِ لابِغا. هل تستطيع أن تُساعدنا في الوصول إلى أمريكا، أيّها القبطان.

- أنا أعمل لصالح حكومة إسبانيا، أيّها الشاب دِ لابِغا. لاأستطيع أن أنقل فارّين.

- أعرف أنك فعلت هذا في مرّاتٍ سابقة، أيّها القبطان...

- إلامَ تُلمّح، يا سيّد؟

وكجواب قاطع فتح دييغو قميصَه وأراه رصيعة العدالة، التي كان يحملها دائماً في عنقه. راقب سانتياغو دِ ليون الجوهرة لِثوانٍ ورآه دييغو يبتسم لأوّل مرّة. تبدّل وجهُه، وجهُ الطائر العنيد، تماماً وعَذُبت نبرتُه عند تعرّفه على رفيق، على الرغم من أنّ الجمعيّةَ كانت غير مفعّلة آنياً، فقد كان كلّ منهما موثوقاً بشدّة إلى قَسَم حماية المُلاحَقين. شرح له دِ ليون أنّ سفينته ستبحرُ خلال بضعة أيّام. لم يكن الشتاء أفضل فصلٍ لعبور المُحيط، لكنّ الصيفَ كان أسوأ عندما تبدأ الأعاصير تخرج من قمقمها. كان عليه أن ينقل بسرعة حمولةَ الأسلحة لردع التمرّد في المكسيك، ثلاثمئة مدفع مفكّك، ألف بندقيّة ومليون طلقة من الرصاص والبارود. كان دِ ليون يأسفُ لأنّ مهنته وحاجاته الاقتصادية تجبرانه على ذلك، لأنّه كان يعتبر قتال الشعوب، كلّ الشعوب، من أجل استقلالها شرعيّاً. إسبانيا التي كانت عازمة على استعادة مستعمراتها سبق أن أرسلت عشرة آلاف رجل إلى أمريكا. كانت الجيوش الملكية قد استعادت فنزويلا وتشيلي في معركة وحشية، سال فيها الكثير من الدماء وارتكبت فظائع كثيرة. كذلك أُخمِدتْ الثورةُ المكسيكية. «لو لم يكن من أجل طاقمي الوفيّ

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الذي مضى عليه زمن طويل معي، وأنا أحتاج إلى هذا العمل، لتركتُ البحرَ وتفرَّغت كلّياً لخرائطي»، وضّح القبطان. اتفقا على أن يصعد دييغو والنساءُ بحماية العتمةِ وأن يبقوا مختبئين في السفينة حتى يُصبحوا في عرض البحر. يجبُ ألا يعرف أحدٌ، باستثناء القبطان وغاليليو تِمْبُستا، هويّةَ المُسافِرين. شكره دييغو متأثِّراً، لكنّ القبطان ردّ عليه بأنّه فقط يقوم بواجبه. فأيّ عضو مكانه في الجمعية كان سيفعل الشيء ذاته.

مضى الأسبوع في الاستعداد للسفر، كان عليهم أن يفكّوا الوزرات لإخراج الدوبلات الذهبية، لأنّهم رغبوا بأن يتركوا شيئاً منها إلى أهل قبيلةِ روما، الذين أحسنوا ضيافتهم. ويحتاجون هم لشراء ملابس مناسبة وأشياء أخرى ضرورية للرحلة. أعادوا بعدها الخياطة على الأحجار الكريمة في طيّاتِ الملابس الداخلية، تماماً كما أشار عليهم المصرفيّ، فلم يكن هناك من طريقة أفضل لنقل المال في تلك الأزمنة الصعبة. اختارت الفتاتان ملابس عمليّة وبسيطة، مناسبة للحياة التي تنتظرهما، كلّها سوداء، لأنّه صار باستطاعتهما أن تلتزما الحدادَ على أبيهما. لم يكن هناك الكثير مما يمكن اختياره في الدكاكين المحيطة، لكنّهما حصلتا على بعض القطع واللوازم من سفينة إنكليزيّة كانت راسية في الميناء. من ناحيتها استذوقت نوريا الخرق الملوّنة خلال وجودها مع الغجر، إلاّ أنّه كان عليها أن تستخدم الأسود لعامٍ على الأقل، حِداداً على ذكرى سيّدها.

ودّع دييغو وصديقاته قبيلةَ روما بكثير من الحزن، لكن دون تعابير عاطفية، إذ كان أولئك الناس الذين قسّاهم اعتياد المعاناة سيسيئون استقبالها. سلّم بْلايو دييغو السيفَ الذي صنعه له، وكان سلاحاً كاملاً، قويّاً، مرناً وخفيفاً، ومن التوازن بحيث يمكن قذفَه في الهواء وتقليبَه والتقاطه من مقبضه دون أيّ جهد. حاولت أماليا في آخر لحظة أن تُعيد تاجَ اللؤلؤ إلى خوليانا، لكنّ هذه رفضت أخذه،

بذريعة أنّها تتركه لها للذكرى. إلا أن الغجرية ردّت بإيماءة تكاد تكون مزدرية: «لست بحاجة له كي أتذكّركم»، لكنّها خبّأته.

صعدوا إلى السفينة ذات ليلة من ليالي بداية آذار، بعد ساعات من صعودِ حرّاسِ الميناء إلى متن السفينة لتفتيش الحمولة والترخيص للقبطان برفع المرساة. قاد غاليليو تِمبِّستا وسانتياغو دِ ليون مَخْمِيِّيهم إلى الحجرات التي عيّنوها لهم. كانت السفينة قد حُدِّثت قبل سنتين وصارت مواصفاتها أفضل مما في رحلة دييغو الأولى، صار فيها مكان لأربعة مسافرين في حُجيرات صغيرة فردية على كلّ جانبٍ من جوانب قاعة الضباط في الكوثل. في كلٍّ واحدة منها سرير خشبيّ معلّق بكابلات، طاولة وكرسيّ وخزانة ثياب صغيرة. لم تكن تلك المقصورات مريحة، لكنّها توفّر الحميمية، وهي أعظمُ رفاهية على متن سفينة. حبست النساء الثلاثة أنفسهنّ في حُجَيْراتهنّ لأربع وعشرين ساعة من الإبحار، لم يذقن فيها لقمة، وامتقع لونهنّ من الدوار، وكنّ واثقاتٍ من أنّهنّ لن يتغلّبن على هول التمايل في الماء لأسابيع. وما إن خلّفوا وراءهم شاطئَ إسبانيا حتى أَذِنَ القبطان للركّاب بالخروج، لكنّه أمر النساء أن يبقين على مسافة متحفّظة من البحّارة تجنُّباً للمشاكل. لم يُقدّم توضيحاتٍ للبحارة وهم لم يجرؤوا على طلبها، لكنّهم تمتموا من وراء ظهره أنّها لم تكن فكرة جيّدة حمل نساء على متنها.

في اليوم التالي انبعثت الصغيرتان دِ رومِو ونوريا على رائحة القهوة، خفيفتين بلا دوار، وقد صِمت آذانهنّ أقدام البحّارة الحافية وهم يتبادلون المناوبات. كنّ قد اعتدن على الناقوس، الذي يُقرَع كلّ نصف ساعة. اغتسلن بماء البحر وأزلن الملحَ بخرقة مبلّلةٍ بماء عذب، ارتدين بعدها ملابسهنّ وخرجن من حُجيْراتهنّ مترنّحات. في قاعة الضباط كان هناك طاولة مستطيلة، حولها ثماني كراسٍ، وضع عليها غاليليو تِمبِّستا طعام الإفطار، القهوة المُحلاّة بالدبس

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ومُعزّزة بدفقةٍ روم أعادت الروح إلى أجسادهنّ. الشوفان المُنكّهِ بالقرفة وكبش القرنفل قُدِّم مع عسلٍ أمريكيّ غريب، كتقدمة لطيفة من القبطان. رأين من الباب المشقوق سانتياغو دِ ليون وضابطين شابّين على طاولة العمل، يُراجعان لائحة المناوبة وتقرير المؤن والحطب والماء، التي يجب أن تُوزّع بحكمة حتى ميناء التموّن القادم. على الجدار بوصلة تُشير إلى اتجاه السفينة وميزان زئبقيّ. على الطاولة، وفي صندوق جميل من خشب المغنّة، ميقتٍ يُداريه سانتياغو دِلِيون مثل تحفة، مثل أثر قدّيس. ألقى سلاماً مقتضباً: صباح الخير»، دون أن يُبدي دهشة من معنويات ضيوفه الضعيفة. سألت إيزابيل عن دييغو، فأشار القبطان إشارةً غامضة إلى السطح.

ـ إذا لم يكن الشاب دِ لابِغا قد تغيّر خلال هذه السنوات فلا بدّ أنّه فوق الصارية الكبرى، أو جالس على رأس الكوثل. لا أعتقد أنّه يملّ، لكنّني أعتقد أنّ هذه الرحلة ستكون بالنسبة إليكنّ طويلةً جدّاً.

ومع ذلك لم تكن كذلك، فسرعان ما وجدت كلّ واحدة منهنّ مايشغلها. فخوليانا تفرّغت للتطريز وقراءة كتب القبطان واحداً بعد الآخر. في البداية بدت لها مُمِلّة، لكنّها سرعان ما أدخلت إليها أبطالاً وبطلات فاكتسبت الحروبُ والثورات والرسائلُ الفلسفية طابعاً رومانسيّاً خاصّاً. كانت حرّة في اختراع الحبّ الملتهِب والمصدود، وباستطاعتها أن تُقرِّر النهاية. كانت تُفضِّل النهايات المأساوية، فمعها تبكي أكثر. إيزابيل تولّتْ مساعدةَ القبطان في رسم الخرائط الخيالية الرائعة، بعد أن أقرَّ بمهارتها في الرسم. بعدها طلبت إذناً لرسم وجوه الملاّحين. انتهى الأمر بالقبطان بالسماح لها بذلك وهكذا كسبت احترام البحّارة. درست أسرارَ الملاحة، بدءاً من السدسية وحتى طريقة تحديد ماهية التيارات المائية السفلية من خلال تبدّل لونِ الماء أو سلوك الأسماك. تسلّت بالأعمال على السطح وكانت كثيرة: سدّ تشقّقاتِ الخشب بأليافِ السنديان والقطران، ضخّ الماءِ، الذي كان يتجمع في في قاع السفينة، وإصلاح الأشرعة، وجمع الحبال المقطوعة، وتشحيم الصواري بشحوم المطبخ الزنخة،

والرسم، وكشط وغسل المفارش. كان البحارة يعملون طوال الوقت، فقط كان الروتين يخفّ أيّامَ الآحاد فيستغلون الوقت للصيد، ونحت تماثيل الخشب وقصّ الشعر ورفو الثياب والوشم وتفلية بعضهم بعضاً من القمل. كانت تفوح منهم رائحة ضوارٍ، لأنّهم نادراً ما يُبدّلون ثيابهم ولأنّهم يعتبرون الاستحمام خطراً على الصحّة. لم يكونوا يفهمون لماذا يفعل القبطان ذلك أسبوعيّاً ولا هوس المسافرين الأربعة في الاغتسال يوميّاً. لم يكن يسود على متن *لا مادرِ دِ ديوس* نظام السفن العسكرية الصارم. وكان سانتياغو دِ ليون يفرض احترامه دون اللجوء إلى العقوبات الوحشية. فيسمح بممارسة ألعابِ الورق والنرد، الممنوعة في سفن أخرى، ما داموا لا يُراهنون على المال، ويُضاعف حصّة الأفراد من الروم أيّام الآحاد ولا يتأخّر قط عن دفع أجرة الرجال، وكان يُنظّمُ المناوبات حين يرسون في ميناء كي يستطيع الجميع أن ينزلوا ويروّحوا عن أنفسهم. ورغم وجود سوط من تسع أذيالٍ في كيس أحمر معلّقٍ في مكان ظاهر، فهو لم يُستخدَم قط. وأقصى ما يُعاقب به المخالِفين أنّه يحرمهم من الروم عدّةَ أيّام.

فرضت نوريا حضورها في المطبخ، لأنّ أطباق غاليليو حسب رأيها لا تحتوي على الكثير مما يُثير الشهيّة. وقد احتفلِ الجميع، بدءاً من القبطان وحتى آخر حمّالٍ، بجديد طبخها، المحضّر من الموادّ المحدودة التي هي نفسها دائماً. وسرعان ما اعتادت القهرمانة على الروائح المثيرة للغثيان، خاصّة روائح السمك واللحم المملّح، والطبخ بمياه عكرة، والسمك الذي كان غاليليو تِمْبُستا يضعه على أكياس البسكويت كي يحارب التسوّس. وحين تمتلئ بالديدان يستبدلها بأخرى، وهكذا يُحافظ على البسكويت نظيفاً إلى هذا الحدّ أو ذاك. تعلّمت حلب الماعز التي كانوا يحملونها معهم. لم تكن الحيوانات الوحيدة، فقد كان هناك دجاج وبطّ وإوزّ في أقفاص وخنزيرة مع صغارها في حظيرة، إضافة إلى حيوانات سعدِ البحارة ـ قردة وببغاوات ـ والقطط التي لا غنى عنها، والتي لولاها

لسادت الجرذانُ ومادت. اكتشفت نوريا طريقة لمضاعفة كميات الحليب والبيض، فصار هناك تحلية كلّ يوم. كان غاليليو تِمْبُستا سيّئ المزاج وقد أثار غزوُ نوريا لمطبخه حفيظَتَهُ، لكنّها وجدت أبسطَ طريقة لحلّ المشكلة. ففي المرّة الأولى التي رفع فيها تِمْبُستا صوته عليها ضربته ضربةً جافة بالمغرفة على جبينه وتابعت تقليب يخنتها دون أن تتبدّل. بعد ستّ ساعات عرض عليها البندقيُ الزواج. اعترف لها أن علاج أماليا بدا يُعطي نتائجه الجيّدة وأنّه وفّر تسعمئة دولار أمريكي، المبلغ الكافي كي يفتتحا مطعماً في كوبا ويعيشا مثل ملكين. قال إنّه منذ أحد عشر عاماً وهو ينتظر المرأة المناسبة، ولا يهمّه أنّها أكبر منه قليلاً. فلم تتكرّم نوريا بالردّ عليه.

عددٌ من البحارة الذين كانوا على متن السفينة في رحلة دييغو الأولى لم يعرفوه حتى خسّرهم حفنات من الحمّص في لعبة الورق. وكان لوقت البحّارة قوانينه الخاصّة، والسنون تمرّ دون أن تترك علائمها على صفحة السماء والبحر، ولذلك فاجأهم أنّ الصبيّ الذي لم تكن لحيته حتى البارحة قد نبتت ويُخيفهم بقصص الموتى - الأحياء، صار اليوم رجلاً. أين ذهبت تلك السنون الخمس؟ كان يُريحهم أنّه على الرغم من أنّه تغيَّر وكبر، فهو مايزال يستمتع برفقتهم. فقد كان دييغو يقضي قسماً جيّداً من يومه يعمل معهم في تسيير أمور السفينة، خاصّة الأشرعة، التي مابرحت تفتنه. في المساء فقط يختفي قليلاً في حُجيْرَته ليغتسل ويرتدي ثياب الفارس ويَمثُل أمام خوليانا. انتبه البحّارة منذ اليوم الأوّل إلى أنّه عاشق للشابّة، ورغم أنّهم يُمازحونه أحياناً، إلاّ أنّهم يراقبون ذلك الوله بمزيج من الحنين لما لن يحصلوا عليه أبداً، والفضول لمعرفة الخاتمة. وكانت خوليانا تبدو لهم لا واقعية مثل حوريات البحر الأسطورية. ذلك الجلد الناصع، وتلكما العينان وتلك الملاحة الأثيرية لم يكن من الممكن أن تكون من هذا العالم.

اتجهت *لا مادرِ دِ يوس*، مدفوعة بالتيارات المحيطية وأوامر الريح، طائفة حول أفريقيا، مرّت مقابل جزر الكناري دون أن

تتوقّف، ووصلت إلى الرأس الأخضر للتزوّد بالمياه والأغذية الطازجة، قبل أن تشرع بعبور الأطلسي، الذي يمكن أن يدوم أكثر من ثلاثة أسابيع، حسب الريح. وهكذا حدث أن علموا بفرار نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة إلبا ودخوله منتصراً إلى فرنسا، حيث انضمّت القوّاتُ، التي خرجت لتقطع عليه الطريق إلى باريس، إلى صفّه. استعاد السلطةَ دون أن يُطلق طلقةً واحدة، بينما لجأ بلاط الملك لويس الثامن عشر إلى غانث، واستعدّ للعودة بالبدء باحتلال أوروبا. استُقبِل المسافرون في الرأس الأخضر من قبل السلطات بالنساء الأفريقيات، السامقات والمعتزّات بأنفسهنّ، اللواتي حضرن إلى الاحتفال بترف منقطع النظير. بدت إيزابيل بالمقارنة معهنّ كلباً مشعراً، وحتى خوليانا نفسها بدت تافهة. تبدّل هذا الانطباع الأوّل تماماً حين عزفت خوليانا، مدفوعة من دييغو، على الجُنك. كان هناك أوركسترا كاملة، لكن لم تكد خوليانا تضغط على الأوتار حتى ساد القاعةَ الكبيرة الصمتُ. زوج من المقطوعات الموسيقية الراقصة كانت كافية لتسحر جميع الحضور. واضطُرَّ دييغو في بقيّة السهرة أن يقف في الصفِّ مع بقيّة الرجال كي يرقص معها.

بعد قليل نشرت *لا مادرِ دِ ديوس* أشرعتها، مُخلّفة وراءها الجزيرة وظهر البحّارة يحملون صندوقاً ملفوفاً بالخيش وضعوه في قاعة الضباط، هديّة من القبطان سانتياغو دِ ليون إلى خوليانا. قال لها وهو ينزع عنه القماش بحركة أنيقة: «كي تُطوّعي الريحَ والأمواج». كان جُنكاً إيطاليّاً منحوتاً على شكل إوزّة. ومنذ تلك اللحظة صاروا ينقلون الجنكَ كلّ مساء إلى السطح فتُبكي الرجالَ بألحانها الحزينة. كانت أذنها مرهفة وتستطيع أن تعزف أيّة أغنية يدندنونها. وسرعان ما ظهرت القيثارات وارتجلوا طبولاً لمرافقتها. القبطان الذي كان يُخبّئ كماناً في حجرته كي يُسلّي نفسه سرّاً في الليالي الطويلة التي لا يتمكّن فيها الأفيون من تخفيف ألم ساقه المريضة، انضمّ إلى المجموعة فامتلأت السفينة بالموسيقى.

كانوا وسط واحدٍ من تلك التيارات، حين حملت نسمة نتناً مُثيراً

للغثيان، من المُحال تجاهله. بعد دقائق لمحوا في البعيد طيف سفينة شراعية. لجأ القبطان إلى المنظار كي يتأكّد مما أصبح يعرفه: إنّها سفينة عبيد. كانت تسود بين تجار العبيد نزعتان: حمولات مكتظّة وأحمال خفيفة. في الأولى يُكدّسون سجناءهم كالحطب، باختلاط هائل، بعضهم فوق بعض، مقيّدين بالسلاسل، غارقين في غائطهم وقيئهم. السليمون مخلوطون بالمرضى والمحتَضَرين والجثث. نصفهم كان يموت في عرض البحر، بينما يُسمِّنون الناجين في الميناء الذي يصلون إليه فيُعوِّضون ببيعهم خسائرهم: وحدهم الأقوى يصلون إلى وجهتهم ويحصلون بهم على أسعار جيّدة. أما تجّار الزنوج الأخف، فكانوا يحملون عدداً أقل من العبيد وفي شروط أفضل، كيلا يخسروا كثيرين منهم في العبور.

ـ لا بدّ أن تكون هذه السفينة من ذوات الحمولة المكتظّة، لذلك تُشمّ رائحتها عن بعد عدّة فراسخ ـ قال القبطان.

ـ علينا أن نُساعد هؤلاء الناس المساكين، أيّها القبطان! ـ صاح دييغو مذعوراً.

ـ أخشى ألا يكون باستطاعة العدالة فعلَ شيء في هذه الحالة، يا صديقي.

ـ نحن مسلّحون، ولدينا أربعون بحّاراً، نستطيع مهاجمة هذه السفينة وتحريرهم.

ـ التجارة غير شرعية، وهذه الحمولة مهرّبة. وإذا ما اقتربنا رموا بالعبيد المقيَّدين إلى البحر، كي يغرقوا على الفور. وحتى لو حرَّرناهم فليس لديهم مكان يذهبون إليه. فقد أُسِروا في بلادهم ذاتها من قبل تُجّار أفارقة. الزنوج يبيعون الزنوج. ألم تكن تعرف؟

خلال هذه الأسابيع من الإبحار كسب دييغو جولات في صيد خوليانا، كان قد خسرها خلال وجودهم مع الغجر، حيث عليهما أن يبقيا منفصلين، لا يتمتّعان أبداً بالخلوة. كذلك كان الأمر في

السفينة، لكنّ الأمر لم يكن يخلو من غياب شمسٍ ومستجداتٍ أخرى يُطلان فيها لرؤية البحر، كما كان يفعلُ العشّاق منذ الأزمنة الغابرة. عندها كان دييغو يتجرّأ على وضع يده على كتف أو خصر الحسناء، بكثيرٍ من الرقّة، كيلا يُجفلها. كان يقرأ بصوت عالٍ قصائد حبٍّ لمؤلّفين آخرين، لأنّ قصائده من الرداءة بحيث أنّه هو نفسه كان يخجل منها. وكان من الحكمة بحيث أنّه اشترى كتابين في لاكورونيا، قبل الإبحار، عادا عليه بفائدة كبيرة. فالصور المجازية الحلوة كانت تلينّ خوليانا، وتُحضّرها للحظة التي يأخذ فيها يدها ويبقي عليها بين يديه. وللأسف ليس أكثر من ذلك. لم تكن القبلات لتخطر بالبال، إطلاقاً، ليس لانعدام المبادرة عند بطلنا، بل لأنّ إيزابيل ونوريا والقبطان وأربعين بحّاراً لا يرفعون نظرهم عنهما. ثمّ إنّها لم تكن تسهّل اللقاءات خلف باب موصد، من ناحية لأنّه لم يكن في السفينة أبواب كثيرة، ومن ناحية أخرى لأنّها لم تكن واثقة من مشاعرها، رغم أنّها تعايشت مع دييغو أشهراً ولم يكن يلوح في الأفق طالب ودٍّ آخر. شرحت ذلك لأختها في الأحاديث الحميمة التي تدور بينهما عادة في الليل. وكانت إيزابيل تحتفظ برأيها لنفسها، ذلك لأنّ أيّ شيءٍ تقوله يمكن أن يميل بميزان الحبّ لصالح دييغو. وهذا ما لم يكن يناسبها. كانت إيزابيل تُحبُّ الشابَّ على طريقتها منذ الحادية عشرة من عمرها، لكن ليست هذه هي المسألة، فذلك لم يخطر بباله قط. فدييغو ما يزال يعتبر إيزابيل صغيرة تافهة تحبو وشعرها يكفي لرأسين، رغم أنّ مظهرها تحسّن قليلاً مع مرور السنين، فقد صارت في الخامسة عشرة من عمرها ولا تبدو سيّئة كما كانت في الحادية عشرة.

رأوا في عدّة مناسبات سفناً أخرى من بعيد، وكان القبطان من الحكمة بحيث أنّه تفاداها، لأنّ الأعداء كثر في عرض البحر، بدءاً من القراصنة وحتى الزوارق الأمريكية السريعة، المستعدّة للسيطرة على حمولة الأسلحة. كان الأمريكيون بحاجة إلى كلّ بندقية يمكن أن يستعينوا بها في حربهم ضدّ إنكلترا. لم يولِ سانتياغو انتباهاً للعلم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المرفوع على الصارية، فهم يبدّلونه عادةً لخداع الغافلين، لكنه كان يتحقّق من هويّتها من خلال علامات أخرى. كان يتفاخر بأنّه يعرف كلّ السفن التي تسلك ذلك الطريق.

هزّت عدّة عواصف شتويّة *لا مادرِ دِ ديوس* خلال هذه الأسابيع، لكنّها لم تصل قط بغتةً، لأن باستطاعة القبطان التقاطها في الهواء قبل أن يُعلِن عنها ميزان الضغط الجوّي، فيُعطي أوامره للمّ الأشرعة وحزم ما هو ضروريّ وحبس الحيوانات. فيجهز البحارةُ ذلك خلال دقائق قليلة، وحين تبدأ الريحُ تهبُّ ويهتاجُ البحرُ يكون كلّ شيء جاهزاً على ظهرها. كان عند النساء تعليمات بأن يغلقن على أنفسهنّ حُجيراتهنّ كيلا يتبلّلن ولكي يتفادين الحوادث. كانت الأمواج تمرّ من فوق الأسطح جارفة كلّ ما تجده في طريقها، وبدا من السهل أن تنزلق قدم أحدهم وينتهي إلى قاع الأطلسي. وبعد الوابل تصبح السفينةُ نظيفةً وجديدة تفوح منها رائحة الخشب، وتنقشع السماء ويروق البحر، ويصبح الأفق فضّةً خالصة. كانت تصعد إلى سطح السفينة أسماك متنوّعة ينتهي أكثر من واحدة منها إلى الطهي في مقلاةِ غاليليو تِمْبُستا. وكان القبطان يتخذ إجراءاته لتصحيح مسار السفينة بينما البحّارة يصلحون الأضرار القليلة ويعودون إلى أعمالهم الروتينية اليومية. كانت مياه المطر المجمّعة في أقمشة الكتان تُسكب في براميل تسمح لهم بترفِ الاستحمام بالصابون، الأمر الذي كان مستحيلاً بماء البحر.

وصلوا أخيراً إلى مياه الكاريبي. رأوا سلاحف كبيرة، وأسماك السيف، وقناديل بحر شفافة ذات مجسات طويلة وأخطبوطات عملاقة. بدا الجوّ صحّياً، ومع ذلك بدا القبطان عصبيّاً. كان يشعر بتغيّر الضغط من ساقه. العواصف الصغيرة السابقة لم تُهيّء دييغو وصديقاته لعاصفة حقيقيّة. كانوا يستعدون للتوجّه إلى بورتو ريكو ومن هناك إلى جامايكا، حين أبلغهم القبطان أنّ تحدّياً أعظم سيهبط عليهم. كانت السماء صافية والبحر هادئاً، لكنّ هذا تبدّل في أقلٍّ من

نصف ساعة. وابلٌ من المطر كسف نور الشمس، وصار الهواء دبقاً وبدأ المطر يهطل مدراراً. سرعان ما عبرت السماء البروق الأولى وارتفعت أمواج هائلة متوّجة بالزبد. كان الخشب يصرّ وتبدو الصواري على وُشك أن تُقتَلَع من جذورها، ولم يكد الرجال يملكون وقتاً للمّ الأشرعة. راح القبطان ومديرو الدفّة يُحاولون السيطرة على السفينة بعدّة أيدٍ. كان بينهم زنجي مفتول العضلات من سانتو دومينغو، مدبوغاً بعشرين سنة من الإبحار، راح يصارع الدفّة دون أن ينقطع عن مضغ التبغ، غير آبهٍ بدلاء الماء التي أخذت تعميه. وكانت السفينة تترنّح وتتمايل فوق أمواج منقطعة النظير هائلة وتهبط بعدها بقليل إلى قاع جحيم سائل. وبانعطافة شديدة من السفينة انفتحت الحظيرة وطارت معزاة في الهواء مثل صاروخ وضاعت في السماء. كان البحارة يتشبّثون بما يستطيعون كي يسيطروا على السفينة، فأيّ انزلاق يعني الموت الأكيد. راحت النساء الثلاث يرتعدن في حُجَيْراتهنّ خوفاً ومرضاً وغثياناً. حتى دييغو، الذي كان يفتخر أنّ له معدة حديديّة تقيّأ؛ لكنه لم يكن الوحيد، فعدد من البحارة فعلوا ذلك. فكّر أنّ الغطرسة البشرية وحدها هي التي تتجرّأ على تحدّي عناصر الطبيعية؛ فالسفينة *لا مادرِ دِيوس* كانت جوزة يمكن أن تنكسر في أيّ لحظة.

أمر القبطان بتأمين الحمولة، لأنّ ضياعها يعني الإفلاس الاقتصادي. تحمّلوا العاصفة يومين كاملين، وحين بدا أخيراً أنّها ستهدأ، ضربت صاعقة الصارية الكبرى. شعروا بالصدمة في السفينة مثل ضربة سوط. الصارية الطويلة والثقيلة المشطورة من منتصفها ترنّحت عدّة دقائق بدت أبديّة بالنسبة إلى البحارة، إلى أن انفلقت أخيراً وسقطت مع شراعها وشبكة حبالها إلى البحر ساحبة معها بحّارَيْن، لم يتمكّنا من النجاة بنفسيهما. مالت السفينة مع الشدّة وبقيت مائلة على جانبها موشكة على الغرق. ركض القبطان معطياً أوامِرَه، وعلى الفور هرع عدّة رجال بفؤوسهم ليقطعوا الكابلات التي كانت تربط الصارية بالسفينة، المهمّة الصعبة جدّاً لأنّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأرضية مائلة وزلقة والريح تسوطهم والمطر يعميهم والأمواج تكنس السطحَ. تمكّنوا بعد برهة طويلة من فصل الصارية التي راحت تبتعد طافيةً، بينما راحت السفينة تستقيم مترنّحة. لم يكن هناك من أمل في نجدة الرجلين الساقطين، اللذين ابتلعهما المحيط الأسود.

أخيراً هدأت الريح والأمواج قليلاً، لكنّ الصواعق والأمطار استمرّت بقيّة الليل. عند الفجر، حين عاد النور، استطاعوا أن يجردوا الأضرار. كان هناك بالإضافة إلى البحارين الغارقين آخرون رُضُوا وجُرِحوا. غاليليو تِمبُستا انكسرت ذراعه عند انزلاقه في إحدى المرّات، لكن وبما أنّ العظم لم يخرج من الجلد فإنّ القبطانَ لم يجد ضرورة لبترها. أعطاه حصّة مضاعفة من الروم وأعاد العظام بمساعدة نوريا إلى مكانها وثبّت الذراع. تفرّغ البحارة لنزحِ الماء المتراكم في قعر السفينة وإعادة توزيع الحمولة، بينما راح القبطان يجوب السفينة من رأسها إلى عقبها كي يُقيّم الوضع. بدت السفينة مؤذاة إلى حد أنّه من المحال إصلاحها في عرض البحر. وبما أنّ العاصفة انحرفت بهم عن مسارهم بعيداً عن بورتو ريكو باتجاه الشمال، فقد قرّر القبطان أنّهم يستطيعون بالصاريتين والأشرعة المتبقية أن يصلوا إلى كوبا.

انقضت الأيّام التالية في الإبحار ببطء دون الصارية الكبرى والماء يتسرّب إليها من عدّة شقوق. لقد مرّ هؤلاء البحارة الشجعان في ظروفٍ مماثلة دون أن يصابوا باليأس، لكنّه حين دبَّ الصوت بأنّ النساء هنَّ اللواتي جلبن الكارثة، بدؤوا يهمهِمون. ألقى سانتياغو عليهم خطاباً واستطاع منع قيام تمرّد، لكنّه لم يُخفّف من عدم الرضا. ما من أحد فكّر بعدها بحفلات موسيقى الجُنُك، وامتنعوا عن تناول طعام نوريا وصاروا يشيحون بنظرهم عن المسافرات حين يظهرن على السطح لتنشق الهواء. كانت السفينة تتقدّم في المياه الخطرة بشقّ النفس ليلاً باتجاه كوبا. وسرعان مارأوا أسماك القرش والدلافين الزرقاء والسلاحف الكبيرة، وكذلك

النوارس، والبجع والأسماك الطائرة في الهواء، التي كانت تسقط مثل الصخور على السطح، جاهزة كي يطبخها تِمْبُستا. النسمة الدافئةُ ورائحةُ الثمار الناضجة البعيدة بشّرتهما بقرب اليابسة.

خرج دييغو عند الفجر ليستنشق الهواء، كانت السماء قد بدأت تتكشّف عن تدرُّجات اللون البرتقالي وضباب خفيف كوشاح يُحدّد حوافَ الأشياء. وأضواء الفوانيس المشتعلة تظهر مغبّشة في الضباب. كانوا يُبحِرون بين جزيرتين صغيرتين مغطّاتين باللاذن؛ والسفينة تتمايل بسلاسةٍ فوق الأمواج، والصمتُ يسود، إضافة إلى صرير الخشب الأبديّ. مطّ دييغو ذراعيه، تنفّس عميقاً كي يصحو وأومأ مُحيياً بيده قائدَ الدفّة، الذي كان في طريقه إلى موقعه؛ راح بعدها يجري، كما كان يفعل كلَّ صباحٍ ليُحرّر عضلاته المتشنّجة. كان سريره قصيراً عليه، وينام منكمشاً، وعدّة دورات من الجري على السطحِ تفيده في صفاء ذهنه وتنشيط جسده. عندما وصل إلى الكوثل أطلّ ليمر بيدهِ على رأس تمثال القيدوم، الطقس القصير الذي يقوم به يوميّاً بدقّة خرافية. عندها رأى كتلةً في الضباب. بدا له أنّها يمكن أن تكون سفينة شراعية، على الرغم من أنّه لم يكن متأكّداً. في جميع الأحوال وبما أنّها كانت قريبة، فقد فضّل أن يُعلم القبطان. بعد لحظات قليلة خرج سانتياغو دِ ليون من حجرته وهو يزرّر بنطلونه ويحمل المنظار في يده. كَفَتْهُ نظرة كي يدبَّ صوتَ الاستنفار ويقرعَ الجرسَ مُستدعِياً البحارةَ، لكنَّ الوقت تأخّر فالقراصنة راحوا يتسلّقون جوانب *لا مادرِ دِ ديوس*.

رأى دييغو الكلاّبات الحديدية التي يستخدمونها للهجوم، لكن ليس هناك وقت لقطع الكابلات، انطلق إلى حجرة القيدوم، محذّراً بصوت عالٍ خوليانا وإيزابيل ونوريا ألا يخرجن مهما كان السبب، أخذ السيف الذي صنعه له بّلايو واستعدّ للدفاع عنهنّ. وصل المهاجمون الأوائل إلى السطح وخناجرهم بين أسنانهم. خرج

بحارة *لا مادرِ دِ ديوس* من كلّ مكانٍ، مثل الجرذان مسلّحين بما وقعوا عليه، بينما القبطان يُعطي أوامر غير مُجدية، لأنّه في لحظة واحدة نشبت معركة جهنَّميّة ولم يسمعه أحد. وكان دييغو والقبطان يقاتلان جنباً إلى جنب ستّة مهاجمين، الكائنات المريعة معلّمين بندوب مريعة، طويلي الشعر، يحملون خناجر حتى في أحذيتهم ومسدسان أو ثلاثة وسيوف قصيرة على خصورهم. راحوا يزمجرون مثل النمور، لكنّهم يُقاتلون بضجيج وشجاعة أكثر مما بفنّ. ما من أحد منهم كان باستطاعته مواجهة دييغو وحيداً، لكنّهم جمعاً حاصروه. تمكّن الشابّ من كسرِ الطوقِ وجرحِ واحد منهم، قفز بعدها وتعلّق بشراع المؤخّرة، تسلّق مداوس الصارية وأمسك كابلاً سمح له بالتأرجح وقطعِ السطح، كلّ ذلك دون أن يسهو بنظره عن حُجيرات النساء. كانت الأبوابُ خفيفة ويمكنُ فتحها برفسةٍ واحدة. فقط كان يأمل ألا تُطلّ أيّ منهنَّ بأنفها على الخارج. وبينما كان يتأرجح بالحبل اندفع وسقطَ تماماً أمامَ رجلٍ كان ينتظره وسيفه في يده. وبخلاف البقيّة الذين كانوا بلا ضمير، ويرتدون الأسمال كان هو يرتدي ملابسَ أمير، كلّها سوداء ومئزراً حريرياً أصفر حول خصره، ويضعُ قبّة وكمين مطرّزين، وينتعل جزمة طويلة ناعمة ذات أبازيم ذهبية ويضع سلسلةً من المعدن ذاته في عنقه وخواتمَ في أصابعه، كان حسنَ القدّ، طويلَ وبرّاقَ الشعر، حليقَ الذقنِ، ساخرَ البسمة، التي كانت تتراقص على شفتيه الرقيقتين، وناصعَ بياض الأسنان. استطاع دييغو أن يُقيّمه بنظرة سريعة، فلم يتوقّف ليتحقّق من هويته. قدّرَ من زيّه الفاخرِ وموقفه أنّه لا بدّ أن يكون زعيم القراصنة. سلّم العنصرُ الأنيق بُالفرنسيةِ ووجّهَ طعنته الأولى إلى دييغو الذي استطاع تفاديها مقدار شعرة. وتقاطع السيفان وخلال ثلاث أو أربع دقائق أدرك الاثنان أنّهما فُصّلا في قالب واحدٍ، الواحد منهما للآخر. كلاهما كان مبارزاً رائعاً. ورغم الظروف أحسّ كلّ منهما بالمتعة السرّية بأنّه يقاتل خصماً على مستوى عالٍ، وقرّرا دون أن يتفقا أنّ الخصمَ يستحق

قتالاً نظيفاً، ولو كان حتى الموت. بدت المبارزة وكأنّها عرضٌ فنّي، لا بدّ أنّه سيملأ المُعلّم مانوِل إسكالانتِ فخراً.

على متن *لا مادرِ دِ ديوس* كان كلّ واحدٍ يُقاتل دفاعاً عن نفسه. ألقى سانتياغو دِ ليون نظرةً حوله وقيّمَ الوضعَ خلال ثانية. كان القراصنة أكثر عدداً بمرّتين أو ثلاث مرّاتٍ، مسلّحين جيّداً. يعرفون كيف يقاتلون وأخذوهم على حين غرّة. بينما رجاله بحّارة تجاريين وديعين وبعضهم خطّ الشيبُ مفرقَهُ ويحلم بالانسحاب من البحر وتكوينِ أسرة، إذ لم يكن من العدل أن يموتوا دفاعاً عن حمولة غريبة. وبجهد وحشيّ تمكّن من الانفصال عن مهاجميه وأدركَ بقفزتين الناقوس ليقرعَه للاستسلام. أطاع البحّارةُ وألقوا أسلحتهم وسط صيحات نصر المهاجمين. وحدهما دييغو وخصمه الأنيق تجاهلا قرع الناقوس واستمرّا في عراكهما بضع دقائق، إلى أن تمكّنَ الأوّلِ من نزع سلاح الثاني بضربة معاكسة. انتصار دييغو دام قليلاً، لأنّه سرعان ما وجد نفسه في طوق من السيوف تجرح جلده.

ـ اتركوه، لكن لا ترفعوا نظركم عنه! أريده حيّاً ـ أمر خصمُ سانتياغو دِ ليون وحيّاهُ على الفور بقشتالية تامّة ـ جان لافيت، رهن أوامرك، أيّها القبطان.

ـ هذا ما كنتُ أخشاهُ، يا سيّد. لم يكن من الممكن أن تكون غير لصِّ البحرِ لافيت ـ ردَّ دِ ليون، وهو يُجفّف عرقَ جبينه.

ـ لصُّ بحرٍ لا، أيّها القبطان. لديّ رخصة قرصانٍ من قرطاجنّة كولومبيا.

ـ لا فارق بالنسبة للحالة. ماذا نستطيع أن ننتظر منك؟

ـ تستطيع أن تنتظر معاملة عادلة. لا نقتل ما لم يكن بدّ من ذلك، لأنّه يناسبنا جميعاً التوصّل إلى تسوية تجارية. أقترح أن نتفاهم كفرسان. اسمك، من فضلك؟

ـ سانتياغو دِ ليون، بحّار تجاريّ.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ـ لا تهمّني غير حمولتك، أيّها القبطان سانتياغو دِ ليون. وهي إذا كانت معلوماتي صحيحة أسلحة وذخيرة.

ـ وماذا سيصير إليه أمر بحّارتي.

ـ يستطيعون أن يأخذوا زوارقهم وإذا ما كانت الريح مواتية سيصلون إلى الباهامس أو كوبا خلال يومين. كلّ شيء يتعلّق بالحظّ. هل من شيء على متن السفينة يمكن أن يهمّني غير السلاح؟

ـ كتب وخرائط؟... ـ ردّ سانتياغو دِ ليون.

تلك كانت اللحظة التي اختارتها إيزابيل لتخرج من حُجَيرتها. فقد بقيت محبوسة، مطيعة أوامر دييغو إلى أن توقّفت جلبة المعركة وصوت الطلقات، وعندها لم تتحمّل فضولها فخرجت لتعرف كيف انتهت المعركة.

ـ يا الله! يا لها من سيّدة جميلة... ـ صاح لافّيت عندما رآها.

قامت إيزابيل بحركة من بوغت وأنزلت سلاحها. تلك كانت المرّة الأولى التي يستخدم فيها شخص هذا النعت لوصفها. اقترب لافّيت خطوةً منها، حيّاها مُنحنِياً، مدَّ يدَهُ فسلّمته هي المسدَّسَ دون أن تنبس ببنت شفة.

ـ هذا يُعقِّد الأمور قليلاً... كم مسافراً معكم ـ سأل لافّيت القبطانَ.

ـ آنستان وقهرمانتهما، يُسافران مع السيّد دييغو دِ لابِغا.

ـ شيء مهم جدّاً.

أغلق القبطانان الحجرة على نفسهما ليناقشا الاستسلام، بينما اثنان من القراصنة يوقفان دييغو على الحدّ مسدِّدين عليه مسدسيهما، والبقيّة يستولون على السفينة. أمروا المهزومين بأن يتمدّدوا على بطونهم على الأرض وأيديهم على نقراتهم، وطافوا السفينة بحثاً عن الغنيمة، وخفّفوا عن الجرحى بالروم ثمَّ رموا

بالقتلى إلى البحر. لم يأخذوا أسرى، فذلك عاملَ إعاقة كبير. نقلوا جرحاهم بكثير من العناية إلى زوارق هجومهم ومن هناك إلى سفينة القرصنة. في هذه الأثناء كان دييغو يُخطِّط لطريقة للتخلّص وإنقاذ الصغيرتين دِ رومِو. في حال وصوله إليهما، لا يتصوّر كيف سيهربون، فمجرّد فكرة أن يضع أحد هؤلاء الرجال براثنه على هاتين الفتاتين كان يخرجه من عقله. عليه أن يُفكِّر ببرودة، فالخروج من تلك الحالة يحتاج حنكة وحظّاً، ومعرفته بالمبارزة لا تفيده كثيراً في هذا الأمر.

اشترى سانتياغو دِ ليون ومن بقي حيّاً من بحّارته حرِّيتهم بربع راتبهم السنوي، الشيء المعتاد في تلك الحالات. وعرضوا على البحارة خيارَ أن ينضمّوا إلى عصابةِ لافّيت فقَبِل بعضهم. كان القرصانُ يعرف أنّ دين القبطان سيُدفَعُ كما يملي الشرفُ، فمن لا يفعل يحتقره حتى أفضل أصدقائه. كان الأمر يتعلّق بتحويل أسهم نظيفٍ وبسيطٍ. كان على سانتياغو دِ ليون أن يُسلِّم مسافريه الأربعة إلى جان لافّيت، الذي كان يُفكِّر أن يقبضَ فديتَهم. أفهمه أنّ الفتاتين يتيمتين وليس لديهما ثروة، ومع ذلك أصرّ القرصانُ على أخذهما، لأنّه كان هناك طلب كبير على النساء البيض في بيوت المرح في نيوأورليانز. توسّله سانتياغو دِ ليون أن يحترم هاتين الفتاتين الفضيلتين، اللتين عانتا كثيراً ولا تستحقان هذا المصير الرهيب، لكنّ مثل هذه الاعتبارات كانت تتعارض مع التجارة، وهو ما لم يكن باستطاعة لافّيت أن يسمح به، ثمّ وضّح أن البغاءَ عمل لطيف بالنسبة للكثير من النساء. خرج القبطان من الاجتماع منكسراً. لم يكن يهمّه أن يخسر الأسلحةَ، على العكس، فأحد الأسباب التي لأجلها سرّع الاستسلام هو رغبته في التخلّص من تلك الحمولة العبءِ، لكنّ فكرة أن تنتهي ابنتا دِ رومِو، اللتان ودّهما ودّاً حقيقيّاً، إلى ماخور كانت ترعبه. كان عليه أن يُعلِم ركّابه بالمصير الذي ينتظرهم، موضّحاً أن الوحيد الذي يوجد أمل بأن يخرج سليماً هو دييغو دِ لابِغا، لأنّ والده سيقوم بالتأكيد بما هو ضروريّ لإنقاذه.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ـ والدي سيدفع أيضاً فدية خوليانا وإيزابيل ونوريا، شرط أن لا يضع أحد إصبعه عليهنّ. سنرسل إليه على الفور رسالة إلى كاليفورنيا ـ أكّد دييغو لِلافّيت، لكنّه لم يكد يقول ذلك حتى شعر بغمّ في صدره، كأنّ قلبه يُحدّثه بفأل سيّء.

ـ البريد يتأخّر عادة، ولذلك سيبقين في ضيافتي لبضعة أسابيع وربّما أشهر، حتى نستلم الفدية. خلالها ستُحترم الفتاتان. ومن أجل صالح الجميع، آمل ألا يجعلنا أبوك نتوسّل الجواب ـ ردّ القرصان، دون أن يرفع عينيه عن خوليانا.

النساء اللواتي لم يكدن يرتدينَ ثيابهنّ أُغمي عليهنّ حين رأين على السطح تلك العصابة من عديمي الضمير المريعين، ودمَ الجرحى. خوليانا لم ترتعد من الخوف فقط، كما يمكن أن نفترض، بل من صدمة نظرة جان لافّيت.

أرسى القراصنة سفينتهم ذات الشراعين ووضعوا عوارضَ بين كلا الجسرين وشكّلوا جسراً بشرياً لنقل الحمولة الخفيفة، بما في ذلك الحيوانات وبراميل البيرة والخنزير المُقدَّد من سفينة إلى أخرى. لم يكونوا على سرعة من أمرهم فـ *لا مادرِ دِ ديوس* تعودُ ملكيتها الآن لِلافّيتْ. كانوا يعملون بسرعة، لأنّ سفينة *لا مادرِ دِ ديوس* كانت تغرق بشكل واضح. حضر القبطان دِ ليون المناورةَ بلا تأثّر، لكنّ قلبه كان يخفق، لأنّه كان يُحبّ سفينته كما لو أنّها خطيبته. على الصارية المعادية كان يُرفرف إلى جانب علم كولومبيا علم آخر أحمر، اسمه *جوليي روج*، الذي كان يعني ترك المهزومين أحراراً مقابل ثمن معين. هذا ما طمأنه قليلاً. كان يعرفُ أنّ القرصان سيسمح له، بعدَ كلِّ حساب، بإنقاذ طاقم بحّارته. البيرق الأسود الذي يحمل أحياناً جمجمةً وعظمين متصالبين، يعني القرار بالقتال حتى آخر رجلٍ وذبح الخصوم. حين انتهوا من الحمولة وفّى لافّيتْ بكلمته وأذِنَ لسانتياغو دِ ليون أن يضع ماء عذباً ومؤناً في الزوارق ويأخذَ أدوات إبحارهِ، التي لا يستطيع أن يحدّد موقعه من دونها

وحمل مَنْ تبقى من بحارته. في هذه اللحظة ظهر غاليليو تِمبُستا، الذي تدبّر أمره وبقي مختبئاً خلال المعركة، بحجّة ذراعه المكسورة وجلس بين الأوائل في واحدٍ من الزوارق. ودّعَ القبطانُ دييغو النساءَ بربتةٍ قويّة من يديه ووعدَ بأن يعودوا ويلتقوا. تمنى لهم حظّاً سعيداً ونزل إلى أحد الزوارق دون أن يلقي نظرة إلى الخلف. لم يكن يريد أن يرى *لا مادرِ دِ ديوس*، التي كانت مسكنه الوحيد لعقود في أيدي القراصنة.

telegram @ktabpdf

سفينة القراصنة، المحمّلة حتى أعلاها، كانت صعبة التحرّك. لم يحدث أن وجد لافيت نفسه في عرض البحر لأكثر من يومين، لذلك يستطيع أن يُكدّس مئة وخمسين بحاراً في مكان لا يتسع عادة لأكثر من ثلاثين شخصاً. كان مركز عملياته الرئيسيّ في غراندِ إيزل، الجزيرة الكبرى، بالقرب من نيوأورليانز، وهي جزيرة صغيرة في منطقة مستنقعات باراتاريا. هناك كان ينتظر أن يخبره جواسيسه باقتراب صيد مُحتمَل كي ينطلق للهجوم. كان يستغلُّ الضبابَ أو عتمةَ الليل، حين تُخفّف السفنُ من سرعتها، أو تتوقّف، كي يُهاجمها بحذر وسرعة. كانت المباغتةُ ميّزته الكبرى، يستخدم مدافعه لتخويف السفينة المعادية أكثر منه لإغراقها، وهكذا كان يتمكّن من السيطرة عليها وضمّها إلى أسطوله، المكوّن من ثلاث عشرة سفينة بشراعين، ومرزابٍ ومركبٍ وزورق.

كان جان وأخوه بيير أكثر قراصنة تلك السنوات ترويعاً في البحر، لكنّهما يستطيعان أن يمرّا على اليابسة كَرَجُلَيّ تجارة. كان حاكم نيوأورليانز، المحتقن من التهريب وتجارةِ العبيد والنشاطاتِ الأخرى غير الشرعية للأخوين لافيت، قد وضع ثمناً لرأسيهما خمسمئة دولار، فردّ عليه جان مقدّماً ألفاً وخمسمئة مقابل رأسه. تلك كانت ذروة عداوات كثيرة، تمكّن خلالها جان من الفرار، لكنّ بيير بقي سجيناً عدّةَ أشهر. هوجمت غراند إيزل وصودرت كلّ

بضائعها. ومع ذلك تبدّل الوضعُ حين أصبح الأخوان لافّيت حليفين للقواتِ الأمريكية. وصل الجنرال جاكسون إلى نيوأورليانز على رأس فرقة من الرجال المدقعين ومرضى الملاريا، بمهمّة الدفاعِ عن أراضي لويزيانا الشاسعة ضدّ الإنكليز. لم يكن يستطيع أن يسمح لنفسه بترف رفض المساعدة التي عرضها عليه القراصنة. قطّاع الطرق أولئك، الخليط من الزنوج والخلاسيين والبيض، أثبتوا أنّهم أساسيون في المعركة. واجه جاكسون عدوّه يوم 8 كانون الثاني من عام 1815، أي قبل ثلاثة أشهر من وصول أصدقائنا بالقوّةِ إلى تلك المنطقة. كانت الحرب بين إنكلترا ومستعمرتها القديمة قد انتهت قبلَ أسبوعين، لكن ما من أحد من الطرفين كان يعرف. بحفنة من الرجالِ من مختلف المشارب، لايشتركون حتى في اللغة، هزم جاكسون جيشاً منظَّماً وحسن التسلح، مكوّناً من عشرين ألف إنكليزي. وبينما كان الرجال يقتلُ بعضهم بعضاً في تشالميت، على بعد كيلومترات قليلة من نيوأورليانز، كان هناك نساء وأطفال يُصلّون في دير لاس أورسوليناس. في نهاية المعركة، وحين شرعوا يحصون الجثث، وجدوا أنّ إنكلترا فقدت ألفي رجل. بينما لم يُخلّف جاكسون في ميدان المعركة غير ثلاثة عشر قتيلاً. كان الخلاسيون ـ صحيح أنّهم سودٌ لكنّهم أحرار ـ والقراصنةُ أشجعهم. بعدها بأيّام احتُفِل بالنصر بأقواس الزهر وبالصبايا مُرْتَدِياتِ البياض، ممثلاتٍ عن كلّ ولاية من الاتحاد، اللواتي توّجن الجنرال جاكسون بالغار. وكان بين الحشود الأخوان لافّيت وقراصنته، الذين لأنّهم منفيّون صاروا أبطالاً.

خلال الأربعين ساعة التي استغرقتها سفينةُ لافّيت في الوصولِ إلى غراند إيزل أبقوا على دييغو دِ لابِغا مربوطاً على السطح، وعلى النساءِ الثلاث محبوسات في حُجيرةٍ صغيرة بجانب حجرة القبطان. بيير لافّيت، الذي لم يُشارك في الهجوم على *لا مادرِ دِ ديوس*، لأنّه بقي مسؤولاً عن سفينة القراصنة، كان رجلاً مختلفاً جدّاً عن أخيه، كان فظّاً جدّاً، قويّ الجسم، وشرساً، فاتحَ لون الشعر، نصف وجهه

مشلول بفعل جلطة دماغية، يُحب الطعام والشراب بإفراط ولا يستطيع أن يُقاوم امرأة شابّة، لكنّه امتنع عن إزعاج خوليانا وأختها لأنّ أخاه ذكّره بأنّ التجارة أهمّ من اللذة. فهاتان الفتاتان يمكن أن تعودا عليهما بمبلغ محترم من المال.

كان جان يحافظ على أصله سرّاً، إذ لا أحد كان يعرف من أين جاء، لكنّه يعترف بسنوات عمره الخمس والثلاثين. كان لطيفَ المعاملة وحسنَ الآداب، يتكلّمُ عدّةَ لغات، بينها الفرنسية والإسبانية والإنكليزية، يُحبّ الموسيقى ويتبرّع بمبالغ كبيرة للأوبرا في نيوأورليانز. ورغم نجاحه بين النساء إلاّ أنّه لا يُضايقهنّ مثل أخيه، فهو يُفضّل أن يُغازلهنّ بصبر، كان أنيقاً، مرحاً وراقصاً كبيراً وراوي نكاتٍ، يبتدعها بسرعة بديهة. وكانت مناصرتُه للثورة الفرنسية أسطوريةً، كان قباطنته يعرفون أنّ «من يهاجم سفينة أمريكية يموت». الرجالُ الثلاثة آلاف الذين كانوا تحت أمرته ينادونه بوسّ، أو الزعيم، كان يُحرّك الملايين في التجارة مستخدماً المواعين والزوارق الشجرية في ممرات دِلتا الميسيسبّي المتشابكة. لا أحد يعرف تلك المنطقة مثله ومثل رجاله، ولم تكن السلطاتُ تستطيعُ أن تتحكّم بهم أو تصطادهم. كان يبيعُ نتاج أعماله القرصنية على بعد فراسخ قليلة من نيوأورليانز، في مكان قديم مقدّس عند الهنود، يُدعى المعبد. كان أصحاب المزارع والزنوج المولّدون الأغنياء وغير الأغنياء جدّاً بل وأقرباء الحاكم، يشترون على هواهم، دون أن يدفعوا الضرائبَ، بأسعار معقولة وفي جوّ معرضٍ سعيد. هناك تتمّ المزايدة على العبيد، الذين يحصلون عليهم بسعر رخيص في كوبا، ويبيعونهم بأسعارٍ مرتفعة في الولايات الأمريكية، التي تُمْنَعُ فيها تجارة الزنوج، لكن ليس تجارة الرقّ. كان لافّيتْ يُعلن عن مبيعاته في ملصقات عند كلّ زاوية من زوايا المدينة: تعالوا جميعاً إلى بازارِ ومزادِ عبيدِ جان لافّيتْ في المعبد! ملابس، مجوهرات، أثاث وموادّ أخرى من بحار الأرض السبعة!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دعا جان رهائنَهُ من النِساء الثلاثة للمشاركة في وجبةٍ على سطح السفينة، لكنّهنَّ رفضن الخروج من حُجيراتهنّ. أرسل إليهنّ صينية من الجبن والمقدّدات وزجاجة نبيذ إسبانيّ جيّد، حصل عليها من *لا مادرِ دِ ديوس*، مع تحياته وتقديره. لم يكن باستطاعة خوليانا أن تبعده عن فكرها، وباتت تموتُ فضولاً للتعرّف عليه، لكنّها اعتبرتْ أنَّ الحكمةَ تقتضي أن تبقى حبيسةً.

أمضى دييغو الساعات الأربعين هذه في العراء، مربوطاً مثل سجقة، بلا طعام. نزعوا منه قلادة العدالة والنقود القليلة التي كان يحملها في جيبه، وأعطوه من حين لآخر قليلاً من الماء ورفساتٍ إذا ما تحرّك أكثر من اللازم. اقتربَ منه جان لافّيت في مناسبتين ليؤكّدَ له أنّه سيرتاح أكثر عندما يصل إلى جزيرته ويعتذر منه على قلّة أدبِ رجاله. لم يكونوا معتادين على التعامل مع ناس مهذّبين، قال له، واضطرّ دييغو لابتلاع السخرية، مدمدماً في داخله بأنّه عاجلاً أو آجلاً سيكسرُ شوكةَ عديمِ الضمير هذا. المهمّ هو أن يبقى حيّاً، فبدونه ستهلك صغيرتا دِ رومِو. كان قد سمع عن حفلاتِ مجون الكحول والجنس والدم التي يقيمُها القراصنةُ في أوكارهم، حين يعودون منتصرينَ من أعمالهم الشريرة، وكيف كانت النساء الأسيراتُ التعيساتُ يُعانين أسوأ الإهانات، وسمعَ عن الأجسادِ المغتصبةِ والمقطعةَ التي كانوا يطمرونها في الرمل خلال تلك الحفلات الباخوسية. كان يُحاول ألا يُفكّر بهذا، بل بطريقة الهرب، لكنّ تلكَ الصور كانت تعذّبُهُ. كذلك لم يكن ينفكّ عنهُ ذلك الحدس الذي ساوره من قبل. لا بدَّ أن يلتقي أباه، كان واثقاً من ذلك. فقد مضى عليه أسابيع لم يستطع فيها التواصل مع بِرناردو، وقرّر أن يستغلّ هذه الساعات الكريهة لمحاولة ذلك. ركّز على استحضار مناداة أخيه، لكنّ التواصل عن بُعد لم يكن يعمل بالإرادة، فالرسائل كانت تروح وتغدو دون تصميم ثابت منهما أو تحكّم. بدا له ذلك الصمت الطويل، النادر بينه وبين بِرناردو نذيرَ شؤمٍ كبير. كان يتساءل ماذا يحدث في أعالي كاليفورنيا، ماذا عن بِرناردو وأبويه.

كانت تسودُ غراند إيزل في باراتاريا، حيث يملك الأخوان لافّيت إمبراطوريتهما الشاسعة والرطبة والمستوية في بقية المنطقة هالةٌ من الغموض والانحطاط. كانت تلك الطبيعةُ المتقلّبة والحارّة، التي تنتقل من الهدوء المثالي إلى الأعاصير المدمّرة، تُؤجِّجُ العواطفَ الكبرى. كلّ شيء يفسد بسرعة، بدءاً من النباتات وحتى الروح البشرية. وكانت تهبُّ في لحظات الطقس الحسن، كالتي كانت من نصيب دييغو وصديقاته عند وصولهم، نسمةٌ حارّة تجرُّ معها رائحةَ زهر برتقالٍ حلوة، لكن ما إن تتوقّف النسمةُ حتى يهبطَ حرّ ثقيل كالرصاص. أنزل القراصنةُ أسراهم وقادوهم إلى منزلِ جان لافّيت، القائم فوق لسانٍ بحريّ محاطٍ بغابات النخيل والسنديان الملتوي، بأوراقها التي حرقها الملح البحري. لم تكن بلدةُ القراصنة المحميّةُ من الريح بشبكة من الأشجارِ الحراجية، تُرى تقريباً من بين الأوراق. وكانت أزهار الدفلى تضيف لمساتِ لونها على المشهد. كان منزل لافّيت مؤلفاً من طابقين، من الطراز الإسباني بمشربياتٍ على النوافذ وشرفة واسعة تُطلُّ على البحر، مبنية من القرميد ومسقوفة بمزيج من الجصّ وأصداف الأستريد المسحوقة. كان نظيفاً ومرتباً بل وفاخراً وأبعد ما يكون عن الكهف الذي تصوَّره الأسرى. الغرفُ واسعةٌ ورطبة، ومنظرُ الشرفات بدا مدهشاً. كانت الأرضية المصنوعة من الخشب الأشقر تلمع، الجدران طليت للتو وعلى كلّ طاولة مزهريات، فيها أزهار، وقصعات فيها فواكه، وأباريق نبيذ. قاد زوجٌ من القنان الزنجياتِ النساءَ إلى الغرف التي خصّوهنّ بها. وسهّلوا لدييغو جفنة من الماء كي يغتسل، وقدّموا له القهوة وقادوه إلى الشرفة، حيث كان جان لافّيت يرتاح في سرير أحمر معلّق، يعزف على آلة وترية، ونظره ضائع في الأفق، يرافقه ببغاوان زاهيا الألوان. فكّر دييغو أن التناقض بين السمعة السيّئة لذلك الرجل وبين مظهره المهذّب لم يكن من الممكن أن يكون أكثر مفاجأة.

- تستطيع أن تختار بين أن تكون أسيري أو ضيفي، يا سيّد دِ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لابِغا. كأسير لك الحق في محاولة الهرب وأنا لي الحقّ في منعك بأيّة وسيلة. كضيف لي ستُعامَلُ معاملةً حسنة إلى أن نتلقّى الفدية من أبيك، لكنّك مجبر بحكم قانون حسن الضيافة على احترام بيتي وتعليماتي. هل تفاهمنا؟

ـ عليّ قبل أن أجيبك، يا سيّد، أن أعرف مشاريعك بالنسبة للأختين دِ رومِو، اللتين هما في عهدتي ـ ردّ دييغو.

ـ كانتا ولم تعودا، يا سيّد. هما الآن في عهدتي. مصيرهما يتعلّق بردّ أبيك.

ـ إذا قبلتُ أن أكون ضيفك، فكيف لك أن تتأكّد من أنّني لن أحاول الهرب في كلّ حال؟

ـ لأنّك لن تفعل من دون الصغيرتين دِ رومِو ولأنّك ستُعطيني كلمةَ شرفك ـ ردّ القرصان.

ـ أعطيتها لك، أيّها القبطان لافّيت ـ قال دييغو، مُذعِناً.

ـ حسن جدّاً. من فضلك رافقني لنتناول العشاء مع صديقتيك خلال ساعة. أعتقد أنّ طبّاخي لن يخيّبكم.

كانت خوليانا وإيزابيل ونوريا يمررنَ في هذه الأثناء في لحظات تشوّش. أحضر عدد من الرجال بعضَ الطشوت إلى غرفهنّ وملؤوها بالماء، ظهرت بعدها ثلاث عبداتٍ شابّاتٍ مزوّدات بالصابون والفراشي، تحت أمرة امرأة طويلة وجميلة، منحوتةِ الملامحِ، طويلةِ العنق، مزيّنة بعمامة كبيرة على رأسها، تمنحها شبراً آخر طولاً. قدّمت نفسها بالفرنسية مدام أوديليا، ووضّحت أنّها هي التي تأمر في بيت جان لافّيت. أشارت إلى السجينات أن يخلعن ملابسهنّ، لأنّهنّ سيُحمَّمن. ما من واحدة من الثلاث تعرّت في حياتها، كنّ يغتسلن بحياء تحت عباءة قطنيّة خفيفة. حركات نوريا القوية أثارت ضحك العبدات ووضّحت صاحبة العمامة أنّه لا أحد يموت من الاستحمام. بدا الأمر معقولاً لإيزابيل فخلعت ما كانت

ترتديه. قلّدتها خوليانا. مغطّيَةً عورتها بيديها، فأثار هذا قهقهاتٍ أخرى عند الأفريقيات، اللواتي كنّ يُقارنّ بين بشرتهنّ خشبيّةِ اللون وبشرة الفتاة، البيضاء مثل خزف غرفة الطعام. اضطُررن لأن يمسكن نوريا فيما بينهنّ كي ينزعن ملابسها، فراحت صرخاتها تهزُّ الجدران. أدخلنهنّ في الطشوت وفركنهنّ بالصابون من القدمين وحتى الرأس. وجدن بعد لحظة الخوف الأولى أنّ التجربة لم تكن مرعبة كما بدت في البداية، وسرعان ما شرعت خوليانا وإيزابيل تتمتّعان بها. حملت العبدات ملابسهنّ دون أن يُقدّمن توضيحاتٍ وأحضرن لهنّ بالمقابل فساتين بروكار فاخرة، غير مناسبة كثيراً للطقس الحارّ. كانت في وضع جيّد على الرغم من أنّها، كما بدا واضحاً، مستعملة؛ واحد منها كان عليه بقَعُ دم في طارته. أيّ مصير لاقت صاحبته السابقة؟ هل كانت أسيرة أخرى؟ من الأفضل ألا يتخيّلن مصيرها ولا المصير الذي كان ينتظرهنّ. استنتجت إيزابيل أنّ السرعة في تعريتهنّ إنّما جاءت عملاً بتعليمات لافيت، الذي يرغب بمعرفة أنّهنّ لا يُخفينَ شيئاً تحت تنوراتهنّ. وكنّ قد تهيّأن لهذه الحادثة.

استغلّ دييغو الحرّية المشروطة التي منحها له القرصان كي يجوب المنطقة حولهم، ريثما يحين وقت العشاء. كان شعبُ القراصنة مكوّناً من أرواح تائهةٍ من كلٍّ بقعة من بقاع الأرض. فبعضُهُم يُقيمُ مع زوجته وأولاده في أكواخٍ بائسةٍ مصنوعةٍ من سعف النخيل، بينما العزّاب يهيمون دون سقفٍ ثابت يؤويهم. كان هناك محلاّت تُقدّمُ أطباقاً فرنسية مولّدة وخلاسية، وبارات ومواخير، بالإضافة إلى ورشات ودكاكين المهن اليدوية. كان يجمعُ هؤلاء الرجال من مختلف الأعراق واللغات والمعتقدات والعادات، شعورٌ ضارٍ بالحرّية، لكنّهم يقبلون قانونَ باراتاريا، لأنّه يبدو لهم مناسباً ولأنّ النظامَ ديمقراطيّ. كلّ شيء يُقرَّرُ بالتصويت، بل ولهم الحقّ في اختيار واستبدال قباطنتهم. كانت القواعد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

واضحة: من يزعج امرأةَ غيره ينتهي مهجوراً في جزيرة صغيرة مقفرة مع دورقٍ من الماء العذب ومسدَّس مُعبَّأ؛ وكان ثمنُ السرقةِ الجَلد؛ والقتل بالمشنقة. لم يكن يوجد خضوع أعمى للرئيس، إلاّ في عرض البحرِ خلال عمليةٍ حربيةٍ، لكن يجب إطاعة القوانين أو دفع الثمن. في أزمنة أخرى كانوا مجرمين ومُغامِرين أو فارّين من سفن حربية، وكانوا هامشيين دائماً، والآن هم فخورون بأنّهم ينتمون إلى مجتمع. وحدهم المؤهّلون كانوا يُبحرون، أمّا البقيّة فيعملون في الكير، يطبخون، يربّون الماشيةَ، ويُصلحون السفنَ والزوارقَ ويبنون البيوتَ ويصيدونَ السمك. رأى دييغو نساءً وأطفالاً، وكذلك رجالاً مرضى أو بأعضاءٍ مبتورة، وعلم أنّ سادةَ الحرب، اليتامى والأرامل يلقون الرعاية. فإذا ما فقد بحّارٌ ساقاً أو ذراعاً في عرض البحر، يُعوَّض بالذهب. وكانت الغنائم تُوزَّع بالعدل بين الرجال ويُعطى قليل منها للأرامل. أمّا بقيّة النساء فليس لهنَّ دور يُذكر. فقد كنّ عاهراتٍ وعبداتٍ وأسيرات في الهجمات على السفن وكان هناك أيضاً بعض النساء الشجاعات والحرّات، لسن كثيراتٍ، ووصلن إلى هناك بمحض قرارهنّ.

على الشاطئ صادف دييغو نحو عشرين سكراناً متفرّغين للمشاجرة الطوعية والجري خلف النساءِ على ضوء النيران. عرف عدداً من بحّارة السفينة التي دمّرت *لا مادرِ دِ ديوس* وقرّر أنّها فرصته لاستعادة قلادة العدالة، التي انتزعها منه واحدٌ منهم.

ـ يا سادة! اسمعوني! ـ صاح.

تمكّن من شدّ انتباه أقلّهم تسمّماً وتشكّلت دائرة حوله، بينما النساء يستغللنّ تلهّي الرجال ليأخذن ملابسهنّ ويبتعدن مسرعات. رأى دييغو نفسه محاطاً بوجوهٍ ورّمها الكحولُ وعيونٍ محتقنةٍ بالدم وأفواهٍ درداء تشتمه وبراثنٍ راحت تلجأ إلى السكاكين. لم يمنحهم الوقت كي ينتظموا.

ـ أريد أن أتسلى قليلاً. هل من أحدٍ منكم يجروً على مصارعتي؟ ـ سأل.

رنّت عليه جوقة متحمّسة بالإيجاب وانغلقت الدائرة من حوله، بحيثُ استطاعَ أن يشمّ رائحة عرق الرجالِ ونَفَسهم المشبع الكحول والتبغِ والثوم.

ـ واحداً فواحداً، رجاءً. سأبدأ بالشجاع الذي معه قلادتي، بعدها أصفع كلّ واحدٍ منكم صفعةً بالدور. ما رأيكم؟

ارتمى عدد من القراصنة فوق ظهورهم على الشاطئ، وهم يرفسون بأرجلهم في الهواء من الضحك. بينما راح البقيّة يتشاورون في الأمر حتى فتح واحدٌ منهم قميصه البالي وأراه أخيراً القلادةَ، وهو على استعدادٍ تام لمصارعة ذلك الصبيّ، الذي له يدا امرأة، وما تزال رائحة حليبِ أمّه تفوح منه، كما قال. أراد دييغو أن يتأكّد من أنّها جوهرته بالفعل. نزعها الرجل من عنقه وهزَّها قريباً من أنفه.

ـ لا ترفع بصرك عن قلادتي، يا صديقي، لأنّني سأنتزعها منك عند أوّل غفلة ـ تحدّاه دييغو.

وعلى الفور سحب القرصان خنجراً معقوفاً من خصره ونفض عنه تشوّش الكحول، بينما البقيّة يبتعدون كي يفسحوا لهما المجال. ترنّح فوق دييغو، الذي كان ينتظره، ثابت القدمين في الرمل. لم يكن عبثاً أنّه تعلّم سرّ مصارعةِ جمعية *العدالة*. استقبلَ خصمَه بثلاثِ حركاتٍ متزامنة: حرف يده المسلّحة، تنحّى جانباً وقرفص، مستخدماً اندفاع الآخر لصالحه. فقد الآخر توازنه، فرفعه دييغو من كتفه ورماه في الهواء دائراً به دورة كاملة. ولم يكد يرسو على ظهره حتى وضع قدمه على معصمِه وانتزع منه الخنجر. بعدها التفت إلى المتفرّجين بانحناءةِ احترام قصيرة.

ـ أين قلادتي؟ ـ سأل ناظراً إلى القراصنة واحداً فواحداً.

اقترب من أكبرهم حجماً، كان على مسافة عدّة خطوات منه واتهمه بأنّه أخفاها. امتشق الرجل خنجره، لكنّ دييغو أوقفه بحركة منه وأشار عليه أن يخلع قبّعته، لأنّها هناك. أطاع الوغد مرتبكاً وعندها أدخل دييغو يده فيها وأخرج منها القلادة بشكلٍ نظيف.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شلّتْ المفاجأةُ البقيّة، الذين لم يعرفوا ما إذا كانوا سيضحكون أم سيُهاجِمونه، إلى أن تبنّوا الفكرة الأقرب إلى طبيعتهم: أن يُلقّنوا هذا الصبيّ الوقح درساً.

ـ الجميع ضدّ واحدٍ؟ ألا يبدو لكم ذلك جبناً ـ تحدّاهم دييغو وهو يدور والخنجر في يده، جاهزاً للقفز.

ـ هذا الفارس على حقّ، سيكون هذا جبن لا يليق بكم ـ قال صوت.

كان هذا جان لافّيت، وكان لطيفاً ومبتسماً، بموقف من خرج ليستنشق الهواء في نزهة، لكنّه وضع يده على مسدّسه. أخذ دييغو من ذراعه ومضى به بهدوء، دون أن يجرؤ أحد على أيقافه.

ـ لا بدّ أنّ هذه القلادة ذات قيمة كبيرة، إذا كنتَ تُقامر بحياتك من أجلها ـ علّق لافّيت.

ـ أهدتها لي جدّتي وهي على فراش الموت ـ سخر دييغو ـ. بهذه أستطيع أن أشتري حرّيّتي وحرية صديقاتي، أيّها القبطان.

ـ أخشى ألا تساوي كلّ هذا.

ـ قد لا تصل فديتنا أبداً. فكاليفورنيا بعيدة جدّاً، ويمكن أن تحدث فاجعة في الطريق. إذا سمحت لي سأذهب للمقامرة في نيوأورليانز. سأُقامر بالقلادة وأكسب ما يكفي كي ندفع فديتنا.

ـ وماذا لو خسرت؟

ـ عندئذٍ سيكون عليّ أن انتظر مال أبي، لكنّني لا أخسر أبداً في لعب الورق.

ـ أنت شابّ أصيل، أظنّ أنّ بيننا أشياء مشتركة ـ ضحك القرصان.

في تلك الليلة أعادوا إلى دييغو *العادلَ*، السيفَ الجميل الذي صنعه له بْلايو والصندوق مع ملابسه، الذي أنقذه من الغرق جشعُ

قرصان، لم يستطع فتحه وحمله معه معتقداً أنّه يحتوي على شيء ذي قيمة. تناول الرهائنُ الثلاثة العشاء في غرفة طعام لافّيت، الذي ارتدى ثياباً أنيقة، سوداء، وحلق ذقنه وجعَّد شعره للتو. فكّر دييغو بأنّ ملابس زورو بائسةٌ مقارنةً بها، وعليه أن ينسخ بعضَ الأفكار عن القرصان، مثل المئزرِ على الخصر وكمّي القميص العريضين. كان العشاء معرضاً من الأطباق ذات التأثير الأفريقي والكاريبي والكاخوني، كما كانوا يُسمّون المهاجرين القادمين من كندا: غومبو السرطان، وفاصولياء حمراء مع الرز، والأستريد المقلي، وديك الحبش المشوي مع الجوز والزبيب، والسمك بالتوابل وأفضل أنواع النبيذ المسروق من المراكب الفرنسية، التي لم يكد المُضيفُ يذوقها. كانت هناك مروحة قماشية للتهوية وإبعاد الذباب مُعلّقة فوق الطاولة، يُحرِّكها صبيّ زنجيّ بشدّه للحبل، وفي شرفة كان هناك ثلاثة موسيقيين يعزفون مزيجاً ساحراً من الإيقاع الكاريبي وأغاني العبيد. وكانت أوديليا تدير بنظرها عبدات الخدمة صامتة مثل ظلّ.

استطاعت خوليانا أن ترى لافّيتْ لأوّلِ مرّةٍ عن قرب. عرفت حين انحنى القرصانُ لتقبيل يدها أنَّ رحلةَ الأشهر الأخيرة الطويلة، التي قادتها إلى هناك، قد انتهت أخيراً. اكتشفت لماذا لم تتزوّج أيّاً من طالبي ودّها، فقد رفضت رافائيل مونكادا حتى جنّنته، ولم تردّ على عروض دييغو طيلةَ خمس سنوات. لقد حضّرت حياتها كاملةً لذلك الذي كان يُعرَّف في رواياتها الرومانسية باسم «ضربة سهم كيوبّيد». بأيّ شكل يمكن أن تُعَرِّفَ ذلك الحب المباغِت؟ كان سهماً في الصدر، ألماً حاداً، جرحاً. (اعذروني، أعزّائي القرّاء، على هذه العبارة المُلطّفة، لأنّ الكليشهات تنطوي على حقائق كبيرة). غاصتْ نظرةُ لافّيت الغامضة عميقاً في ماء عينيها الأخضر، وأمسكتْ يدُ الرجل ذات الأصابع الطويلة بيدها. ترنّحت خوليانا كما لو أنّها ستسقط، ولا جديد في هذا، فهي كثيراً ما تفقد توازنها في انفعالاتها. ظنّت إيزابيل ونوريا أنّها كانت ردّة فعل أمام الخوف من القرصان، لأنّ الأعراض تتشابه، لكنّ دييغو أدرك على الفور أنّ شيئاً

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حتمياً قد بدّل مصيره. كان رافائيل مونكادا وجميع عشاق خوليانا بالمقارنة مع لافّيت تافهين. مدام أوديليا لاحظت بدورِها تأثيرَ القرصان على الفتاة وأنَّ دييغو أحسَّ بخطورة ما حدث.

قادهم لافّيت إلى المائدةِ، التي جلس على رأسِها ليتحدّث بلطف. كانت خوليانا تنظر إليه مشدوهةً، لكنّه كان يتجاهلها عن عمدٍ، إلى حدّ أنّ إيزابيل تساءلتْ عمّا إذا كان لدى القرصان مايخونه. ربّما يكون قد فقد رجولتَه في معركة، فهذه الأشياء تحدث عادةً، تكفي طلقةٌ تائهةٌ، أو ضربةٌ صائبة حتى يتحوّل الجزء الأهمّ عند الرجل إلى مجرّد حبّة تينٍ جافّة. لم يكن هناك من تفسيرٍ آخرَ لمعاملته لأختها بتلك اللامبالاة.

ـ نشكركم على حسن ضِيافتكم، يا سيّد لافّيث، وإن كانت مفروضة بالقوّة، ومع ذلك لا يبدو لي أنّ مجتمعَ القراصنةِ هذا هو المكان اللائق بالآنستين دِ رومِو ـ قال دييغو، مُقدِّراً أنّ عليه أن يُخرج خوليانا من هناك على وجه السرعة.

ـ ما الحلّ الآخر الذي يستطيع السيّد دِ لابِغا أن يُقدّمه؟

ـ سمعتُ عن ديرِ لاس أورسوليناس في نيوإورليانز. تستطيع الآنستان أن تنتظرا هناك حتى تصلنا أخبارُ والدي.

ـ أفضل الموت على أن أكون مع تلك الراهبات! لا أحد يستطيع أن يُحرِّكني من هنا! ـ قاطعته خوليانا بحزم لم يره عندها قط.

جميعُ العيون التفتت إليها. كانت محمرّة، مزدانة، تتصبّب عرقاً تحت ملابس البروكار الثقيلة. وكانت تعابيرُ وجهها لا تترك مجالاً للشكّ: بدت مستعدَّةً لأن تقتلَ من يُحاوِل فصلها عن قرصانها. فتح دييغو فمَهُ، لكنّه لم يعرف ماذا يقول، فخرس مهزوماً. تلقّى جانْ لافّيث اندفاع خوليانا على أنّه رسالةُ رغبةٍ وخوف، يكاد يكون دغدغةً. كان قد حاول أن يتجنّب الشابّةَ، قائلاً لنفسه ما يقوله دائماً لأخيه بيير: التجارة قبلَ المتعة، لكنّها تبدو مفتونةً مثله. أربكته تلك

الجاذبيّة الماحقة، لأنّه كان يتبجّح بأنه يملك عقلاً بارداً. لم يكن رجلاً متهوّراً وكان معتاداً على مرافقة النساء الجميلات. إنه يُفَضّل المولَّدات الخلاسيّات، الشهيرات بملاحتهنّ وجمالهنّ، المدرَّبات على إشباع أكثر النزوات سرّية عند الرجل. وكانت النساءُ البيض يبدين له متعجرفات ومُعقّدات، وكثيراً ما يمرضن، لايعرفن الرقصَ ولا ينفعنَ كثيراً حين تحين ساعة ممارسة الحب، لأنّهنّ لا يحببن أن تُخرَّبَ تسريحاتهنّ. ومع ذلك فهذه الشابة الإسبانية التي لها عينا قطّة تبدو مُختلفة. وتستطيع أن تُنافِس بجمالها أشهرَ خلاسيات نيوأورليانز ويبدو أنّ براءتها النظيفة لا تشوّش قلبَها المضطرم. موّهَ زفرته، محاولاً ألا يستسلم لمكائد الخيال.

مضت بقيّةُ السهرة كما لو أنّ الجميع يجلسون على مسامير. والحوار يتجرجر بشقّ النفس. كان دييغو يراقب خوليانا وخوليانا تراقبُ لافّيتْ وبقيّةُ الندماء ينظرون إلى أطباقهم بانتباه كبير. كان الحرُّ خانقاً داخلَ البيت، وبعد انتهاء العشاء دعاهم القرصانُ لتناول المرطبات في الشرفة. من السقف كانت تتدلّى مروحة يُحرّكها عبد بهدوء. أخذ لافّيت القيثارةَ وبدا يُغنّي بصوت مُرَخّم وعذبٍ إلى أن أعلن دييغو أنّه تعبَ ويُفضّل الانسحاب. صعقته خوليانا بنظرة قاتلة، فلم يجرؤ على الرفض.

لا أحد نام في ذلك البيت. فالليل بألحانِ ضفادعه وصوتِ طبولهِ البعيد، تَجَرْجَرَ ببطء ثقيل. اعترفتْ خوليانا، دون أن تستطيعَ أن تتحمّل أكثرَ، بسرّها إلى إيزابيل ونوريا باللغة القطلانية كيلا تفهمها العبدة التي تخدمهنّ.

ـ الآن أعرفُ ما هو الحبّ. أريدُ أن أتزوّج من جان لافّيتْ ـ قالت.

ـ يا مريم العذراء، خلّصينا من هذه الكارثة ـ تمتت نوريا وهي ترسم إشارةَ الصليب.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ـ أنتِ أسيرته ولستِ خطيبتَهُ. كيف تُفَكّرين بحلّ هذه المعضلة؟
ـ أرادت إيزابيل أن تعرف، تأكلها غيرة كبيرة، لأنّها كانت أيضاً مسحورة بالقرصان.

ـ أنا مستعدّة لكلّ شيء، لا أستطيعُ أن أعيشَ من دونه ـ ردّت أختُها بعينيٌ مجنونةٍ.

ـ لن يعجب هذا دييغو.

ـ دييغو هو أقلّ من يهمّني! فأبي لا بدَّ أنّه يتململ في قبره، لكنّه لا يهمّني! ـ صاحت خوليانا.

حضر دييغو تحوُّلَ حبيبته عاجزاً. ظهرت خوليانا في اليوم الثاني من أسْرِها في باراتاريا تفوحُ منها رائحة الصابون وقد أرسلتْ شعرَهَا على ظهرها وارتدت فستاناً خفيفاً، حصلت عليه من العبدات. هكذا حضرت عند الظهيرة التالية إلى المائدة، حيث أعدّتِ مدام أوديليا غداءً وافراً. كان جان لافيتْ بانتظارها وتبينّ دون شكٍّ من بريق عينيه أنّه كان يُفضِّلُ هذه الطريقة غير الرسميّة على الموضة الأوروبيّة، غير المحتملة في ذلك الطقس. ومن جديدٍ حيّاها بطبعِ قبلةٍ على يدها، كانت أقوى من قبلة اليوم السابق. أحضرت العبداتُ عصيرَ فاكهة مع الثلج، الذي جيء به في صناديق بين النشارة عبر النهر من جبال بعيدة، هذا الترف وحدهم الأثرياء كانوا ينعمون به. تناولت خوليانا، التي كانت في العادة عديمة الشهيّة، كأسَينْ من الشراب المُثَلَّج وأكلتْ بشراهةٍ من كلّ ما كان على المائدة، وصارت منفعلة وثرثارة. كان هذا يُثقِل على روح دييغو وإيزابيل، بينما هي والقرصان يتسامران بما يشبه الهمس. استطاعا أن يلتقطا شيئاً من الحديث، وانتبها إلى أنّ خوليانا تسبر الوضعَ، مُجرِّبةً أسلحةَ الإغواء، التي لم تَحْتَجْ لاستخدامها قطّ. راحت تشرح له في تلك اللحظة، بين ضحكاتٍ ورفرفةِ أجفان، أنّ بعض الراحةِ

لا يضرّها هي وأختها. تحتاجُ مبدئيّاً قيثارةً وبيانو ونوطات موسيقيّة، وكتباً، يُفضّل أن تكون روايات وشعراً، وثياباً خفيفة. لقد فقدتْ كلَّ ما كان عندها، «وبسبب من؟» سألت مقطِّبة. ثمّ أنّها كانت ترغب بأن تكون لها الحرّية كي تتنزّه في المحيط وأن تنعم ببعض الخصوصية، فقد كانت تزعجها مراقبة العبدات المستمرّة. «بالمناسبة، يا سيّد لافّيت، عليَّ أن أقول لك إنّني أمقت العبوديّة، إنّها عمل غير إنسانيّ». فردّ عليها أنّهما إذا ما تنزّهتا وحيدتين في الجزيرة ستلقيان ناساً دهمائيين لا يُحسنون معاملة غادتين برقّتها ورقّة أختها. وأضاف أنّ عملَ العبدات ليس مراقبتهما، بل العناية بهما وإبعاد الذباب والفئران والأفاعي، التي تدخل إلى الغرف عنهما.

- أعطني مكنسةً وأنا نفسي سأتكفّل بهذه المشكلة - ردّت هي بابتسامة أخّاذة، لم يعرفها دييغو.

- أما فيما يتعلّق ببقية ما طلبتِ، يا آنسة، فربّما نجده في بازاري. بعد القيلولة، حين يبردُ الجوّ قليلاً، سنذهب جميعاً إلى المعبد.

- ليس معنا نقود، لكنّني أفترض أنّك من ستدفع، ما دمتَ قد جئتَ بنا بالقوّة إلى هنا - ردّت هي بغنج.

- سيشرّفني هذا، يا آنسة.

- تستطيع أن تُناديني خوليانا.

كانت أوديليا تتابع هذا الغزلَ المتبادلَ من زاويةٍ في القاعة بالانتباه ذاته الذي يتابعه به دييغو وإيزابيل. لايمكن لوجودها، ذكّرت جان، أن يستمرّ في هذا الطريق الخطير، إن عليه واجبات لا يمكنه التنصل منها. استجمع قوّته من حيث استطاع وقرّرَ أن يكون واضحاً مع خوليانا. نادى بحركة جميلةَ المرأة المتعممة وهمسَ شيئاً في أذنها. فاختفتْ لدقائقَ وعادت بلفافةٍ بين ذراعيها.

ـ مدام أوديليا هي حماتي، وهذا هو ابني بيير ـ وضّح جان لافّيت شاحباً.

أطلق دييغو صيحةَ فرح وخوليانا صيحةَ رعب. وإيزابيل انتصبت على قدميها وأوديليا أرتها اللفافةَ. وعلى العكس من النساء العاديات، اللواتي يَلِنَّ أمام مشهدِ طفل، لم تكن إيزابيل تُحبّ الأطفال وتُفضِّل الكلابَ، لكنّه كان لا بدّ لها أن تقبلَ أنّ هذا التافه ظريف. كان أنفُهُ أشماً وله عينا والده.

ـ لم أكن أعرف أنّك متزوّج، يا سيدي اللصّ البحري... ـ علّقت إيزابيل.

ـ بل قرصان ـ صحّح لها لافّيت.

ـ إذن قرصان. هل نستطيع أن نتعرّف على زوجتك؟

ـ أخشى ألا يكونَ لك ذلك. أنا نفسي لم أتمكّن من زيارتها منذ عدّة أسابيع، إنّها ضعيفة ولا تستطيع أن ترى أحداً.

ـ ما اسمها؟

ـ كاترين بِيّارز.

ـ اعذروني، أشعر بأنّني متعبة جدّاً... تمتمت خوليانا، منهكة.

سحب دييغو الكرسيَّ من خلفها ورافقها تعلوه علامات حزن، على الرغم من أنّه كان سعيداً بانقلاب الأحداث. يا له من حظّ رائع! لم يبقَ أمام خوليانا إلاّ أن تُعيد النظرَ في عواطفها. لم تعد المسألة أنّ لافّيت عجوز في الخامسة والثلاثين من عمره، وزيرُ نساء ومجرمٌ ومهرّبٌ وتاجرُ رقيق، كلّ هذا الذي يمكن لطفلة مثل خوليانا أن تُبرِّره بسهولة، بل إنّ عنده امرأة وطفلاً! شكراً لكَ، يا إلهي! لم يكن باستطاعته أن يطلب أكثر.

بقيت نوريا في المساء تضعُ خرقاً باردةً على جبين خوليانا المحموم. رافق دييغو وإيزابيل لافّيت إلى المعبد. ذهبوا في زورقٍ،

يجذّفه أربعة مجذّفين، دخل في متاهةٍ من المستنقعاتِ كريهةِ الرائحة، التي يرتاح على ضفافها عشرات التماسيح، وتتلوّى الأفاعي في مياهها. وراح شَعرُ إيزابيل ينطلقُ بفعلِ الرطوبة في كلّ الاتجاهات مُخَوْتَماً وكثيفاً مثلَ حشيةِ فِراش. بدت الممرات المائية جميعها متشابهة، كان المنظر أفطس، لم يكن هناك جُبَيل واحد يمكن أن يُستخدم نقطةَ علاّم في تلك الأدغال من نباتاتِ الرعي الطويلة. كانت جذورُ الأشجار في الماء ونوازل الطحالبِ تتدلّى من الأغصان. كان القراصنة يعرفون كلَّ منعطفٍ وكلَّ شجرة وكلَّ صخرة في أرض الكابوس تلك ويتقدّمون دون تردّدٍ. عندما وصلوا إلى المكان حيثُ المعبد رأوا العوّاماتِ المسطحة التي ينقل فيها القراصنة بضاعتهم، إضافة إلى مراكب وزوارق الزبائن، رغم أنّ غالبيتهم كانوا يأتون عبر اليابسة على الجياد، وفي عرباتٍ فاخرة. وكانت صفوة المجتمع قد تواعدَت هناك، بدءاً من الأرستقراطيين وحتى البغايا الزنجيات. وكان العبيد قد نصبوا مظلاّت كي يرتاح أسيادُهم تحتها ويُقدّمون الطعام والشراب، بينما السيّدات يجلن في البازار وهن يتفحصن المنتجات. وكان القراصنة يُعلنون عن بضاعتهم بأعلى أصواتهم، أقمشة صينية، أباريق فضّية بيروية، أثاث فييني، مجوهرات من كلّ حدب وصوب، أطعمة لذيذة، أدوات زينة، ما من شيء كان ينقص في ذلك السوق، حيث كانت المساومةُ جزءاً من التسلية. كان بيير لافّيت هناك، يحمل ثريا دامعة في يده، يُعلنُ أنّ كلّ شيء بسعر التصفية. كانت الأسعار في الحضيض، اشتروا يا سادة ويا سيّدات، لأنّه لن يكون هناك فرصة أخرى مثل هذه. وبوصول جان ومرافقيه حدث همسٌ فضوليّ. اقتربت عدّة نساء من القرصان الجذّاب، غير معروفات تحت مظلاتهنّ، بينهنّ زوجة الحاكم. أمعن الفرسانُ النظرَ في إيزابيل، ضاحكين من شعرها الجامح، الذي يُشبه طحالب الأشجار. في مجتمع البيض كان هناك رجلان مقابل كلّ امرأةٍ وأيّ وجهٍ جديد مُرَحَّب به، بما في ذلك الوجوه غير المألوفة كوجه إيزابيل. قام جان بالتعريف، دون أن

يذكر أبداً الطريقة التي حصل بها على أولئك «الأصدقاء» الجددَ، وبحث على الفور عن الأشياء التي نكرتها خوليانا، على الرغم من أنّه كان يعلم أنّه ما من شيء سيُنْسيها الضربة التي وجّهها إليها، حين حكى لها قصّة كاترين بطريقة فجّة. لم يكن هناك من طريقة أخرى، كان عليه أن يقطعَ تلك الجاذبية المتبادلة من جذورها، قبل أنّ تُدمِّرهما معاً.

في باراتاريا كانت خوليانا ترقدُ على السرير، غائصةً في وحلِ الإهانةِ والحبِّ المجنون. كان لافّيت قد أشعل عندها ناراً شيطانية، والآن عليها أن تصارع بكلّ إرادتها كيلا تنتزعه من كاترين بيّارز. الحلّ الوحيد الذي خطر لها هو أن تدخل دير لاس أورسوليناس كمستجدةٍ وتنهي أيامها بالعناية بمرضى الجدري في نيوأورليانز، فهي على الأقل ستتنشّم الهواء ذاته الذي يتنسّمه هذا الرجل. لم يعد باستطاعتها أن تواجِه أحداً. كانت مشوَّشة، مستحية، قلقةً، كما لو أنّ مليون نملةٍ تزحف تحت جلدها، كانت تجلس، تمشي، تستلقي على السرير، تتقلّبُ تحت الملاحف، تُفكِّر بالطفل، بالصغير بيير فتبكي أكثر. وكانت نوريا تواسيها قائلة: «ما من مرضٍ يدوم مئة عام، يا صغيرتي، هذا الجنون يجب أن يمرّ، ما من شخص عاقل يعشق قرصاناً». وصلت في هذه الأثناء مدام أوديليا لتسأل كيف أصبحت الآنسة. وجاءت معها في صينية بكأس شيرش وبسكويت. قرّرت خوليانا أنّها فرصتها الوحيدة لتتحقّقَ من التفاصيل، فبادرتها بالحديث بالعةً كبرياءها ودموعها.

ـ هل تستطيعين يا مدام أن تقولي لي، ما إذا كانت كاترين عبدة؟

ـ ابنتي حرّة، مثلي. أمّي ملكة من ملكات السنغال، وأنا لو كنتُ هناك سأصبح ملكة. أبي وأبو بناتي، كانا أبيضين، ملاّكي حقول السكّر في سانتو دومينغو. واضطررنا لأن نهرب أثناء تمرّد العبيد ـ ردّت مدام أوديليا فخورة.

ـ أعرف أنّ البيض لا يستطيعون الزواج من الزنوج ـ ألحّت خوليانا.

ـ البيض يتزوّجون بيضاً، لكنّ نساءهم الحقيقيات نحن. لسنا بحاجة لمباركة من راهب، يكفينا الحبّ. جان وكاترين متحابّان.

راحت خوليانا تبكي من جديد. قرصتها نوريا كي تتماسك، لكنّ هذا لم يُفد الشابّة إلا في زيادة ضيقها. طلبت من مدام أوديليا أن تسمح لها برؤية كاترين، معتقدة أنّها بهذا تستطيع أن تبرر وتقاوم نطحة الحب.

ـ هذا غير ممكن. اشربي الشيرش، يا آنسة، ستتحسّنين ـ دارت بعدها نصف دورة وانسحبت.

خوليانا الظامئة جرعت محتوى الكأس بأربع رشفات وسقطت بعدها بدقائق مستسلمةً ونامت ستاً وثلاثين ساعة دون حراك. الشيرش المخدِّر لم يشفها من ولهها، لكنّه كما افترضت مدام أوديليا شجّعها على مواجهة مستقبلها. استيقظت على ألم في عظامها، لكنّها بدت صافيةَ الذهنِ، عازمةً على التخلّي عن لافيت.

كان القرصان قد قرّرَ بدوره أن يُخْرِجَ خوليانا من قلبه ويبحثَ عن مكان يضعها فيه بعيداً عن بيته، حيث لا يُعذِّبه قربُها. صارت الشابّة تتفاداه، فلم تعد تظهر في ساعات الطعام، لكّنه راح يتكهّن بها عبر الجدران: كان يظنّ أنّه يرى طيفها في ممرّ، يسمعُ صوتها في الشرفة، يشمّ عطرَهَا، لكنّها كانت مجرّدَ شبح، طائراً، ضوعَ بحر تحمله النسمة. كانت حواسّه مثل حوّاس حيوان الصيد مستنفرةً دائماً تبحث عنها. كان دير لاس أورسوليناس، كما اقترح دييغو، فكرة سيّئة، فهو كأنّه يحكم عليها بالسجن. كان يعرف عدّة أوروبيات في نيوأورليانز يمكن أن يستضفن الشابّة، لكن هناك خطر أن يعرفن أنّها أسيرة. فلو وصل هذا إلى مسمع السلطات

الأمريكية، سيجدُ نفسه في مشاكل جدّية. يستطيع أن يرشو القاضي، لكنّه لا يستطيع ذلك مع الحاكم، أيّ تعثّر من جهته يمكن أن يعود ليضع لرأسه ثمناً. فكّر في احتمال أن ينسى الفديةَ ويرسلَ رهائنه إلى كاليفورنيا على الفور، فيخرج بذلك من الورطة التي هو فيها، لكنّه يحتاج من أجل ذلك إلى موافقة أخيه بيير والقباطنة الآخرين وبقيّة القراصنة؛ كان هذا هو عيبُ الديمقراطية. كان يُفكِّر بخوليانا، مقارناً بينها وبين كاترين العذبة والوديعة، تلك المرأة التي كانت زوجته منذ الرابعة عشرة من عمرها وهي الآن أمّ ولده. كانت كاترين تستحقّ حبّه غير المشروط، وهو يشتاق إليها. وحده انفصالهما الطويل الذي عانى منه يمكن أن يُفسِّر عشقه لخوليانا، فلو نام معانقاً زوجته لما حدث له هذا أبداً. منذ ولادة الطفل وكاترين تتآكلُ بسرعة. وضعتها مدام أوديليا كعلاج أخيرٍ تحت إشرافِ بعض الطبيبات الشعبيات الأفريقيات في نيوأورليانز. لم يعترض لافيت، لأنّ الأطباء اعتبروها بحكم الميتة. بعد أسبوع من الولادة كانت كاترين ما تزال تعاني من الحمّى ومدام أوديليا تُصرّ على أنّ ابنتها تُعاني من ضربةِ عين، سببه منافسة غيورة وأنّ العلاج الوحيد هو السحر. حملا فيما بينهما كاترين، التي لم يكن بمقدورها الانتصاب على قدميها لاستشارة ماري لافو، أعلى كاهنة فودو. دخلوا أكثر الغابات كثافة، بعيداً عن مزارع سكّر البيض بين جُزيرات صغيرة ومستنقعات، حيث الطبول تُبعد الأرواح. على ضوء النيران والمشاعل كان الكهنةُ يرقصون بأجسادهم المدهونة بدم الديكة وأقنعة الحيوانات والشياطين. كانت الطبول الجبّارة تهتزّ وتهزُّ الغابة وتحمّي دمَ العبيد. وكانت طاقة عجيبةٌ تصلُ الكائناتِ البشرية بالآلهةِ والطبيعةِ فينصهرُ المشاركون في كائن واحدٍ فلا يفلتُ أحدٌ من السحر. راحت ماري لافو ترقص وسطَ الدائرة فوق صندوق يحتوي على أفعى مقدّسة، شامخةً، جميلةً، يعلوها العرقُ، تكاد تكون عاريةً وحاملاً في الشهر التاسع، على وشك أن تلِدَ. وكانت أعضاء جسدها تهتزّ، حين تدخل في الغيبوبة، بلا قيود

وتتلوّى فيندلقُ بطنُها من جانب إلى آخر وتطلق سلسلة من الكلماتِ من لغات لا أحد يتذكّرها. كان الغناء يعلو وينخفضُ مثل أمواج كبيرة، بينما الماعونُ المحتوي على دم القرابين يمرّ من يدٍ إلى يد كي يشرب منه الجميع. يتسارع قرع الطبول فيسقطُ الرجال والنساء، المختلجون على الأرض، ويتحوَّلون إلى حيوانات، يأكلون العشبَ، يعضّون، يخدشون، فيغيبُ بعضهم عن الوعي وينطلقُ آخرون أزواجاً إلى الغابة. شرحتْ لها مدام أوديليا أن الديانة الفودوية وصلت إلى العالم الجديد في قلوب عبيد داهومي ويوروبا، وتوجد ثلاث مناطق متصلة: منطقة الأحياء، منطقة الموتى ومنطقة الذين لم يولدوا بعد. وكانوا في احتفالاتهم يُشرّفون الأسلاف، يستحضرون الآلهة ويصيحون طالبين الحريّة. وكانت الكاهنات من أمثال ماري لافو، يعملن سحراً ويدخلن إبراً في الدمى لتحريض الأمراض ويستخدمن غريس - غريس ومسحوقاتٍ سحريةً لمعالجة أمراض مختلفة، لكن لا شيء من هذا أفاد كاترين.

لم يستطِعْ دييغو، على الرغم من وضعه كأسير عند لافّيتْ ومن أنّه خصم له في الحبّ، إلاّ أن يعجَب به. فهو كقرصان كان بلا حياء ولا رحمة، لكنّه حين يقفُ موقفَ الفارس فلا أحد يستطيع أن يتفوّق عليه في حسنِ آدابه وثقافته وسحره. كانت هذه الشخصية المزدوجة تفتن دييغو. وحده مانوِل إسكالانتِ يستطيع أن يُقارَن به. كان دييغو يشعر بأنّه مكرّم حين يدعوه آسره للمبارزة معه. خلال هذا الأسبوع رأى الشابّ كيف كانت تعمل الديمقراطيّة. الجميع يُمارِسها في غراند إيزل، طبعاً باستثناء النساء. بدت له أفكار لافّيت الخاصّة جديرة بالاعتبار. كان الرجل يؤكّد أنّ الأقوياء يخترعون القوانين للحفاظ على امتيازاتهم والتحكّم بالفقراء والمُتبرّمين، ونظراً لذلك سيكون من البلاهة من ناحيته أن يُطيعها. مثلاً الضرائب كان يدفعُها بعد كلّ حساب الفقراء، بينما الأثرياء يتدبّرون أمرهم

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كي يتفادوها. وهو يؤكّد أنّه لا أحد، وخاصّة الحكومة، يستطيع أن ينتزع منه جزءاً مما هو له. جعله دييغو يرى بعض التناقضات. فلافَيث كان يعاقبُ بالجلد على السرقة بين رجاله، لكنّ إمبراطوريّته الاقتصادية كانت تقوم على القرصنة، وهي أعلى أشكال السرقة. وردّ القرصان أنّه لا ينتزع شيئاً من الفقراء، فقط من الأثرياء. ولم يكن تجريدُ السفن الإمبراطورية من المسروقِ بالدم والسوط في المستعمرات إثماً، بل فضيلةً. لقد استولى على الأسلحة التي كان يقلّها القبطان سانتياغو دِ ليون إلى القوات الملكيّة في المكسيك، كي يبيعها بسعر معقول جدّاً للمتمرّدين في البلد ذاته. وكانت هذه العملية تبدو له عادلة عدالة لا لبس فيها.

أخذ لافَيت دييغو إلى نيوأورليانز، المدينة المبنية على قياس القرصان، الفخورة بطبيعتها المنحطّة والمغامرِة والمستمتعة بالحياة، المتبدّلة والعاصفة. كانت تُعاني من الحروب مع الإنكليز والهنود الحمر ومن الأعاصير والفيضانات والحرائق والأوبئة، لكن لا شيء باستطاعته أن يذل ذلك الكبرياء النبيل. كانت واحداً من الموانئ الأمريكيّة الرئيسيّة، حيث يخرج التبغُ، والصباغُ والسكّرُ ويدخل كلّ أنواع البضائع. كان السكان الكونيون يعيشون غير آبهين بالحرّ ولا بالبعوض ولا بالمستنقعات وأقل منها بالقوانين. كانت تلك الشوارعُ تحتوي على كلِّ شيء، على الموسيقى والكحول والمواخير وكهوف القمار، هناك كانت الحياة تبدأ مع غياب الشمس. كان دييغو يجلسُ في ساحة السلاح ليُراقب الحشود: زنوج يحملون سلالاً من البرتقال والموز، نساء يقرأن الحظّ ويُقدّمن أوثاناً فودوية، لاعبو دمى وراقصون وموسيقيون. كانت بائعات الحلوى، بعماماتهنّ ومآزرهنّ الزرقاء، يحملن صَيْنِيّات حلوى الزنجبير والعسل والجوز. ومن البسطات الجوّالة يمكن شراء البيرة والمحار الطازج وأطباق القريدس. لم يخلُ الأمرُ قط من سكارى يثيرون الفضائح، جنباً إلى جنب مع الفرسان الأنيقين، وأصحاب المزارع، والتجار والموظّفين. الراهبات والقساوسة يختلطون مع

العاهرات والجنود واللصوص والعبيد؛ والخلاسيات الهنديات الشهيرات يتبخترن في مشاوير بطيئة، يتلقين التحرشات من الفرسان والنظرات المعادية من منافساتهنّ. لم يكنّ يحملن المجوهرات ولا القبعات، الممنوعة بمرسوم إرضاءً للنساء البيض، اللواتي لم يكن باستطاعتهنّ منافستهنّ. لم يكنَّ بحاجة إليها، فهنّ مشهورات بأنّهنّ أجمل نساء العالم، ببشرتهنّ الذهبيّة المحمّصة وتقاسيم وجوهِهِنَّ الناعمة، وعيونهنّ السائلة الواسعة، وشعرهنّ المتماوج. ترافقهنّ دائماً أمهاتهنّ أو مرافقاتهنّ اللواتي لايرفعن أنظارهنّ عنهنّ. وكانت كاترين بيّارز واحدة من تلك الخلاسيات الجليلات. تعرّف لافيّث عليها في إحدى حفلات الرقص التي كانت تقيمها الأمهاتُ لتقديم بناتهن للرجال الأثرياء، وهي إحدى الطرق الكثيرة لخرق القوانين اللامعقولة كما أوضح القرصان لدييغو. كان هناك نقص في النساء البيض وفائض في الملونات، لم تكن هناك ضرورة لمعرفة الرياضيات لرؤية حل المأزق، ومع ذلك فالزيجات المختلطة كانت ممنوعة. بهذا الشكل تتمّ المحافظة على النظام الاجتماعي، وتُضْمَنُ سلطةُ البيض، ويُحافظ على خضوع الملونين، لكنّ هذا لم يكن يمنع من امتلاك البيض خليلاتٍ من أصلٍ أوروبيّ. وجَدَت الخلاسياتُ الهنديات حلاً مناسباً للجميع. كنّ يُدربن بناتهنّ على الأعمال المنزلية وفنون الإغواء، التي لا تخطر ببال أيٍّ من النساء البيض، ليعملن منهنّ قهرمانات ومحظيات في البيت. كنّ يُلْبِسْنِهُنّ ملابس فاخرة، لكنّهنّ يعلمنهنّ خياطة ثيابهنّ بأنفسهنّ. كنّ أنيقات وعاملات. في حفلات الرقص التي لم يكن يحضرها غير الرجال البيض كانت الأمهات يضعن بناتهنّ مع أحدٍ يضفي عليهنّ مستوى جيّداً. وكانت إعالة واحدة من تلك الفتيات الحسناوات تعتبر علامة امتياز بالنسبة للفارس. ولم يكن التبتّل والزهد في النساء فضيلة، إلا بين الطهرانيين، لكنّه لم يكن يوجد في نيوأورليانز من هؤلاء إلاّ القليل. كانت الخلاسيّات الهنديات يعشن في بيوت ليست شديدة الترف، لكنها مريحة وذات

طراز معين، كنّ يُعِلْنَ عبيداً ويربين أبناءهنّ في أفضل المدارس ويرتدين ثياباً كالملكات في خصوصيّاتهنّ، على الرغم من أنّهنّ كنَّ في العلن محتشمات. تمّت هذه التسويات بحسب بعض القواعد الضمنية، كواجهةٍ وأدبِ معاشرة.

- بكلمات قليلة، تقدّم الأمهاتُ بناتهنّ إلى الرجال - لخّص دييغو مستنكراً.

- أليس الأمر كذلك دائماً؟ الزواجُ تسوية تقوم المرأة من خلالها بتقديم خدماتٍ للرجل الذي يعيلها. البيضاء هنا تملك حرّية اختيارٍ أقل من الخلاسيات من أصل أوروبيّ - ردّ لافّيت.

- لكنّ الخلاسية من أصل أوروبي لا تتمتع بالحماية عندما يُقرّر عشيقها الزواج أو استبدالها بخليلة أخرى.

- يتركها الرجل ويترك لها بيتاً ومعاشاً، إضافة إلى أنّه يدفع لها نفقات الأولاد. وتكوّن أحياناً أسرةً أخرى مع خلاسيّ آخر. كثيرون من هؤلاء الخلاسيين أبناء خلاسيات هنديات أُخريات، مهنيون تربّوا في فرنسا.

- وأنت، يا قبطان لافّيت، هل لديك أسرتان؟ - سأل دييغو مفكّراً بخوليانا وكاترين.

- الحياة معقّدة، كلّ شيء ممكن - قال القرصان.

دعا لافّيت دييغو إلى أفضل المطاعم، إلى المسرح والأوبرا وقدّمه إلى أصدقائه كـ «صديق من كاليفورنيا». معظمهم كانوا ملوّنين، مهنيين يدويين، تجّاراً، فنّانين، وحرفيين. كان يعرف أمريكيين، بقوا منعزلين عن بقية السكان الخلاسيين والفرنسيين بخطّ وهميّ يقسم المدينة.

كان يُفضّل ألا يعبر هذا الخطّ، لأنّه على الطرف الآخر كان يوجد جوّ أخلاقيّ لا يناسبه. حمل دييغو إلى كهوف قمار عديدة،

تماماً كما طلب هذا منه. بدا له مريباً أنّ يكون الشاب واثقاً إلى ذلك الحدّ من ربحه وحذّره من الغشّ، لأنّ ثمن هذه الغلطة ضربة خنجر بين الأضلاع.

لم يُولِ دييغو نصائحَ لافّيت أذناً صاغية، لأنّ الحدس السيّء الذي انتابه قبل أيّام لم يفعل شيئاً آخر غير أنّه اشتدّ. كان بحاجة للمال. لم يكن يستطيع سماع بِرناردو بوضوح كما هو الحال دائماً، لكنّه كان يشعر بأنّه يناديه. عليه أن يعود إلى كاليفورنيا، ليس من أجل إنقاذ خوليانا من الوقوع في يد لافّيت فقط بل لأنّه كان واثقاً أيضاً من أنّ شيئاً ما يحدث هناك ويتطلّب حضورَهُ. راح يُقامِرُ بالقلادة كرأسمال أوّلي في أماكن مختلفة، كيلا يُثير الشبهات بربحه غير المعهود. كان سهلاً جدّاً بالنسبة إليه، هو المدرَّب على حيل الإيهام، أن يُبَدِّلَ ورقةً بأخرى أو يُخفيها. ثمّ إنّه كان يتمتّع بذاكرة وفطنة ممتازة بالنسبة إلى الأرقام؛ فيتكهَّنُ بعد دقائق قليلة بلعبة خصومه. وهكذا لم يخسر القلادة وراح يملأ جيبه بالنقود، وكان بهذا الإيقاع سيجمع خلال وقتٍ قصيرٍ الآلاف الثمانية من الدولارات الأمريكية للفدية. كان يعرف حجمه، فيبدأ خاسراً، كي يُطمئن اللاعبين الآخرين، بعدها يُحدّد ساعة معيّنة لإنهاء اللعبِ ويبدأ بالربح فوراً. لم يتجاوز الحدَّ قط. فما إن يبدأ الرجالُ الآخرون يتململون حتى ينتقل إلى مكان آخر. ومع ذلك حالفه الحظّ ذات يوم إلى حدّ أنّه أراد ألا ينسحب واستمرّ بالمراهنة. كان خصومُه قد أفرطوا في الشربِ ولا يكادون يستطيعون التركيز على الورق، لكنّهم ملكوا من الوعي ما أسعفهم كي ينتبهوا إلى أنّ دييغو يحتال. وقامت على الفور مشاجرة انتهت بهم إلى الشارع، بعد أن أخرجوه دفعاً بنيّة سحقه المبرّرة. ولم يكد دييغو يجعلهم يسمعونه رغم الجلبة حتى تحداهم باقتراح أصيل.

ـ لحظة، أيّها السادة! أنا مستعدّ لإعادة النقود التي ربحتها بشرف، إلى من يستطيع أن يُحَطِّم ذلك الباب برأسه ـ أعلن وهو يشير

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إلى باب مبنى القساوسة ذي الخشبِ السميك والتباشيم المعدنية، وهو بناء استعماري الطراز كان ينتصبُ بجانب الكاتدرائيّة.

لفت هذا انتباه السكارى على الفور. كانوا يناقشون أمور المنافسة حين ظهرَ رقيب، راح يراقبُ المشهد بدل أن يفرض النظام. طلبوا منه أن يكون حكماً فقَبِل بأريحية. خرج موسيقيون من محلاّت عدّة وراحوا يعزفون أغاني فرحة، وامتلأت الساحة خلال دقائق قليلة بالفضوليين. كانت قد بدأت تعتم فأمر الرقيب بإشعال الفوانيس. انضمّ إلى اللاعبين رجال آخرون وأرادوا أن يُشاركوا في تلك الرياضة الجديدة، فقد بدت لهم فكرةُ كسرِ البابِ بالجمجمة مسلّيةً جداً. قرّر دييغو أن يدفع كلّ واحد من المتطفلين خمسةَ دولارات كي يدخل في اللعبة. جمع الرقيبُ خمساً وأربعين دولاراً في إغماضة عين وفرض النظام في الصف. ارتجل الموسيقيون إيقاعَ طبول واندفع العنصر الأوّل ركضاً إلى بناء القساوسة وقد ربط رأسه بعمامة. تركته النطحة متخشباً على الأرض. واستُقْبِلَت المأثرةُ بموجة من التصفيق والصفير والقهقهات. اقترب زوج من الخلاسيات الجميلات طالبات إسعاف الصريعَ بكأس من شراب اللوز، بينما كان الثاني يستغلّ فرصته في تحطيم رأسه، دون أن يُحقِّقَ نتائجَ أفضل من الأوّل. ندم بعضُ المشاركين في الساعة الأخيرة، لكنّهم لم يُعيدوا لهم دولاراتهم الخمسة. وفي النهاية لم يتمكّن أحد منهم من تحطيم الباب وخرج دييغو بالنقود التي ربحها على طاولة القمار إضافة إلى خمسة وثلاثين دولاراً مما جُمع. وتلقى الرقيب عشرة دولارات مقابل الإزعاج الذي لقيه وخرج الجميع سعداء.

أحضروا العبيد ليلاً إلى مزرعة لافّيت. أنزلوهم بحذر على الشاطئ وحبسوهم في عنبر خشبيّ. كانوا خمسة رجال شباباً واثنين أكبر سنّاً، وصبيَّتَيْن صغيرتين وامرأة وطفلاً ابن ست سنين

تقريباً، متشبثاً بساقيها وآخر ابن أشهر قليلة بين ذراعيها. كانت إيزابيل قد خرجتْ لتترطَّبَ في الشرفة ولمحت الأطياف التي كانت تتحرّك في الليل، مضاءة ببعض المشاعل. اقتربتْ، دون أن تستطيع مقاومة فضولها، ورأت عن قرب ذلك الصفَّ من الكائنات البشرية المُحزِنة في أسمالها. كانت الصبيتان الصغيرتان تبكيان، بينما الأمّ تسيرُ صامتةً، ثابتةَ النظرةِ، مثل مخبولٍ. جميعهم كانوا يُجرجرون أقدامهم، منهكين جائعين. كانوا يمضون يُراقبهم عدد من القراصنة المسلّحين بقيادة بيير لافّيت. الذي ترك بضاعته في العنبر ومضى على الفور ليحيط أخاه جان علماً بالأمر، بينما هرعت إيزابيل لتحكي ما رأت لدييغو وخوليانا ونوريا. كان دييغو قد رأى الإعلانات في المدينة ويعرف أنّه سيقوم خلال يومين مزادٌ على عبيد في المعبد.

كان الأصدقاء قد ملكوا الوقت في باراتاريا كي يستعلموا عن العبودية. لم يكن ممكناً إحضار العبيد من أفريقيا، لكنّهم كانوا يُباعون و«يربّون» في أمريكا. كان اندفاع دييغو الأول هو أن يُحاول إطلاقَ سراحهم، لكنّ صديقاته بيّنَّ له أنّه حتى ولو استطاع الدخول إلى العنبر وكسر القيود وإقناع أولئك الناس بالهرب، لن يكون أمامهم مكان يذهبون إليه. سيصطادونهم بالكلاب. أملهم الوحيد هو الوصول إلى كندا، لكنّهم لن يستطيعوا ذلك وحدهم أبداً. قرّر دييغو أن يتحقّق على الأقل من الظروف التي كانت تحيط بالأسرى. ودَّع صديقاته دون أن يقول لهنّ ما كان يُفَكِّر القيام به. ارتدى قناع زورو وخرج من البيت مستغلاً الظلمة. كان الأخوان لافّيت في الشرفة، بيير يحمل في يده كأسَ كحول وجان يُدَخِّن، لم يكن يستطيع الاقتراب ليسمعهما دون أن يُخاطر بانكشاف أمره، وهكذا تابع طريقَهُ إلى العنبر. كان ضوء مشعل يضيء قرصاناً واحداً يقوم بالحراسة يحمل على كتفه بندقية. اقترب بأمل أن يمسك به بغتة، لكنّ المباغَتَ كان هو، لأنّ رجلاً آخرَ ظهر خلفه.

ـ ليلة سعيدة، يا بوس ـ حيّاه.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

دار دييغو نصفَ دورة وواجهه، جاهزاً للقتال، لكنّ الآخر كان مسترخياً ولطيفاً. عندها انتبه إلى أنّه خلط بينه وبين جان لافّيت، الذي كان دائماً يرتدي السواد. اقترب القرصان الآخر أيضاً.

ـ أطعمناهم وهم يرتاحون الآن، يا بوس. غداً سنحمّمهم ونعطيهم ثياباً. وضعهم جيّد، باستثناء الرضيع الذي يعاني من الحمّى. لا أظنّه سيعيش طويلاً.

ـ افتحوا الباب، أريد أن أراهم ـ قال دييغو بالفرنسية، مُقلِّداً نبرة القرصان.

أبقى وجهه في الظلّ بينما يفتحون له مغلاق الباب، وهذا حذرٌ عبثيّ، لأنّ الحارسين لم يشكّا به أبداً. أمرهما أن ينتظراه في الخارج ودخل. في العنبر كان هناك فانوس مُعَلّق في زاوية يعطي ضوءاً خفيفاً، لكنّه كافٍ لتمييز كل واحد من تلك الوجوه التي كانت تنظر مذعورةً بصمت. جميعهم باستثناء الطفل والرضيع كانوا مقيّدين بحلقاتٍ في رقابهم وبسلاسل مثبّتة إلى أعمدة. اقترب دييغو بحركات مُطمئنة، لكنّهم عندما رأوا القناع اعتقدوا أنّهم أمام شيطان فانكمشوا بقدرِ ما سمحت لهم سلاسلهم بذلك. كان من غير المجدي أن يُحاول التواصل معهم فهم لم يفهموا عليه. أدرك أنّهم وصلوا للتو من أفريقيا، كان الأمر يتعلّق بـ «بضاعة طريّة»، كما يقول الزنوج، ولم يملكوا وقتاً لتعلّم لغة خاطفيهم. من المحتمل أنّهم حملوهم إلى كوبا، حيث اشتراهم الأخوان لافّيت ليبيعاهم من جديد في نيوأورليانز، تحمّلوا السفر في البحر في ظروف رهيبة وتحمّلوا سوء المعاملة على اليابسة. تراهم من القرية ذاتها، من العائلة ذاتها؟ في المزاد سوف يفصلون بينهم ولن يروا بعدها بعضهم بعضاً. لقد حطّم العذاب أرواحَهم. كانت نظرتهم مجنونة. تركهم دييغو وهو يشعر بضغط لا يُحتمل على قلبه. مرّة قبل ذلك شعر في كاليفورنيا بذلك اللوح الحجري نفسه يسحق صدره، حين حضر مع بِرناردو كيف كان الجنود يُهاجمون قرية هنديّة. تنكّر إحساسَهُ بالعجز وقتذاك، المماثل تماماً لهذا الذي يخنقه في تلك اللحظة.

عاد إلى بيت لافّيت، بدّل ثيابه واجتمع بالصغيرتين دِ رومِو ونوريا ليبلغهنّ بما رآه. كان يائساً.

- كم يُكَلِّف هؤلاء العبيد، يا دييغو؟ - سألت خوليانا.

- لا أعرفُ بالضبط، لكنّني رأيت لائحة المزاد في نيوأورليانز وبنظرة سريعة أقدّر أنّ باستطاعة الأخوين لافّيت أن يحصلا على ألف دولار ثمن كلّ شابّ، وثمانمئة عن الاثنين الآخرين وستمئة عن كلّ واحدة من الفتاتين، وألف دولار تقريباً ثمن الأم وطفليها. لا يمكن بيع الطفلين منفصلين، فهما أصغر من سبع سنين.

- كم المبلغ الكلّي.

- لنقل ثمانية آلاف دولار.

- أكثر قليلاً مما يطلبونه فدية لنا.

- لا أرى علاقة - قال دييغو.

- عندنا نقود، قرّرنا أنا وإيزابيل ونوريا أن نستخدمها في شراء هؤلاء العبيد - قالت خوليانا.

- معكم نقود؟ - سأل دييغو مفاجأً.

- الحجارة الكريمة، ألا تذكرها؟

- ظننت أن القراصنة انتزعوها منكنّ.

شرحت له خوليانا وإيزابيل الطريقةَ التي أنقذن بها ثروتهنّ المتواضعة. فبينما كنَّ يبحرن في سفينة القراصنة، خطر لنوريا فكرة لامعة لإخفاء الحجارة الكريمة، لأنّه لو شكّ خاطفوهنّ بوجودها لفقدوها للأبد. ابتلعنها واحدة فواحدة مع جرعة نبيذ. وعاجلاً أكثر ممّا آجلاً خرجت الحجارة الكريمة غير ممسوسة من الطرف الآخر من الأنبوب الهضمي، فقط كان عليهنّ أن ينتبهن إلى محتوى المباول لاستعادتها. لم يكن حلاً لطيفاً، لكنّه نجح والآن الحجارة الكريمة المغسولة جيّداً مخيطة مرّة أخرى في المآزر.

- بهذا تستطعن دفع فديتكنّ! - صاح دييغو.

ـ صحيح، لكنّنا نُفضّل أن نُحرِّر العبيد، لأنّه حتى ولو لم تصل نقود أبيك، نعرف أنك ستكسبه بحيلك ـ ردّت إيزابيل.

كان جان لافّيت جالساً في الشرفة مع فنجان قهوته وصحن بيجنيت، وهو زلابة فرنسية لذيذة، يُسَجّل أرقاماً في دفتر حساباته حين مثلت خوليانا ومعها منديل مربوط من زواياه الأربعة ووضعته على الطاولة. رفع القرصان نظره فقفز قلبه مرّة أخرى أمام تلك الشابّة، التي رافقته في أحلام كلّ ليلة من لياليه. فكّ الصرّة ولم يتمكّن من كتم شهقته.

ـ كم تعتقد قيمة هذه؟ ـ سألت محمرّة الخدّين وبدأت تقترح عليه التجارة التي كانت في ذهنها.

كانت المفاجأة الأولى بالنسبة إلى القرصان هي اكتشافه أنّ الأختين استطاعتا إخفاء الحجارة الكريمة، والثانية أنهما تُخصّصانها لشراء العبيد بدل حرّيتهن ذاتها. ماذا سيقول بيير والقباطنة الآخرون عن هذا؟ الشيء الوحيد الذي كان يرغب به هو أن يمحو الانطباع السيء الذي خلّفته القرصنة عند خوليانا يضاف له الآن هؤلاء العبيد. وشعر لأوّل مرّة بالخجل من أعماله المُهينة. لم يكن يُحاول كسب حبّ تلك الشابّة، لأنّه هو نفسه لم يكن حرّاً كي يُقدّم لها حبه، لكنّه يحتاج على الأقل لاحترامها. لم تكن النقود تهمّه مثقالَ ذرّة في هذه الحالة، فهو يستطيع تعويضها، ثمّ أنّه يملك أكثر مما يكفي لسدّ أفواه شركائه.

ـ هذا يساوي كثيراً، يا خوليانا. فهو يكفي لأكثر من شراءِ العبيدِ ودفعِ فديتك وفدية أصدقائك والسفر إلى كاليفورنيا. وكذلك لمهرك ومهر أختك ـ قال.

لم تتصوّر خوليانا أنّ تلك الحُصيّات الملوّنة تُفيد لكلّ ذلك. قسَمت الحجارة الكريمة إلى كتلتين، واحدة كبيرة وأخرى صغيرة،

لفّت الأولى بالمنديل وضعته في صدرها وتركت الباقي على الطاولة. وقامت بحركة من ستنسحب، لكنّه نهض، مضطرباً وأوقفها من ذراعها.

- ماذا ستفعلين بالعبيد.

- سأنزع أغلالهنّ قبل أيّ شيء، بعدها سأرى كيف سأساعدهم. مكتبة الرمحي أحمد

- حسناً، أنتِ حرّة، يا خوليانا. سأهتمّ بأن تتمكّني من الذهاب قريباً. واعذريني على الإزعاجات التي تسبّبت لك بها، كان بودّي لو تعارفنا في ظروف أخرى. من فضلك، اقبلي هذه هديّةً منّي - قال القرصان مسلّماً إيّاها الحجارة الكريمة التي تركتها على الطاولة.

احتاجت خوليانا لكلّ قواها لمواجهة ذلك الرجل والآن انتزعت منها هذه اللفتة كلّ أسلحتها. لم تكن متأكّدة من معناها، لكنّ حدسها نبّهها إلى أنّ الشعور الذي بذلها لاقى استجابةً تامّةً عند لافّيت: الهديّة إعلان حبّ. رآها القرصان متردّدة فأخذها بين ذراعيه وقبّلها بفم ملآن على فمها. كانت أوّل قبلة حبّ عند خوليانا وربّما الأطول والأشد التي ستلقاها في حياتها. في جميع الأحوال كانت الأكثر حضوراً في ذاكرتها، كما يحدث دائماً مع القبلة الأولى. لقدّ هزّها حتى العظم قربُ القرصان منها، ذراعاه وهما يلفّانها، نفَسُهُ، دِفْؤه، رائحةُ رجولتِهِ، لسانُهُ داخل فمها. كانت قد استعدّت لهذه اللحظة بمئات الروايات الغرامية والسنوات التي تخيّلت فيها العاشقَ المُقدَّر لها. كانت تشتهي لافّيت بشغف دشّنتْهُ للتو لكن بيقين قديمٍ ومطلق. لن تُحبَّ بعده أحداً، هذا الحبّ الحرام سيكون حبّها الوحيدَ في هذا العالم. تشبّثت به، ممسكةً بقميصه بيديها الاثنتين، ردّت له القبلة بالشدة ذاتها، بينما هي تتمزّق من الداخل، لأنّها كانت تعلم أنّ هذه الدغدغةَ كانت وداعاً. حِين تمكّنا من الانفصال أخيراً، وضعت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رأسها على صدر القرصان دائخةً، محاولةً استعادة أنفاسها وإيقاع قلبها، بينما هو يُكرِّر اسمها، خوليانا، خوليانا في همس طويل.

ـ عليّ أن أذهب ـ قالت مودّعةً.

ـ أُحبك من كلّ روحي، يا خوليانا، لكنَّني أيضاً أُحبّ كاترين. لن أهجرها أبداً. هل تستطيعين تفهّم هذا؟

ـ نعم يا جان. مأساتي أنّني عشقتُك وأنا أعلم أنّنا لن نستطيع أن نكون معاً أبداً. لكنّني أُحبك أكثر لإخلاصك لكاترين. إن شاء الله تستعيد عافيتها قريباً وتكونان سعيدين...

أراد لافّيت أن يُقبّلها من جديد، لكنّها انسحبت راكضةً. ما من أحد منهما وهما في الارتباك الذي كانا فيه استطاع أن يرى مدام أوديليا التي حضرت المشهد عن مسافة قصيرة.

لم تكن خوليانا تشكّ بأنّ حياتها انتهت. ولم يكن استمرارها في هذا العالم مفصولة عن جان يستحق المعاناة. كانت تُفضّل الموت، مثل بطلات الأدب التراجيديات، على ذلك، لكنّها لا تعرف كيف تلتقط مرض السلّ أو مرضاً آخر ناعماً، وقد رأت أنَّ موتها بالتيفوس غير لائق. استبعدت أن تقتل نفسها، مهما كانت معاناتها عميقة، لا تستطيع أن تدين نفسها بالجحيم، وحتى لافّيت نفسه لا يستحق هذه التضحية. ثمّ إنّها لو انتحرت لتعذّبت إيزابيل ونوريا. وكان الترهّب يلوح خياراً وحيداً، لكنّ فكرة ارتداء زيّ الراهبة في حرّ نيوأورليانز لم يكن يغريها كثيراً. أخذت تتصوّر ما كان سيقوله المرحوم والدُها، الذي كان دائماً ملحداً بفضل الله، لو علم بنواياها. كان توماس دِ رومِو يفضّل أن يراها متزوّجةً من قرصان على أن تصبح راهبة. سيكونُ من الأفضل لها أن تخرج من هناك ما إن تؤمّن وسيلة النقل وتنهي أيّامها بالاعتناء بالهنود تحت إشراف الأب مِندوثا، الذي كان رجلاً طيّباً بحسب ما روى دييغو. سوف تُخزّن الذكرى الدافئة لتلك

القبلة وصورة جان لافّيت، وجهَه المشتعل عاطفة، عينيه الزبرجديّتين، شعرَه المسرّح إلى الخلف، عنقَهُ وصدرَه المطلّ من قميصِ حريرِهِ الأسود، سلسلتَهُ الذهبية، يديه القويّتين وهما تضمّانها. لم تكن تملك راحةَ البكاء. كانت جافّة، فقد استهلكت احتياطيّها الكامل من الدموع في الأيّام السابقة، وهي تعتقد أنّها لن تبكي بعد الآنَ في حياتها.

كانت تفكّر في هذا وهي تنظر إلى الشاطئ عبر النافذة تعاني بصمتٍ من قلبها الممزَّق، حين شعرت بوجود أحد خلفها. تلك كانت مدام أوديليا، وهي أكثر إدهاشاً من أيّ وقت مضى، كلها قماش قطني أبيض وعمامة من اللون ذاته وأطواق من العنبر وسوارات في ذراعيها وقرطان ذهبيّان في أُذنيها. ملكة سنغالية، مثل أمّها.

- عشقتِ جان - قالت بنبرة حياديّة، وهي تُخاطبها بِـ أنت لأوّل مرّة.

- لا تنشغلي، يا مدام، لن أدخل أبداً بين ابنتك وصهرك. سأذهب من هنا وهو سينساني - ردّت خوليانا.

- لماذا اشتريتِ العبيد؟

- كي أُحرّرهم، هل تستطيعين مساعدتهم؟ سمعت أنّ الكواكوريين يحمون العبيد ويأخذونهم إلى كندا، لكنّني لا أعرف كيف أتصل بهم.

- في نيوأورليانز زنوج كثيرون أحرار. يستطيعون أن يجدوا عملاً ويعيشوا هناك، أنا سآخذ أمر تشغيلهم على عاتقي - قالت الملكة.

بقيت صامتة برهةً طويلة، تُراقب خوليانا بعينيها، اللتين مثل حبّتَيّ بندقٍ، تلعب بحبّاتِ عنبر طوقها، تدرسها، وتحسب. أخيراً بدا أنّ نظرتها القاسية قد رقّت قليلاً.

- هل تريدين أن تَري كاترين - سألت ملءَ فمها.

ـ نعم يا مدام. وبودّي أن أرى الطفلَ أيضاً، كي أحمل معي صورة الاثنين، هكذا سيسهل عليّ أن أتصوَّر من كاليفورنيا سعادةَ جان.

قادت مدام أوديليا خوليانا إلى جناح آخر من البيت، بنظافة وترتيب وزينة بقية البيت، حيث أحدثوا روضةً لحفيدها. بدت غرفةَ أمير أوروبيّ صغير، باستثناء أوثان فودو، كانت تحميه من العين. كان بيير ينام في مهد برونزي بإطار من القماش المخرّم، تُرَافقه مرضعتُه، وهي امرأة شابّة ضخمة الثديين وفاترة العينين وطفل صغير السن، مكلّف بتحريك المروحة. أزاحت الجدَّة الناموسية وانحنت خوليانا كي ترى ابنَ الرجل الذي كانت تعبده. بدا لها رائعاً. لم ترَ أطفالاً كثيرين تقارنهم به، لكنّه كان باستطاعتها أن تُقسِم أنّه أجملُ طفل في العالم. كان مستلقياً على ظهره وفوقه قماط، مفتوحَ الذراعين والساقين مستسلماً لحلمه. أذنت لها مدام أوديليا بإيماءة أن تُخرجه من مهده. استطاعت حين أصبح بين ذراعيها أن تشمَّ رأسه شبه الأصلع، أن ترى ابتسامةً بلا أسنان، وأن تلمسَ أصابعَهُ التي تشبه الديدان الصغيرة، وبدا لها أنّ الحجر الكريم الأسود الذي على صدره يتفكّكُ، ينفرط ويختفي. بدأت تُقبّله في كلّ مكان، في قدميه الحافيتين، في بطنه بسرّته الناتئة، في رقبته الرطبة من العرق، وعندها بلّل نهر من الدموع الحارّة وجهها وسقط على الطفل. لم تبكِ غيرةً لن تملكها أبداً، بل رقّةً لا يمكن كتمانها. وضعت الجدّة بيير في المهد وأشارت إليها دون أيّة كلمة أن تتبعها.

عبرتا حديقةَ البرتقال والدفلى، ابتعدتا عن المنزل ووصلتا إلى الشاطئ حيث كان ينتظرهم مجذّف ومعه زورق ليحملهما إلى نيوأورليانز. جابتا شوارع وسط المدينة بسرعةٍ واجتازتا المقبرة. كانت الفيضانات تمنع دفن الموتى تحت الأرض، فصارت المقبرة مدينة صغيرة من الأضرحة، التي كان بعضها مزيّناً بتماثيل من المرمر وبعضها الآخر محاطاً بسياج من الحديد المشغول والقبب

وأبراج النواقيس. رأتا غير بعيد كثيراً عنها شارعاً من المنازل العالية والضيقة، كلّها متساوية بباب في الوسط ونافذة على كلّ جانب، كانوا يسمّونها «بيوت الطلقة» لأنّ طلقة مصوّبة على الباب الرئيسي تخترق البيت كلّه وتخرج من الباب الخلفيّ دون أن تصيب أيّ جدار. دخلت مدام أوديليا دون أن تطرق. في الداخل كان هناك فوضى غير معهودة لأطفالٍ متفاوتي الأعمار، تعتني بهم امرأتان ترتديان مئزرين من البفتة. كان البيتُ مزدحماً بالأوثان، ومرطبانات المغليات والأعشاب المعلّقة رزماً إلى السقف، وتماثيل الخشب المعشقة بالمسامير والأقنعة وما لانهاية له من الأشياء الخاصّة بديانة الفودو. كانت هناك رائحة حلوة ودبقة كالدبس. حيّت مدام أوديليا المرأتين وتوجّهت إلى إحدى الغرف الصغيرة. وجدت خوليانا نفسها أمام خلاسيّة داكنة، طويلة العظام، صفراء العينين مثل فهدٍ وجلد برّاق من العرق، وشعر مجموع في قرابة خمسين ضفيرة مزيّنة بالشرائط والخرز الملوّن، تُرضِع طفلاً حديثَ الولادة. تلك كانت ماري لافو الشهيرة، العرّافة التي ترقص أيّام الآحاد مع العبدات في ساحة الكونغو وتسقط في احتفالات الغابة المقدّسة مغشياً عليها وتجسّد الآلهة.

ـ جئتكِ بها كي تقولي لي ما إذا كانت هي ـ قالت مدام أوديليا.

نهضت ماري لافو على قدميها واقتربت من خوليانا، والطفل عالق بثديها. كانت قد قرّرت أن تلد طفلاً كلّ عام ما سمح لها شبابها بذلك، وهاهي تملك خمسة. وضعت ثلاث أصابع على جبينها ونظرت إلى عينيها طويلاً. شعرت خوليانا بطاقة مريعةٍ وضربةِ سوطٍ تهزّها من قدميها إلى رأسها. مضت دقيقة كاملة.

ـ إنّها هي ـ قالت ماري لافو.

ـ لكنّها بيضاء ـ اعترضت مدام أوديليا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ـ أقول لك إنّها هي ـ كرَّرت الكاهنة وبذلك اعتبرت المقابلة منتهية.

أخذتِ ملكةُ السنغال خوليانا ومضت عائدة بها إلى الرصيف، وعادتا وعبرتا المقبرة وساحة السلاح واجتمعتا بالمجذِّف، الذي انتظرهما صابراً، مدخِّناً تبغه. قادهما الرجلُ عبر طريق آخر باتجاه منطقة المستنقعات. وسرعان ما وجدوا أنفسهم في متاهة المستنقع بممراته وأغماره وبحيراته وجزره الصغيرة. ساهمتْ وحشةُ المنظر المطلقة، وأبخرة الوحل الخانق، وخفقات أذيال التماسيح المفاجئة، وزعيق الطيور، كلّ ذلك ساهم في خلق جوٍّ من الغموض والخطر. انتبهت خوليانا إلى أنّها لم تُعلم احداً من جماعتها. ولا بدّ أنّ أختها ونوريا تبحثان عنها الآن. خطر لها أنّ هذه المرأة يمكن أن تكون لديها نوايا شريرة، فهي بعد كلّ حساب أمّ كاترين، لكنّها سرعان ما استبعدت هذه الفكرة. بدا لها العبور طويلاً جدّاً والحرّ يدبّ فيها النعاسَ، شعرت بالعطش، وكان المساء قد حلّ والجوّ امتلأ بالبعوض. لم تجرؤ على السؤال عن وجهتهم. بعد برهة طويلة من الرحلة حين بدأت تعتم رسوا على ضفَّةٍ. بقي المجذّف بجانب زورقه وأشعلت مدام أوديليا فانوساً، أخذت خوليانا من يدها وقادتها بين العشب الطويل حيث ما من أثرٍ يدلّ على الاتجاه. وكان كلّ ما قالته لها هو «احذري من أن تطئي أفعى». سارتا مسافة طويلة وأخيراً عثرت الملكةُ على ما كانت تبحث عنه. كانت منطقة عارية من المراعي ذات أشجارٍ سامقة معلّمةٍ بالصلبان تتدلّى منها الطحالب. لم تكن صلباناً مسيحيةً، بل صلبان الفودو، التي ترمز إلى تداخل العالمين، عالم الأحياء وعالم الأموات. وكان عدد من الأقنعة ووجوه الآلهة الأفريقية المنحوتة على الخشب يُراقب المكان. بدا المنظر على ضوء الفانوس والقمر مرعباً.

ـ هناك ابنتي ـ قالت مدام أوديليا، مشيرةً إلى الأرض.

كانت كاترين بَيارز قد تُوفّيت بحمّى النفاس قبل خمسة

أسابيع. لم تستطع إمكانيات الطب الحديث ولا الصلوات المسيحية ولا السحر وأعشاب السحر الأفريقية إنقاذَها. لفّت أمّها ونساء أخريات الجثمان، الذي استنفده الالتهابُ والنزفُ ونقلوه إلى ذلك المكان حيث ووريت التراب في المستنقع مؤقّتاً ريثما تشير الشابة المرحومة إلى الشخص المخصّص لنقلها. لم يكن باستطاعة كاترين السماح بأن يقع ابنُها في يد أيّةِ امرأة يختارها جان لافّيت، حسبما وضّحت ملكة السنغال. وكان واجبها أن تُساعدها في هذه المهمّة، ولذلك أخفت موتها. كانت كاترين في منطقة وسط، تروح وتغدو بين عالمين. تُرى ألم تسمع خوليانا خطواتها في منزل لافّيت؟ ألم ترها واقفةً عند سريرها في الليالي. ورائحة البرتقال التي كانت تعمّ الجزيرة هي عطر كاترين، التي كانت تسهر في حالتها الجديدة على الصغير بيير وتبحث عن خالة مناسبة له. أدهش مدام أوديليا أنّ كاترين ذهبت إلى الجانب الآخر من العالم كي تعثر على خوليانا وما كانت تحبّ فكرة أنّها اختارت امرأة بيضاء، لكن من هي حتى تعترض؟ فمن عالم الأرواح كانت كاترين تستطيع أن تُقرّر من هي الأنسب بشكلٍ أفضلَ من أيّ شخص آخر. هكذا أكّدت لها ماري لافو حين استشارتها. وعدتها الكاهنةُ قائلة: «حين تظهر المرأة المناسبة، سيكون بمقدوري التعرّف عليها». المرّة الأولى التي انتاب مدام أوديليا شعور بأنّها يمكن أن تكون خوليانا كانت حين رأت أنّها تُحبُّ جان لافّيت، لكنّها بدت مستعدة للتخلّي عنه احتراماً لِكاترين، والمرّة الثانية حين أشفقت الشابّةُ على مصير العبيد. قالت إنّها كانت راضية الآن، لأنّ ابنتها المسكينة سترتاح مطمئنّة في سمائها ويمكن أن تُدفن في المقبرة، حيث لن يستطيع مدّ الماء أن يجرف جسدها إلى البحر.

اضطرّت أن تُكرّرَ عدداً من التفاصيل لأنّ القصّة لم تكن تدخل في رأس خوليانا. لم يكن باستطاعتها أن تُصدّق أنّ هذه المرأة أخفت الحقيقةَ عن جان خمسة أسابيع. كيف ستوضّح له الأمر الآن؟ قالت مدام أوديليا أنّه ليس من الضروريّ أن يعلم صهرُها بكلّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المسألة. فالتاريخ الدقيق غير مهم، ستقول له إنّ كاترين ماتت البارحة.

ـ لكنّ جان سيطلب رؤية الجثمان! ـ علّقت خوليانا.

ـ هذا غير ممكن. وحدنا النساء نستطيع أن نرى الجثامين. مهمّتنا أن نأتي بالأطفال إلى هذا العالم ونودّع الموتى. على جان أن يقبل. بعد جنازة كاترين، سيكون لك ـ ردّت الملكة.

ـ سيكون لي؟... ـ تلعثمت خوليانا مرتبكة.

ـ الشيء الوحيد المهمّ في هذه الحالة هو حفيدي بيير. لافّيت كان مجرّد وسيلة استخدمتها كاترين كي توكل إليك ابنها. وأنا وهي سنسهرُ على أن تقومي بواجبك. ولهذا يجب عليك أن تبقي بجانب أبِ الطفل وتبقي عليه راضياً ومطمئنّاً.

ـ جان ليس من نوع الرجال الذين يمكن أن يكونوا راضين ومطمئنين، إنّه قرصان ومُغامِر...

ـ سأعطيك، كما أعطيت لكاترين حين بلغت الثانية عشرة، مغليات سحريةً وأسراراً لإرضائه في السرير.

ـ لستُ من هذا النوع من النساء... ـ انزعجت خوليانا محمرّةً.

ـ لا تهتمّي، ستصيرين، ولكن لن تصبحي أبداً بمهارة كاترين، لأنّك عجوز قليلاً كي تتعلّمي، وفي رأسك أفكار بلهاء كثيرة، لكنّ جان لن يلاحظ الفرق. الرجالُ أغبياء تعميهم الرغبة، ولا يعرفون عن اللذة إلا القليل جدّاً.

ـ لا أستطيع أن أستخدم حيل الغواني أو المغليات السحرية، يامدام!

ـ هل تُحبّين جان أم لا، يا صغيرة.

ـ بلى ـ اعترفت خوليانا.

ـ إذاً عليك أن تجتهدي. دعي الأمر بين يديّ. ستجعلينه سعيداً

ومن الممكن أن تكوني أنت كذلك، لكنّني أنبّهك إلى أنّ عليك أن تعتبري بيير ابناً لك أو أنك ستواجهينني. هل فهمت جيّداً.

لا أدري كيف أنقل لكم، أعزّائي القرّاء، حقيقةَ ردَّة فعل دييغو دِ لابِغا، بكل عظمتها عندما علم بما جرى. كانت السفينة التالية إلى كوبا ستنطلق من نيوأورليانز بعد يومين، اشترى التذاكر وأصبح كلّ شيء جاهزاً للخروج بسرعة الطير من منطقة صيد جان لافّيت الذي يجرّ معه خوليانا جرّاً. فهو بعد كلّ حساب سيُنقذ حبيبته. عادت روحه إلى جسده حين انقلب ظهر المجنّ وظهر أنّ خصمَهُ أرمل. رمى نفسه على قدمي خوليانا كي يردعها عن الحماقة التي كانت سترتكبها. حسناً، هذا مجرّد كلام. فهو كان واقفاً يسير بخطوات واسعة، يومئ، يشدُّ شعره، يصرخ، بينما هي تنظر إليه مشدوهةً وابتسامة بلهاء على وجهها، وجه الحورية. فَلْيُقْنِع امرأةً عاشقة إذا كان يستطيع! كان دييغو يعتقد أنّ الشابّةَ ستستعيدُ في كاليفورنيا عقلَها، بعيدةً عن القرصان، وسيستعيد هو ما كان قد خسره. لا بدّ أن خوليانا ستكون حمارة تماماً إن استمرّت في حبّ شخص يتاجرُ بالعبيد. كان واثقاً من أنّها ستعرف في النهاية كيف تُقدِّر رجلاً مثله، بجمال وشجاعة لافّيت، لكنّه أفتى منه بكثير، نزيهاً، مستقيمَ القلب، سليمَ النوايا، يستطيع أن يَمنحها حياة مريحة دون أن يقتل أبرياء ليسرقهم. هو يكاد يكون تامّاً ويعبدها. والله! ماذا كانت خوليانا تريد أكثر من ذلك؟ لا شيء يبدو لها كافياً! كانت كيساً مثقوباً. صحيح أنّ أسابيع قليلة في حرّ باراتاريا كانت كافية كي تمحو بجرّةِ ريشة نجاحاتٍ كان قد حقّقها خلال خمس سنوات من مغازلتها. لو كان شخصاً آخر أكثر تنبّهاً لعلم أنّ قلبَ تلك الشابّة متقلّب، لكن دييغو ليس هذا الآخر. كان خيلاؤه يمنعه من أن يرى بوضوح، كما هي عادة حال العاشقين من أمثاله.

كانت إيزابيل تراقب المشهد مشدوهة. ففي الثمانية والأربعين

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ساعة الأخيرة حدثت أشياء بدت من الكثرة بحيث أنّه لم يعد باستطاعتها تذكّرها بالترتيب. لنقل أنّ الأمر كان إلى هذا الحدّ أو ذاك على الشكل التالي: بعد أن فكّوا أغلال العبيد وأطعموهم وأعطوهم ثياباً وأفهموهم بصعوبةٍ كبيرة أنّهم أصبحوا أحراراً، حضروا مشهداً يُمَزّق القلب، موت الرضيع، الذي وصل مُحتضَراً. احتاجوا إلى قوّة ثلاثة رجال كي ينتزعوا الجسمَ المتخشّب من أمّه ولم يكن هناك من طريقة لتهدئتها، كان عويلها ما يزال يُسمع، يُرافقها عواء كلاب الجزيرة. العبيد المساكين لم يكونوا يفهمون الفارق بين أن يكونوا أحراراً أو لا يكونوا، إذا كانوا في جميع الأحوال سيستمرّون في ذلك المكان الكريه. رغبتهم الوحيدةُ هي العودة إلى أفريقيا. كيف كانوا سيعيشون في تلك الأرض المعادية والوحشية. كان الزنجيّ الذي قام بالترجمة يُحاول أن يهدّئهم واعداً إيّاهم أنّهم لن يُعدموا طريقة لكسب العيش، فهم دائماً في الجزيرة بحاجة إلى مزيد من القراصنة، والفتاتان ستعثران بقليل من الحظّ على زوجين، والأم المسكينة ستستطيع أن تعمل عند أسرة ما، سيعلمونها الطهي، ولن يكون عليها أن تنفصل عن الطفل الآخر. عبثٌ. كانت المجموعة تُكرّر مثل ابتهال أن يُعيدوها إلى أفريقيا.

عادت خوليانا من نزهتها الطويلة مع مدام أوديليا وقد تبدّلت إلى سعادة هائلة، تحكي حكاية قادرة على أن توقف شعر أكثرهم رجاحة عقلٍ. وجعلت دييغو وإيزابيل ونوريا يقسمون ألا يُكرّروا كلمة واحدةً، ثمّ أفلتت جديدها بأنّ كاترين بيّارز لم تكن تُفكّر أنّها مريضة، بل إنّها نوع من الميتة المُنبعثة كي تفرض إرادتها. ثمّ إنّها اختارتها هي بالذات كي تكون خالة الصغير بيير. ستتزوّج من جان لافيت، المسألة فقط أنّه لم يكن يعرف بعد بذلك، ستقوله له بعد جنازة كاترين. وتُفكّر أن تطلبَ منه كهديّة لزواجهما أن يتخلّى نهائيّاً عن الاتجار بالعبيد، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنها أن تتسامح معه، فالخسائس الأخرى لم تكن تهمّها كثيراً. واعترفت لهم، بقليل من الخجل، أنّ مدام أوديليا ستُعلّمها ممارسة الحبّ كما يُحبّ

القرصان. عند هذا المستوى من الكلام فَقَدَ دييغو السيطرةَ على نفسه. خوليانا كانت معتوهة، دون شكّ. هناك ذبابة تنقل هذا المرض، لا شكّ أنّها لسعتها. هل تظنّ أنّه سيتركها بين يدي ذلك المُجرم؟ ترى ألم يتعهّد لتوماس دِ رومِو، عليه الرحمة، أن ينقلها سالمةً غانمةً إلى كاليفورنيا؟ سيفي بعهده حتى ولو اضطُرَّ لأن يضربها على رأسها.

عاني جان لافّيت في تلك الساعات انفعالات مختلفة كثيرة جدّاً. فقد تركتْهُ القبلةُ في ذهول. فالتخلّي عن خوليانا كان أصعب ما واجهه في حياته، إنه يتطلّب كلّ شجاعته، التي لم تكن قليلةً كي يتجاوز الكرب والخيبة. اجتمع بأخيه والقباطنة الآخرين كي يُسلِّمهم حصّتهم من بيع العبيد وفدية الرهائن، التي كانوا يوزّعونها بدورهم بعدلٍ بين بقيّة الرجال. خرج المال من جيبه الخاصّ، كان هذا كلّ التوضيح الذي قدّمه. بينّ له القباطنة، مستغربين، أنّه لا معنى إطلاقاً لذلك من وجهة النظر التجارية، فلأيّ شيطان كان يأتي بالعبيد والرهائن، مع كل ما يتبع ذلك من نفقات وإزعاجات معروفة، إذا كان يفكّر بإطلاقهم مجّاناً. انتظر بيير لافّيت حتى ذهبوا كي يبدي رأيه لجان. كان يُفكّر أنّ هذا فقد القدرة على إدارة التجارة، فقد ترهّل دماغُهُ، ومن المحتمل أن تكون لحظةُ استبداله قد حانت.

ـ اتفقنا، يا بيير، سنخضع هذا للتصويت بين الرجال، كما هي العادة. هل ترغب بالحلول مكاني؟ ـ تحدّاه جان.

وما زاد الطين بللاً بعد هذا أنّ حماته وصلت بعد ساعات قليلة لتعلن له أنّ كاترين توفّيَت. لا. لم يكن يستطيع أن يراها. الجنازة ستتم بعد يومين في نيوأورليانز، بحضور مجتمع الخلاسيين. سيكون هناك قدّاس مسيحي قصير لتهدئة القساوسة يليه حفل أفريقي، ومأدبة وموسيقى ورقص، كما هو الواجب. كانت المرأة حزينة، لكنّها رصينة وملكت من القوّة ما يكفي كي تواسيه حين راح يبكي مثل صبيّ صغير. كان يعبد كاترين، إنها رفيقته وحبّه الوحيد،

أجهشَ لافّيت. قدَّمت له مدام أوديليا جرعة روم وربتات على كتفه. لم تكن تشعر بشفقة مفرطة تجاه الأرمل، لأنّها تعلم أنّه سرعان ما سينسى كاترين بين ذراعي أخرى. لم يكن جان ليستطيع حياءً أن يخرج راكضاً ليطلب من خوليانا أن تتزوّج منه، فقد كان عليه أن يصبر فترة معقولةً، لكنّ الفكرة كانت قد اتخذت شكلها في ذهنِهِ وقلبِهِ على الرغم من أنّه ما زال لا يستطيع أن يصوغها بكلمات. فقدان زوجته كان مريعاً، وإن كان يقدّم له حرّية غير منتظرة. كانت كاترين، حتى وهي في قبرها، تُرضي أخفى خفايا رغباته. بات مستعدّاً لتصحيح طريقه من أجل خوليانا. فالسنون تمضي سريعةً، وقد ملَّ العيشَ مُستباحَ الدم، ومسدَّس على خصره وهو معرَّض لأن يضعوا سعراً لرأسه في أيّة لحظة. كان قد جمع في تلك السنوات ثروة ويستطيع هو وخوليانا والصغير بيير أن يذهبوا إلى تكساس، إلى حيث ينتهي الاستقرار بالأوغاد، ويتفرَّغ هناك لنشاطات أخرى أقلّ خطورة، وإن كانت دائماً غير مشروعة. طبعاً لن يمارس تجارة العبيد أبداً، لأنّها كما يبدو تجرح حساسية خوليانا. لم يسمح لافّيت قط لامرأة أن تتدخّل في أعماله، وهي لن تكون الأولى، لكنّه أيضاً لا يستطيع أن يُدمِّر زواجه بالشجار حول هذه المسألة. نعم، سيذهبون إلى تكساس، لقد حسم الأمر. فهذا المكان يُقدّم إمكانيات كثيرة لرجل مرن الأخلاق ومغامر الروح. كان على استعدادٍ لأنّ يتخلّى عن القرصنة، وإن كان هذا لا يعني أن يتحوّل إلى مواطن محترم، إذ يجب عدم المبالغة.

القسم الخامس

كاليفورنيا العليا 1815

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ركب دييغو وإيزابيل ونوريا مرزاباً في ميناء نيو أورليانز ربيعَ 1815، مخلّفين خوليانا وراءهم. يؤسفني أن يكون الأمر كذلك، لأنّ أيّ قارئٍ طيّبَ القلب سينتظر نهايةً رومانسية لصالح البطل. ويؤسِفني أنّ قرار خوليانا مخيّبٌ للأمل، لكنّه لم يكن ممكناً بطريقة أخرى، لأن معظم النساء لو كنَّ مكانها لفعلن الشيء ذاته. إعادة الضالّ إلى طريق الصواب مشروع لا يُقاوَم وخوليانا فعلت ذلك بغيرة دينية. سألتْها إيزابيل لماذا لم تُحاوِل ذلك قط مع رافائيل مونكادا فأوضحت لها أنّ الأمر لم يكن يستحقّ الجهد، لأنّ مونكادا لم يكن رجلَ نزواتٍ رائعة مثل لافيت، بل رجلَ خسائس، وأضافت الحسناء: «وهذه، كما يعلم الجميع، ليس لها علاج». وفي تلك المرحلة كان ما يزال ينقص زورو الكثير كي يستحقّ أن تَجْهِد امرأةٌ نفسها لإصلاحه.

لقد وصلنا، أيُّها القرّاء الأعزّاء، إلى القسم الخامس والأخير من هذا الكتاب، ولم يبقَ غير القليل كي نوّدع بعضنا بعضاً. ذلك لأنّ القصّة تنتهي مع عودة البطل إلى نقطة انطلاقه، وقد غيّرتْهُ مغامراتُه والعوائقُ التي تخطاها. هذا هو المعتاد في القصص الملحمية، بدءاً من الأوديسا وحتى حكايات الجنّ. ولن أكون أنا من ستُحاول التجديد.

الحركة الرهيبة التي قام بها دييغو عندما علم بقرار خوليانا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بالبقاء مع لافّيت في نيو أورليانز لم تجدِهِ نفعاً، لأنّها تخلّصت منه مثل بعوضة، وأضافت مَنْ هو دييغو كي يأمرها، وهما لا تجمع بينهما حتى رابطة الدم. ثمّ إنّ عندها من العمر ما يكفي كي تعرف ما يُناسبها. وكوسيلة أخيرة تحدّى دييغو القرصانَ بالمبارزة حتى الموت «دفاعاً عن شرف الآنسة دِ رومِو»، كما قال، لكنّ هذا أعلمَهُ وقتَها بأنّهما قد تزوّجا في الكنيسة الخلاسية في حفل سرّي صارم صباحَ ذلك اليوم بالتحديد، دون أيّ شاهد آخر غير أخيه بيير والسيّدة أوديليا. ولا شكّ أنّهم فعلوا ذلك بهذا الشكل تفادياً لمشاهد سيقوم بها من لا يفهمون عجلة الحب. لم يكن هناك ما يفعله فالارتباط كان شرعيّاً. وهكذا فقد دييغو حبيبتَهُ للأبد وأقسمَ وقد صار أسيرَ أعظم ضيقٍ أنّه سيبقى عازباً بقيّةَ أيام حياته. لم يُصدّقه أحد. إيزابيل بيّنت له أن لافّيت لن يدوم كثيراً في هذا العالم، نظراً لطريقته الخطرة في الحياة، وأنّه ما إن تترمّلَ خوليانا حتى يستطيع أن يُلاحقها حتى يتعب، لكنّ هذه الذريعة لم تكن كافية لمواساة دييغو.

ودّعت إيزابيل ونوريا خوليانا بكثير من البكاء، رغم وعود لافّيت بأنّهما سيذهبان لزيارتهما في كاليفورنيا. تردّدت نوريا، التي كانت تعتبر الصغيرتين دِ رومِو بمثابة ابنتيها، بين أن تبقى مع خوليانا لتحميها من الفودو والقراصنة والمُنغّصاتِ الأخرى، التي لا شكّ أنّ القدر يدبّرها لها، وبين أن تتابع إلى كاليفورنيا مع إيزابيل، التي على الرغم من أنّها أصغر بعدّة سنوات، إلاّ أنّ حاجتها إليها كانت أقل. حلّت خوليانا المعضلةَ طالبة منها الذهاب، لأنّ سمعة إيزابيل ستسوء للأبد إذا ما سافرت وحدها مع دييغو دِ لابِغا. قدّم لافّيت إلى القهرمانة سلسلة ذهبية وقطعة من أنعم أنواع الحرير هديّةَ وداع. اختارتها نوريا سوداء اللون، جِداداً.

ابتعد المرزابُ عن الميناءِ وسط وابلٍ حارّ من المطر، كما كان يحدث في كثير من الأحيان يوميّاً في ذلك الفصل وبقيت خوليانا

مبلَّلة بالدمع والمطر، تحملُ بين ذراعيها الصغير بيير، يحرسها قرصانها الفاتن وملكة السنغال، المتولية توجيهها وحراستها. كانت خوليانا ترتدي ثياباً بسيطة، حسب ذوق زوجها وتشعّ من السعادة ما جعل دييغو ينفجر باكياً. لم تبدُ له بجمال لحظة فقدانه لها. كانت خوليانا ولافيّت يُشكّلان زوجين رائعين، هو في سواد تام، يحملُ ببغاءً على كتفه، وهي بالموسلين الأبيضَ، وكلاهما محميّان حتى الوسط بمظلتين يحملهما فتيان أفريقيّان، كانا عبدين وصارا الآن حُرّيْن. أغلقت نوريا حجيرتها على نفسها كيلا يروها تبكي بصوت عالٍ. وبقي دييغو وإيزابيل يلوّحان محزونين مودّعين حتى ما عادا يريانهم. كان دييغو يبتلع دموعه للأسباب التي نعرفها وإيزابيل لأنّها تنفصل عن أختها. إضافة إلى أنّها، وهذا ما يجب قوله، بنتْ أوهاماً فيما يتعلّق بلافيّت، الرجل الأوّل الذي ناداها جميلة. هكذا هي الحياة، مهزلة خالصة. فلنعد ونمسك بالقصّة.

حملت السفينة شخصياتنا إلى كوبا. كانت هافانا، المدينة التاريخية، ببيوتها ذات الطراز الاستعماري وكورنيشها الطويل، المستحمّة في بحرٍ بلّوري ونورٍ كاريبيٍّ مُحال، تُقدّم متعاً منحطّة، لم يُحسن أيٌّ منهم استغلالها. نوريا لأنّها كانت تشعر بأنّها عجوز، وإيزابيل لأنّهما لم يسمحا لها بذلك. فالشابّة المراقبة من الإثنين لم تستطع أن تزور الكازينوهات، ولا أن تُشارك في استعراضات موسيقى الشارع البهيجة. فقراء وأثرياء، بيض وزنوج كانوا يأكلون في الحانات والمطاعم الشعبية، يشربون الرومَ بلا حدود ويرقصون حتى الفجر. لو أتاحوا لها الفرصةَ لتخلّت إيزابيل عن الفضيلة الإسبانية، التي لم تفدها في شيء حتى تلك اللحظة، كي تندفع في الشبقِ الكاريبي، الذي كان يبدو أهمَّ بكثير، لكنّها بقيت أسيرة الرغبة. علموا من صاحب الفندق أخباراً عن سانتياغو دِ ليون. فقد تمكّن القبطان من الوصول مع ناجين آخرين من هجوم القراصنة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بسلام إلى كوبا. ولم يكد يستعيد أنفاسه من الرعب والخوف حتى أبحر إلى إنكلترا. كان يُفكّر بأن يقبض تأميناً وينسحب إلى منزل صغير في الريف، حيث سيستمرّ في رسم الخرائط الخيالية لجامعي الأشياء الغريبة.

بقي الأصدقاء الثلاثة عدّةَ أيّام في كوبا، استغلّها دييغو كي يوصي ليصنعوا له طقمين من ثياب زورو، منسوخين عن أطقم جان لافّيت. اضطُرَّ عندما رأى نفسه أمام مرآة الخيّاط لأن يعترف أنَّ خصمه كان يتمتّع بأناقة لا تقبل الجدل. نظر إلى نفسه من الأمام والجانبين، ووضع يداً على وركه وأخرى على مقبض سيفه، رفع شعرَه وابتسم راضياً. كانت أسنانه تامّة وكان يُحبّ أن يستعرضها. فكّر أنّه يظهر رائعاً. وأَسِفَ للمرّة الأولى لازدواجية شخصيته. كان يودّ أن يسير دائماً بتلك الملابس. وتنهّد قائلاً: «في جميع الأحوال لا يمكنك أن تملك كلَّ شيء في الحياة». لم يكن ينقصه غير القناع كي يفلطح أذنيه، والشارب المستعار كي يخدع أعداءه وسيكون زورو جاهزاً كي يتواجد حيث يُطلب سيفُه. «بالمناسبة، يا جميل، أنت تحتاج إلى سيفٍ ثانٍ» قال مُخاطباً الخيال في المرآة. لن ينفصل أبداً عن عزيزه *العادل*، لكنَّ سيفاً واحداً لا يكفي. أرسل ثيابه الجديدةَ الفاخرةَ إلى الفندق وراح يجوب حوانيت الأسلحة في الميناء بحثاً عن سيفٍ شبيهٍ بالذي أهداه إليه بُلايو. وجد ما كان يرغب فيه تماماً، واشترى أيضاً خنجرين موريسكيين، نحيلين ومرنين، لكنّهما قويّين جدّاً. المال الذي حصل عليه بالحرام من كهوف القمار في نيو إورليانز ملصَ من بين يديه بسرعة، وبعد أيّام قليلة حين استطاعوا أن يركبوا في طريقهم إلى بورتوبلو، كانوا بفقر اليوم الذي اختطفهم فيه جان لافّيت.

بالنسبة إلى دييغو الذي اجتاز قنال بنما سابقاً بالاتجاه المعاكس، لم يبدُ له هذا الجزء من الرحلة مهمّاً كما كان بالنسبة إلى إيزابيل ونوريا، اللتين لم تريا قط ضفادع بأظلافٍ وأقل من ذلك

سكّاناً أصليين عراة. غرزت نوريا، المذعورةُ، عينيها في نهر تشارِس، مقتنعةً بأنّ أسوأ مخاوفها من وحشيّة الأمريكيين قد تأكّدت. بالمقابل استغلّت إيزابيل انتشار العري ذاك لإشباع فضول قديم عندها. فهي منذ سنوات كانت تتساءل عن الفرق بين الرجل والمرأة، وأصيبت بخيبة أمل، لأنّ ذلك الفرق كان يسعه بكلّ راحة جزدانُها، كما علّقت قائلة لقهرمانتها. في جميع الأحوال تمكّنوا من الإفلات من الإصابة بالملاريا ومن لسع الأفاعي بفضل صلوات نوريا، ووصلوا دون عوائق إلى ميناء بنما. هناك حصلوا على سفينة حملتهم إلى كاليفورنيا العليا.

رست السفينةُ في ميناء سان بِدرو الصغير، بالقرب من لوس أنجلوس، ونُقل الركّابُ في زورق إلى الشاطئ. لم يكن سهلاً إنزال نوريا على سلّم الحبال. فأخذها بحّار طيّبُ الإرادة، مفتولُ العضلات من خصرها دون استئذان ووضعها على كتفه ونزل بها كما لو أنها كيسَ سكّر. عندما اقتربوا من اليابسة رأوا صورة هنديّ تلوّح لهم مشيرة بيدها. بعد دقائق راح دييغو وإيزابيل يصيحان فرحاً حين عرفا بِرناردو.

ـ كيف عرفت أنّنا سنصل اليوم؟ ـ سألت نوريا مُستغرِبَةً.

ـ أنا أخبرته ـ ردّ دييغو، دون أن يوضّح كيف فعل ذلك.

كان بِرناردو قد ربض هناك منذ أسبوع، حين انتابه إحساس بأنّ أخاه على وشك الوصول. لم يشكّ بصدقِ الرسالة التخاطرية وأقام يرصدُ البحرَ بصبرٍ لا حدود له، واثقاً من أنّ سفينةً ستظهرُ آجلاً أو عاجلاً في الأفق. لم يكن يعلم أنّ دييغو جاء مُرَافِقَاً، لكنّه قدّر أنّه سيأتي معه بأمتعة كثيرة، لذلك احتاط وجاء معه بعدد من الخيول. لقد تغيّرَ إلى حدّ أنّ نوريا لاقت صعوبة في التعرّف في ذلك الهنديّ على الخادم المحتشم الذي تعرّفت عليه في برشلونة. لم يكن

بِرناردو يرتدي غير بنطلون مشدود إلى خصره بحزام من جلد البقر. لقد حمّصته الشمسُ كثيراً وصار شعره طويلاً، أسود داكناً ومجدولاً. كان يحمل خنجراً على خصره وبندقية معلّقةً على ظهره.

ـ كيف هما أبواي؟ وبرق الليل وابنك؟ ـ كان هذا شاغل دييغو الأوّل.

وبالإشارة قال له بِرناردو أنّ هناك أخباراً سيّئة، وعليهم أن يذهبوا مباشرة إلى بعثة سان غابرييل التبشيرية، حيث سيوضّح لهم القسُّ مِندوثا الحالة؛ فهو نفسه كان يعيش بين الهنود منذ عدّة أشهر وليس مطّلعاً تماماً على التفاصيل. حزموا قسماً من الأمتعة على أحد الأحصنة، طمروا البقيّةَ في الرمل وعلّموا المكان بالحجارة، لإخراجها فيما بعد. ثم ركبوا بقيّة المطايا وتسربوا إلى البعثة التبشيرية. لاحظ دييغو أنّ بِرناردو يقودهم عبر أحد المنعطفات، متفادياً الطريق الملكي وأملاك دِ لابِغا. بعد مسيرة عدّة فراسخ شاهدوا أملاكَ البعثة. أفلتت من دييغو صيحة مفاجأة حين تبينّ له أنّ الحقولَ، التي زرعها القسُّ مِندوثا بكثير من الهمّة، غزتها الأعشاب وأنّ السقوف فقدت نصف قرميدها وأكواخ المعتنقين الجدد بدت مهجورةً. كان يسودُ جوّ من البؤس على ما كان سابقاً أملاكاً مزدهرة. خرجت بعضُ الهنديّات على صوت الحوافر وخلفهنّ صغارهنّ وبعدها بقليل ظهر القسُّ مِندوثا في الفناء. كان المبشِّرُ قد استُنزِف في تلك السنوات الخمس، فبدا عجوزاً ضعيفاً، لا يُغطّي رأسه غير بعض الشعر القليل، الذي لم يتمكّن من تغطية ضربةِ السكين في أذنه الضائعة. كان يعلم أنّ بِرناردو ينتظر أخاه ولم يكن يشكّ بحدسه، لذلك لم يكن وصول دييغو مفاجئاً له. فتح له ذراعيه فقفز الشاب عن الجواد وهرع ليسلّم عليه. دييغو الذي يزيد طوله نصف رأس عن الكاهن انتابه إحساس بأنّه يكاد لا يعانق غيرَ كومة من العظام، فانكمش قلبه ضيقاً حين تبينّ وطأةَ الزمن.

ـ هذه إيزابيل، ابنة السيّد توماس دِ رومِو، جعله الله على يساره وهذه السيّدة هي نوريا، قهرمانتها ـ قدَّمهما دييغو.

ـ أهلاً بكما في البعثة، يا ابنتيّ. أعتقد أنّ الرحلة كانت ثقيلة جدّاً، لذلك تستطيعان أن تغتسلا وترتاحا، ريثما نطّلع أنا ودييغو على صورة الواقع. سأخبركما حين نكون جاهزين للعشاء ـ قال القسُّ مِندوثا.

كانت الأخبار أسوأ مما تصوَّره دييغو. فوالداه انفصلا منذ خمس سنوات تقريباً. في اليوم ذاته الذي غادر فيه للدراسة في إسبانيا. غادرت رخِينا المنزل لا تحمل غير الثياب التي ترتديها. وهي منذ ذلك الوقت تعيش مع قبيلة البومة البيضاء، ولم يرها أحد في القرية أو البعثة بعدها. يقولون إنّها تخلّت عن آدابها كسيِّدة إسبانية وصارت الهنديّة الشجاعة التي كانت في شبابها. أكَّدَ بِرناردو الذي كان يعيش في القبيلة ذاتها كلامه. صارت أم دييغو تستخدم الآن اسمها الأصلي، تويبورنيا وتُحضِّر نفسها لتحلّ ذات يوم محلَّ البومة البيضاء، طبيبةً شعبية وشاماناً. وكانت شهرة المرأتين كعرّافتين قد انتشرت إلى ما وراء الجبال، وصار الهنود من القبائل الأخرى يقصدونهما من مسافات بعيدة ليستشيروهما. منع ألِخاندرو دِ لابِغا في هذه الأثناء حتى ذكر اسم زوجته، لكنّه لم يعتد قط على غيابها وقد شاخ غمّاً. ولكي لا يُقدِّم توضيحات لمجتمعِ المستعمرة الأبيض ترك منصبه كعمدةٍ وتفرّغ بالكامل للمزرعةِ والتجارة مُضاعفاً ثروته. لم يفده العمل كثيراً، لأنّه منذ شهور وفي أثناء وجود دييغو مع الغجر في إسبانيا، وصل رافائيل مونكادا إلى كاليفورنيا بصفته مبعوثاً مفوَّضاً للملك فِرناندو السابع، بمهمّة رسمية للتبليغ عن وضع المستَعْمَرة الاقتصادي والسياسي. كانت سلطته أعلى من سلطة الحاكمِ وقائدِ المنطقة العسكري. لم ينتبْ دييغو شكٌ بأنّ مونكادا حصل على منصبه بوساطة نفوذ خالته إيولاليا دِ كالّيس، وأنّ دافعه الوحيد للابتعاد

عن البلاط الإسباني هو القبض على خوليانا، هذا ما وضّحه للقسّ مِندوثا.

ـ لا بدّ أنّ مونكادا شعر بخيبةِ أمل حين تأكّد من أنَّ الآنسة دِ رومِو غير موجودة هنا ـ قال دييغو.

ـ افترضَ أنّكم قادمون في الطريق لذلك بقيَ. ولم يُضع وقته خلال ذلك، يتناقلون أنّه يجمع ثروة ـ ردّ المُبشِّر.

ـ هذا الرجل يكرهني لأسبابٍ عدّة، أهمّها أنّني ساعدتُ خوليانا على التخلّص من اهتماماته ـ ردَّ عليه دييغو.

ـ الآن أفهم ما جرى بشكلٍ أفضلَ، يا دييغو. ليسَ الجشعُ دافع مونكادا الوحيد، فهو أيضاً أراد الانتقام منك... ـ تنهّد القسُّ مِندوثا.

بدأ رافائيل مونكادا سلطته في كاليفورنيا بمصادرة أملاك دِ لابِغا، بعد أن أمر باعتقال صاحبها، الذي اتهمه بترؤس تمرّد من أجل استقلال كاليفورنيا عن مملكة إسبانيا. لم يكن هناك وجود لهذه الحركة، أكّد القسُّ مِندوثا لِدييغو، والفكرة لم تدخل حتى الآن في عقل المستوطنين، على الرغم من أنّ بؤرة التمرد قد بدأت في بعض بلدان أمريكا الجنوبية، وهي تشتعل مثل البارود في بقيّة أنحاء القارّة. فبتهمة المسؤولية التي لا أساس لها عن الخيانة راح ألِخاندرو ليقبع بعظامه في سجن الشيطان المخيف. استقرّ مونكادا مع موكبه في المزرعة، وصارت الآن مسكنه وثكنته. أضاف المبشِّرُ أنّ مونكادا تسبّب بأضرار كثيرة في زمن قصير. هو أيضاً كان تحت نظر مونكادا، لأنّه يُدافع عن الهنود، ويتجرّأ على مواجهته ببعض الحقائق، لكنّه يدفع الثمن غالياً: لقد أفلست البعثة. أنكر عليه مونكادا بعضَ الموارد المعتادة، كما أنّه أخذ الرجال، ولم يُبقِ له أيدٍ لتعمل في الأرض، لم يترك له غير النساء والأطفال والشيوخ. عائلات السكّان الأصليين مُزّقت، والناس مُحبَطون. كانت تدور إشاعات عن تجارة لؤلؤ، مُسلّحة من قبل رافائيل مونكادا، الذي

يستخدم الهنود في أعمالها الشاقّة. وضّح المُبَشِّرُ قائلاً إنّ لؤلؤ كاليفورنيا أثمن من ذهب وفضّة المستعمرات الأخرى، وقد ساهم في خزينة إسبانيا طوال قرنين، وجاءت لحظة قضى فيها الإفراط في الاستغلال عليه. مرّ خمسون عاماً لم يتذكّر فيها أحدٌ اللؤلؤ، وهو ما سمح للمحار باستعادة ترميم نفسه. لم تكن السلطات المشغولة بأمور أخرى والمتورّطة في أمور البيروقراطية، تملكُ مبادرةً للشروع بالبحث عنه. وكان يُظنّ أنّ رمال اللؤلؤ موجودة في الشمال بالقرب من لوس أنجلوس. لكنّ أحداً لم يجهد نفسَه للتأكّد من ذلك حتى جاء مونكادا ببعض الخرائط البحرية. كان القسُّ مِندوثا يظنُّ أنّه نوى أن يحصل على اللؤلؤ دون أن يُعلم إسبانيا، ذلك أنّ ملكيته تعودُ من حيث المبدأ إلى التاج الإسباني. ولاستثماره كان يحتاج إلى كارلوس ألكاثار، رئيس سجن الشيطان، الذي راح يمدّه بالعبيد للغطس. كلاهما كان يثري بسرعة وحذر. في القديم كان الباحثون عن اللؤلؤ هنود ياكيسيين من المكسيك، وهم رجال أقوياء جدّاً، عملوا لأجيال في البحر ويستطيعون أن يغطسوا دقيقتين كاملتين تقريباً، لكنّ نقلهم إلى كاليفورنيا العليا كان سيلفت الانتباه. وكخيار آخر قرّر الشريكان استخدامَ هنود المنطقة، الذين لم يكونوا سبّاحين ماهرين ولم يتقدّموا قط برغبة طيّبة لتلك المهمّة. لم يكن هذا يُشكّل مشكلةً: فقد كانوا يعتقلونهم بأيّة ذريعة ويستغلّونهم حتى تنفجر رئاتهم. كانوا يُسكِرونهم أو يسحقونهم ضرباً ويُبلّلون ثيابهم بالكحول ثمّ يجرّونهم إلى القاضي، الذي كان يغضُّ الطرفَ عن هذا التلفيق. وهكذا راح البؤساء ينتهون إلى سجن الشيطان، رغم تحرّكات المُبشِّر اليائسة. أراد دييغو أن يعرفَ ما إذا كان أبوه هناك فأكّد له القِسّ مندوثا ذلك. كان السيّد ألِخاندرو دِ لابِغا مريضاً وضعيفاً، وأضاف، لن يعيش طويلاً في ذلك المكان. كان الأكبر سنّاً والأبيض الوحيد بين السجناء، فالبقيّة كانوا هنوداً أو مولّدين. الذين يدخلون إلى ذلك الجحيم لم يكونوا يخرجون منه أحياء، لقد مات عدد منهم في الأشهر الأخيرة. ما من أحد كان يجرؤ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على الكلام عمّا يجري بين تلك الجدران، لا الحرّاس ولا الموقوفون. صمت قبور كان يلفّ سجن الشيطان.

ـ ما عاد باستطاعتي حتى أن أحمل المواساة الروحية لتلك الأنفس المسكينة. سابقاً كنتُ أذهب لإقامة القدّاس، لكنّ مشادّة كلامية قامت بيني وبين كارلوس ألكاثار، فمنعني على أثرها من دخوله. سيحل محلّي قريباً كاهن من كاليفورنيا السفلى.

ـ هل كارلوس ألكاثار هو البلطجي الذي كان مرهوباً جدّاً حين كنّا صغاراً ـ سأل دييغو.

ـ هو نفسه، يا بُني. وقد ساءت طبيعته مع مرور الزمن، إنّه رجل مُستَبِد وجبان. بالمقابل ابنة عمّته لوليتا قدّيسة. عادة ما كانت تُرافِقني إلى السجن لتحمل أدويةً وطعاماً وبطانيات إلى السجناء، لكن من المؤسف أنه ليس لها تأثير على كارلوس.

ـ أتذكّر لوليتا. عائلةُ بوليدو عائلةٌ نبيلة وورعة. فرانسيسكو أخو لوليتا كان يدرس في مدريد. قامت بيننا بعض المراسلات عندما كنتُ في برشلونة ـ علّق دييغو.

ـ أخيرا، يا بني، حالة السيّد ألخِاندرو خطيرة جدّاً، وأنت أمله الوحيد، عليك أن تتدخّل بسرعة ـ ختم القسُّ مِندوثا.

منذ برهة طويلة ودييغو يسير في الغرفة مُحاوِلاً السيطرة على الانزعاج الذي راح يستحوذ عليه. كان بِرناردو يُتابع الحديث من كرسيّه، وعيناه عالقتان بأخيه، يرسل إليه رسائل ذهنية. الاندفاع الأول عند دييغو كان البحث عن مونكادا ليتبارز معه، لكنّ نظرة بِرناردو جعلته يُدرك أن تلك الظروف تتطلّب الحذر أكثر من الشجاعة، فتلك المهمّة كانت من عمل زورو ومن الضروري الشروع بها برأس بارد. أخرج منديلاً مخرّماً ليجفّف عرق جبينه بحركة مؤثّرة وتنهّد.

ـ سأذهب إلى مونتِرّي وأكلّم الحاكم. إنّه صديق أبي ـ ارتأى دييغو.

ـ فعلت هذا، يا دييغو. حين اعتقل ألخِاندرو، كلّمتُ الحاكم شخصياً، لكنّه قال لي إنّه لا سلطة له على مونكادا. ثمّ إنّه لم يصغِ إليّ حين اقترحت عليه أنْ يُحقّق لماذا يموت كلّ أولئك السجناء في سجن الشيطان ـ ردّ المُبشِّرُ.

ـ إذن عليَّ أن أذهب إلى المكسيك لأقابل نائب الملك.

ـ سيستغرق هذا أشهراً ـ عقّب القسُ مِندوثا.

كان يصعب عليه أن يُصدّق أنّ الفتى الجسور، الذي جاء به إلى العالم بيديه ورآه يكبر قد تحوّل إلى رجل بتلك الأناقة. لقد ليّنت إسبانيا دماغه وعضلاته، وإنّه لأمر مُخجل. كان قد صلّى كثيراً كي يعود دييغو في الوقت المناسب ليُنقِذ أباه والاستجابة كانت هذا الغندور بمنديله المخرَّم. لم يكد يستطيع إخفاء الاحتقار الذي أثاره عنده.

أبلغ المبشِّر إيزابيل ونوريا بأنّ العشاء ينتظرهم وجلس الأربعة إلى المائدة. جاءت هنديّة بجفنة فخّاريّة فيها مقلوبة ذرة قاسية مثل النعل وخالية من الملح، وبعض قطع اللحم المسلوق. لم يكن يوجد خبز ولا نبيذ ولا خضراوات، بل ولم يكن يوجد قهوة، وهي الرذيلة الوحيدة التي يسمح بها القسّ مِندوثا لنفسه. كانوا يأكلون بصمتٍ حين سمعوا وقع حوافر خيلٍ وأصواتاً في الفناء لتندفع بعد لحظات إلى القاعة مجموعة من الرجال في الزي الموحد برئاسة رافائيل مونكادا.

ـ صاحب السعادة! يا للمفاجأة! ـ صاح دييغو دون أن ينهض.

ـ سمعت للتو بوصولك ـ ردّ مونكادا وهو يبحث عن خوليانا بنظرته.

ـ ها نحن هنا، كما وعدناك في برشلونة، يا سيّد مونكادا. هل أستطيع أن أعرف كيف خرجت من الغرفة السرّية ـ سألته إيزابيل ساخرة.

ـ أين أختك؟ ـ قاطعها مونكادا.

ـ إنّها في نيو أورليانز. يسرّني أن أعلمك أنّ خوليانا متزوّجة وسعيدة في زواجها.

ـ مُتزوّجة؟ لا يمكن. ممّن؟ ـ صرخ طالب الودّ المنكود.

ـ من ثريّ ورجلِ أعمالٍ وسيم استطاع أن يجعلها تعشقه من أوّل نظرة ـ وضّحت إيزابيل بأكثر التعابير براءة في العالم.

ضرب رافائيل مونكادا بقبضته على المائدة وشدّ على شفتيه كيلا يُطلق سلسلة من الشتائم. لم يكن يستطيع أن يُصدّق أنّ خوليانا استطاعت أن تفلتَ من يديه مرّة أخرى. فقد عَبَرَ العالم وتخلّى عن منصبه في البلاط وأجّل دراسته لأجلها. استغلّ دييغو الوقفة كي يقترب من رقيبٍ بدين ومبلل بالعرق كان ينظر إليه بعيني كلبٍ وديع.

ـ غارثيّا؟ ـ سأل.

ـ السيّد دييغو دِ لابِغا... عرفتني... يا له من شرف! ـ تمتم البدين سعيداً.

ـ وكيف لا! غارثيّا الذي لا يمكن أن يُخلط بينه وبين أحد آخر. ـ صاح دييغو معانقاً.

هذا البرهان غير المناسب للودّ بين دييغو ورقيبه الخاص أربك مونكادا برهة قصيرة.

ـ أستغلّ هذه المناسبة كي أسألك عن أبي، يا صاحب السيادة ـ قال دييغو.

ـ إنّه خائن وسيعاقب كخائن ـ ردّ مونكادا، باصقاً كلّ كلمة من كلماته.

ـ خائن؟ لا تستطيع أن تقول هذا عن السيّد دِ لابِغا، يا صاحب السيادة! أنت جديد في هذه البلاد ولا تعرف الناس. أنا ولدتُ هنا وأستطيع أن أقول لكم إنّ عائلة دِ لابِغا هي أشرف وأرفع عائلة في كلّ كاليفورنيا... ـ تدخّل الرقيب غارثيّا، مُتضايقاً.

ـ أسكت، يا غارثيّا! لا أحد طلب رأيك! ـ قاطعه مونكادا صاعقاً إيّاه بنظرة حادّة كالسكين.

وعلى الفور نبح بأمرٍ، فلم يكن أمام الرقيب المتصبب عرقاً إلاّ أن يُحييه، ضارباً كعباً بكعب ليترأس انسحاب رجاله. تردَّد في الباب، التفت بعدها إلى دييغو، وقام بحركة تعبّر عن عجزٍ، فردّ عليه الآخر بغمزة تواطؤ.

ـ اسمح لي أن أذكّرك أنّ أبي، السيّد ألِخاندرو دِ لابِغا، نبيل إسبانيّ، وبطل معاركَ كثيرة في خدمة الملك. ولا يمكن أن تُحاكمه إلا محكمة مصنّفة ـ قال دييغو لِمونكادا.

ـ ستنظر في حالته سلطاتٌ وجيهة في مكسيكو. وسيكون والدك خلال ذلك في الصون والأمان، حيث لا يستطيع أن يستمرّ بالتآمر على إسبانيا.

ـ الحكم سيستغرق سنوات والسيّد ألِخاندرو رجل عجوز. لا يستطيع أن يستمر في سجن الشيطان ـ تدخّل القسُّ مِندوثا.

ـ قبل أن يخرق القانون، كان على دِ لابِغا أن يفكّر بأنّه يجازف بحرّيته وممتلكاته. لقد حكم العجوز بتهوُّره على أسرته بالفاقة ـ ردَّ مونكادا بنبرة احتقار.

أمسكت يُمنى دييغو بمقبض السيف، لكنّ بِرناردو أخذه من ذراعه وأوقفه كي يُذكِّره بحاجته للتحلّي بالصبر. نصحه مونكادا أن يبحث عن طريقة يكسب بها عيشه، ذلك لأنّه لا يملك حقّ التصرّف بثروة والده، ثمّ استدار نصفَ استدارة وخرج خلف الرجال. ربت الأب مِندوثا ربتةَ تضامنٍ على ظهر دييغو وكرّر له عرضه باستضافته. قال له إنّ الحياة في البعثة متقشِّفة ومجهدة، وتنقصها وسائل الراحة التي اعتادوا عليها، لكنهم على الأقل يملكون سقفاً.

ـ شكراً يا أبانا. سأحكي لك ذات يوم ما جرى لنا منذ وفاة والدنا المسكين. سترى أنّنا قطعنا إسبانيا سيراً على أقدامنا، عشنا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مع الفجر واختُطِفنا من قبل القراصنة. وقد نجونا بحياتنا في أكثر من مناسبة بمعجزة. أما ما يتعلّق بوسائل الراحة فأؤكّد لك أنّ جلدنا مدبوغ جيّداً ـ ابتسمت إيزابيل.

ـ ومنذ الغد سأتولّى أمر المطبخ بنفسي، لأنّكم تأكلون هنا أسوأ مما في الحرب ـ أضافت نوريا بحركة امتعاض.

ـ البعثة فقيرة جدّاً ـ اعتذر القسُّ مِندوثا.

ـ بالمكوّنات ذاتها وبقليل من الإبداع سنأكل كما يأكل الناس ـ ردّت نوريا.

في تلك الليلة ذاتها حين نام البقيّة تسلّل دييغو وبِرناردو من غرفتيهما وأخذا زوجاً من الخيول وانطلقا دون أن يتلهيا بوضع السرجين، خابِّيْنِ باتجاه كهوف الهنود، التي كثيراً ما لعبا فيها إبان طفولتهما. كانا قد قرَّرا أنّ أوّل ما عليهما فعله هو إخراج ألخِاندرو دِ لابِغا من السجن ونقله إلى مكانٍ آمن، حيث لا يستطيع مونكادا وألكاثار العثور عليه، بعدها تأتي مهمّة تنظيف اسمه من عيب الخيانة. ذلك كان أسبوع ميلادهما، فقد مضى على ولادتهما عشرون عاماً تماماً. بدت لدييغو لحظة مهمّة جدّاً من حياتهما وأراد أن يطبعها بمأثرة خاصة، لذلك اقترح على أخيه في الرضاعة أن يذهبا إلى الكهوف. ثم إنَّه إذا لم تُخرّب الزلازلُ الأرضيّةُ الممرَّ الذي يربطها بمزرعة دِ لابِغا، فربّما يستطيعان أن يتجسَّسا على رافائيل مونكادا.

لم يكد دييغو يتعرّف على الأرض حتى قادهُ بِرناردو دون تلكّؤ إلى المدخل، المغطى بشجيرات حراجية كثيفة. وما إن أصبحا في الداخل حتى أشعلا قنديلاً واستطاعا أن يهتديا في متاهة الممرات إلى أن وقعا على الكهف الرئيسي. استنشقا بعمق الرائحةَ الجوفية التي لا توصف، والتي طالما أحبّاها حين كانا طفلين. تذكّر دييغو

اليومَ المشؤوم الذي غزا فيه القراصنةُ بيتَه واختبأ مع أمّه الجريحة هناك. بدا له أنّه يشمّ رائحة تلك اللحظة المختلطة بالدم والعرق والخوف ورائحة التراب الغامضة. كل شيء كان على حاله كما تركه، بدءاً من الأقواس والسهام والشموع ومرطبانات العسل المخزّن منذ سنوات، وحتى الدائرة السحرية التي صنعوها من الحجارة حين كانا يطمحان للأُكاهوِ. أضاء دييغو المذبح بزوجٍ من المشاعل ووضع في الوسط الصرّة التي جاء بها ملفوفةً بقماش داكن ومربوطة برباط.

ـ يا أخي، لقد انتظرت هذه اللحظة زمناً طويلاً. لقد أكملنا عشرين عاماً، وكلانا معدٌّ لما سأقترحه عليك ـ أعلن لِبرناردو بوقار غير متوقَّع ـ هل تتذكّر فضائل الأُكاهوِ؟ شرف وعدالة واحترام وكرامة وشجاعة. لقد حاولت أن تكون هذه الفضائل دليلي في حياتي وأعرف أنّها كانت دليلك في حياتك.

شرع دييغو يفكّ على ضوءِ المشعلين الضارب للحمرة الصرّةَ التي كانت تحتوي على زيِّ زورو ـ بنطلون وقميص ودثار وجزمة وقبّعة وقناع ـ وسلّمها إلى بِرناردو.

ـ آمل أن يكون زورو جوهر حياتي، يا برناردو. سأتفرّغ للنضال من أجل العدالة وأدعوك كي ترافقني. معاً سنتضاعف ألفاً، ونشوِّش على أعدائنا. سيكون هناك زوروان، أنا وأنت، لكن لن يظهرا أبداً معاً.

جاءت نبرة دييغو من الجدِّيّة بحيث أنّها كانت المرّة الأولى التي لم يرغب بالردّ عليه بإيماءة ساخرة. انتبه إلى أنّ أخاه في الرضاعة قد درس الموضوع جيّداً، ولم يكن الأمر يتعلّق باندفاع أساسه معرفة مصير أبيه، هذا ما كان يؤكّده القناع الأسود الذي جاء به معه من رحلته. خلع الهنديُّ الشابُّ بنطلونه وراح بوقارٍ دييغو يرتدي الثيابَ قطعةً قطعة حتى تحوّل إلى نسخة عن زورو. عندئذٍ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سحب دييغو السيفَ الذي كان قد اشتراه في كوبا وقدّمه إليه ممسكاً به بيديه كلتيهما.

ـ أُقسم أن أحمي الضعفاء وأقاتل من أجل العدالة! ـ صاح دييغو.

استلم بِرناردو السلاح وردّد بهمسٍ غير مسموع كلماتِ أخيه.

فتح الاثنان بحذرٍ بابَ المدخنة السرّيّ، الذي يؤدّي إلى القاعة، متبيّنين أنّه ورغم السنين كان يمكن الانزلاق في النفق دون ضجيج. في السابق كانا يهتمّان بالإبقاء على المعدن مشحماً وكان حسب ما بدا لهما ما يزال كذلك بعد خمس سنوات. كانت الجذوع الكبيرة داخل المدخنة هي نفسها، لكنّها صارت الآن مُغطاة بطبقة من الغبار. لا أحدَ أشعل ناراً خلال تلك الوقت. وكانت بقيّة الغرفة على حالها، الأثاث ذاته الذي اشتراه ألخِاندرو دِ لابِغا من المكسيك إرضاءً لزوجته، الثريا الكبيرة بشموعها المئة والخمسين ذاتها في السقف، المائدة الخشبية والكراسي المُنجّدة بالسجاد ذاته، واللوحات الفاخرة ذاتها. كان كلّ شيء على حاله، ومع ذلك بدا لهما البيت أصغرَ وأكثرَ كآبةً من الذي يتذكّرانه. غشاء من النسيان يجعله قبيحاً، صمت قبور يُثقِل على جوّه، رائحة إغلاق ووسخ تُغطّي الجدران. انسلاً مثل قطّين في الممرات التي أُضيئت بشكلٍ سيّئ ببعض الفوانيس. سابقاً كان هناك خادم عجوز، مهمّته الوحيدة العناية بالضوء. كان الرجلُ ينام نهاراً ويقضي الليل في مراقبة شموع وشمعدانات شحم الخنزير. تساءلا ما إذا كان ذلك العجوز والخدم الآخرون القدماء ما زالوا يعيشون في المزرعة، أم أنّ مونكادا قد استبدلهم بأتباعه.

حتّى الكلابُ كانت تستريحُ في تلك الساعة المتأخّرة، ولا يوجد غير رجلٍ واحدٍ يقوم بالحراسة في الفناء الرئيسي وسلاحه على

كتفه يُجهدُ نفسه للإبقاء على عينيه مفتوحتين. اكتشف الشابّان غرفة نوم الجنود، حيث أحصيا اثني عشر سريراً مُعلّقاً على مستويات مختلفة، الواحد فوق الآخر، وإن كانت ثمانية منها فقط مشغولة. وفي غرفة أخرى كان هناك مخزن أسلحة ناريّة وبارود وسيوف. لم يجرآ على سبر الغرفِ الأخرى خشية أن يُفاجآ، لكنّهما ومن خلال بابٍ مشقوقٍ لمحا رافائيل مونكادا يكتب أو يُسوّي حساباته في المكتبة. كظم دييغو صيحةَ غيظٍ عندما رأى عدوَّه جالساً على كرسيِّ والده، يستخدم أوراقَه وحبرَه. لكزهُ بِرناردو بمرفقه كي يذهبا، فهذه الحملة بدأت تصبح خطيرة. انسحبا بحذرٍ عبر المكان ذاته الذي دخلا منه، بعد أن نفخا غبارَ المدخنة الكثيف ليمحوَا آثارهما.

وصلا إلى البعثة مع انبلاج الفجر، الساعة ذاتها التي شعر فيها دييغو بسطوةِ التعب المتراكم منذ أن نزلا من السفينة على الشاطئ في اليوم السابق. سقط على وجهه فوق السرير ونام حتى ساعة متأخّرة من صباح اليوم التالي، حين أيقظه بِرناردو ليُعلمه بأنّ الجوادين جاهزان. ففكرة الذهاب لرؤية تويبورنيا وطلب المساعدة منها لإنقاذ ألخِاندرو دِ لابِغا كانت فكرته. لم يريا القسَّ مِندوثا، الذي ذهب صباحاً باكراً إلى لوس أنجلوس، لكنّ نوريا قدّمت لهم إفطاراً قويّاً من الفاصولياء والرز والبيض المقلي. حضرت إيزابيل إلى المائدة مجدولةَ الشعر، بتنورة سفرٍ وقميصٍ كتّاني مثل الذي تستعمله المعتنقات الجديدات في البعثة، مُعلِنةً أنّها ستذهب معهما، لأنّها تريد أن تتعرّف على أمِّ دييغو وترى كيف هي قرية الهنود.

ـ في هذه الحال عليّ أن أذهب أنا أيضاً ـ دمدمت نوريا، التي لم تكن تستلطف كثيراً فكرةَ القيام برحلة طويلة على الخيل في بلاد البرابرة تلك.

ـ لا، القسّ مِندوثا يحتاجُكِ هنا. سنعود سريعاً ـ ردّت إيزابيل، مقبّلة إيّاها قبلة مواساة.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

انطلق الشبّان الثلاثة على أفضل الخيول الفتيَّةِ في البعثة، حاملين معهم جواداً آخرَ للأمتعة. كان عليهم أن يسافروا طوال ذلك اليوم، ويُخيّموا ليلاً تحت النجوم، ويشرعوا بصعود الجبل في صباح اليوم التالي. ولتفادي العسكر ذهبت القبيلة إلى أبعد ما تستطيع، وكانت تُبدّل مكانها كثيراً، لكنَّ بِرناردو كان يعرف كيف يُحدِّد موقعها. تبعت إيزابيل، التي تعلّمت ركوب الحصان بلا سرج لكنّها لم تعتد الركوب مسافات طويلة، صديقيها دون تذمّر. وفي أوّل وقفة لهم ليرطّبوا أنفسهم في جدول ويتقاسموا العصرونية التي حضّرتها لهم نوريا، لاحظت كم كانت مُضَعضَعة. سخر دييغو منها لأنّها كانت تمشي مثل بطّة، لكنّ بِرناردو أعطاها مرهمَ أعشاب حضّرته البومة البيضاء، كي تدلّك به أعضاءها الموجوعة.

في اليوم التالي عند الظهيرة أشار بِرناردو إلى بعض العلامات على الأشجار، كانت تدلّ على قرب القبيلة؛ هكذا كانوا يُعْلِمون بمكانهم هنوداً آخرين حين يُبَدلونه. بعد لحظات خرج للقائهم رجلان شبه عاريين، مطلِيِّ الجسدين، جاهزا القوسين، لكنّهما أنزلا سلاحهما حين عرفا بِرناردو، واقتربا ليسلّما. وبعد التعارف قاداهم بين الأشجار إلى القرية، وهي مجموعة من أكواخِ القشّ البائسة، يكثر فيها الكلاب. صفّر الهنديان وبعد دقائق قليلة انبثق من العدم سكّان القرية الشبحية، مجموعةٌ محزنة من الهنود، بعضهم عارٍ، وبعضهم الآخر بالأسمال. عرف دييغو جدّته البومة البيضاء وأمّه مرتعباً. احتاج عدّة ثوان كي يسترجع نَفَسه من الضيق حين رآهما بتلك الحالة السيّئة لينزل قافزاً ويركض ليعانقهما. لقد نسي كم كان الهنود فقراء، لكنّه لم ينسَ رائحة دخان وأعشابِ جدّته، التي لامست روحه فوراً، وكذلك رائحة أمّه الجديدة. وكانت رائحة أمّه رائحةَ صابونٍ حليبيّ وماء زهر. كانت تتضوّع من تويبّورنيا رائحةُ مريمية وعرق.

ـ دييغو، آه كيف كبرت... ـ تمتمت الأمُّ.

كانت تويبّورنيا تُكلّمه بلغة السكان الأصلية، الأصوات الأولى

التي سمعها دييغو في طفولته ولم ينسها. بتلك اللغة كان يستطيع أن يداعب الواحد منهما الآخر، وبالإسبانية يتعاملان بشكل رسميّ، دون أن يتلامسا. كانت اللغة الأولى للمشاعر والثانية للأفكار. لمست يدا تويبّورنيا المليئتان بالقروح ابنها، ذراعَيْه، صدرَهُ، رقبتَه، تتعرّف عليه، تقيسه، خائفةً من التغيّرات. جاء بعدها دور الجدَّة للترحيب به. رفعت البومةُ البيضاء شعرَه لتدرس أذنيه، كما لو أنّها الطريقة الوحيدة لتحديد هويّته دون أيّ هامش للخطأ. راح دييغو يضحكُ من أعماق قلبه، ورفعها حاملاً إيّاها من خصرها شبراً عن الأرض. كانت خفيفةً جدّاً، بدت كمن يرفع طفلاً، لكن دييغو استطاع أن يشعر تحت الخرق وجلود الأرنب التي تُغطّيها، بجسدها الليفي والقاسي: كان خشباً خالصاً. لم تكن عجوزاً ولا ضعيفة جدّاً كما بدت له من النظرة الأولى.

لم يكن لبّرناردو عينان إلاّ من أجل برق الليل وابنه، دييغو الصغير، ابن الخمس سنوات، الذي كان بلون وقوّة القرميد، وله عينا أمّه الداكنتان وابتسامتها، عارياً ومسلّحاً بقوسٍ وسهام صغيرة. دييغو الذي عرف برقَ الليل في طفولتها عندما كان يزورُ ضيعةَ جدّته، ومن خلال إشارات بِرناردو التخاطرية ورسالة القسّ مِندوثا، بقي مشدوهاً من جمالها. معها ومع الصغير بدا بِرناردو رجلاً آخر، كان يكبر حجماً ويستضيء وجهاً.

تذكّر دييغو، بعد مرور حالة التأثُّر الأولى، أن يُقدّم لهم إيزابيل التي كانت تراقب المشهد من مسافة حذرة. من خلال بعض الحكايات التي رواها لها دييغو عن أمّه وجدّته، كانت تتصوّرهما مثل شخصين في اللوحات الملحمية، حيث يخرج المحتلون مصوّرين بأسلحة براقة ويبدو السكان الأصليين الأمريكيين مثل آلهة مُرَيَّشة. لم تكن تلكما المرأتان الوسختان، اللتان ليس فيهما غير العظام، بشعرهما الأشعث، تشبهان ولا من بعيد نساء لوحات المتاحف، لكنّهما تملكان العزّة ذاتها. لم يكن باستطاعتها التواصل مع الجدّة، لكنّها بعد برهة من وصولها توددت لتويبّورنيا. عزمت على زيارة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تلك المرأة الغريبة والحكيمة بين الحين والآخر، لأنّها افترضت أنّها تستطيع أن تتعلَّم منها الكثير. وفكّرت: بهذا الجموح أودّ أن أكون. كان الاستلطاف متبادَلاً، لأنَّ تويبّورنيا أحبّت الشابّةَ الإسبانيةَ، الحولاء. كانت تعتقد أنّ هذا يدلّ على القدرة على رؤية ما لا يراه الآخرون. بقي من القبيلة مجموعة كبيرة من الأطفال والنساء والشيوخ، لكنّه لم يبقَ إلا خمسة صيّادين، عليهم أن يذهبوا بعيداً كي يحصلوا على فريسة، لأنَّ البيض تقاسموا الأرض فيما بينهم وكانوا يحمونها بالرصاص. كان الجوع يدفعهم أحياناً إلى سرقة الماشية، لكن إذا باغتوهم دفعوا الثمن سياطاً أو مشنقةً. كانت غالبية الرجال تُستخدم في الزارعة، لكنَّ قبيلة البومة البيضاء فضّلت الحريّة بكلّ مخاطرها. لم يكن لهم مشاكل مع القبائل المقاتلة بفضل سمعة المرأتين كشامانتين وطبيبتين شعبيتين. وإذا ما جاء مجهولون إلى المخيّم إنّما يكون طلباً للنصائح والأدوية، التي يقايضونها بالطعام والجلود. استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة، لكن منذ أن صار همّ رافائيل مونكادا وكارلوس ألكاثار سحب الرجال الشباب، ما عاد باستطاعتهم المكوث في مكان ثابت. لقد انتهت حياة الترحال مع إقامة مزارع الذرة والحبوب الأخرى، صار عليهم أن يقتنعوا بالفطر والثمار البرّية والسمك واللحم حين يحصلون عليها.

أحضر بِرناردو وبرق الليل الهديّةَ التي حضّراها لِدييغو، جواداً أسودَ واسع العينين النكيتين. إنّه رعد، المهر اليتيم الذي عرفه بِرناردو في طقس الابتداء، قبل سبع سنوات، والذي هذّبته برقُ الليل وعلّمته الطاعة بالصفير. كان حيواناً نبيل الصورة، ورفيقاً رائعاً. داعب دييغو أنفه ومرّغ رأسه بعرفه الطويل وهو يُردِّد اسمَهُ.

- علينا أن نبقي عليك مخبّأ، يا رعد. لن يمتطيك غير زورو - قال له، فردَّ الجواد بصهلةٍ وهزّةٍ من ذيله.

انقضت بقيّةُ المساء في شواء الراكون وبعض العصافير، التي تمكنوا من صيدها وفي الاطلاع على المستجدات. في هذه الأثناء

سمعت تويبورنيا من لسان ولدها مأساة ألِخاندرو دِ لابِغا. اعترفت له أنّها تشتاق إليه، فقد كان الرجل الوحيد الذي أحبَّته، لكنّها لم تستطع أن تستمر بزواجها معه. كانت تُفضِّل حياة قبيلتها البدوية على رفاهية مزرعته، حيث تشعر بنفسها سجينةً. لقد أمضت طفولتها وشبابها في الهواء الطلق، ولم يكن باستطاعتها أن تتحمَّل ضغط الجدران والسقف فوق رأسها وقسوة العادات ومضايقة الملابس الإسبانية وثقل المسيحيّة. وألِخاندرو صار مع تقدّمه في العمر أكثر صرامة مع الآخرين. بعد كلّ حساب لم يكن بينهما أشياء كثيرة مشتركة وحين غادرهم الابنُ إلى إسبانيا بردت عاطفة الشباب، لم يبقَ منها شيء. ومع ذلك تأثّرت حين سمعت بمصير زوجها وعرضت مساعدتها لإنقاذه من السجن وإخفائه في أخفىٍ خفايا الطبيعة. فكاليفورنيا شاسعة جدّاً وتويبورنيا تعرف كلّ الطرق تقريباً. أكّدت له أنّ شكوك الأب مِندوثا صحيحة.

ـ منذ أشهر هناك ماعونة كبيرة لهم راسية في البحر، بجانب رمال اللؤلؤ، وينقلون السجناءَ إليها بالزوارق الصغيرة ـ قالت تويبورنيا.

وضّحت له أنّهم أخذوا عدداً من شباب القبيلة، وأنّهم يُجبرونهم على الغوص منذ الفجر وحتى مغيب الشمس. ينزلونهم إلى الأعماق مربوطين بحبال وحجرٍ ثقيل وسلّة ليضعوا فيها المحار. وحين كانوا يشدّون الحبل يرفعونهم إلى الزورق. محصول اليوم كان يودَع في الماعونة، حيث يقوم سجناء آخرون بفتح المحار بحثاً عن اللؤلؤ، العمل الذي يخرّب أيديهم. كانت تويبورنيا تعتقد أنّ ألِخاندرو بينهم، لأنّه كان عجوزاً لا يسمح له عمره بالغوص. وأضافت أنّ السجناء ينامون مغلولين على الشاطئ فوق الرمل ويجوعون، لأنّه ما من أحد يستطيع أن يعيش على المحار وحدَه.

ـ لا أرى كيف يمكنك إنقاذ والدك من هذا الجحيم ـ قالت.

سيكون ذلك مستحيلاً ما بقي في السفينة، لكنّ دييغو كان يعرف من خلال الأب مِندوثا أنّ قساً سيزور السجنَ. ومونكادا وألكاثار،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

اللذان كان عليهما أن يُبقيا مسألةَ اللؤلؤ سرّية، أوقفا العملية لعدّة أيّام، حتى يتواجد السجناء في سجن الشيطان حين يصل القسّ. تلك ستكون فرصته الوحيدة، هكذا وضّح. أدرك أنّ من المحال عليه أن يُخفي شخصيّة زورو عن أمّه وجدّته، فهو يحتاجهما في تلك الحالة. وحين كلّمهما عن زورو وخططه، انتبه هو نفسه إلى أنّ وقع كلماته كان له وقع جنون خالِص، ولذلك فاجأه أنّ المرأتين لم تتبدّلا، كما لو أنّ وضْعَ قناع ومهاجمة سجن الشيطان يبدو أمراً عادياً. كلاهما وعدت بالحفاظ على السرّ. اتفقوا على أن يحضر بِرناردو ومعه ثلاثة رجال، أكثر رجال القبيلة رياضة وشجاعة ومعهم عدّة أحصنة في *لا كروث دِ لاس كالابِراس*، على بعد فراسخ قليلة من سجن الشيطان، وهو مفرق طرق شنقوا فيه لصّينْ. وكانت جمجمتاهما المبيضّتان بفعل المطر والشمس ما تزالان معروضتين على صليب خشبيّ. لن يُعلموا الهنودَ بتلك التفاصيل، لأنّه كلّما قَلَّتْ معرفتهم كلّما كان أفضل لهم في حال أُلقي القبض عليهم.

شرح دييغو الخطوط العريضة لخطّته لإنقاذ أبيه وبقيّة السجناء ما أمكن ذلك. غالبيّتهم كانوا من السكان الأصليين، ويعرفون الأرض جيّداً، وإذا ما كانت لديهم من مزيّة، فهي أنّهم يجرون ليختفوا في الطبيعة. حكت له البومة البيضاء أنّ كثيراً من الهنود عملوا في بناء سجن الشيطان، من بينهم أخوها نفسه، الذي كان يُسميه البيضُ أرسِنيو، لكنّ اسمه هو العيون التي ترى في الظلمة. ولد أعمى وكان الهنود يعتبرون أنّ من يولد دون أن يرى نورَ الشمسِ يستطيع أن يرى في الظلمةِ، مثل الخفّاش، وكان أرسِنيو مثلاً جيّداً على ذلك. كان ماهر اليدين، يصنع أدواتٍ ويستطيع أن يصلح أيّة آلة. وهو يعرف السجنَ كما لا يعرفه أحد غيره، ويتحرّك في داخله دون تعثّر، لأنّه عالمه الوحيد منذ أربعين عاماً. لقد عمل هناك قبل وصول كارلوس ألكاثار بكثير ويحفظ عدد السجناء الذين مرّوا على سجن الشيطان في ذاكرته العجيبة. سلّمت الجدّة دييغو بعض ريش البوم.

ـ ربّما استطاع أخي أن يُساعِدك. فإذا ما رأيته قل له إنّك حفيدي وأعطه الريشات، هكذا سيعرف أنك لا تكذب ـ قالت له.

في اليوم التالي باشر دييغو بالعودة باكراً جدّاً إلى البعثة بعد أن اتفق مع بِرناردو على المكان واللحظة التي سيلتقيان فيها من جديد. بقي بِرناردو في القبيلة كي يُعدّ ما يخصّه من التجهيز مع بعض المواد التي أخرجوها معهم من البعثة من وراء ظهر الأب مِندوثا. وكان دييغو قد برّر هذا العمل قائلاً: «هذه هي إحدى الحالات النادرة جدّاً التي تُبرِّرُ فيها الغايةُ الوسيلة»، بينما راح ينهبُ ديماس المبشِّر بحثاً عن حبلٍ طويل، وملحِ البارود ونترات الزنك والفتائل.

وقد سأل الشابّ أمّه قبل أن يذهب لماذا اختارت له اسمَ دييغو؟

ـ هكذا كان اسم أبي، جدّك الإسباني: دييغو سالاثار. كان رجلاً شجاعاً وطيّباً يفهمُ روح الهنود. هرب من السفينة لأنّه أراد أن يكون حرّاً. لم يقبل قط الطاعة العمياء التي كانوا يطلبونها منه على متنها. كان يحترم أمّي وتكيّف مع عادات قبيلتنا. علّمني أشياء كثيرة، من بينها القشتالية. لماذا تسألني؟ ـ ردّت تويبورنيا.

ـ دائماً كان عندي هذا الفضول. هل كنتِ تعلمين أنّ دييغو يعني القائم مقام؟

ـ لا. ما معنى هذا؟

ـ أحد يقوم مقام آخر ـ وضّح دييغو.

ودّع دييغو أصدقاءه في البعثة ليذهب إلى مونترّي، كما أعلن. سيُصرّ على الحاكم أن يَعْدُل في قضيّة والده. لم يبغِ أن يذهب مرافَقاً من أحد، قال إنّه سيقوم بالرحلة دون جهد، متوقّفاً في كلّ البعثات المنتشرة على طول الطريق الملكي. رآه الأب مِندوثا يبتعد ممتطياً جواداً وجارّاً آخر يحمل أكياس الأمتعة. كان واثقاً من أنّها رحلة

غير مجدية، وإضاعة للوقت يمكن أن تُكلّف السيّد ألخاندرو حياتَهُ، لأنّ كلّ يوم يقضيه العجوز في السجن يمكن أن يكون الأخير. تبريراته لم تؤثّر في دييغو.

وما إن ترك دييغو البعثة خلفه حتى خرج عن الطريق ودار نصف دورة واتجه إلى الخلاء المفتوح باتجاه الجنوب. كان واثقاً من أنّ بِرناردو قد أعد ما يخصّه وينتظره في *لا كروث دِ لاس كالابِراس*. بعد ساعات، حين أوشك على الوصول إلى المكان المُتفق عليه بدّل ملابسه. ارتدى زيَّ الراهب المرقّع، الذي اختلسه من الأب مِندوثا، ألصق لحيةً مرتجلةً من خصلات من شعرِ البومة البيضاء وأكمل التمويه بنظارة نوريا. لا بدّ أنّ القهرمانة كانت تبحث عنها في السماء والأرض. وصل إلى المفرق حيث رأى رأسي اللصين يُسلّمان مسمَّرَين في أعلى الصليب ولم يُضطر للانتظار طويلاً، فسرعان ما انبثق من العدمِ بِرناردو وثلاثةُ شبّانٍ هنودٍ لا يرتدون غير ما يغطي عوراتهم، مسلَّحين بالأقواس والسهام وقد دهنوا أجسادهم للحرب. لم يكشف لهم بِرناردو عن هويّة المسافر، كما لم يقدّم لهم توضيحات حين سلّم الأكياس والقنابل والحبلَ إلى رجل الدين المزعوم. تبادل الأخوان غمزةً: كلّ شيء جاهِز. لاحظ دييغو أنّ رعداً كان بين الجياد الستّة التي يقودها الهنود ولم يستطع أن يقاوم إغراء الاقتراب منه ليُداعب رقبته، قبل أن يودّعهم.

سلك دييغو الطريقَ إلى السجن سيراً على قدميه، بدا له أنّ مظهره سيكون غير عدواني، إذ يبدو كظل محزن في انعكاس الشمس الأبيض. كان أحد الجياد يحمل معداته، والآخر الأدوات التي أعدّها بِرناردو، بما في ذلك صليب خشبي كبير بارتفاع خمسة أشبار. وعندما أطلّ على هضبة صغيرة استطاع أن يرى البحر من بعيد ويميّز البقعة السوداء لبناء سجن الشيطان الدّاكن، المنتصب فوق الصخور. كان عطشاناً وثوبه مبلّلاً بالعرق، لكنّه سرّع خطوه لأنّه بات متلهّفاً لرؤية والده والبدء بالمغامرة. كان قد سار قرابة

العشرين دقيقةً، حين أحسّ بوقع حوافر ورأى غبار عربة. لم يستطع أن يكتم صيحة غضب، فهذا ما سيعقّد خططه، لأنّه ما من أحد يسير على هذه الطرق ما لم يكن يقصد الحصنَ. حنى رأسه، سوّى قلنسوته وتأكّد من أنّ اللحية في مكانها، فالعرق يمكن أن يفصلها، على الرغم من أنّه استخدم صمغاً كثيفاً، مصنوعاً من أقوى أنواع الراتنج. توقّفت العربة بجانبه وأطلّت من نافذتها لدهشته الهائلة شابةٌ حسنة المظهر جدّاً.

ـ لا بدَّ أنك الكاهن القادم إلى السجن، أليس كذلك؟ كنّا بانتظارك، يا أبانا.

كانت ابتسامة الفتاة ساحرة فنطّ قلب دييغو النزوي. كان قد بدأ يستعيد نفسه من الغمّ الذي تسبّبت له به خوليانا، وأصبح مؤهّلاً لأن يُعجب بنساء أخريات، خاصّة فتاة مثل تلك المليحة. كان عليه أن يبذل جهداً كي يتذكّر دورَه الجديد.

ـ بالفعل، يا بُنيّتي، أنا الأب أغيلار ـ ردّ بأكثر الأصوات ارتعاشاً.

ـ اصعد إلى عربتي، هكذا تستطيع أن ترتاح قليلاً. أنا أيضاً ذاهبة إلى سجن الشيطان لأرى ابن خالي ـ عرضت.

ـ جازاكِ اللهُ خيراً، يا بُنيّتي.

هكذا إذن هذا الجمال هو لوليتا بُوليدو! الطفلة النحيلة ذاتها التي كانت تُرسِل إليه بطاقات حبّ حين كان في الخامسة عشرة من عمره. يا لها من ضربة حظّ! حقيقة كانت كذلك، لأنّه حين وصلت العربة إلى السجن بجوادي قسٍّ مُزَيّف مربوطين في الخلف، لم يُضطرّ دييغو لتقديم توضيحات. إذ ما إن أعلن الحوذي عن الشابّة والأب أغيلار حتى فتح لهما الحرّاسُ الأبوابَ واستقبلوهما بلطف. كانت لوليتا شخصيّة معروفة، والجنود حيّوها باسمها، بل وأكثر من ذلك كانَ هناك سجينان في المصيدة ابتسما لها. «أعطِ ماءً لهذين الرجلين المسكينين اللذين يتحمّصان في الشمس»، توسّلت هي إلى

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أحد الحرّاس، الذي طار لتلبية رغباتها. في هذه الأثناء راح دييغو يحصي الحرّاس بحذر. كان يستطيع أن يتدلّى وينزلق بحبله إلى الخارج، لكن ليس لديه فكرة عن كيفيّة إخراج أبيه، فالسجن يبدو منيعاً وهناك حرّاس أكثر من اللازم.

اقتيد الضيفان على الفور إلى مكتب كارلوس ألكاثار، القاعة التي لم يكن فيها غير طاولة وكراسٍ ورفوف سجلات السجن. في تلك السجلات المستهلكة كان يُسجل بدءاً من علف الأحصنة وحتى موت السجناء، كلّ شيء باستثناء اللؤلؤ، الذي كان يذهب من المحار إلى صناديق مونكادا وألكاثار فوراً، دون أن يترك أثراً مرئيّاً. وكان هناك في زاوية تمثالٌ جصّيّ مدهونٌ للعذراء مريم التي تسحق بقدمها الشيطان.

ـ أهلاً بك، يا أبانا ـ حيّاه كارلوس ألكاثار، بعد أن قبّل خديّ ابنة عمّته، التي كان ما يزال يعشقها كما في الطفولة ـ كنّا ننتظرك غداً.

ردّ دييغو، منحنيَ الرأس، منخفِضَ العينين، رخوَ الصوت، مرتِّلاً أوّلَ شيء خطر بباله من اللاتينية وتوّجَهُ بـ «تحيا القلوب!»، لم يكن لها علاقة، لكنّه جاء مُفحِماً. حلّق كارلوس في القمر، فهو لم يكن قط طالب لغات ميتة جيّد. كان ما يزال شابّاً، ولا يمكن أن يكون عمره أكبر من ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين سنة، لكنّه بتعابيره الكلبية بدا أكبر. كانت له شفتان قاسيتان وعينا فأر. فكّر دييغو أنّ لوليتا لا يمكن أن تكون من العائلة نفسها، فهي تستحق مصيراً أفضل من مصير ابن خالها كارلوس.

قبل القسّ المنتحل كأسَ ماء وأعلن أنّه في اليوم التالي سيقيم قدّاساً، سيأخذ الاعترافات ويناول القربان لمن يطلب أسرار الاعتراف المقدّس. كان متعباً جدّاً، أضاف، لكنّه يرغب برؤية السجناء المرضى والمعاقبين، بمنْ فيهم السجينان اللذان كانا في المصيدة هذا المساء. انضمّت لوليتا إلى البرنامج، فبين أشياء

أخرى أحضرت معها صندوق أدوية وضعته تحت تصرّف الأب أغيلار.

ـ قلب ابنة عمتي رقيق جدّاً، يا أبانا. قلتُ لها إنَّ سجن الشيطان ليس المكان الذي يُنصح به للآنسات، لكنّها لا تأخذ برأيي. كما أنّها لا تريد أن تفهم أنّ غالبيّة هؤلاء الرجال بهائم بلا أخلاق ولا مشاعر، وقادرون على أن يعضّوا اليدَ التي تُحسن إليهم.

ـ ما من أحدٍ منهم عضّني حتى الآن، يا كارلوس ـ ردَّت ابنة العمّة.

ـ سنتناول العشاء خلال برهة قصيرة، يا أبانا. لا تتوقّع وليمةً، فنحن نعيش هنا بتواضع ـ قال ألكاثار.

ـ لا تهتمّ، يا بُنيّ، فأنا آكل قليلاً جدّاً وأنا صائمٌ هذا الأسبوع. يكفيني خبز وماء. أفضّل عصرونية في غرفتي، لأنّ عليّ أن أقيم صلواتي بعد رؤية السجناء.

ـ أرسِنيو! ـ نادى ألكاثار.

وانبثق هنديّ من العتمة. كان قد بقي طوال الوقت في زاوية، وهو من الصمت وعدم الحركة بحيث أنّ دييغو لم ينتبه إلى وجوده. عرفه من وصف البومة البيضاء. فقد كانت تغشى عينيه طبقة بيضاء، لكنّه يتحرّك بدقّة.

ـ خذ أبانا إلى غرفته، كي يتبرّد. ابقَ رهنَ أوامره، هل سمعتني؟ ـ أمر ألكاثار.

ـ حاضر، يا سيّدي.

ـ تستطيع أن تأخذه ليرى المرضى.

ـ وسِباستيان أيضاً، يا سيّدي؟

ـ لا، هذا الشقيّ، لا.

ـ لماذا؟ ـ تدخّل دييغو.

ـ هذا ليس مريضاً. اضطررنا لأنّ نجلده قليلاً، لا شيء خطيراً، لا تهتمّ، يا أبانا.

راحت لوليتا تبكي: كان ابن خالها قد وعدها أنّه لن يكون هناك تعذيب من هذا النوع. تركهما دييغو يتناقشان ولحق بأرسِنيو إلى الغرفة التي عيّنها له، حيث كانت تنتظره معداته دون أن تُمس، بما فيها الصليب الكبير.

ـ أنت لست رجل كنيسة ـ قال أرسِنيو حين أصبحا وراء باب غرفة الضيف الموصد.

نطّ دييغو رعباً؛ إذا كان باستطاعة أعمى أن يتنبّأ بأنّه مقنّع فلا أمل له في خداع المبصرين.

ـ ليست لك رائحة قسّ ـ أضاف أرسِنيو.

ـ لا؟ ما رائحتي إذاً؟ ـ سأل دييغو، مستغرباً، لأنّه كان يرتدي ملابس الأب مِندوثا.

ـ رائحة شعر هنديّة وصمغ للصقِ الخشب ـ ردّ أرسِنيو.

لمس الشابّ لحيته المستعارة ولم يتمالك نفسه عن إطلاق قهقهة. قرّر استغلال المناسبة، لأنّه من الممكن ألا يكون هناك أخرى، واعترف لأرسِنيو أنّه جاء بمهمّة خاصّة ويحتاج إلى مساعدته. وضع في يده ريشات جنّته. تلمّسها الأعمى بيديه المبصرتين ولمسه على وجههِ متأثّراً عندما عرف أخته. وضّح له دييغو أنّه حفيد البومة البيضاء وكفى هذا كي ينفتح أرسِنيو، فقال له، إنّه لم يكن عنده أخبار عنها منذ سنوات طويلة. وأكّد له أن سجن الشيطان كان حصناً قبل أن يُصبح سجناً، وأنّه ساعد في بنائه، بقي بعدها ليخدم الجنود والآن السجّانين. الحياة كانت دائماً قاسية بين هذه الجدران، لكن منذ أن أصبح كارلوس ألكاثار مسؤولاً صار جحيماً، فجشع وقسوة هذا الرجل لا وصف لهما. كان ألكاثار

يفرض الأعمال الشاقّة والعقوبات الشديدة الوحشية على السجناء، كان يلتهم الأموال المخصّصة للطعام ويُطعِمُهم من بقايا حصص الجنود. الآن هناك مُحتَضَر وآخرون مصابون بالحمّى نتيجة احتكاكهم بقناديل البحر المنفجرة، وهم ينزفون من أنوفهم وآذانهم.

ـ وألِخاندرو دِ لابِغا؟ ـ سألهُ دييغو وروحه عالقة بخيط.

ـ لن يدوم طويلاً، لقد فقد رغبته بالحياة، وهو لا يكاد يتحرّك. بقيّة السجناء يقومون بعمله، كيلا يعاقبوه ويطعمونه واضعين الطعام في فمه ـ قال أرسِنيو.

ـ أرجوك يا عيوناً ترى في الظلمة، خذني إليه.

في الخارج لم تكن الشمسُ قد غابت بعد. لكنّ السجنَ في الداخل كان معتماً، فالجدران السميكة والنوافذ الضيّقة لا تكاد تسمح بدخول النور. أرسِنيو، الذي لم يكن يحتاج إلى قنديل كي يعرف أين هو، أخذ دييغو من كمّه وقاده دون تردّدٍ عبر الممرات في الظلمة والأدراج الضيّقة للبناء حتى زنزانات القبو، التي أُضيفت إلى الحصن حين قرّروا استخدامه سجناً. كانت هذه الزنزانات موجودة تحت مستوى الماء وحين كان المدُّ يرتفع يتسلّل رطوبةً، محدثاً طبقةً ضاربة للخضرة على الحجارة ورائحة مثيرة للغثيان. فتح الحارس المناوِبُ، وكان مولّداً منقوشاً بالجدري، وله شارب فقمة، بابَ الحديد، المؤدّي إلى ممرٍّ، وسَلَّمَ أرسِنيو رزمةَ مفاتيح. فاجأ الصمتُ دييغو. افترض أنّ هناك عدّة سجناء، لكنّ هؤلاء كانوا ظاهريّاً منهكين وضعفاء بحيث أنّه لا تصدرُ عنهم همسة. اتجه أرسِنيو إلى واحدة من الزنزانات، تحسّس رزمة المفاتيح، وأخذ المفتاحَ المناسبَ وفتح القضبان دون تلكّؤ. احتاج دييغو عدّةَ ثوانٍ كي يتأقلمَ بصرُه مع العتمة ويُميّزَ بعض الأطياف، المستلقية بملاصقة الجدار وكتلة على الأرض. أشعل أرسِنيو شمعةً وجلس دييغو على ركبتيه بجانب أبيه، مُتأثِّراً إلى حدٍّ أنّه لم يستطع أن ينطق

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بكلمة. رفع بحذرٍ رأسَ ألخاندرو دِ لابِغا ووضعه في حضنه، مبعداً عن جبينه خصلات الشعر المرصوصة. استطاعَ على ضوء اللهب المرتعش أن يرى بشكلٍ أفضل ولكنه لم يعرفه. لم يبق من النبيل، بطلِ معارك ماضية وعمدة لوس أنجلوس والمزارع المزدهرة، الأنيق والشموخ، شيء. كان متسخاً، لم يبق منه غير العظم والجلد المشقّق والترابيّ، يرتعش من الحمّى، وكانت عيناه ملتصقتين بالقذى، وخيط من لعاب يجري على ذقنه.

ـ يا سيّد ألخاندرو هل تستطيع أن تسمعني؟ هذا هو الأب أغيلار... ـ قال أرسِنيو.

ـ جئتُ لنجدتك، يا سيّد، سوف نخرجك من هنا ـ تمتم دييغو.

شعر الرجال الثلاثة الموجودون معه في الزنزانة ببصيص اهتمام، لكنّهم سرعان ما عادوا واستلقوا باتجاه الجدار. كانوا أبعد ما يكونون عن الأمل.

ـ أعطني آخر الأسرار المقدّسة، يا أبانا. لقد تأخّرَ الوقتُ بالنسبة إليَّ ـ همس المريضُ واهِنَ الصوت.

ـ لم يتأخَّر. هيّا، يا سيّد، اجلس... ـ ردَّ دييغو.

تمكّن من تجليسه وإعطائه ماء ليشرب. ثمّ نظَّف عينيه بطرف ثوبه المبلّل.

ـ اعمل جهداً لتنهض على قدميك يا سيّد، لأنّك كي تخرج عليك أن تمشي ـ ألحَّ دييغو.

ـ اتركني، يا أبانا، لن أخرج من هنا حيّاً.

ـ بل ستخرج. أؤكّد لك أنك سترى ابنك من جديد ولا أعني في السماء بل في هذا العالم...

ـ قلت ابني؟

ـ أنا هو، دييغو، ألا تعرفني حضرتك؟ ـ همس الراهب محاولاً ألا يسمعه البقيّة.

راقبه ألخِاندرو دِ لابِغا بضع ثوانٍ محاولاً أن يُثبِّت بعينيه الغائمتين بصره عليه، لكنّه لم يجد الصورة المعروفة في ذلك الراهب المبرنس والمقلنس والمُشعِر. وضّح له الشابُ بالهمس دائماً، أنّه يرتدي الزي الكهنوتي واللحية المستعارةَ لأنّه يجب ألا يعرف أحد أنّه في سجن الشيطان.

ـ دييغو... دييغو... ها قد سمع الله رجائي! لقد صلّيتُ كثيراً كي أعود وأراك قبل أن أموت، يا بُنيّ!

ـ لقد كنتَ حضرتك، دائماً رجلاً شجاعاً وباسلاً. لا تُخيّبني، أرجوك. عليك أن تعيش. عليّ أن أذهب الآن، لكن حضّر نفسك، لأنّه خلال لحظة سيأتي صديق لي وينقذك.

ـ قل لصديقك إنّه لستُ من عليه أن يحرّره، يا دييغو، بل رفاقي. أنا مدين لهم بالكثير، لقد نزعوا الخبز من أفواههم كي يطعموني.

عاد دييغو ونظر إلى السجناء الآخرين، ثلاثة هنود متسخون وهزيلون مثل والده، يعلوهما تعبير الاختناق ذاته، لكنّهم شبّان ومازالوا أصحّاء. يبدو أنّ هؤلاء الرجال تمكّنوا، خلال أسابيع قليلة، من تغيير موقف التعالي الذي استندَ إليه النبيلُ الإسبانيُّ طوال حياته المديدة. فكّر في تقلّبات القدر. قال له سانتياغو دِ ليون ذات مرّة حين كان يراقب النجوم في عرض البحر: أنّ المرء إذا عاش كفاية يتمكّن من مراجعة قناعاته ويُصحِّح بعضها.

ـ سيخرجون معك، أعدك ـ أكّد له دييغو وهو يودّعه.

ترك أرسِنيو الراهب المفترض في غرفته وجاءه فيما بعد بعصرونية بسيطة من خبز قديم وحساء رخو وكأس نبيذ عاديّ. انتبه دييغو إلى أن به جوع ثعلبَ وأسف لأنّه أعلن لكارلوس ألكاثار أنّه صائم. لم يكن هناك ما يستدعي أن يكون قد مضى بعيداً في ادعائه. وفكّر أنّ نوريا تعدّ دون شكٍّ يخنة ذيل الثور في بعثة سان غابرييل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ـ جئتُ فقط لأستكشف الأرض، يا أرسِنيو. هناك أشخاص آخرون سيحاولون تحرير السجناء ويأخذون ألِخاندرو دِ لابِغا إلى مكان آمن. إنّه زورو، الفارس الهمام، الذي يرتدي السواد ويتقنّع، الذي يظهر دائماً حيث يجب إحلال العدالة ـ وضّح للأعمى.

ظنَّه أرسِنيو يسخر منه. فهو لم يسمع قط بهذه الشخصيّة، إنه يعيش منذ خمسين عاماً الظلمَ في كلِّ مكان دون أن يذكرَ أحد المُقنَّعَ قط. أكّد له دييغو أنّ الأمور ستتغيَّر في كاليفورنيا. وسيرون من هو زورو! سيلقى الضعفاءُ حمايتَهُ وسيذوقُ الأشرارُ حدَّ سيفه وضرباتِ سوطه. راح أرسِنيو يضحك مقتنعاً وقتها أنّ الرجل كان مجنوناً.

ـ وهل تظنّ أن البومة البيضاء كانت سترسلني إليك لو أن الأمر مزحة؟ ـ صاح دييغو، منزعجاً هذه المرّة.

يبدو أنّ هذه الحجّة أحدثت صدمة عند الهنديّ، لأنّه سأل كيف يُفكِّر هذا زورو أن يُحرّر السجناء، معتبراً أنّه ما من أحد هرب قط من سجن الشيطان. لم يكن الأمر بالخروجِ مشياً وبهدوء من الباب الرئيسي. وضَّح له دييغو أنّه مهما كان المُقنَّع رائعاً فهو لا يستطيع وحده أن يفعل شيئاً، إنّه بحاجة للمساعدة. بقي الآخر متفكّراً برهة طويلة وأعلمه بعدها أنّه يوجد مخرج آخر، لكنّه لا يعرف ما إذا كان في وضع جيّد. إذ أنهم حين بنوا الحصن حفروا نفقاً ليستخدموه كطريق للهرب في حال الحصار. فقد كانت هجماتُ القراصنة في ذلك الوقت كثيرة وكانوا يتكلّمون عن أنّ الروس يفكّرون بالسيطرة على كاليفورنيا. النفق الذي لم يُستخدم قط ولا أحد يتذكّره كان ينتهي في غابة كثيفة، على مسافة قصيرة باتجاه الغرب، تماماً في مكان مقدّس قديم للهنود.

ـ مبارك الربّ! هذا بالضبط ما أحتاجه، يعني ما يحتاجه زورو. أين مدخل النفق؟

ـ إذا ما جاء هذا زورو سأريه له ـ ردّ أرسِنيو بنبرة ساخرة.

وما إن أصبح دييغو وحيداً حتى راح يفتح معداته، التي كانت تحتوي على بدلته السوداء والسوط والمسدس. في أكياس بِرناردو وجد الحبل ومرساة معدنية وعدّة مواعين صلصالية. كانت تلك القنابل الدخانية معدّة من النترات ومسحوق الزنك بحسب التعليمات المنقولة مع أشياء أخرى غريبة من كتب القبطان سانتياغو دِ ليون. وكان قد صنع واحدة من تلك القنابل ليخيف بِرناردو، ولم يُفكّر قط أنّه سيستخدمها لإنقاذ والده. نزع اللحية بصعوبة كبيرة، عاضّاً على شفتيه كيلا يصرخ من ألم الشدّ. التهب وجهُه: كما لو أنّه أُحرِق. وقرَّر أنّ الأمر لا يستحق وضع الشارب، يكفي القناع، لكنّه عاجلاً أو آجلاً عليه أن يترك شاربه ينمو. اغتسل بالماء الذي تركه له أرسِنيو في جفنةٍ، وارتدى ثياب زورو. راح يفكّ الصليب الكبير وأخرج منه سيفه. لبس القفّازين الجلديين وخطا خطواتٍ مجرّباً مرونةَ السيف وقوّةَ عضلاته. ابتسم راضياً.

أطلّ من النافذة، رأى أنّ الخارج معتم وافترض أنّ كارلوس ولوليتا لا بدّ تناولا عشاءهما وربّما صارا في غرفتيهما. كان السجن هادئاً وصامتاً. لقد حانت لحظة العمل. وضع السيف والسوط على خصره وأغمد سيفه واستعدّ للخروج. «باسم الله!»، تمتم مصلّباً أصابعه كي ينضمّ العون الإلهي إلى الحظّ الحسن. كان قد حفظ مخطّط الحصن عن ظهر قلب وأحصى عددَ درجات السلالم، كي يتمكّن من التنقّل دون ضوء. لقد سمِح له لون ثيابه الداكن أن يختفي في الظلمة وكان يثق بأنّه لا توجد مراقبة زائدة. وصل متسللاً إلى إحدى الشرفات دون أن يُحدِث ضجّة، وبحث عن مكان يُخبِّئ فيه القنابلَ التي لم يكن يستطيع أن يُخاطر بسقوطها منه. في رحلته الأخيرة وضع الحبلَ الملفوف والهِلبَ الحديدي على كتفه. وقفزَ بعد أن اطمأنّ إلى أنّ القنابل في مكان أمين من الشرفة إلى السور المجاور الذي ينغلق على السجن المبنيّ من الحجارة والملاط، العريض بحيث يسمح للحرّاس بالسير عليه، والمُنار بمشعل كلّ خمسين خطوة. رأى من ملجئه حارساً يمرّ فعدَ الدقائق حتى مرَّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الثاني. حين تأكّد من أنّه لا يوجد غير حارسين يدوران، قدَّر أنّه يملك الوقت الدقيق كي يقوم بالخطوة التالية. جرى منحنياً باتجاه الجناح الجنوبيّ من السجن، لأنّه اتفق مع بِرناردو على أن ينتظره في ذلك المكان حيث يوجد لِسان صخري يمكن أن يُسهّل الصعود. كلاهما كان يعرف محيط السجن، لأنّهما سبراه في أكثر من مناسبة في طفولتهما. وما أن حَدّد الموقعَ حتى ترك الحارس يمرّ وأخذ مشعلاً من المشاعل ورسم بنوره عدّة أقواس؛ تلك كانت العلامة بالنسبة إلى بِرناردو. بعدها ثبّت الهِلبَ في الجدار ورمى الحبلَ إلى الخارج، متوسّلاً اللهَ أن يصل إلى الأرض ويراه أخوه. كان عليه أن يختبئ من جديد لأنّ الحارس الثاني اقترب وتوقّف لينظر إلى السماء على بعد شبرين من الهِلب المعدني. نطّ قلبه في صدره وشعر بأنّ قناعه يبتلّ بالعرق حين رأى أنّ قدمي الحارس أصبحا من القرب من الهِلبِ بحيث كادا يلامسانه. إذا ما حدث هذا سيكون عليه أن يدفعه ويرميه من فوق السور، لكنّ هذا النوع من العنف كان يثير اشمئزازه. وكان أكبر تحدٍّ له، كما وضّح ذات مرّة لِبرناردو، هو أن يكون عادلاً لكن دون أن يلطِّخ ضميره بدم الغير. فبينّ له بِرناردو الذي كان واقعيّاً دائماً أنّ هذا ليس ممكناً دائماً.

تابع الحارسُ سيرَه في اللحظة التي راح بِرناردو يلفّ فيها الحبل من الأسفل، محرّكاً الهِلبَ. بدت الجلبة بالنسبة إلى دييغو مُصِمّة، لكنّ الحارس لم يتردّد إلا ثوانٍ، سوّى بعدها سلاحه على كتفه وتابع طريقَه. أطلّ المُقَنَّعُ متنهِّداً تنهيدةَ ارتياحٍ على الجانب الآخر من الجدار. ورغم أنّه لم يتمكّن من رؤية رفاقه، فإنَّ شدّة الحبل دلّتْهُ على أنّهم بدؤوا بالصعود. وصل الأربعة إلى الأعلى، كما خطّطوا، قبل أن يسمعوا خطوات الحارس الآخر يبدأ جولته. دلّ زورو الهنودَ على مخرج النفق في الغابة، كما قال له أرسِنيو وطلب من اثنين منهما أن ينزلا إلى فناء السجن وينتظرا جياد الحامية تفادياً للحاق الحراس بهم. ومضى على الفور كلٌّ منهم إلى مهمّته.

عاد زورو إلى الشرفة حيث خبّأ القنابل، ثمّ وبعد أن تبادل مع بِرناردو عدّة عواءاتِ ثعلب أمريكي، راح يرميها واحدة بعد أخرى على الجدار. وأبقى لنفسه اثنتين، كي يستخدمهما داخل البناء. أشعل بِرناردو فتيلَ قنابله ومرّرها للهنديّ الذي كان يُرافِقه وركض الاثنان على طول السور، صامتين وسريعين، كما كانوا يفعلون حين يذهبون إلى الصيّد. اتخذوا مواقعهم في عدّة أماكن، ورموا القنابل في اللحظة التي راح يستهلك فيها اللهبُ الفتيل ويصل محتوى وعاء الفخار باتجاه أهدافهم: الإسطبل، مستودع الأسلحة، مهجع الجنود والفناء. وحين لفّ دخانُ القنابل الأبيض الكثيفُ السجنَ فجّر دييغو قنبلتيه في الطابق الثاني والأوّل من البناء الرئيسي. انتشر الهلع في دقائق قليلة. ومع صيحة «نار!» خرج الجنود مرتبكين يرتدون بنطلوناتهم وجزماتهم، بينما راح جرس الإنذار يرن. وراح الجميع يركضون لينقذوا ما يمكن إنقاذه، بعضهم يمرّر دلاء الماء إلى بعضهم الآخر ليفرغوها على غير هدى، مُخْتَنقين، وآخرون يفتحون الإسطبلات يُجبرون الحيوانات على الخروج. امتلأ المكانُ بالخيول المحمومة التي ساهمت في دَبّ الرعب العام. استغلّ هنديّا توبيورنيا، اللذان هبطا عن الجدار واختبأا في الفناء، الوضعَ كي يفتحا باب الحصن الكبير ويُثيرا الجياد، التي خرجت إلى الحقل المفتوح. كانت حيوانات أليفة ولم تذهب بعيداً فتجمّعت على مسافة قصيرة، حيث استطاع الهنود الوصول إليها. ركب زوج منهم وساقا البقيّةَ إلى مكان الاجتماع الذي حدّده زورو على مقربة من مخرج النفق.

استيقظ كارلوس ألكاثار على صوت النواقيس وخرج ليتحقّق من سبب كلّ تلك الحركة. حاول أن يفرض الهدوء بين رجاله موضّحاً أنّ الجدران الحجرية غير قابلة للاشتعال، لكنّ أحداً لم يوله انتباهاً، فالهنود أطلقوا سهاماً مشتعلة على تبن الإسطبلات وظهرت النيران وسط الدخان. كان الدخان قد أصبح غير محتمل داخل البناء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فهرع ألكاثار يبحث عن ابنة عمّته المحبوبة، لكنّه اصطدم بها وسط الممرّ قبل أن يصل إلى غرفتها.

ـ السجناء! يجب إنقاذ السجناء! ـ صاحت لوليتا، يائسةً.

لكنّ أولوياته كانت أخرى. لم يكن باستطاعته أن يسمح للنيران أن تدمّر لآلئه الرائعة.

كان السجناء قد أخرجوا خلال تلك الأشهر القليلةِ آلاف المحارات وصار عند مونكادا وألكاثار عدّة قبضات من اللؤلؤ. وعند التوزيع كان يصيب مونكادا الثلثان، فهو الذي كان يموّل العملية ويصيب ألكاثار الثلث، لأنّه يديرها. لم يكن عندهما سجّل لذلك، لأنّها عملية غير شرعية، لكنّهما صمّما نظامَ محاسبة، يُدخلانِ من خلاله اللآلئَ من ثقبٍ في صندوق مختوم، مثبّتٍ في الأرضِ بعارضتين حديديّتين، ويُفْتَح بمفتاحين. وكان كلّ شريك يحمل مفتاحاً، وفي نهاية الموسم يجتمعان كي يفتحا الصندوقَ ويتقاسما محتواه. وكان مونكادا قد عينّ رجلاً يثق به ليراقب المحصول في السفينة، وكان يشترط أن يكون أرسِنيو من يضعها واحدة فواحدة في الصندوق. فالأعمى بذاكرةِ لمسِهِ الفذّة الوحيدَ القادر على تذكّر الرقم الدقيق للآلئ، بل وعلى وصف حجمٍ وشكلٍ كلّ واحدة إذا دعت الضرورة. كان كارلوس ألكاثار يمقته، لأنّه يحفظ هذه الأرقام في ذهنه ويُبرهن على أنّه لا يقبل الفساد. كان يحذر أن يسيء معاملته، لأنّ مونكادا يحميه، لكنّه لا يفوّتُ فرصة كي يهينه. بالمقابل رشا الرجلَ الذي يراقب السفينة، وبمبلغ معقول كان هذا يسمح لألكاثار أن يستخرج اللآلئ الأكثر كروية والأكبر والأكثر شرقية، فلا تمرّ على يدي أرسِنيو ولا تذهب إلى الصندوق. ولم يكن مونكادا ليعرف أبداً بوجودها.

وبينما كان هنود قبيلة تويبّورنيا الثلاثة ينتهون من زرع

الفوضى ويسرقون الخيول، دخل بِرناردو إلى البناء، حيث كان ينتظره زورو، فقاده إلى الزنزانات. كانا قد قطعا عدّة أمتار من الممر، مغطّيَيْنِ وجهيهما بمنديلين مُبَلَّلَيْنِ، حين أخذت يدٌ ذراعَ زورو.

- أبانا أغيلار، اتبعني، من هنا أقصر...

كان هذا أرسِنيو، الذي لم يكن يستطيع أن يقدّر تحوّل المُبشِّر إلى زورو فائق الوصف، لكنّه عرف الصوت. لم يكن ضرورياً إخراجه من خطئه. سارع الأخوان باللحاق به، لكنّ شخصية كارلوس ألكاثار ظهرت فجأة في الممر، قاطعاً عليهم الطريق. عندما رأى هذين المجهولين اللذين كان لباس واحد منهما غريباً، مدَّ رئيسُ السجنِ يده إلى مسدّسه وأطلق النار. دوّت صرخةُ ألم بين الجدران واستقرّت الرصاصة في رافدة من روافد السقف الخشبية: لقد انتزع منه زورو المسدّس بضربة سوط على معصمه في اللحظة التي كان يضغط فيها على الزناد. توجّه بِرناردو وأرسِنيو إلى الزنزانات، بينما راح دييغو يلاحق ألكاثار والسيف في يده صاعداً الدرج. خطرت له فوراً فكرة كي يحلّ مشاكل الأب مِندوثا ويجعل في الوقت ذاته مونكادا يمر في لحظة سيئة. حقيقةً أنا عبقريّ، ختم جريه.

وصل ألكاثار إلى مكتبه وتمكّن من إغلاق الباب وقفله قبل أن يدركَه الآخر. لم يكن الدخان قد دخل إلى تلك الغرفة. فرَّغ زورو مسدّسَهُ في قفل الباب ودفعه، لكنّه لم ينصع له، فقد كانت هناك عارضة من الداخل. لقد أضاع طلقته الوحيدة ولا يملك الوقت لتعبئته ولكلّ لحظة قيمتُها. كان يعرف أنّ نوافذ القاعة تُطلّ على الشرفة، لأنّه سبق أن كان فيها. بدا واضحاً من النظرة البسيطة أنّه لا يستطيع أن يصلها بقفزة واحدة كما يريد، دون أن يتكسّر رأسه على بلاط الفناء. لكن ميزاباً زخرفياً منحوتاً في الحجر على هيئة حيوان كان يطلّ من الطابق العلوي. تمكّن من لفِّ رأسِ سوطه عليه وشدِّهِ كي يُثبّته، وصلّى كي يتحمّل الميزاب ثقله، تأرجح وسقط تماماً في

الشرفة. كان كارلوس ألكاثار مشغولاً في غرفته في تعبئة مسدّسه، كي يخترق قفلي الصندوق بالرصاص فلم يرَ الظلّ في النافذة. انتظر زورو حتى فرّغ ألكاثار مسدّسه مفتّتاً أحد القفلين واندفع إلى الغرفة من النافذة المفتوحة. احتمى بالدثار فجعله يتردّد لثانية وهو الوقت الكافي كي يفلت ألكاثار مسدّسه، الذي لم يعد مجدياً، ويأخذ سيفه. هذا الرجل القاسي جدّاً مع الضعفاء كان جباناً أمام منافس من مستواه، ثمّ إنّه كان قليل الممارسة في المبارزة، ففي أقلّ من ثلاث دقائق طار سيفه في الهواء ووقف مرفوع اليدين ورأس السيف في صدره.

ـ أستطيع أن أقتلك، لكنّني لا أريد أن أُلطّخ يدي بدم كلب. أنا زورو، جئت بحثاً عن لآلئك.

ـ اللآلئ هي لمونكادا!

ـ كانت له. الآن هي لي. افتح الصندوق.

ـ يحتاج إلى مفتاحين ولا أملك غير واحد.

ـ استخدم المسدّس. وحذار أن تأتي بأدنى حركة مريبة لأنّني سأخرق عنقك دون أدنى تردّد. زورو كريم، سيعفو عنك ما أطعتَ ـ هدّده المُقنَّع.

تمكّن ألكاثار وهو يرتعد من تعبئة المسدّس وكَسَرَ القفل الآخر بطلقة واحدة. رفع الغطاء الخشبيّ وظهر الكنزُ، أبيض برّاقاً إلى حدّ أنّه لم يستطع تجنّب أن يغوص بيده فيه ويجعل اللآلئ الرائعة تنسابُ من بين أصابعه. من ناحيته لم يرَ زورو قط شيئاً بمثل تلك القيمة. فاللآلئ التي حصلوا عليها في برشلونة مقابلَ أملاك توماس دِ رومِو بدت متواضعة. في ذلك الصندوق يوجد كنز. أشار إلى خصمه أن يُفرغ محتواه في جورب.

ـ ستصل النيران بين لحظة وأخرى إلى البارود وسيطير سجن الشيطان في الهواء. إنني أفي بكلمتي، حياتك لك، استغلّها ـ قال.

لم يجب الآخر. وبقي في المكتبِ بدل أن يسرع إلى الخروج،

كما كان متوقّعاً. لاحظ زورو أنّه كان يُطلق نظراتٍ مختلسة إلى الطرف الآخر من الغرفة، حيث يوجد تمثال لمريم العذراء على قاعدة حجريّة. يظهر أنّ ذلك كان يهمّه أكثر من حياته. أخذ جورب اللآلئ ونزع عارضة الباب واختفى في الممر، لكنّه لم يبتعد كثيراً. انتظر، وهو يعد الثواني، وبما أنّ ألكاثار لم يخرج، عاد إلى المكتب في الوقت المناسب ليفاجئه وهو يكسر رأسَ التمثال بعقب مسدّسه.

- يالها من طريقة غير محترمة للتعامل مع السيّدة العذراء - صاح دييغو.

التفت كارلوس ألكاثار، وقد امتقع غضباً ورماه على وجهه بالمسدس، مخطئاً هدفه بهامشٍ كبير، في الوقت الذي مدّ فيه يدَه إلى سيفه، الموجودِ على بعد خطوتين منه على الأرض. ولم يكد ينهض حتى أصبح المُقنَّع فوقه، بينما بدأ دخان الممرّ الأبيض يغزو القاعة. تبادلا ضربات السيف لدقائقَ وقد أعماهما الدخان وراحا يسعلان. راح ألكاثار يتراجع نحو طاولة عمله وفي اللحظة التي كان يفقد فيها سيفه للمرّة الثانية، أخرج مسدّساً معبّأً من الدرج. لم يملك وقتاً للتصويب، لأنّ رفسة مريعة نزعت منه سلاحه، وعلى الفور علّم زورو خدَّهُ بثلاثة خطوط مدوّخة من سيفه، راسماً حرف Z. أطلق ألكاثار إثرها صرخة وسقط على ركبتيه ورفع يديه إلى وجهه.

- ليست قاتلة، يا رجل، إنّها علامة زورو، كيلا تنساني - قال المُقنَّعُ.

كان هناك على الأرض بين قطع التمثال المكسرّة كيسٌ صغير من جلد الأيل التقطها زورو بلمح البصر، قبل أن يخرج جارياً. فقط فيما بعد وعندما تفحص ما فيه رأى أنّه كان يحتوي على مئة وثلاث لآلئ رائعة، أثمن من كلّ ما كان في الصندوق.

كان زورو قد حفظ الطريق عن ظهر قلب وسرعان ما اهتدى إلى الزنازين. كان القبو المكان الوحيد في سجن الشيطان الذي لم

يصله الدخان ولا يُسمع فيه قرع الناقوس والجري والصراخ. كان السجناء يجهلون ما جرى في الخارج إلى أن وصلت لوليتا معلنة الاستنفار. كانت الفتاة قد نزلت بقميص النوم، حافيةً تطالب الحرّاس بإنقاذ الناس. أمام حادث الحريق أخذ الحراس المشعل من الجدار وهربوا بسرعة، دون أن يخطر السجناءُ ببالهم. وجدت لوليتا نفسها تتلمّس في الظلمة بحثاً عن المفاتيح. عندما فهم الأسرى المرعوبون أن الأمر يتعلّق بحريق بدءوا يصيحون ويهزّون القضبان محاولين الخروج. وفي هذه الأثناء ظهر أرسِنيو وبِرناردو. توجّه الأوّل بهدوء إلى الخزانة الصغيرة حيث تُخبّأ فيها الشموع والمفاتيح كي يفتح الزنازين، والتي كان يستطيع معرفتها باللمس، بينما الآخر يُشعل الأنوار ويحاول تهدئة لوليتا.

بعد لحظة دخل زورو. صرخت لوليتا حين رأت ذلك المُقنّعَ في ثياب الحداد يهزّ سيفاً دامياً، لكنّ ذعرها تحوّل إلى فضول حين أغمد سيفه وانحنى ليُقبّل يدها. تدخّل بِرناردو رابتاً على كتف أخيه: ليست اللحظة لحظة مداعبة.

ـ اهدؤوا! إنّه مجرّد دخان! اتبعي أرسِنيو، فهو يعرف مَخْرَجاً آخر ـ أشار زورو إلى السجناء، الذين كانوا يتدافعون من زنازينهم.

رمى دثاره على الأرض ووضع عليه ألِخاندرو دِ لابِغا. رفع أربعة هنود الدثار من زواياه الأربع، مثل سرير وحملوا المريض. ساعد آخرون الرجل الذي جُلِدَ وتبع الجميع بمن فيهم لوليتا أرسِنيو باتجاه النفق وبِرناردو زورو في المؤخّرة لحمايتهم. كان المدخل خلف أكوام من البراميل والأمتعة غير الصالحة والخردة، ليس بهدف إخفائه، بل لأنّه لم يُستخدم قط وتكدّست فيه هذه الأشياء مع مرور الزمن. كان واضحاً أنّ أحداً لم ينتبه إلى وجوده. نظّفوا الباب ودخلوا واحداً واحداً في الحفرة. وضّح زورو للوليتا أنّه لم يكن

هناك خطر حريق. فالدخان كان للإلهاء وإنقاذ هؤلاء الرجال، الأبرياء في غالبيتهم. لم تكن كلماته تكاد تفهم، لكن لوليتا كانت تهزّ رأسها كما لو أنّها منوّمة مغناطيسيّاً. من تراه ذلك الشاب الجذّاب إلى هذا الحدّ؟ ربّما قاطع طريق ولذلك يُخفي وجهَهُ، لكنّ ذلك الاحتمال لم يكن يكبحها، بل يؤجّج حماسها. كانت مستعدّة لأن تتبعه إلى آخر العالم، لكنّه لم يطلب منها ذلك، بينما ما إن دخل الجميع النفقَ حتى طلب منها أن تُقرّب البراميل والأشياء من الباب. ثمّ أشار عليها أن تُضرِم النار بقشّ الزنازين، فهذا سيمنحهم مزيداً من الوقت للهرب. لوليتا، الفاقدة لإرادتها، وافقت بابتسامة بلهاء لكن بنظرة مضطرمة.

- شكراً، يا آنسة - قال لها.

- من أنت؟

- اسمي زورو.

- أيّ نوع من الحماقة هذا، يا سيّد؟

- ليس أيّة حماقة، أؤكّد لكِ، يا لوليتا. لا أستطيع الآن أن أوضّح لك أكثر، فالوقت يداهمنا، لكنّنا سنعود ونلتقي - ردّ هو.

- متى؟

- قريباً.

- لا تُغلقي نافِذةَ شرفتك وسأذهب في ليلة من هذه الليالي لزيارتك.

كان عليها أن تأخذَ هذا الاقتراح على أنّه شتيمة، لكنّ نبرة المجهول بدت لطيفة وأسنانه ناصعة البياض. لم تعرف لوليتا بماذا ستجيب، حين أحاط ذراعه القويُّ بخصرها، لم تفعل شيئاً كي تُبعده، على العكس، أغمضت عينيها وقدّمت له شفتيها. قبّلها زورو الذي بُوغِتَ بالتقدم الذي أحرزه في ذلك المجال، دون أيّ أثر

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

للخجل الذي كان يشعر به أمام خوليانا. وكان يستطيعُ، مُتَخَفِّياً خلف قناع زورو، أن يطلق العنان لغزله. ونظراً للظروف كانت قبلة طيّبة كفايةً. في الحقيقة كان من الممكن أن تكون قبلةً تامّة لولا أنّ الاثنين راحا يسعلان من الدخان. انفصل زورو عنها مكرهاً ودخل النفقَ لاحقاً بالبقية. احتاجت لوليتا لثلاثِ دقائق كي تستعيدَ تحكُّمَها بعقلها ونفسها وشرعت على الفور بتنفيذ تعليمات المُقَنّع الساحر، الذي فكّرت أن تتزوّج منه ذات يوم ليس بالبعيد، لقد قرّرت ذلك. كانت فتاة فطنةً.

بدأ الدخانُ، بعد نصف ساعة من انفجار القنابل، ينقشع وأطفأ الجنود حريق الإسطبلات وراحوا يُقاومون نيران الزنازين، واستعاد كارلوس ألكاثار سيطرتَه على الوضع بينما كان يوقف نزيف خدّه بخرقة؛ دون أن يتمكّن من فهم ما حدث. عثر جنوده على السهام التي أشعلت النيران، لكن أحداً لم ير المسؤولين. لم يكن يعتقد أنّ الأمر يتعلق بهجوم هنود، فهذا لم يحدث منذ خمس وعشرين سنة، ولا بدّ أنّ هذه عمليّة إلهاء قام بها زورو كي يسرق اللآلئ. ولم يعرف أنّ السجناء اختفوا دون أن يتركوا أثراً إلاّ بعد برهة طويلة.

النفق المدعّم بألواح الخشب لمنع الانهيارات كان ضيقاً، لكنّه يسمح بمرور شخص بشكلٍ مُريح. كان الهواء مُخلخلاً ومسارب التهوية قد سُدَّت مع مرور الزمن، رأى زورو أنّهم لا يستطيعون أن يستنفدوا الأوكسجين النادر المتوفّر بلهب الشموع وعليهم أن يسيروا في الظلمة. كان أرسِنيو، الذي لم يكن بحاجة إلى النور، يمضي في المقدّمة ومعه الشمعة الوحيدة المسموح بها كعلامة للبقيّة. كان الإحساسُ بأنّهم دُفنوا أحياءً وأن من الممكن أن يحدث انهيار يوصد عليهم المكانَ للأبد مرعباً. نادراً ما فقد بِرناردو هدوءه، فقد كان معتاداً على الفضاءات الكبيرة وكان يشعر هناك بأنه مثل خلد فراخ الذعرُ يسيطر عليه. لم يكن باستطاعته أن يتقدّم

بسرعة أكبر ولا أن يتراجع، كان ينقصه الهواء، فيشعر بالاختناق ويعتقد أنّه يدوس جرذاناً وأفاعٍ. كان واثقاً من أنّ النفق يضيق أحياناً وأنّه لن يخرج منه أبداً. كان يشعرُ عندما يوقفه الخوفُ بيدِ أخيه على ظهرِه وبصوته المطمئن يمنحانه الشجاعة. كان زورو الوحيدَ الذي لم يؤُثّر عليه ذلك الاحتجاز الإجباري، لأنّه كان مشغولاً جدّاً بالتفكير بلوليتا. كانت الكهوفُ والعتمةُ عناصرَ الثعلب، تماماً كما قالت له البومة البيضاء عند ابتدائه بالتعلّم.

بدا لهم طريق النفق طويلاً جدّاً، على الرغم من أنّ المخرج لم يكن بعيداً عن السجن. لو كان الوقت نهاراً لتمكّن الجنودُ من رؤيتهم، لكن الهاربين في عزّ الليلِ استطاعوا أن يخرجوا من النفق دون خطر أن يُشاهَدوا، تحميهم الأشجار. خرجوا معفّرين بالتراب، متصببين عرقاً، متلهّفين لتنفّس الهواء النقيّ. خلع الهنود عنهم أسمال السجناء، نفضوا التراب ورفعوا أذرعهم ووجوههم عراةً إلى السماء ليحتفلوا بلحظة حرّيتهم الأولى. وشعروا حين أدركوا أنّهم في مكان مقدّس، بالانتعاش، فقد كان هذا فألاً حسناً. ردّ صفير على صفير بِرناردو وظهر هنود تويبّورنيا على الفور يقودون الأحصنةَ المسروقة وأحصنتَهم، كان رعدٌ بينها. امتطى الهاربون اثنين على كلّ مطيّة وتفرّقوا باتجاه التلال. كانوا من أهل المنطقة ويستطيعون أن يجتمعوا بقبائلهم قبل أن يُنظِّم الجنود أنفسهم لإدراكهم. أخذوا يُفكّرون أن يبقوا بأبعد ما يمكن عن البيض حتى تعود الأمور إلى طبيعتها في كاليفورنيا.

نفض زورو الترابَ عن نفسه، آسفاً لأنّ بدلته التي اشتراها حديثاً من كوبا قد اتسخت. وهنّأ نفسه لأنّ الأمور جاءت أفضل مما خطّط. حمل أرسِنيو الرجلَ الذي جُلِدَ على كفل جواده، وسوّى بِرناردو وضع ألخِاندرو على حصانه وجلس خلفه كي يسنده. كان طريقُ الجبل وعراً وعليهم أن يقطعوا الجزء الأعظم منه ليلاً. وكان الهواء البارد قد ذهب بوهنِ العجوز، الذي أعادت إليه فرحته برؤية

ابنه الأملَ من جديد. أكّد له بِرناردو أنّ تويبّورنيا والبومة البيضاء سيعتنيان به حتى يصبح بمقدوره العودة إلى مزرعته.

في هذه الأثناء كان زِورو يخبّ على رعدِه باتجاه بعثة سان غابرييل.

أمضى الأب مِندوثا عدّةَ ليالٍ وهو يتقلّب في سريره دون أن يستطيع النوم. قرأ وصلّى دون أن يعثر على السكينة لروحه التي فقدها منذ أن اكتشف فقدان أشياء من الديماس وثوبه البديل. لم يكن عنده غير اثنين، يبدّلها كلّ ثلاثة أسابيع كي يغسلها، وهما من الاستعمال والتمزّق بحيث أنّه لم يستطع أن يتخيّل من هو الذي وسوست له نفسه بأخذ واحد منهما. أراد أن يُعطي اللصَّ فرصة لإعادة الثوب المسروق، لكنّه لم يعد باستطاعته أن يؤجِّل قراره بالتحرّك. كانت فكرة أن يجمع معتنقيه الجدد ويلقى عليهم عظة حول الوصيّة الثالثة والتأكّد من المسؤول يؤرِّقانه. كان يعلم أنّ ناسه معوزين جدّاً، وليست تلك هي اللحظة المناسبة لفرض العقوبات عليهم، لكنّه لا يستطيع أن يمرِّر هذا الإثم. لم يفهم لماذا وبدل أن يسرقوا طعاماً أخذوا الحبالَ ونترات الزنك وثوبه الكهنوتي؛ لم يكن للمسألة معنى. كان قد تعب من كثرة ما عارك وعمل وعاش الوحشةَ فعظامه وروحه تؤلمانه. والأزمنة قد تبدّلت إلى حدّ أنّه لم يعد يعرف العالم، فالجشع هو الذي يسود، وما عاد أحد يتذكّر تعاليم المسيح، ما عاد أحد يحترمه، ما عاد يستطيع حماية معتنقيه الجدد من تمادي البيض. كان يتساءل أحياناً عمّا إذا لم يكن الهنود أفضل حالاً في السابق، حين كانوا ملاّك كاليفورنيا ويعيشون على هواهم بعاداتهم وآلهتهم، لكنّه سرعانَ ما كان يرسم الصليب ويستغفر اللهَ على مثل ذلك الكفر. «إلى أين سيصل بنا الأمر إذا كنتُ أنا نفسي أشكُّ بالمسيحيّة!»، كان يتنهّد نادماً.

لقد تدهور الوضع كثيراً بعد وصول رافائيل مونكادا، الذي

كان يمثّل أسوأ ما في الاستعمار: جاء ليشكّل ثروةً سريعةً ويذهب بأسرع ما يمكن. فالهنود بالنسبة إليه بهائم حمولة. مرَّ المبشّر، خلال السنين التي تزيد عن عشرين عاماً في سان غابرييل، بلحظات حرجة ـ زلازل، أوبئة، قحط بل وهجوم هنود ـ لكنّه لم يفقد معنوياته قط، لأنّه كان واثقاً من أنّه يقوم بدوره المقدّس. والآن صار يشعر أنّ الله قد تخلّى عنه.

خيّمَ الليلُ فأشعلوا المشاعل في الفناء. كان الأبُ مِندوثا، بعد يوم من العمل الشاق، قد شمّر عن ساعديه وهو يتصبَّب عرقاً وراح يقطع الحطب للمطبخ. كان يرفع الفأس بصعوبة، فهي في كلِّ يوم تبدو له أثقلَ والخشب أقسى. وهنا شعر بخبب جواد. استراح وضبطَ نظره، الذي لم يعد كما كان من قبل، متسائلاً من هو القادم بتلك السرعة في تلك الساعة من المساء. وحين اقترب الفارس وجد أنّه لابدَّ لهذا الرجل الذي يرتدي الأسودَ ويُغطّي وجهَهُ بقناع أن يكون لصّاً؛ فدبّ صوت الاستنفار كي يهرع النساء والأطفال للاختباء ثمّ سارع لمواجهته والفأس في يديه والصلاة على شفتيه، إذ لم يكن هناك وقت ليذهب للبحث عن بندقيّته القديمة. لم ينتظر المجهول وقوفَ جواده كي يقفز إلى الأرض منادياً المُبشّرَ باسمه.

ـ لا تخف، يا أبانا مِندوثا، فأنا صديق!

ـ إذا فالقناع زائد. اسمك، يا بُنَي ـ ردَّ الكاهن.

ـ زورو. أعرف أنّه يبدو لك غريباً لكن الأغرب هو ما سأقوله لك، يا أبانا. لنذهب إلى الداخل من فضلك.

قاد المُبشّرُ المجهولَ إلى المصلّى وهو يُفكّرُ أنهّ سيتمتّع هناك بالعناية السماوية، وسيستطيع أن يقنعه أنّه لا يوجد هناك شيء له قيمة. بدا الشخصُ خجولاً، يحمل سيفاً، ومسدَّساً وسوطاً، كان مسلّحاً للحرب، لكنّ عليه علائم مألوفة بشكل غامض. أين سبق وسمع ذلك الصوت؟ فزورو بدا بالتأكيد أنه ليس لصّاً وسرعان ما أكّد له شكوكه حول استغلال مونكادا والكاثار للؤلؤ. شرعيّاً لم يكن

من حقّهم إلا العشرة بالمئة والباقي للخزينة الإسبانية. كانوا يستخدمون الهنود عبيداً، واثقين من أنّه ما من أحد، باستثناء الأب مِندوثا، سيتدخّل في الأمر.

ـ ليس عندي من ألجأ إليه، يا بُني. فالحاكم الجديد رجل ضعيف ويخاف من مونكادا ـ تعلّل المُبشِّر.

ـ إذن عليك أن تلجأ إلى السلطات في المكسيك وإسبانيا، ياأبانا.

ـ بأيّ دليل؟ لا أحد سيُصدّقني، فأنا مشهور بأنّني عجوز متشدِّد، مهووس بحياة الهنود الهنيئة.

ـ هذا هو الدليل ـ قال زورو واضعاً جورباً ثقيلاً بين يديه.

نظر المُبشِّرُ إلى المحتوى وأطلق صيحةَ دهشة حين رأى كومة اللؤلؤ.

ـ بالله عليك، كيف حصلت على هذا، يا بُني؟

ـ هذا ليس مهمّاً.

اقترح زورو عليهِ أن يحمل الغنيمة إلى أسقف المكسيك ويُدين ما حدث، فهي الطريقة الوحيدة لتحرير المعتنقين الجدد. لو أنَّ إسبانيا قرّرت استغلال محار اللؤلؤ لكانت تعاقدت مع الهنود الياكيسيين، كما كانت تفعل في الماضي. بعدها طلب منه أن يُبلِغ دييغو دِ لابِغا أنّ والده أصبح طليقاً وفي أمان. علّق المُبشِّر بأنّ ذلك الشاب كان مُخيّباً للأمل، ولا يبدو أنّه ابن ألِخاندرو ورِخينا، فقد كانت تنقصه الرجولة. وطلب من الزائر مجدَّداً أن يكشف له عن وجهه، وإلاّ فلن يستطيع أن يثق بكلامه، إذ يمكن أن يكون ذلك فخّاً. ردّ عليه الآخر بأنّ هويته يجب أن تبقى سرّية، لكنّه وعده أنّه لم يعد وحيداً في إصراره على الدفاع عن الفقراء، لأنّه منذ تلك اللحظة سيسهر بنفسه على العدالة. أطلق الأب مِندوثا ضحكة عصبيّة؛ فالرجل يمكن أن يكون مجنوناً فالتاً من عقاله.

ـ شيء أخير، يا أبانا... كيس جلد الأيل هذا فيه مئة وثلاث لآلئ، وهي أنعم من البقية، وتعادل ثروة. هي لك. ليس عليك أن تذكرها لأحد، أؤكّد لك أنّ الشخص الوحيد الذي يعرف بوجودها لن يجروْ على السؤالِ عنها.

ـ أتصوّر أنّها مسروقة.

ـ نعم، هي كذلك، لكن العدل يقتضي أن تكون لمن أخرجها من البحر بآخر نَفَس عنده. أنت ستعرف كيف تُحسن استخدامها.

ـ إذا كانت مُلكاً حراماً، فأنا لا أُريد أن أراها، يا بُني.

ـ ليس عليك أن تفعل، يا أبانا، لكن خبِّئها ـ ردَّ زورو بغمزة تواطؤ.

خبّأ المُبشِّرُ الكيسَ في طياتِ دثاره ورافق الزائر إلى الفناء، حيث ينتظره الجوادُ الأسودُ البهيُّ، مُحاطاً بأطفال البعثة. امتطى الرجلُ جواده وجعله يقفز صافراً له ليُفرح الصغار، ثم جرّد سيفه ليلمع على ضوء المشاعل وأنشد بعض الأشعار، التي ألّفها بنفسه خلال أشهر فراغه في نيو أورليانز، وتتعلّق بفارس شجاع يخرج في الليالي المقمرة للدفاع عن العدالة، ومعاقبة الأشرار ورسم حرف Z بسيفه. تفصيل الأغنية فتن الأطفالَ لكنّه زاد من خوف الأب مِندوثا من أن يكون هذا العنصر مجنوناً. أطلّت إيزابيل ونوريا، اللتان كانتا تقضيان معظم النهار محبوستين في غرفتهما تخيطان، على الفناء في اللحظة التي لمحتا فيها صورةَ الغندور وهو يقوم بوثباتٍ فوق جواده الأسود، قبل أن يختفي. تساءلتا من يكون ذلك الشخص اللافت للانتباه فردّ الأب مِندوثا أنّه إذا لم يكن شيطاناً، فهو ملاك أرسله الربُّ كي يدعّم إيمانه.

عاد دييغو دِ لابِغا إلى البعثة في تلك الليلة يعلوه الغبارُ ويحكي أنّه اضطرّ لقطع رحلته، لأنّه أوشك أن يموت على يد بعض قطّاع الطرق. رأى من بعيد شخصين مريبين يقتربان، فخرج عن الطريق

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الملكي كي يتحاشاهما وراح يخبّ باتجاه الغابات لكنّه ضاع. قضى الليل متقوقعاً تحت الأشجار، في منأى عن اللصوص، لكنه كان تحت رحمة الدببة والذئاب. عند الفجر استطاع أن يهتدي وقرّر العودة إلى سان غابرييل، فقد كان من التهوّر أن يتابع الطريق وحده. كان قد خبّ النهار كلّه دون أن يذوق طعاماً، وبدا ميتاً من التعب ورأسه يؤلمه. سيخرج إلى مونتِرّي خلال عدّة أيّام، لكنّه سيذهب هذه المرّة حسنَ التسلّح ومعه موكب حماية. فأبلغه الأبُ مِندوثا أنّه لم يعد هناك حاجة لكي يذهب لمقابلة الحاكم، لأنّ السيّد ألِخاندرو دِ لابِغا قد خلّصه من السجن باسلٌ مجهول. ولم يبق أمام دييغو غير أن يستعيد أملاك العائلة. وسكت على شكوكه بأن يكون ذلك الشابّ الأنيق الموسوس قادراً على فعل ذلك.

ـ من أنقذ أبي؟ ـ سأل دييغو.

ـ كان يسمّي نفسه زورو ويضع قناعاً ـ قال المُبشِّر.

ـ قناع؟ تراه قاطع طريق؟ ـ استقصى الشابّ.

ـ أنا أيضاً رأيت هذا، يا دييغو، ولم يكن فيه ما ينقصه كي يكون لصّاً. لا أقول لك كم كان وسيماً وأنيقاً! ثمّ إنّه كان يمتطي جواداً لا بدّ أنّه كلّفه غالياً ـ تدخّلت إيزابيل، متحمّسةً.

ـ أنتِ دائماً عندك فائضٌ من الخيال ـ ردّ هو.

قاطعتهم نوريا كي تعلن عن العشاء. أكل دييغو في تلك الليلة بنهم، على الرغم من كثرة الفتات البارز، وأخيراً هنّأ القهرمانة التي حسّنت الوجبات في البعثة. انهالت عليه إيزابيل بأسئلتها التي لم تعرف الرحمة، تريد أن تعرف لماذا لم تصل خيوله متعبة، وكيف هو مظهر اللصوص، والوقت الذي قضاه في الذهاب من نقطة إلى أخرى، وما السبب الذي منعه من النزول ضيفاً على بعثات أخرى، التي تقع على مسافة يوم واحد فقط من الطريق. لم يلتقط الأب مِندوثا، الغائص في أفكاره، اعتباطيةَ الأجوبة، فقد كان يأكل بيد

ويتحسس بالأخرى كيسَ اللآلئ، مُقدّراً أن ثمنها يمكن أن يعيد إلى البعثة رغدها السابق. تراه ارتكب إثماً بقبول تلك اللآلئ الملطّخة بالعذاب والجشع؟ لا. لا إثم إطلاقاً. لكنّها يمكن أن تجلب له سوء الطالع... ابتسم حين تأكّد أنّه أصبح مع مرور الزمن أكثر إيماناً بالخرافات.

وصل رافائيل مونكادا وكارلوس ألكاثار، على رأس عددٍ من الجنود، بينهم الرقيب البدين غارثيّا بعد يومين، بعد أن أرسل الأب مِندوثا رسالة حول اللآلئ إلى المكسيك، وراح يجهّز أمتعته للسفر مع دييغو. كان ألكاثار يزهو بجرح قبيح على خدّه، شوّه وجهَهُ، وجاء قلِقاً لأنّه لم يستطع أن يُقنِع شريكه بالطريقة التي تبخّرت بها اللآلئ. لم تكن الحقيقةُ تُفيده في تلك الحالة، لأنّها ستكشفُ دورَه البائس في الدفاع عن السجن والغنيمة. فضّل أن يقول له إنّ خمسين هنديّاً أشعلوا سجن الشيطان بينما عصابة من قطّاع الطرق بإمرة مقنّع يرتدي السواد، قدّم نفسه على أنّه زورو، دخلوا البناءَ. وبعد معركة قاسية، هو نفسه جُرِح فيها، تمكّن المهاجمون أن يحجّموا الجنود ويأخذوا اللآلئ. وخلال حالة الفوضى هرب السجناء. كان يعرف أنّ مونكادا لن يرتاح له بال حتى يعرف الحقيقة ويعثر على اللآلئ. السجناء الفارّون ليسوا بالمهمّين، فاليد العاملة من السكان الأصليين فائضة لتحلّ محلّهم.

الشكل الغريب لجرح ألكاثار - حرف Z كامل - ذكّره بِمُقنّعٍ، ينطبق وصفه على زورو، رسم حرفاً مشابهاً في مسكن *الشافالبير* دوشامبّ وفي ثكنة في برشلونة. في كلا الحالتين كانت الذريعة تحرير بعض السجناء، كما في سجن الشيطان. كما أنّه في الحالة الثانية تجرّأ على استخدام اسمه واسم خالته إيولاليا. أقسم أنّه سيجعله يدفع ثمن تلك الأهانة، لكنّهم لم يتمكّنوا قط من الإمساك به. ووصل إلى الاستنتاج الوحيد الممكن: دييغو دِ لابِغا كان في برشلونة في الوقت الذي رسم فيه شخص ما حرف Z على الجدران،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وما إن نزل في كاليفورنيا حتى رسموا الحرف ذاته على خدّ ألكاثار. لم تكن مصادفة بسيطة. فزورو هذا لا يمكن أن يكون إلاّ دييغو. كان يصعب تصديق ذلك، لكنّها حجّة لجعله يدفع ثمن الإزعاجات التي سبّبها له. جاء على جواده بسرعة الموت، لأنّه فكّر أن صيده يمكن أن يكون قد هرب، لكنه وجد دييغو جالساً تحت عريشة يشرب عصيراً ويقرأ شعراً. أمر الرقيب غارثيّا باعتقاله، واستعدّ البدينُ المسكين الذي كان ما يزال معجباً بدييغو الإعجاب ذاته غير المشروط الذي كان يوليه إيّاه في طفولته، مكرهاً لإطاعته، لكنّ الأبَ مِندوثا تذرّع بأنّ المقنّع الذي كان يقولُ إنّه زورو لا يُشبه ولا حتى من بعيد دييغو دِ لابِغا. ساندته إيزابيل قائلةً: ولا حتى الغبيّ يمكن أن يخلط بين هذين الرجلين، فهي تعرفه كما تعرف أخاها، وقد عاشت معه خمس سنوات، كان فتى طيّباً، مسالماً، عاطفيّاً وسقيماً، ليس فيه من اللصّ شيء، فكيف من البطل.

ـ شكراً ـ قاطعها دييغو، مهاناً، لكنّه لاحظ أنّ عين صديقته التائهة كانت تدور مثل خذروف.

ـ زورو ساعد الهنود، لأنّهم أبرياء، وأنت تعرف هذا جيّداً مثلي، يا سيّد مونكادا. لم يسرق اللآلئ، أخذها فقط للبرهنة على مايجري في الشيطان ـ قال المُبشِّر.

ـ عن أيّة لآلئ تتكلّم؟ ـ قاطعه كارلوس ألكاثار، متوتّراً جدّاً، لأنّه حتى تلك اللحظة لم يكن هناك من أحد يذكرها، وهو يجهل كم كان القسّ يعرف عن احتيالاته.

اعترف الأبُ مِندوثا أنّ زورو سلّمه الكيس وكلّفه بالذهاب إلى محاكم المكسيك. أخفى رافائيل مونكادا تنهيدة ارتياح: كانت استعادة كنزه أسهل مما هو متصوَّر. هذا العجوز المضحِك لم يكن يشكِّلُ مشكلة، ويستطيع أن يمحوه من الخريطة بنفخة، فهناك أحداث مؤسفة تحدث في كلّ لحظة. شكره، تعلوه ملامح القلقِ، على شطارته في استعادة اللآلئ وحرصه على العناية بها، ثمّ طلب منه أن يُسلّمها

إليه فهو سيأخذ الأمر على عاتقه. إذا كان كارلوس ألكاثار، كرئيس للسجن، قد ارتكب خروقات، فهو سيتخذ بحقّه الإجراءات المناسبة، فليس هناك من داع لإزعاج أحد في المكسيك. اضطر القسّ للإذعان. لم يجروْ على اتهامه بالتواطؤ مع ألكاثار، لأنّ أيّة خطوة ناقصة ستُكلّفه أكثر ما كان يهمّه في هذا العالم: بعثته. فأحضر الجورب ووضعه على الطاولة.

- هذا مُلك إسبانيا، وقد أرسلت رسالة إلى رؤسائي وسيكون هناك تحقيق بهذا الخصوص - قال القس.

- رسالة؟ لكنّ السفينة لم تصل بعد... - تدخّل ألكاثار.

- لدي وسائل أخرى، أسرع وأضمن من السفينة.

- هل فيها جميع اللآلئ؟ - سأل مونكادا، منزعجاً.

- وكيف يمكنني أن أعرف؟ أنا لم اكن موجوداً عندما أُخرِجت. ولا أدري كم كان هناك أصلاً. وحده كارلوس يستطيع أن يجيب على هذا السؤال - ردّ المُبشّر.

زادت هذه الكلمات الشكوك التي يشعر بها مونكادا تجاه شريكه. فأخذ المُبشّر من ذراعه وحمله بعنف أمام الصليب الذي كان موجوداً فوقَ رفّ على الجدار.

- أقسِمْ أمام صليب ربّنا أنك لم ترَ لآلئ أخرى. إذا كذبتَ أدينت روحك بالجحيم - أمره.

ساد الغرفةَ صمت مشؤوم، جميعهم حبسوا أنفاسهم، فتجمّدَ حتى الهواء. أفلت الأبُ مِندوثا شاحباً بعنف من البراثن التي كانت تشلّه.

- كيف تجرؤ! - تمتم.

- أَقسِمْ! - ردّد الآخر.

تقدّم دييغو وإيزابيل كي يتدخّلا، لكنّ الأب مِندوثا أوقفهما بإيماءة، ووضع ركبته على الأرض، ويمناه على صدره وعيناه على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المسيح المنحوت من الخشب بأيدٍ هنديّة. كان يرتعش من الرهبة والغضبِ من العنف الذي أخضع له، لكنّه لم يكن يخاف من الذهاب للاستقرار في الجحيم، على الأقل لهذا السبب.

ـ أُقسم أمام الصليب أنّني لم أرَ لآلئ أخرى. ولتعاقب روحي إن كنتُ أكذب ـ قال بصوت ثابت.

وقفة طويلة لم يقل فيها أحد كلمة واحدة، والصوت الوحيد كان تنهيدة الارتياح التي أطلقها كارلوس ألكاثار، الذي لم تكن حياته تساوي سنتيماً واحداً إذا ما علم رافائيل مونكادا أنّه أبقى لنفسه أفضل ما في الغنيمة. افترض أنّ كيس الجلد كان في حوزة المُقنَّع، لكنّه لم يدرِ لماذا سلّم هذا بقيّتها للقسّ، إذا كان يستطيع أن يبقيها كلّها لنفسه. تكهّن دييغو بأفكاره فابتسم له، مُتحدّياً. كان على رافائيل مونكادا أن يقبل قَسَمَ الأب مِندوثا، لكنّه نكّر الجميع أنّه لا يعتبر القضية منتهية حتى يُعلّق المسؤول إلى المشنقة.

ـ يا غارثيّا، اعتقل دِ لابِغا! ـ كرّر رافائيل مونكادا.

جفّف البدين جبينه بكمّ بدلته واستعدّ لتنفيذ فِعلته مُكرهاً.

ـ آسف ـ تمتم، وهو يشير إلى جنديّين أن يأخذاه.

وقفت إيزابيل في وجه مونكادا، قائلة له إنّه لا توجد أدلّة ضدّ صديقها، لكنّه أبعدها بدفعة فظّة.

قضى دييغو الليلةَ محبوساً في إحدى غرفِ الخدمة القديمة في المزرعة التي وُلِد فيها. راح يتذكّر حتى الشخص الذي كان يَشغلُها يومَ كان يعيشُ هناك مع والديه، وهي هنديّة مكسيكيّة اسمها روبِرتا، نصف وجهها محروق بحادث قدر شكوكولا كانت تغليه. ترى ماذا عنها؟ ومع ذلك لم يكن يتذكّر أنّ تلك الغرف كانت شديدة البؤس، مكعبات بلا نوافذ، أرضها ترابية وجدرانها من اللبن غير المدهون وكانت مفروشة بدكّات من القشّ وكرسيّ وصندوق خشبيّ كبير في كلّ منها. فكّر، هكذا قضى بِرناردو طفولتَه، بينما كان هو

ينام على بعد أمتار قليلة في سرير من البرونز بستار من التفته لحمايته من العنكبوت في غرفة ممتلئة بالألعاب. كيف لم يلحظ ذلك وقتذاك؟ كانت الدار مقسومة بخيط غير مرئيّ يفصل مجال العائلة عن عالم الخدم المُعقّد. كان الأوّلُ فسيحاً وفاخراً مزخرفاً على الطراز الاستعماري. كان أعجوبة في التنظيم والهدوء والنظافة، تفوح منه رائحة باقات الزهر وتبغ والده. بينما يضجُ الآخر بالحياة: الثرثرة التي لا تنقطع، الحيوانات المنزلية، الشجارات والعمل. هذا الجانب من الدار كانت تفوح منه رائحة الفلفل الحارّ المسحوق والخبز الطريّ والثياب المنقوعة في ماء القلي والقمامة. كانت شرفات العائلة بزلَيْجِها الملون ونباتات الجهنّمية والنوافير جنّة برطوبتها، بينما فناءات الخدم يملؤها الغبار صيفاً والوحلُ شتاءً.

قضى دييغو ساعات لا نهاية لها على نضيدة الأرض، يتصبّب عرقَ أيّار، بلا نور طبيعيّ، ينقصه الهواء، وصدره يضطرم. لم يكن يستطيع أن يُقدِّر الوقتَ، لكنّه شعر أنّه بقي هناك عدّة أيّام. كان فمه جافّاً وخاف أن تكون خطّة رافائيل مونكادا أن يهزمه بالعطش والجوع. كان يُغْمِض عينيهِ بين برهة وأخرى ويُحاول أن ينام، لكنّ وضعَه كان غير مريح إطلاقاً. لم يكن هناك فسحة لأكثر من خطوتين، وراح يشعر بتشنّجٍ في عضلاته. تفحّص الغرفة شبراً فشبراً، باحثاً عن طريقة للخروج لكنه لم يعثر عليها، فالباب كان موصداً بعارضة حديدية من الخارج، لا يستطيع حتى غاليليو تِمبّستا نفسه أن يفتحه من الداخل. حاول أن يزيح عوارض السقف، لكنّها كانت مدعّمة، بدا واضحاً أن المكان يُستخدم كزنزانةً. بعد وقت طويل فُتِح بابُ قبره وظهر وجه غارثيّا المتورّد في العتبة. وقدّر دييغو على الرغم من الوهن الذي كان يشعر به أنّه يستطيع أن يُخيفَ الرقيب الطيّب بحدٍّ أدنى من العنف، مستخدماً الضغط على العنق، الذي علّمه إيّاه المُعلّم إسكالانتِ حين كان يُدرّبه على مصارعة أعضاء العدالة، لكنّه لم يكن يريد أن يُسبّب لصديقه القديم مشاكل مع مونكادا. ثمّ إنّه لا يستطيع أن يخرج بهذه الطريقة من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الزنزانة، لأنّه لا يستطيع أن يهرب من المزرعة؛ فقد كان من الأفضل له أن ينتظر. وضع البدينُ إبريقَ ماء وقصعةً صغيرة فيها فاصولياء وأرز على الأرض.

- كم الساعة، يا صديقي؟ - سأله دييغو، متظاهراً بالمزاج الحسن الذي كان بعيداً عن الشعور به.

أجابه غارثيّا بإيماءة من وجهه وحركات من أصابعه.

- أتقول إنّها التاسعة من صباحِ الثلاثاء؟ هذا يعني أنّني قضيتُ هنا ليلتين ونهاراً. آه كم نمت جيّداً! هل تعلم ما هي نوايا مونكادا؟

نفى غارثيّا برأسه.

- ماذا بك؟ هل عندك أوامر بألاّ تتكلّم؟ حسناً، لكن أحداً لم يقل لك ألا تُصغي إليّ، أليس صحيحاً؟

- هِمْ - وافق الآخر.

تمطّى دييغو، تثاءب، شرب الماء وتذوّق بنهمٍ الطعامَ الذي بدا له لذيذاً كما علّق قائلاً لغارثيّا، بينما كان يتحدّث عن الأزمنة الماضية: مغامرات الطفولة الرائعة، الشجاعة التي أظهرها غارثيّا دائماً حين واجه ألكاثار وأمسك بدبٍّ حيٍّ. لقد كان بحقّ محطَّ إعجاب أولاد المدرسة، هكذا ختم قوله. لكن الأمر لم يكن كذلك، كما كان يتذكّر الرقيب تلك المرحلة، إلا أن تلك الكلمات وقعت عليه مثل البلسم على الروح المقروحة.

- باسم صداقتنا، يا غارثيّا، عليك أن تُساعِدني للخروج من هنا - ختم دييغو.

- بودّي ذلك، لكنّني جنديّ والواجب قبل أيّ شيء - ردّ الآخر هامساً ونظر من فوق كتفه كي يتأكّد أنّه ما من أحد يسمعه.

- لن أطلب منك قط أن تخلّ بواجبك، أو أن ترتكب عملاً غير شرعيّ، يا غارثيّا، لكن لا أحد يستطيع أن يحمّلك المسؤولية إذا ما بقي البابُ غير موصد جيّداً.

لم يكن هناك وقت لمتابعة الحديث، فقد وصل جنديّ ليُعلم الرقيب أنّ السيّد مونكادا ينتظر السجين. سوّى سترته، وأبرز صدره وضرب كعباً بكعبٍ بطريقة عسكرية، لكنّه غمز دييغو. رفعا الموقوف من ذراعيه وقاداه إلى القاعة الرئيسيّة: يسندانه وهو لايكاد يقوى على الوقوف حتي استطاع أن يثبت على ساقيه المنمّلتين من عدم الحركة. تأكّد دييغو بحزنٍ مرّة أخرى من التغييرات، كان لمنزله مظهر ثكنة. أجلساه على أحد كراسي القاعة وربطوه من صدره إلى ظهره ومن رسغيه إلى ساقيه. انتبه إلى أنّ الرقيب كان يقوم بواجبه نصفَ قيام، فالربط لم يكن جيّداً وبقليل من الحيلة يستطيع أن يفلت، لكن كان هناك جنود في كلّ مكان. «أحتاج سيفاً» همس لغارثيّا في لحظة ابتعد فيها الجنديّ الآخر خطوتين عنه. كاد البدين يختنق رعباً أمام مثل ذلك الطلب، فدييغو كانت تفلت منه يدُه فكيف سيعطيه سلاحاً في مثل تلك الظروف؟ سيكلّفه عدّة أيّام في الأغلال وخدمته العسكرية. ربت على كتفه بحنان وذهب مطرقاً يجرجر قدميه بينما الحارس يقف في زاوية ليراقب الأسير.

بقي دييغو في الكرسيّ أكثر من ساعتين، استخدمهما كي يُخرج يديه بحذر من الحبال، لكنّه لم يكن باستطاعته أن يفكّ رسغيه دون أن يلفت انتباهَ الجنديّ، الخلاسيّ الجامد مثل تمثال أثتيكي. حاول أن يجذبه إليه متظاهراً بأنّه يختنق من السعال، ثمّ رجاه أن يعطيه سيجاراً، وكأسَ ماء، ومنديلاً، لكن ليس هناك من طريقة لجعله يقترب. كان جوابه الوحيد أنّه أعدّ سلاحه بسرعة وراح يراقبه بعينيه الحجريتين الصغيرتين، اللتين لا تكادان تظهران فوق وجنتيه البارزتين. خلص دييغو إلى أنّه إذا كانت تلك هي استراتيجية مونكادا كي يكسر عينَهُ ويلينّ إرادته، فهي تعطي نتائجها الحسنة.

أخيراً دخل رافائيل مونكادا عند منتصف المساء، طالباً العذر لأنّه أزعج شخصاً برقّة دييغو. فليس هناك ما هو أبعد عن نفسه من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أن يجعله يمرّ بلحظة سيئة، لكن ونظراً للظروف لم يكن باستطاعته أن يتصرّف بطريقة أخرى. هل كان دييغو يعرف كم قضى محبوساً في غرفة الخدم؟ تماماً الوقت ذاته الذي قضاه هو في غرفة توماس دِ رومِو السرّية، قبل أن تأتي خالته لنجدته. ورغم أنّه كان يعتبر نفسه مرحاً، إلاّ أنّ تلك المزحة بدت ثقيلة قليلاً. في جميع الأحوال، يشكره لأنّه حرَّره من خوليانا، فالزواج من امرأة أدنى مستوى منه كان ولا شكّ سيدمّر سيرته، كما حذّرته مرّات كثيرة خالته. لكنه في جميع الأحوال لم يكن هناك ليتكلّم عن خوليانا، فهذا فصل مغلق. كان يفترض أنّ دييغو ـ أم أنّ عليه أن يُناديه زورو؟ ـ يرغب بأن يعرف المصير الذي ينتظره. فهو مجرم من عيار والده، ألخِاندرو دِ لابِغا، وهذا العجين من هذا الطحين. سيلقون القبض على العجوز، هذا ما لا شكّ فيه، وسيجفّ في الزنزانة. وليس هناك ما يمتعه أكثر من شنق زورو بيديه، لكن ليس هذا دوره، أضاف. سيُرسله إلى إسبانيا، مصفداً بالأغلال وتحت حراسة صارمة، حيث يُحاكم في المكان ذاته الذي بدأ فيها حرفة الجريمة، وترك أدلّة كافية لإدانته. في حكومة فِرناندو السابع كان يُطبّق ثقل القانون بالقوّة المناسبة وليس كما في المستعمرات، حيث السلطة نكتة. وستُضاف إلى الجرائم المرتكبة في إسبانيا جرائم كاليفورنيا: فهو قد اقتحم سجن الشيطان، وأحدث حريقاً، ودمّر ممتلكات للمملكة، وجرح عسكرياً وتآمر لتهريب السجناء.

ـ أفهم أنّ الشخص المدعو زورو هو مرتكب هذه الأعمال. وأعتقد أيضاً أنّه سطا على بعض اللآلئ. أم أنّ سعادتك لا تفضّل الكلام عن هذا الموضوع؟ ـ ردّ دييغو.

ـ.زورو هو أنت، يا دِ لابِغا!

ـ بودّي لو أكونه، يبدو الرجل مذهلاً، لكنّ صحّتي الضعيفة لاتسمح لي بمثل هذه المغامرات. فأنا أعاني من الربو وآلام الرأس وخفقان القلب.

وضع رافائيل مونكادا أمام أنفه وثيقةً مكتوبة بخطّ يده، لعدم وجود كاتب بالعدل، وطلب منه أن يطبع عليها اسمه. احتجّ السجين بأنّ من التهوّر التوقيع على شيء لا يعرف مضمونه. فهو لا يستطيع قراءتها في تلك اللحظة لأنّه مصاب بقصر النظر، ونسي نظّارته وهذا اختلاف آخر عن زورو، الذي يُعزى له حسن التصويب بالسوط والخفّة بالسيف. وأضافَ: ما من أعمى يملك تلك المهارات.

ـ كفى! صاح مونكادا واربأ وجهه بصفعة.

كان دييغو ينتظر ردّاً عنيفاً، لكن أيضاً كان عليه أن يقوم بجهد هائل كي يضبط أعصابه ولا يقفز على مونكادا. لم تحن بعد فرصته. أبقى على يديه في الخلف، ممسكاً بالحبال بينما راح الدم النازف من أنفه وفمه يُلطّخ قميصه. دخل في تلك اللحظة الرقيب غارثيّا، الذي توقّف جامداً حين رأى رفيق طفولته في تلك الحالة، دون أن يدري مع من يقف. أخرجه صوتُ مونكادا الآمر من صعقته.

ـ لم أنادِك، يا غارثيّا!

ـ يا صاحب السعادة... دييغو دِ لابِغا بريء. قلت لكم إنّه لا يمكن أن يكون زورو! لقد شاهدنا الحقيقيّ للتو في الخارج... ـ تلعثم الرقيب.

ـ أي هراء تقول، يا رجل؟

ـ الحقيقة، يا صاحب السعادة، جميعنا رأيناه.

خرج مونكادا مثل شهاب، يتبعه الرقيب، لكنّ الحارس بقي في القاعة مسدّداً سلاحه على دييغو. ورأى مونكادا لأول مرّة صورة زورو المسرحية، مرتسمة بنقاء على خلفية السماء البنفسجيةُ فشلّته المفاجأة لثوانٍ.

ـ اتبعوه، يا بلهاء! ـ صرخ وهو يُخرج مسدّسه من غمده ويرمي دون تسديد.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

طار بعض الجنود بحثاً عن جيادهم وأطلق بعضهم نيران أسلحتهم، لكنّ الفارس راح يعدو مبتعداً. قفز الرقيبُ، الأكثر اهتماماً من أيِ شخص آخر بالكشف عن هويّة زورو، فوق جواده بخفّة غير متوقَّعة، لكزه بمهمازيه وانطلق يتبعه ستّة من رجاله. ضاعوا وهم يغدُون باتجاه الجنوب مجتازين هضاباً وغاباتٍ. ومع أنّ المقنّع كان يتفوّق عليهم بمعرفةِ الأرض، راحت المسافة بينه وبين المجموعة تتناقص. بعد نصف ساعة من العدوِ، حين بدأت الخيول تتصبّب زبداً كانت الشمس قد غابت والجنود على وشك أن يُدركوه، وصلوا إلى الجرف: صار زورو محصوراً بينهم وبين البحر.

في هذه الأثناء بدا لدييغو في قاعة المنزل أنّ باب المدخنة المموّه ينفتح. لا يمكن أن يكون غير بِرناردو، الذي تدبّر أمره بطريقة ما كي يعود إلى المزرعة. كان يجهل ما جرى في الخارج، لكنّه تصوَّر من خلال شتائم مونكادا والصياح وصوتِ الطلقات واضطرابِ الخيول، أنّ أخاه تمكّن من تشويش العدوّ. تظاهر كي يشغلَ الحارس بنوبةٍ جديدةٍ ورهيبةٍ من السعال، ثمّ اندفع وقلب الكرسيّ وبقي ملقىً على الأرض. وقف الرجل بجانبه وأمره أن يهدأ وإلا طيّر دماغه، لكنّ دييغو لاحظ أنّ نبرته كانت متردّدة، ربّما لم تكن تعليمات التمثال الأثنيكي تتضمّن قتله ولمح بطرف عينه أنّ شبحاً ينفصل عن المدخنة ويقترب. بدأ يسعل من جديد، وهو يهتزّ كما لو أنّه يختنق بينما الحارس يلكزه برأس سلاحه، لا يدري ما يفعل. أفلت دييغو يديه وناوله ضربة رهيبة على ساقيه، لكنّ الرجل بدا كأنّه قُدَّ من حجر صلب، لأنّه لم يتحرّك. وهنا شعر الحارس بسبطانة مسدّس في صدغه، ورأى مقنّعاً يبتسم له دون أن ينطق بكلمة.

ـ استسلم، أيّها الرجل الطيّب، قبل أن تفلت طلقة من زورو ـ نصحه دييغو من الأرض، بينما هو يفكّ بسرعة أربطة رسغيه.

نزع زورو الآخر سلاح الجنديّ وقذف بالبندقيّة إلى دييغو،

الذي التقطها بلمح البصر والتفت بسرعة نحو أشباح المدخنة، يودّعونه بغمزة تواطؤ. لم يمنح دييغو الحارسَ وقتاً كي يرى ما كان يحدث خلفه فطرحه أرضاً بضربةٍ جافة من قفا يده على عنقه. بقي الرجل دائخاً عدّة دقائق، استغلّها دييغو لربطه بالحبال ذاتها التي ربطوه بها، بعدها كسر النافذة رفساً، حذراً من ألا يبقى شظايا زجاج قاطعة على حوافّها، لأنّه فكّر أن يعود من هناك وانسلّ عبر البوّابة السريّة الصغيرة للكهف.

عندما عاد رافائيل مونكادا إلى القاعة وجد أنّ دييغو قد تبخّر وأن الرجل المُكلّف بحراسته يشغل مكانه في الكرسيّ، والنافذة مكسورة وكلّ ما كان الحارسُ المخبول يتذكّره هو طيفٌ أسود وبرد مسدَّسٍ جليديّ في صدغه. «بلهاء، بلهاء لا علاج لكم»، كان هذا ما استنتجه مونكادا. في هذه الأثناء كان نصف رجاله يخبّون خلف الشبح، بينما هرب سجينه رغماً عن أنفه. على الرغم من كلّ هذا الوضوح بقي مقتنعاً بأنّ زورو ودييغو دِ لابِغا شخص واحد.

لم يجد دييغو، كما كان يأملُ، بِرناردو في الكهف، لكنّه ترك له عدّة شموع كبيرة مشتعلة وقناعه وسيفه وجواده. كان الحصان رعد ينخر قلقاً، وينفض عرفه الوفير الأسود. «ستعتاد على هذا المكان، ياصديقي»، قال له دييغو وهو يُداعب رقبة الحيوان البرّاقة. كذلك وجد دنَّ خمرٍ وخبزاً وجبناً وعسلاً كي يتعافى من اللحظات السيّئة الماضية. يبدو أنّ أخاه لا تفوته أدنى التفاصيل. كذلك كان عليه أن يُعجب بمهارته بالسخرية من ملاحقة الجنود وبظهوره السحريّ لينقذه في اللحظة المناسبة. بأيّ أناقة صامتة تصرّف! لقد كان بِرناردو زورو رائعاً مثله، كلاهما سيكون قاهراً، ختم قائلاً لنفسه. لم تكن هناك ضرورة للإسراع بالخطوة التالية، فقد كان عليه أن ينتظر الليل المطبق، حين يهدأ الاضطراب في المنزل. قام

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بعد تناوله طعامه بعدّة تأملات للخروج من خدره واستلقى لينام على بُعد خطوات قليلة من رعد، بغبطة من قام بعمل صالح.

استيقظ بعد ساعات مرتاحاً وسعيداً فبدّل ثيابه، ووضع قناعه بل وتشجّع ووضع الشارب. «إنّني بحاجة إلى مرآة، ليس من السهل عليّ أن ألصق شعراً من دون أن أرى. لقد حسمتُ أمري، عليّ أن أترك شاربي ينمو. هذا الكهف بحاجة إلى بعض وسائل الراحة، التي ستُسَهِّل مغامراتنا، ألا ترى ذلك؟» علّق قائلاً لرعد. فرك يديه سعيداً بإمكانيات المستقبل الهائلة؛ ما دمتُ أملك الصحةَ والقوةَ فلن أَكلَّ أبداً. فكّر بلوليتا فأحسّ بدغدغة في معدته شبيهة بتلك التي كانت تُثيرها عنده خوليانا، لكنّه لم يربط بينهما. فافتتانه بلوليتا بدا طريّاً كما لو أنه الأوّل والوحيد في حياته. حذارِ! عليه ألا ينسى أنّها ابنة عمّه كارلوس ألكاثار وللسبب نفسه لا يمكن أن تكون خطيبته. خطيبة؟ ضحك من كلِّ قلبه: لن يتزوّج أبداً، فالثعالب حيوانات مستوحشة.

تأكّد من أنّ سيفه العادل كان ينزلق بسهولة في غمده، سوّى قبّعته واستعدّ للعمل. قاد رعداً إلى مخرج الكهف، الذي كان بِرناردو دقيقاً في تمويهه بشكل جيّد بالحجارة والحراج. ركبه واتجه إلى المزرعة. لم يَبغِ أن يجازف فينكشِف أمرُ ممرّ المدخنة السرّي. قدَّر أنّه نام عدّة ساعات، ولا بدّ أنّ الوقت تجاوز منتصف الليل، ومن المحتمل أن يكونوا جميعاً، باستثناء الحرّاس، نياماً. ترك رعداً طليق العنان تحت بعض الأشجار القريبة، واثقاً من أنّه لن يتحرّك حتى يناديه، فهو قد تعلّم جيّداً دروس برقِ الليل. ورغم أنّهم ضاعفوا الحراسة لم يجد صعوبة في الاقتراب من الدار والتجسّس من نافذة القاعة الوحيدة التي كان فيها ضوء. على الطاولة كان هناك شمعدان بثلاث شموع، يضيء جزءاً منها، بينما البقية كان في شبه العتمة. مرّر رجليه بحذر من النافذة المكسورة، دخل إلى الغرفة وتخفّى بين الأثاث المصفوف بمحاذاة الجدران، تقدّم من المدخنة،

حيث استطاع أن يتلطّى خلف الجذوع الكبيرة. في الطرف الآخر من الغرفة كان رافائيل مونكادا يتمشّى مدخّناً والرقيب غارثيّا واقفاً باستعداد ينظر إلى الأمام، يحاول أن يوضّح له ما جرى. كان قد لاحق زورو خبباً حتى الجرف، كما قال، لكنّه حين أوشك على الإمساك به، فضّل اللصّ أن يقفز إلي البحر على أن يستسلم. ولم يكن قد بقي إلاّ قليل من النور، ومن المحال الاقتراب من الحافّة خشية الانزلاق على الحجارة المزعزعة. أفرغوا، على الرغم من أنّهم لم يكونوا يرون قاع الهوّة، نيرانَ أسلحتهم، فزورو قُصِف عنقه على الصخور، وتلقى رشقة من الرصاص.

ـ أبله! ـ ردّدَ مونكادا للمرّة العاشرة ـ لقد تدبّر هذا الرجل أمره ليخدعك وخلال ذلك هرب دِ لابِغا.

تراقص سريعاً ارتياحٌ بريء على وجه غارثيّا المحمرّ، لكنّه اختفى في اللحظة، مصعوقاً بنظرة آمره الحادّة كالسكين.

ـ غداً تذهبُ إلى البعثة مع فصيلة من ثمانية رجال مُسلّحين. إذا كان دِ لابِغا هناك تعتقله، وإذا قاوم تقتله. وفي حال أنّه غير موجود تعتقل الأب مندوثا وإيزابيل دِ رومِو على الفور. سيكونان رهينتيّ حتى يُسلّم هذا اللصّ نفسه. هل فهمت؟

ـ لكن كيف سنفعل هذا بالأب مِندوثا! أُفكّر أنّ...

ـ لا تُفكّر، يا غارثيّا! عقلك لا يستوعب هذا. أطِعْ وأغلِقْ فمك.

ـ حاضِر، يا صاحب السعادة.

من مخبئه المظلم في المدخنة تساءل دييغو كيف تدبّر بِرناردو أمره كي يكون في مكانين في آن معاً. انتهى مونكادا من شتم غارثيّا وصرفه، صبّ لنفسِه بعدها كأساً من كونياك ألِخاندرو دِ لابِغا وجلس يتفكّر متهزهزاً في الكرسيّ وقدماه على الطاولة. كانت الأمور قد تعقّدت، فهناك عقد منفلتة، وعليه أن يُصفّي عدداً من الأشخاص وإلاّ فلن يستطيع أن يُحافِظ على سرّ اللآلئ. شرب الكحول

دون سرعة، تفحَّص الوثائق التي كتبها كي يُوقّعها دييغو، وأخيراً توجّهَ إلى خزانة ثقيلة وأخرج جورباً. خبت إحدى الشموع ونزل الشمع على الطاولة قبل أن يتمكّن من إحصاء اللآلئ مرّة أخرى. انتظر زورو برهة مدروسةً خرج بعدها من ملاذه بحذرِ قطّ. كان قد خطا عدة خطوات ملتصِقاً بالجدار حين التفتَ مونكادا وقد شعر بنفسه مُراقباً. وقعت عيناه على الرجل المتخشّب في العتمة، دون أن يراه، لكنّ الغريزة نبّهته إلى الخطر. أخذ السيف الرقيق بمقبضه الفضّي وشراباته الحريرية الحمراء، الذي كان يُعلّقه إلى الكرسيّ.

ـ من هناك؟ ـ سأل.

ـ زورو. أظنّ أن بيننا بعض الأمور العالقة ـ قال هذا وهو يتقدّم.

لم يمنحه مونكادا وقتاً كي يتابع، انقضَّ عليه بصرخة كراهية، مقرِّراً أن يخترقه من طرف إلى آخر. تفادى زورو السيفَ بخطوةِ مصارعِ ثيران، ولفّة دثار ظريفة وابتعد بخطوتين، وهو منحنٍ دائماً، ودائماً برشاقة، يمناه على مقبض السيف ويسراه على وركه وعينه يقظة وابتسامة تكشف أسنان كثيرة تحت شارب معوجّ ومع الحركة الثانية المتفاداة سحب سيفه من غمده دون استعجال، كما لو أنّ إصرار الآخر على قتله كان إزعاجاً.

ـ شيء سيّء أن تقاتل وأنت في حالة حنق ـ تحدّاه.

ردَّ ثلاث ضرباتٍ وطعنةً بقفا السيف دون عناء، وتراجع كي يجعل عدوَّه يثق بنفسه، وبالفعل عاد هذا وانقضَّ عليه دون تردّد. اعتلى زورو الطاولةَ بقفزة واحدة ودافع عن نفسه من فوقها، يكادُ يرقصُ بين طعنات مونكادا العميقة، التي كان يمرُّ بعضها بين ساقيه ويتفادى بعضها الآخر قافزاً أو موقفاً إيّاها بقوّة كانت تجعل الحديدَ يقدحُ ناراً. نزل عن الطاولة وابتعد قافزاً فوق الكراسي، يلاحقه عن قرب مونكادا وهو في كلّ مرّة أكثر حنقاً. كان يُثيره

قائلاً له: «لا تتعب نفسك، فهذا يُضرّ بالقلب». كان زورو يختفي برهة في عتمة الزوايا، التي لا يصلها ضوء الشمعتين الواهن، لكنّه وبدل أن يستغلّ تفوّقه كي يُهاجم غدراً، راح يظهر في جانب وآخر، مستدعياً خصمه بالصفير. كان مونكادا يسيطر جيّداً على سيفه ولو كان في معركة رياضية لأجْهَدَ أيّ خصم بالتأكيد، لكنّ حقداً أعمىً كان يُفقده بصيرته. لم يكن يستطيع أن يتحمّل هذا المُتهوِّرَ، الذي يتحدّى سلطته، ويخرق النظام والقانون. عليه أن يقتله قبل أن يحطِّم أكثر ما كان يُقدِّره: الامتيازات التي هي حقّ له بالولادة.

استمرّت المبارزةُ، واحد يهاجم بغضب يائس والآخر يتفاداه بخفّة ساخرة، وحين أصبح مونكادا جاهزاً لطعن زورو على الجدار، راح هذا يتدحرج على الأرض وينتصب بوثبةٍ بهلوان على بُعد ذراعين. أدرك مونكادا أخيراً أنّه لا يكسب، بل يخسر فشرع يطلق أصواتاً منادياً رجاله. عندها أنهى زورو لعبه. وبثلاث قفزات طويلة أدرك البابَ وأدار المفتاح مرّتين قافِلاً إيّاه بيدٍ، ومُبقياً على عدوّه على الحدّ بيده الأخرى. ثمّ نقل السيفَ على الفور إلى اليسرى، الحيلة التي كانت تربك الخصم دائماً، على الأقلّ لبضع ثوان. قفز من جديد إلى الطاولة وتعلّق من هناك بثريا السقف الحديدية، الموجودة هناك منذ بناء المنزل وتأرجح، ساقطاً خلف مونكادا وسط همرةٍ من مئة وخمسين شمعة مغبرّة فوجد مونكادا نفسه أعزل ورأس سيف آخر في نقرته قبل أن ينتبه إلى ما حدث. دامت المناورة ثوان قليلة، لكن ستّة من الجنود كانوا قد أطاحوا بالباب بكعب بنادقهم وأيديهم واقتحموا القاعة ببنادقهم الجاهزة. (على الأقل هذا ما رواه زورو في عدّة مناسبات، وبما أنّه ما من أحدٍ كذّبه، عليّ أن أُصدِّقَه، رغم أنّه يميل إلى المبالغة بمآثره. اعذروني على هذه المقاطعة، ولنعد إلى القاعة). كان يقول إنّ الجنود دخلوا جمعاً يرأسهم الرقيب غارثيا، الذي خرج للتو من فراشه وكان في سرواله الداخليّ، لكن بالقبّعة المدخلة في الرأس فوق الشعر المدهن. داس الرجال على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الشموع فتدحرج عدد منهم على الأرض. وأفلتت طلقة من أحدهم مرّت ملامسةً رأسَ رافائيل مونكادا وأصابت لوحة المدخنة، ثاقبة عيناً من عيني الملكة إيزابيل الكاثوليكية.

ـ انتبهوا، أيّها الحمقى! ـ زمجر مونكادا.

ـ اسمعوا كلام زعيمكم، يا أصدقائي! ـ نصحهم زورو بلطف.

لم يستطع الرقيب غارثيّا أن يصدّق ما كان يراه. كان سيراهن على روحه أنّ زورو يرقد جاثياً على الصخور في أسفلِ الجرف، بينما ها هو ذا هنا منبعثاً، مثل لاثارو، يخز نقرة صاحب السعادة. كان الوضع في غاية الخطورة. لماذا إذن كان يشعر بخفق أجنحة فراشاتٍ لطيف في كرشه النهم؟ أشار إلى رجاله بأن يتراجعوا، تلك المهمّة غير السهلة لأنّهم كانوا يتزحلقون على الشموع، وما إن خرجوا حتى أغلق الباب وبقي في الداخل.

ـ من فضلك، البندقية والسيف، أيّها الرقيب ـ طلب منه زورو بنبرة الصداقة ذاتها.

نزع غارثيّا أسلحته بسرعة مريبة وانتصب في الباب مفتوحَ الساقين ومتشابكَ الذراعين فوق صدره، مُدْهِشاً على الرغم من وجوده بالسروال الداخلي. كان عليه أن يُقرِّرَ ما إذا كان سيسهر على سلامةِ رئيسه الجسدية أم سيستعد ليستمتع بالمشهد.

أمر زورو رافائيل مونكادا أن يجلس أمام الطاولة ويقرأ بصوت عالٍ الوثيقةَ. كان اعترافاً بأنّه حرّض الهنود على التمرّد ضدّ الملك، من أجل إعلان استقلال كاليفورنيا. كان ثمن هذه الخيانة بالنسبة لمرتكبها الموت وضياع أملاكه وشرفه. كانت الورقة بيضاء ولا ينقصها غير توقيع المذنب. يبدو أنّ ألخاندرو دِ لابِغا رفض توقيعها ولذلك كان إصراره على أن يُوقِّعها ابنه.

ـ فكرة جيدة، يا مونكادا. كما ترى وفوق الفراغ عند أسفل الصفحة. خذْ الريشةَ واكتب ما سأمليه عليك فيما يلي ـ أمره زورو.

وجد رافائيل مونكادا نفسه مُضطرّاً لأن يُضيف تجارة اللآلئ، إضافة إلى جريمة استعباد الهنود.

ـ وقِّع.

ـ لن أوقّع هذا أبداً!

ـ ولماذا لا؟ فهو مكتوب بخطك وهي الحقيقة المقدّسة. وقِّع! ـ أمره المُقنَّع.

ترك رافائيل مونكادا الريشة على الطاولة وقام بحركة من سينهض، لكنّ الثعلب رسم بثلاث حركات سريعة من سيفه حرف Z على رقبته تحت أذنه اليسرى، فأفلتت من صدر مونكادا صرخة ألم وغضب. حمل يده إلى الجرح وسحبها مدماة. كان رأس السيف يستند إلى ودجه بينما صوت عدّوه الثابت يقول له إنّه سيعدّ ثلاثاً، فإذا لم يضع اسمه وخاتمه سيقتله بأعظم استمتاع. واحد... اثنانَ... و... وضع مونكادا توقيعه في أسفل الصفحة. ثمّ أذاب شمعاً لكراً على لهب الشمعة وترك عدّة قطرات تسقط على الورقة، وطبع بخاتم إصبعه خاتمَ عائلته. انتظر زورو حتى نشف الحبر وجفّ الشمع اللكر، ثمّ نادى غارثيا كي يوقِّع كشاهدٍ. كتب البدين اسمه ببطء مؤلم، ثمّ لفّ الوثيقةَ وناولها دون أن يستطيع إخفاء ابتسامة رضا، للمُقنَّع، الذي خبّأها في صدره.

ـ حسناً، يا مونكادا. ستأخذ السفينة خلال يومين وتخرج من هنا للأبد. سأحتفظ بهذه الاعترافات كذكرى طيّبة وإذا ما عدتَ إلى هذه النواحي سأضع لها تاريخاً وسأقدّمها للمحاكم، وإن لم تعد فلن يراها أحد. وحدنا أنا والرقيب نعرف بوجودها.

ـ لا تُدخلني في هذا، من فضلك، أيّها السيّد زورو ـ تلعثم غارثيا، مذعوراً.

ـ بالنسبة إلى اللآلئ، لا تنشغل، لأنّني سآخذ المسألة على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عاتقي. وحين تسألُ السلطات عنها سيقول الرقيب غارثيّا الحقيقةَ، لقد أخذها زورو.

أخذ الجوربَ وتوجّه إلى النافذة وأصدر صفرة حادة. بعد لحظات سُمعت حوافرُ رعد في الفناء، حيّا بإيماءة وقفز إلى الخارج. ركض رافائيل مونكادا والرقيب غارثيّا خلفه، منادين على الجنود. رأوا على خلفية البدر طيفَ المُقنّع الأسود الغامض على جواده الرائع.

- إلى اللقاء، أيّها السادة! - ودّعهم زورو، غير آبه بالرصاصات التي راحت تلامسه.

بعد يومين ركب رافائيل مونكادا السفينة *سانتا لوثيّا* ومعه كميّة كبيرة من الأمتعة والخدم الذين جاء بهم معه من إسبانيا لخدمته الشخصيّة. رافقه دييغو وإيزابيل والأب مِندوثا إلى الشاطئ، من ناحية كي يتأكّدوا من ذهابه ومن ناحية أخرى كي يستمتعوا برؤية وجهه الممتقع غضباً. سأله دييغو بنبرة بريئة لماذا يذهب فجأة، ولماذا يضع ضماداً على عنقه. صورة هذا الشاب حسنِ الهندام، الذي كان يمتص أقراص يانسون لوجع الرأس ويستخدم منديلاً مخرّماً، لا تنطبق أبداً على صورة زورو، لكنّه بقي متمسّكاً بالشكّ بأنّهما الرجل نفسه. كان آخر ما قاله له وهو يركب السفينة إنّه لن يرتاح يوماً واحداً حتى يكشف عن قناع زورو وينتقم منه.

في تلك الليلة ذاتها التقى دييغو وبِرناردو في الكهف. لم يكونا قد التقيا منذ ظهور بِرناردو المناسب في المزرعة لإنقاذ زورو دخلا عبر مدخنة المنزل، الذي استعاده دييغو وبدؤوا بإصلاحه من تمادي العسكر فيه، وهو يفكّر أن يعيد ألخاندرو دِ لابِغا ليشغله ما إن يُصبح جاهزاً. في هذه الأثناء كان ألخاندرو دِ لابِغا يتعافى برعاية تويبّورنيا والبومة البيضاء، بينما يستوضِح ابنه عن وضعه القانوني، فبعد خروج رافائيل مونكادا من اللوحة لن يكون من

الصعب التوصل إلى أن يرفع الحاكم الحجز عنه. كان الشابّان يستعدّان لمهمّة تحويل الكهوف إلى جحر للثعلب.

أراد دييغو أن يعرف ماذا فعل بِرناردو كي يمثل في المزرعة، ويخبّ برهة طويلة يلاحِقه الجنود، ويقفز في الفراغ من فوق الجرف ويظهر في الوقت ذاته في بوّابة المدخنة في قاعة المنزل. كان عليه أن يعيد السؤالَ، لأنّ بِرناردو لم يفهم جيّداً عمّا كان يتكلّم. لم يكن في المنزل قط، أكّد له بالإيماء. لا بدّ أنّ دييغو قد حلم بذلك المشهد. لقد قفز بالجواد في الفراغ لأنّه كان يعرف المنطقة جيّداً ويعرف تماماً أين يسقط. كان ليلاً مُطبقاً، وضَح، لكنّ القمر طلع وأضاء الماءَ واستطاع أن يصل إلى الشاطئ دون صعوبة. وحين أصبح على اليابسة أدرك أنّه لا يستطيع أن يطالب جواده المنهك بأكثر مما فعله فأطلق سراحه. اضطرّ أن يسير عدّة ساعات كي يصل فجراً إلى بعثة سان غابرييل. وكان قد ترك قبل ذلك بكثير رعداً في الكهف، كي يجده دييغو، لأنّه كان واثقاً من أنّه سيتدبّر أمره كي يهرب ما إن يلهي خاطفيه.

ـ أقول لك إنّ زورو قد جاء إلى المزرعة لمساعدتي. إذا لم تكن أنتَ، فمن هو؟ لقد رأيتك بأمّ عيني.

عندئذٍ أطلق بِرناردو صفرة وخرج من العتمة زورو بزيّه الزاهي، مغطّى كلّه بالسواد بقبّعة وقناع وشارب ودثار منشور على كتفه ويده اليسرى على مقبض السيف. لم يكن ينقص البطل شيء، بل وفوق ذلك كان يحمل السوط ملفوفاً حول خصره. كان هناك بكامل جسده تضيئه عشرات شموع الشحم وزوج من المشاعل، شامخاً، أنيقاً، لا يُخطَأ به.

بقي دييغو مصعوقاً وبِرناردو وزورو يكتمان الضحكة، يستمتعان باللحظة. بقي الأمر مجهولاً أقلّ مما أراده هذان، لأنّ دييغو انتبه إلى أنّ عينيّ المُقنّع حولاوان.

- إيزابيل! من المحال أن يكون أحداً غيرك! - صاح مقهقهاً.

كانت الفتاة قد تبعته، حين ذهب مع بِرناردو في الليلة الأولى التي وصلوا فيها إلى كاليفورنيا. تجسّست عليهما حين أعطى دييغو أخاه البدلة السوداء وخطّطا لوجود زوروين بدل زورو واحد وعندها خطر لها أنّ من الأفضل أن يكونوا ثلاثة. لقد كلّفها كثيراً الحصولُ على تواطؤ بِرناردو، الذي كان يسمح لها بكلّ شيء. وخاطت بمساعدة نوريا قطعة التفته السوداء، هديّة لافّيت والقناع.

تذرّع دييغو بأنّ هذا عمل رجال، لكنّها نكّرته أنّها أنقذته من بين يديّ مونكادا.

- نحتاج إلى أكثر من رجل عدلٍ، لأنّ في هذا العالم شرّ كثير، ياديبغو. أنت ستكون زورو وبِرناردو وأنا سنساعدك - قرّرت إيزابيل.

لم يكن أمامهما غير قبولها في العصابة، لأنّها بكلمة أخيرة هدّدت بالكشف عن هويّة زورو إذا ما لفظاها.

وضع الأخوان قناعيهما وشكّل الزوروات الثلاثة دائرة في استدارة الهنود السحرية التي رسماها بالحجارة في طفولتهما. وأحدثوا بسكين بِرناردو جرحاً في اليد اليسرى. «من أجل العدالة!» في سبيل العدالة!» هتف دييغو وإيزابيل بصوت واحد وانضمّ بِرناردو راسماً الرمز المناسب بلغة إشاراته. في تلك اللحظة، ودم الأصدقاء المختلط يقطر في وسط الدائرة اعتقدوا أنّ نوراً وهّاجاً انبثق من أعماق الأرض، ورقص في الهواء لعدّة ثوانٍ. تلك كانت علامة الأُكاهو، الذي وعدت به الجدّة البومة البيضاء.

خاتمة قصيرة ونقطة أخيرة

كاليفورنيا العليا 1840

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لا شكّ أنّ تكونوا قد تكهّنتم إلاّ إذا كنتم قرّاءً ساهين جدّاً بأنّ كاتبة هذه القصّة هي أنا، إيزابيل دِ رومِو. أكتبُ بعد ثلاثين سنة من تعرّفي على دييغو دِ لابِغا في منزل والدي، عام 1810، ومنذ ذلك الوقت حدثت أمور كثيرة. على الرغم من مرور الزمن، فأنا لا أخاف أن أقع في عدم دقّة خطير، لأنّني بقيتُ على امتداد حياتي أُسجّل ملاحظاتي، وإذا ما خانتني الذاكرةُ أستشير بِرناردو. وجدتُ نفسي في الأحداث التي كان فيها حاضراً مُجبَرةً على أن أكتبَ ببعض الصرامة، لأنّه لا يسمح لي بتفسير الأحداث على طريقتي. في ما عدا ذلك كنتُ أكثر حرّية. يُخرجني صديقي أحياناً عن صوابي. يقولون إنّ السنين تُكْسِبُ الناسَ مرونةً، لكن ليست هذه حالته، فعمره خمس وأربعون سنة ولم يتخلّص من تصلّبه. عبثاً حاولت أن أُوَضّح له أنّه لا توجد حقائق مُطلقة، فكلّ شيء يمرّ بمصفاة الرقيب. الذاكرةُ هشّة ومزاجيّة، وكلّ واحد يتنكّر وينسى ما يناسبه. الماضي دفتر بصفحاتٍ كثيرة، نُسجّل فيه الحياة بحبر يتبدّل حسب حالتنا النفسية. في حالتي، يُشبِه دفتري خرائط القبطان سانتياغو دِ ليون الخيالية، ويستحقّ أن يدخل في موسوعة الرغبات، الرواية الكاملة. بالنسبة إلى بِرناردو الدفتر شيء ثقيل. أخيراً، على الأقل أفاده هذا في تربية عددٍ من الأولاد وإدارة مزرعة دِ لابِغا بمعيار جيّد. لقد ضاعف ثروتَه وثروة دييغو، الذي ما زال مشغولاً بإحلال العدالة، لأنّه من ناحية طيِّب القلب، ومن أخرى لأنه يحب أن يرتدي ملابس

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

زورو ويمرُ بمغامرات الدثار والسيف. لا أنكر المسدّسات لأنّه سرعان ما تخلّى عن استخدامها: فهو يعتبر الأسلحة النارية لا تليقُ برجلٍ شجاع، كما أنّها غير دقيقة. لا يحتاجُ كي يُقاتل إلاّ إلى العادل، سيفِهِ الذي يحبّه أكثر من خطيبته. لم يعد في عمر يسمح له بتلك الصبينات، لكن يبدو أنّ صديقي لن يركن للهدوء أبداً.

أعتقد أنّكم ترغبون بالإحاطة بشخصياتٍ أخرى من هذه القصّة، إذ لا أحد يحبّ أن يبقى عنده إشارات استفهام بعد أن يكون قد قرأ صفحات كثيرة، أليس صحيحاً؟ لا شيء يُزْعِجُ مثل نهايةٍ خيوطها سائبة، هذه النزعة الحديثة التي تترك الكتب من منتصفها. نوريا، رأسها أبيض، وصارت بحجم قزم وتتنفّس بصوت عالٍ، مثل الأسود البحرية، لكنّها سليمة. لا تُفكّر بأنها ستموت، وتقول إنّ علينا أن نقتلها ضرباً بالعصي. منذ وقت قصير كان علينا أن نواري تويبورنيا التراب والتي قامت بيني وبينها صداقة رائعة. لم تعد لتعيش بين البيض، بل بقيت مع قبيلتها، لكنّها كانت تزورُ أحياناً زوجَها في مزرعته. كانا صديقين صالحين. وقبل تسع سنوات دفنّا ألِخاندرو دِ لابِغا والأب مِندوثا، اللذين ماتا أثناء وباء الأنفلونزا. لم تتحسّن قط صحّة ألِخاندرو تماماً بعد تجربة سجن الشيطان، لكنّه بقي حتى آخر يومٍ في حياته يدير مزرعته على الجواد. كان بطريركاً حقيقيّاً، لمْ يبق رجال مثله.

وزّع بريدُ الهنود خبرَ أنّ الأب مِندوثا كان يموت، فوصلت قبائل كاملة لوداعه. جاؤوا من كاليفورنيا العليا والسفلى، من أريزونا ومن كولورادو، تشوماس وشوشون وغيرهما كثير. رقصوا ليالٍ ونهارات، مرتلين أناشيد جنائزيّة، ووضعوا قبل أنْ يذهبوا على قبره هدايا، أصدافاً وريشاً وعظاماً. كان أكبرهم سنّاً يُردّدون أسطورة اللآلئ، وكيف عثر عليها المبَشِّرُ على الشاطئ، وقد جاءت بها الدلافين من أعماق البحر لنجدة الهنود.

أما عن خوليانا ولافّيت، فتستطيعون أن تلموا بأخبارهما

بوسائل أخرى، ذلك أنّ صفحاتي هذه ما عادت تتسع للمزيد. لقد كتبت الصحافة عن القرصان، على الرغم من أنّ مصيره حالياً لغزٌ. اختفى بعد أن جرف الأمريكيون، الذين دافع هو نفسه عنهم إمبراطوريّته في غراند إيزل. فقط أستطيع أن أقول لكم إنّ خوليانا، التي صارت أمّاً كبيرة وقويّة، كانت من الأصالة بحيث بقيت عاشقة لزوجها. وجان لافيت بدَّل اسمه، اشترى مزرعة في تكساس ويستريح كرجل محترم، على الرغم من أنّه سيبقى بعون الله دائماً لصّاً، عنده ثمانية أولاد ولا أذكر عدد الأحفاد.

أمّا عن رافائيل مونكادا فأُفَضِّل ألا أتكلّم عنه، فهذا الوغد لن يتركنا بسلام أبداً، لكنّ كارلوس ألكاثار صفّوه رمياً بالرصاص في إحدى حانات سان دييغو، بعد تدخّل زورو الأوّل. لم يعثروا على الفاعلين، لكن قيل إنّهم كانوا قتلة مأجورين. من استأجرهم؟ بودّي أن أقول لكم إنّه مونكادا، حين علم أنّ شريكه خدعه بموضوع اللآلئ، لكن سيكون ذلك حيلة أدبية لتدوير القصّة، لأنّ مونكادا كان في طريق عودته إلى إسبانيا حين درزوا ألكاثار بالرصاص. وقد ترك موتُه، المُستحق تماماً، بالمناسبة، الطريقَ مفتوحاً أمام دييغو دِ لابِغا كي يُغازل لوليتا، التي يبدو أنّه اعترف لها بهويّة زورو قبل أن تقبل به. وبقيا متزوّجين سنتين تقريباً، لأنّ رقبتها انقصفت حين سقطت عن الجواد. حظّ سيّء. بعد سنوات تزوّج دييغو من شابّة أخرى، اسمها إسبِرانثا، ماتت بدورها ميتة مأساوية، لكنّ المجال لا يتسع هنا لسرد قصّتها.

لو رأيتموني، يا أصدقائي، لعرفتموني، ذلك أنّني لم أتغيّر كثيراً. فالنساء الجميلات يصبحن قبيحاتٍ مع العمر، بينما مثيلاتي يشخن لا أكثر، بل وبعضهنّ يتحسّن مظهرهنّ. أنا تنعّمت مع السنين. شعري ملطخ بالرمادي ولم يسقط، كما سقط شعر زورو، فهو ما زال يكفي لرأسين. عندي بعض التجاعيد، تمنحني شخصية خاصة، وأسناني ما زالت كاملة تقريباً، وما زلت قويّة، قوية العظم وحولاء.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لا أرى نفسي سيّئة بالنسبة لعمري الذي عشته جيّداً. لكنّني، وهذا صحيح أيضاً، أتباهى ببعض ندب السيوف والرصاص التي أصابتني بينما كنتُ أساعد زورو في مهمات عدالته.

لا شكّ أنّكم ستسألونني ما إذا كنتُ ما أزالُ أعشقه. وسيكون عليّ أن أعترف وأقول نعم، لكنّني لا أتعذّب بسبب ذلك. أتذكّره حين رأيته أوّل مرّة، كان في الخامسة عشرة من عمره وأنا في الحادية عشرة، كنّا تافهين. أنا أرتدي فستاناً أصفر يُضفي عليّ مظهر كناريٍّ مُبلّل. آنذاك عشقته وكان حبّي الوحيد، باستثناء مرحلة قصيرة هوِستُ فيها بالقرصان جان لافيت، لكنّ أختي انتزعته منّي، كما تعلمون. هذا لا يعني أنّني عذراء، إذ لم ينقصني عشاق طيّبو الطويّة، بعضهم أفضل من بعض، لكنّ ما من أحدٍ منهم يبقى في الذاكرة. من حسن الحظّ أنّني لم أعشق زورو بجنون، كما يحدث لمُعظَم النساء حين كنَّ يتعرَّفن عليه، فقد حافظتُ على برودة رأسي دائماً تجاهه. انتبهت في الوقت المناسب إلى أنّ بطلنا لم يكن قادراً إلاّ على حبّ من لا يتجاوبن معه، فقرَّرت أن أكون واحدة منهنّ. حاول الزواج منّي في كلّ مرّة فشل فيها مع إحدى خطيباته أو ترمّل ـ وهذا ما حدث مرّتين أو أكثر ـ ورفضتُ. ربّما لهذا السبب يحلم بي كلّما أُتخم بالأكل. لو تزوّج منّي لشعر على الفور أنّه تورَّطَ، ولكان عليَّ أن أموت كي أحرِّره، كما فعلت زوجتاه. أفضّل أن أنتظر شيخوختنا بصبرٍ بدويٍّ. أعلم أنّنا سنعيش معاً حين يصبح شيخاً مقوّس الساقين، وخرفاً، حين يحلّ محلّه ثعالب آخرون وفي الحال غير المحتملة لأن تفتح له سيّدة ما شرفتها ولا يستطيع هو أن يتسلّقها. عندها سأنتقم من العذابات التي تسبّب لي بها زورو.

وبهذا أختم روايتي، قرّائيَ الأعزّاء. وعدتكم أن أحكي لكم أصول الأسطورة ووفّيتُ، والآن صار بمقدوري أن أتفرّغ لأموري الخاصّة. فزورو أبشمني وأعتقد أنّه آن الأوان كي أضع النقطة الأخيرة.

الفهرس

القسم الأوّل: كاليفورنيا 1790 ـ 1810 5
القسم الثاني: برشلونة 1810 ـ 1812 103
القسم الثالث: برشلونة 1812 ـ 1814 185
القسم الرابع: إسبانيا نهاية عام 1814 بداية عام 1815 265
القسم الخامس: كاليفورنيا العليا 1815 355
خاتمة قصيرة ونقطة أخيرة: كاليفورنيا العليا 1840 425

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

Zorro

الترجمة الكاملة للنص الأصلي

Isabel Allende

مغامر، متولع، مقدام ولعوب.. إنها أسطورة الثعلب "زورو"..
وهي قصة حياة رائعة في أزمنة استثنائية، مكتوبة بريشة حادة وسخرية ناعمة: إنها حياة دييجو دلابجا وقد نزع قناعه.. حكاية تبدأ في العام 1970، في أراضي كاليفورنيا العليا، حين يعشق نقيب أسباني شاب فتاة هندية متمردة الروح..
"زورو" هي حكاية شخصيات من لحم ودم، لها فضائلها ورذائلها، حساسيتها واندفاعها، تجرفنا بمغامراتها في أزمنة مهتزة..
تكشف إيزابيل ألليندي لنا بمهارتها المعتادة حياة البعثات التبشيرية البسيطة في كاليفورنيا في بداية القرن التاسع عشر، واضطرابات شوارع برشلونة المختلة من قبل القوات البونابرتية في أوج حرب الاستقلال، وروحانية قانون الشرف التي لا حدود لها وتناقضات النفس البشرية.. إنها قصة دييجو دلابجا وكيف تحول إلى زورو الأسطوري، وأخيرا كيف صار باستطاعته أن يكشف عن هويته، التي أبقى عليها سنوات طويلة سرية وغامضة..

كنوز العالم لا تساوي كتاب.. ونحن الألف كتاب

1000 BOOKS